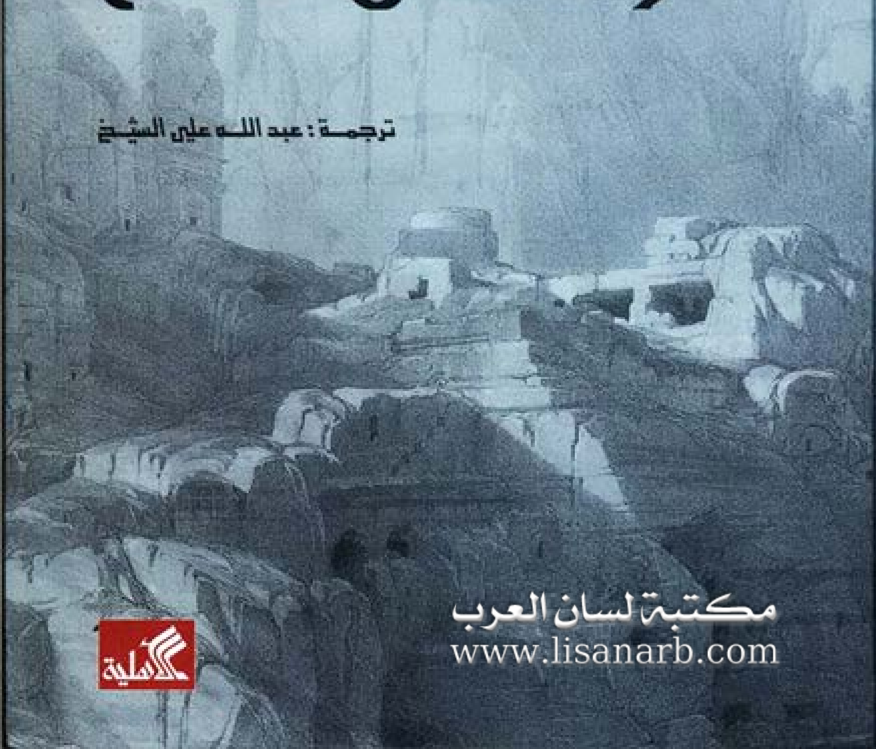
هاري سنت جون (عبد الله) فيلبي

# أرض الأنبياء ومدائن صالح

ترجمة: عبد الله علي الشيخ





كلمة

# ارض الانبياء ومدائن صالح

الأهليّة للنشر والتوزيع

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن
e - mail : alahlia@nets.jo

أرض الأنبياء ومدائن صالح
هاري سنت جون فيلبي (عبدالله فيلبي)

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف : زهير أبو شايب / الأردن

الصفّ الضوئي :
ياقوت للخدمات المطبعيّة ، عمّان ، هاتف ٤٦٥٧٨٦٩

هاري سنت جون (عبد الله) فيلبي

# أرض الأنبياء ومدائن صالح

ترجمة: عبد الله علي الشيخ

الأهلية

# قائمة المحتويات

# تمهيد

■ ظللت طيلة الأيام القليلة التي أمضيتها في المدينة المنورة منهمكاً إلى أبعد الحدود، في الاستعدادات الكثيرة للرحلة التي كنت أزمع القيام بها. وهي الاستعدادات التي يتحتم على كل زائر لمدينة الرسول أن يجريها. ولم يكن ذلك السيد، الذي منحه الأمير امتياز مرافقتي إلى المدينة المقدسة، ليسمح لي بأن أتجاهل مهمته، فقد تم تعيينه لمرافقتي والعمل كحارس لي. وكنت قد عرفته أثناء زياراتي السابقة إلى المدينة المنورة.

كان الأمير يشيّعني إلى باب قصره عندما جاء ذلك الرجل يشتكي.. أما فحوى شكواه فهو أنني لا أهتم كثيراً بتأدية واجباتي الدينية. وحينذاك لم يسع الأمير إلا أن يقرّ بأنني قد خرقت بالفعل قوانين البلاد. غير أن الأمر سوّي بسهولة، فقد اكتشفت أن كل ما يريده الرجل هو النقود، وأعطيته بعض النقود، فلم يلبث أن باركني بعد ذلك وتمنى لو تتاح له الفرصة لأن يكون دليلي في المرة القادمة، كي يرشدني إلى مختلف الأماكن التاريخية في البلاد. وقال إن ذلك يسعده ويثلج فؤاده!!

وبعد أن غادرنا المدينة من جهة "بوابة دمشق" وعبرنا خرائب مدينة يثرب، العاصمة الأصلية لليهود، مررنا بمنطقة غنية بأشجار النخيل، تعرف باسم "العيون" Uyun. وتقع هذه البقعة في أقصى شمال منطقة المدينة.

كان جبل "أُحُد" التاريخي، (ذلك الجبل الذي يقوم على إحدى قممه الشاهقة أحد الأضرحة الكثيرة لهارون Haron)، يمتد إلى يميننا. وكانت دوننا قلعة تركية مهجورة كانت، فيما مضى، تستخدم في المراقبة، ويستطيع الناظر من فوقها أن يرى منظراً بديعاً للمنطقة يحيط به من الأمام ومن الخلف.

إن دليلي يدعى عياض Aiyadh، وهو من بني رشيد (من قبيلة هتيم). وقد اصطحبته وأنا في طريقي لزيارة تلك البقعة التي وصلنا إليها عبر طريق شقه الأتراك للعربات. ويحاذي هذا الطريق جبل أُحد ويسير مع سفحه إلى وادي (نجومي) Nujumi، الذي يشكل في الواقع أول الوادي العظيم المعروف باسم "وادي الحمض" al-Hemdh. ويمتد "الحمض" حتى يدخل في "عيون حمزة" التي تعتبر استمراراً لوادي "العقيق"، ذلك الوادي الذي يبدأ أوله في حضيض جبال الطائف إلى الجنوب.

وفي الوقت الذي اضطجع فيه بقية مرافقيّ في مقاعدهم بالسيارات، توجهت مع عياض إلى ناحية القلعة، حيث قمت أثناء ذلك بدراسة المنطقة. وقد أثبت عياض بالفعل إلماماً كبيراً بأحوال هذه المنطقة.

إن ضريح الرسول يقع إلى الجهة الجنوبية الشرقية من المكان الذي نقف في، ويبعد عنا مسافة خمسة أميال. وقد لاح مغموراً بذلك الطابع المألوف الذي يميز منطقة المدينة المنورة. وهو طابع لم أكن بحاجة إلى التردد في معرفته واستبانة أمره.

وإلى أسفل، وفي نقطة تقع تحتنا مباشرة إلى الشمال، رأيت النقطة التي يتصل فيها الواديان الكبيران: وادي العقيق، ووادي الحمض. ويمتد هذان الواديان شمالاً — بعد أن يحملا اسم وادي الحمض — حتى يبلغا البحر الأحمر في مكان يقع إلى الجنوب من الوجه Wajh. وإلى جانب هذا الوادي من الناحية الشمالية الغربية، ترتفع ذرى جبل البيضاء al-Baidha، وهي ذرى من الغرانيت الرائع. وفي أعلى هذه الذرى يقوم خرطوم وقُبّة كانت

تدور حولها شائعات كثيرة، تقول بأن تحتها شجيرة بُنّ نبتت في غابر الزمان، وما زالت خضراء يانعة تُثمر كل سنة!

وفي أقصى الشمال كنت أستطيع أن أرى جبل "أبو خشب" Abu-Khashb، وهو جبل اسود مرتفع كان طريقنا سيمرّ منه. ولا أرى من الضروري أن أذكر بالتفصيل جميع النقاط التي كنت أراها من مكاني فوق القلعة، وإن كنت قد سجلتها على الخريطة التي كنت أحملها معي. وقد أثبت عياض كفاءته في معرفة دقائق المنطقة، عندما دلّني على وادي "نمرانية".وهو واد مليء بالمخطوطات الحجرية الأثرية. وكنت قد أوضحت له اهتمامي بمشاهدة مثل هذه المخطوطات من قبل.

وعندما استأنفنا سيرنا، سلكنا الطريق الذي يقودنا رأساً إلى وادي نجومي (الحمض) وذلك حتى مسافة عشر أميال، حيث وصلنا إلى نقطة غادرنا فيها ذلك الوادي في طريق يتجه شمالاً، ومن ثم تنعطف شمالاً مع ميل باتجاه الشرق. وكنا نسير في رحلتنا هذه بمحاذاة جدول يمر بوادي "ممنة" Maman باتجاه الشمال الغربي، في طريق غير ممهد تحركت فوقه سياراتنا بصعوبة شديدة، نظراً لطبيعته الصخرية، مع أن عرضه يزيد على خمسمائة ياردة. وهذا الطريق محفوف من الجانبين بسلسلة من الجبال تعرف باسم جبال "المُريّخ" Muraiyikh وجبال "أُم جُرفين" Um- Jurfain . وفوقها كنا نرى سلسلة جبال "أبو خشب" وهي ترتفع شاهقة فوق ما يحيط بها من أ نجاد.

يا لهذا الطريق... لقد واجهت سياراتنا أثناء مرورنا به — ولم يكن بد من ذلك — مصاعب جمة ومنعطفاتٍ ضيقة، وأراضٍ صخرية، وحفراً رملية، وغير ذلك من المشاق التي جعلت رحلتنا هذه في غاية الصعوبة. وقد ناضلنا نضال الأبطال، مجبرين، مسافة ثلاثة أميال، قبل أن نخلُص إلى طريق أكثر سهولة ويسراً. وهنا توقفنا لكي نلقي نظرة على المنطقة من أعالي وادي ممنة. كانت قمة جبل البيضاء تطلُّ علينا من الجهة الغربية التي تميل قليلاً نحو الجنوب. وكانت أمامنا سلسلة من التلال ليست بذات أهمية تذكر.

كان الوقت قد أصبح متأخراً في ذلك الحين، فانصرف تفكيرنا إلى إيجاد بقعة تصلح لإنشاء مخيم نبيت فيه تلك الليلة. وكنت أقوم بجولة في البقعة المجاورة، عندما بدّد صوت طلقة نارية ذلك السكون الشامل الذي كان يلف الجبال. ولم تمض إلا لحظات قليلة حتى برز أمامي رجل من المرتفعات القريبة، يطلب منا أن نعينه في إحضار وعل أطلق عليه النار فأصابه. ولم يسعنا إذ ذاك إلا أن نترك سياراتنا تقدم المساعدة المطلوبة، ثم صعدنا إلى أعالي وادي "ممنة" حيث ضربنا خيامنا هناك. إن خيامنا تطل على منحدر يؤدي إلى شعب الرديدي Rudaidi أو (الفُريش) al-Furaish. وهنا نجد الماء ونشاهد خربة.. أكواماً من الحجارة، جمعها شخص ما لسبب غير معروف. وأراني على يقين من أن هذه لأكوام لم تكن قبوراً، ولا خرائب لمنطقة كانت مأهولة.

ولم نكد نضرب خيامنا حتى عادت سيارة "اللوري"، التي أرسلتها مع الأعرابي، وهي تقلّ الرجل والوعل..

إننا في حاجة إلى اللحم.. فقررت أن اشتري الوعل من الرجل. وعرضت عليه مبلغ عشرين ريالاً.. وقد قبل الرجل هذا العرض على مضض، إذ كان يعتقد أن بإمكانه أن يبيعه بضعف هذا المبلغ، وربما أكثر من ذلك، فيما لو استطاع أن ينقله إلى "خيبر".

ولشد ما كانت دهشتنا عندما رأينا الأعرابي يتجاهل عدم دعوتنا له ويقرر قضاء الليل في ضيافتنا، ومن ثم مشاركتنا في الوليمة التي كنا سنعدّها. وما أن أنزلنا الوعل من السيارة لنسلخه كي نعدّه للعشاء، حتى اكتشفنا أنه على الرغم من أن الوعل قد أصيب في أسفل عنقه ومات على الفور، فهو لم يُذبح استكمالاً لإجراءات جعْله صيداً حلالاً. وعلى الأثر عقدْنا "مؤتمراً" ضم جميع رحالي الجياع لندرس المشكلة. ومما يؤسف له حقاً أن قرار المؤتمر كان في غير صالحنا.. لقد نصّ على أن لحم ذلك الوعل حرام بالنسبة للمسلمين. وقد أثارني والله هذا القرار إثارة شديدة، وخاصة عندما رأيت بأم عيني أن

لحم الوعل قد أُلقي بعيداً لتستمتع به الضباع ووحوش الفلاة، بينما يقتصر نصيبي منه على رأسه وجلده لا غير!!

ولقد أخبرنا الرجل الذي صاد الوعل أنه أكبر وعل لقيه ضمن سرب يضم خمسة آخرين. وكان قرنه الأيسر من الطول بحيث يزيد على ثلاثة وثلاثين إنشاً. والغزلان في هذه المنطقة أسعد حظاً من غيرها من الحيوانات. إذ لا يتسنى إلا للصياد الماهر أن يصيد أحدها، فهي سريعة العدو كما أنها خبيرة بوسائل تفادي رصاص الصيادين. وأنه لصياد سعيد الحظ من يقتل غزالاً، إذ يبيعه بسعر مرتفع، وقد اضطررنا إلى تذوق لحم الوعول أكثر من مرة أثناء مرورنا عبر النجود المقفرة ما بين "المدينة" وما وراء خيبر. واسترعى انتباهي أن سكة حديد الحجاز تمرّ عبر هذه المرتفعات على مقربة من الخيام التي ضربناها، ومع ذلك فلم أسمع من قبل، أن أيّ أوروبي قد زار هذه المنطقة – ما بين المدينة المنورة وخيبر – وإن كان المرء لا يستطيع أن يجزم بأن بعض الجيولوجيين الأميركيين لم يفعلوا ذلك.

كانت بعض الأمطار قد تساقطت في هذه المنطقة في المدة الأخيرة. عرفتُ ذلك من ابتلال الأرض المحيطة بمخيمنا، ومن تراب بلله المطرُ نبشناه عن عمق بضعة إنشات من سطح الأرض. أما الآن فقد أخذت السحب تتجمع فوقنا بعد غياب الشمس، رغم أن الهواء ظل ساكناً وإن هبّت نسيمات قليلة منه شعرتُ بها ساخنة تبعث على الانقباض.

في هذه الليلة أزعجني كثيراً نور المصباح الذي كنت أضعه فوق جهاز الراديو قرب فراشي، لأنه، بقدرة قادر، استحضر جميع الهوام والحشرات الموجودة في المناطق المجاورة لمنطقتنا. وبين هذه المجموعة الجرارة من الهوام والحشرات رأيت أنواعاً غريبة كان لبعضها أفواه كبيرة، واستطعت أن أحصي أكثر من ثلاثين حشرة منها دفعة واحدة.، وكانت رفوفها تتدافع حول المصباح وكأنما هي تتزاحم لتنتحر.

وقبل أن نستأنف سيرنا في الصباح، قمت أنا وعيَّاض بقضاء فترة من الوقت في التطلع إلى مخيمنا من فوق قمة مرتفع قريب يعرف باسم "ضولو" Dhulu، كما قمنا بدراسة طبيعة المنطقة المحيطة بنا. كان جبلا (البيضا) و(أبو خشب)يحتلان المنطقة الواقعة إلى الخلف منا. ولم نكن ونحن في مكاننا الذي نقف فيه قادرين على رؤية سكة الحديد، على الرغم من أن معالم الأرض التي يمر بها الخط الحديدي، وتدعى "المليلة" Mulailih، كانت واضحة لنا في جهة الغرب. وكنت قد زرت تلك المنطقة في سنة ١٩٣١، لكي أنقّب في خرائب إحدى المدن اليهودية الأثرية، غير أني لم أكن لأذكر الكثير عن تلك المدينة التي كان يطلق عليها اسم "وادي القرى".

وتابعنا السير.. فوجدت أن الآبار القليلة التي كانت في "وادي القرى" ما زالت صالحة، وإن لم تكن آنئذٍ تحتوي على أية كمية من الماء. ولو عُمّرت هذه الآبار، لأمكنها أن توفر ريّاً كافياً لمنطقة لا بأس بها من الأرض المحيطة بالمدينة "وادي القرى". ولكن، واأسفاه، إن الحكومة السعودية تقتّر في الإنفاق على المشاريع إذا كانت خاصة بتطوير المناطق النائية فيها.. لقد ظللنا نسمع التأكيد يتلو التأكيد، خلال الثلاثين سنة الماضية، بأن سكة حديد الحجاز سيتم إصلاحها فتغدو جاهزة لتسيير القطارات من جديد، غير أن هذه التأكيدات لم تتحقق حتى الآن !! وليس من شك في أنه إذا تم تنفيذ هذا المشروع الإصلاحي، استعادت "مليلة" مكانتها الملحوظة في بناء اقتصاديات المنطقة. ولربما تم الكشف عن بعض الآثار المهمة المتعلقة باليهود في تلك الديار.

وفوق المكان الذي كنا نعسكر فيه، كانت تنتصب سلسلة من الأهداب الصخرية يمر عبرها سيْل الفَرْشَة المتكون من التقاء شعب الرديدي مع شعب "سيْفير"، والذي يسير شمالاً ثم يتجه إلى الشمال الغربي، حيث يمتد مسافة قبل أن ينعطف نحو الغرب ليلتقي مع وادي "الحمض" عند "مليلة".

وأثناء السير واجهت سياراتنا صعوبات فائقة في قطع أربعة أميال اعترضتنا قبل أن نصل مسيل "المدرج" Midraj الذي يمتد عبر أرض جرانتية تنتشر فيها التلال. ومن بين هذه التلال تلة هي أعلاهما، يطلق عليها اسم "النحاسة el-Nahasa.وقبل أن نصل إلى هذه التلة، انحرفنا عن شعب المدرج، حيث مررنا بأرض صخرية يطلق عليها اسم "شعب داره" Dara لنصل إلى "تلال زريق" Zuraig الحمراء اللون، حيث يتحول الطريق هناك إلى ممر ضيق. وقد عرجنا إذ وصلنا إلى هذه النقطة، على مجموعة من الآبار تسمى "الأطباق" al-Atbag حفرت في أخدود صخري هناك. وهي ضيقة جداً في بعض أجزائها، كما أن أجزاءها الأخرى غير منحوتة بشكل هندسي. أما البئر الرئيسية بين الآبار الموجودة في المنطقة فقد وجدنا فيها بعض الماء على عمق خمس قامات. وقد علمت أن أصحاب الأرض "وهم أبناء قبيلة بني رشيد، أعادوا حفر هذا البئر في العام الماضي، حيث قاموا بتدعيم جدرانه، بأن بنوا حواجز من صخور البازلت ترتفع من قاع البئر حتى مستوى الماء فيه. كما حسّنوا الفوهة فجعلوها مستديرة يبلغ قطرها ياردة واحدة.

هذا وقد أفزع وصولنا إلى ذلك المكان سرباً من غزلان الريم يتألف من ستة أو سبعة.. فتراكضت إلى الشعاب المحيطة بالمنطقة، مثيرة حولها عاصف من التراب والغبار.. ويبدو أن حضورنا إلى المكان قد أفزع الغزلان قبل أن تتمكن من ورود الماء لتشرب كما اعتادت أن تفعل كل يوم.

هنا لاحظت بعض النقور العتيقة في الصخور المجاورة، وكانت هذه ممتلئة بالمياه، غير أنني لم أستطع أن أجد إشارة واحدة تدلني على أن المكان كان منتجعاً معروفاً للقنص في يوم من الأيام. ومن ثم عدنا إلى سياراتنا، فراحت تسير بنا ببطء شديد بمحاذاة نجد "زريق" Zuraig حتى نهايته الغربية، حيث مال بنا الطريق إلى ممر صخري استمر حتى وصلنا إلى شبكة من المسايل والأودية تؤدي إلى وادي "لحن" Lahn. وفي هذا الوادي قررنا أن نبقى لقضاء ما تبقى من يومنا ذاك.

إن هـذا الوادي يقع في "حرّة خيبر"، وهو يلتقي إذ يمتد، بوادي شدّاد وبعض الأقنية الصغيرة التي تلتقي جميعاً في وادي "الفرشة" ثم تسير إلى "مليلة" ووادي "الحمض". ويمتد وادي لحن مسافة اثني عشر ميلاً بشكل غير منتظم لم أر له مثيلاً في جميع أنحاء المملكة السعودية. فعلى بعد ألف ياردة من المكان الذي دخلناه ضاق الوادي إلى نصف اتساعه الأصلي، ثم لم يلبث أن اتسع فجأة حتى بلغ عرضه حوالي الميل أو أكثر. وعلى جانبي الوادي كانت تقوم طبقة من الصخور البازلتية، تتخللها قمم بارزة من اللافا يتراوح سمكها بين عشرة إلى عشرين إنشاً. وليست المنطقة قفراء لا عشب فيها، فقد ظهرت بعض الشجيرات الجافة هناك. وتشير كل الدلائل إلى أن المنطقة لم تشهد أمطاراً ولا سيولاً منذ وقت بعيد. والسير في هذه المنطقة شاق بالنظر لما ينتشر فيها من حشائش جافة وصخور مدببة الأطراف. أما الأسوأ من تلك الطريق فهو ذلك المسيل الذي تجمعت فيه، على مر السنين، رمال الفيضانات التي كانت تحدث في المنطقة.

من هنا كانت القمم الحمراء لجبل الشميض Shimidh التي لاحظتها من بعدٍ وأنا في وادي "الفرشة" ما تزال تبدو بعيدة جداً إلى الأمام، رغم تقدمنا في تلك الطريق. كما كنا نستطيع أن نرى جبل البيضاء العالي ينتصب وراءنا. وفي هذا الموقع توقفنا قليلاً، كي يصلي أفراد الفريق الذين كانوا يرافقونني، ولكي نقطع السير الطويل الممل بعد ظهر ذلك اليوم الذي حفل بالكثير من الصعوبات.

واستأنفنا سيرنا.. وحينذاك لاحظت أن الوادي ينعطف شمالاً بمحاذاة سلسلة صخور "الراعيات" Raiyat القليلة الارتفاع. وكانت هذه طويلة جداً، ولم يكن هنالك ما يشير إلى أن هذه السلسلة الصخرية موشكة على الانتهاء!!

وقد أحس عياض بالنعاس — وهو الذي أثبت كفاءة تامة كدليل يعرف المنطقة معرفة جيدة — عندما وصلت سياراتنا فجأة إلى لسان رملي عريض تعذّر عليها اجتيازه. أما أنا فكنت مرهقاً بشكل فظيع. وقد لاحظت وجود مجموعات من القبور في تلك المنطقة تخص

بعض الأعراب. وسألت عياض بشكل عرضي عن كيفية وجود هذه القبور في تلك المنطقة الموحشة، فأنقذتني إجابته من كثير من الحيرة التي أشعر بها.. لقد قال: إنها قبور أفراد من قبيلة "النمرانية".

ولم أنس حتى الآن تلك الصورة التي رسمها لي عياض عن هذه القبور، ولا الوصف الذي حكاه عن أفراد هذه القبيلة ونحن نغذّ السير صوب المدينة. ولما سألته لماذا لم يحذرني ونحن نقترب من المكان الذي توجد فيه هذه القبور، لم يسعه إلا أن ينظر إليّ بدهشة ثم يسألني: أي مكان تقصد؟ ثم لم يلبث أن أضاف بأنه لا يعلم بوجود أية منقوشات حجرية في هذه المنطقة. وقال: إنه لم يمر بهذه المنطقة طوال حياته، وأنني لابد كنت أحلم وأنا أتصور المحادثة التي جرت بينا حول قبور أفراد قبيلة النمرانية سالفة الذكر.

في تلك الأثناء كانت سيارتنا الكبيرة قد تمكنت من تسلق التلال الرملية. وقد اقترحت أن نخيّم في هذه المنطقة حتى يتسنى لي متابعة البحث عن النقوش الحجرية التي قيل لي أنها موجودة بكثرة. وهكذا، ضربنا خيامنا على حافة أحد المسايل، رغم أن الوقت لم يكن متأخرا. وهناك انتحيت جانباً برئيس الحرس المكلف بمرافقتي — وهو من أفراد حرس أمير المدينة المنورة — ورويت له قصة عياض معي وطلبت إليه أن يقوم بالتحقيق في صحتها أو علمه، بينما واصلت البحث في المنطقة المحيطة بمضرب خيامنا حتى هبط الظلام. هنا وجدت قبوراً تبدو عليها الجدّة منتصبة على قارعة الطريق. أما لماذا كانت على هذه الصورة، فهذا أمرٌ لم أستطع اكتشافه، ولم يكن بذي أهمية تذكر. والغريب في الأمر أن المنطقة التي ضربنا فيها خيامنا كانت تشير بوضوح إلى أنها كانت منطقة مفتلحة ذات يوم. كان جانباً الوادي مسوّرين بجدارين وسلاسل تمتد حتى مسيل "شعب نمران" الذي يطول حتى دلتا (أو بالأحرى ما يشبه الدلتا) هناك. وكانت الأرض حسنة التسوية، قد خلت من الحجارة، وقسّمت إلى أقسام.

ولا شك في أن الأرض المفلوحة في تلك البقعة كانت على الضفة الشمالية لذلك الوادي. إذ كنت أستطيع أن أرى هنا وهناك على المنحدرات الظاهرة في المنطقة، بقية من الآثار (التي تدل على أن الموقع كان مأهولاً بالسكان) وبقايا بيوت يحيط بها سور، ربما كان يستعمل في الماضي كخزان للمياه. وأكاد أجزم بأنه ليس في هذه المنطقة ما يوحي بوجود آثار ذات بال. أنني لم أجد أية أوان فخارية ظاهرة يمكن الاستدلال منها على وجود الآثار، وإن كان من المحتمل أن تكون مثل هذه الأواني قد جرفتها مياه الفيضانات. وكذلك لم أجد أية نقوش من أي نوع كان، باستثناء بعض الشارات الخاصة بالقبائل التي قطنت تلك المنطقة، والتي لا تشكل أية أهمية تاريخية أو أثرية. أما المقبرة الصغيرة الموجودة على جانب الطريق هناك، فمن الجائز أن تكون قد ضمّت رفات عائلة أو عائلتين أرادتا الابتعاد عن بقية العالم.

هذا وقد لاحظت أن القصر الطيني الذي كان قائماً في تلك المنطقة ذات يوم، ما زالت بقايا بعض جدرانه ترتفع بضعة أقدام. ويتألف ذلك القصر، كما يبدو من بقاياه، من ثلاث غرف وساحة. إذن فهذا الطراز من البناء يمثل طراز دور السكن الذي استعملته العائلتان في تل القفار الجدباء.

وعلى مقربة من المكان ذاته، عند المنحدر، لاحظت وجود بقايا بناية صغيرة يحيط بها سور تآكلَ حتى لم يبق منه إلا النزر اليسير. وبالقرب من هذه البقايا كان خزان للماء له فتحة يبلغ قطرها ١٢ قدماً. والواقع أن جدران هذا الخزان ما زالت قائمة، وإن كان قد تهدمت في بعض نواحيها ولم يبق منها إلا اليسير. ويتراوح ارتفاع هذه الأماكن المتهدمة بين قدم واحد وثلاثة أقدام.

هذا وقد استغرقت هذه الدراسات التي قمت بها للمنطقة كل ما تبقى من النهار في ذلك اليوم، وبضع ساعات من صباح اليوم التالي، قضيتها في تفقد المنطقة قبل أن نستأنف السير.

حاولت، حول النار التي أوقدناها في المخيّم، أن أستثير حماس دليلي، علّني أخرجه عن الصمت الذي التزمه خلال اليومين الماضيين. وكانت أمامي ثلاثة افتراضات لتفسير موقفه الغامض، فهو إما أن يكون قد أراد أن يقدّم لي معروفاً في بداية رحلتنا، فحكى لي بعض الذكريات الغامضة التي لا معنى لها عن الوشوم القبلية التي وجدناها في هذه المنطقة. وإما أن يكون قد حدّث رفاقه بما يعرفه عن المنطقة فحذروه من أن يطلعني على ما يعرف، خشية الإطالة في الطريق. وإما أن يكون قد استشعر الخوف من الأشباح التي يؤمن السكان بوجودها في الخرائب الأثرية، فآثر أن لا يخاطر بذكر أسرارها حرصاً على حياته. ولم تكن هذه الخبرة بالشيء الغريب عليّ، وخاصة عندما يسافر المرء مع أعراب جهلةٍ يجعلهم جهلهم كثيري المخاوف والشكوك.

وإنّي لأذكر حادثة مشابهة وقعت لي بالقرب من الطائف، عندما أصرَّ بعض وجهاء قرية صغيرة هناك على اصطحابي ذات ليلة إلى جبل "قرنيط". وهو ثاني ذروة في الارتفاع بين ذرى جبال الحجاز. لقد رافقتهم إلى الموقع.. وفي صباح اليوم التالي، حين اقتربنا من تلك القمة المزدوجة، لاحظت أن أدلائي راحوا يتهامسون. ولسببٍ لم أتبينه، قادوني إلى الذروة الأقل ارتفاعاً، ولم يشأ أحد منهم أن يصغي إلى احتجاجاتي على ذلك. نعم، كان هناك فرق طفيف في علوّ الذروتين، ربما لا يتجاوز الخمسين قدماً، غير أن امتناع أدلائي من الصعود إلى الذروة الأعلى، جعلني استنتج أنهم ربما كانوا يخشون كشف أسرارها إلى غريب، أو أنهم امتنعوا عن ذلك بسبب بعض المعتقدات الدينية.. وربما كانت الذروة الأعلى معبداً بدائياً لإحدى القبائل (غير الإسلامية) الوثنية كان أفرادها يذبحون فيه الضحايا لآلهتهم! كما أنه من الممكن أن يكون المكان ذا أهمية أثرية كبرى. لست أدري.. ومهما يكن من أمر، فإن هذا اللغز لم يحلّ بعد، رغم مضي عشرين سنة على زيارتي لذلك الجبل.

ظللنا نتقدم. وها نحن نجد أنفسنا الآن في منطقة من المؤكد أنها لم تكن مأهولة من قبلُ. وقد شعرت فيها بشيء من التوتر في أعصابي. حقاً أن عيّاض قد ارتكب خطأ فادحاً لا يؤهله للقيام بعمل شريف في المستقبل، غير أنه لم يبدِ أي أثر للندم لما أقدم عليه!

ولم نكد نسير مسافة ميل واحد حتى رأيت نسرا يحلق فوق مرتفع صخري صغير يقع على حافة وادي "لحن" عند فم أحد الروافد الصغيرة، وهو شعب "أبو عِياه". وقد طار النسر بعيداً عندما انحرفت بسيارتي باتجاه المرتفع الصخري، على أمل أن أجد وكره. ولم أجد ذلك الوكر، غير أني وجدت شيئاً آخر يختلف كل الاختلاف عما كنت آمل أن أقع عليه. وقد بدت الحيرة على عيّاض، لأنه لم يكن يتوقع أن يرى ذلك المنظر الذي طالعناه عند حافة المرتفع الصخري! لقد وجدنا هياكل عظمية لجمال.. وكان بينها هيكل عظمي لرجل.. وآخر لوعل. وقد أخبرني عيّاض أنه لم يسبق له أن رأى هذه الهياكل العظمية من قبل، مع أني كنت في حالة تشبه اليقين من أن هذه الهياكل العظمية هي السبب في تغير طباعه..

وبعد مسيرة ثلاثة أميال في طريق وعر، وصلنا إلى أعلى وادي "لحن" الذي يبلغ امتداده مع "وادي شدّاد" عشرين ميلا. وهنا كنا قد وصلنا إلى طرف المنطقة البركانية الفسيحة والمشهورة تماماً في "حرّة خيبر". ومن تلك النقطة التي كنت أستطيع أن أرى على بعد شاسع، ذروة جبل البيضا، الذي أُطلق عليه اسمه مجازاً.. فهو لم يكن أبيض، بل أسود تماماً. ولربما كان الأمر من قبيل التسمية بالنقيض..

ومن المحتمل أن يكون هذا الجبل قد استقبل في غابر الأزمان زخاتٍ من الثلوج، كست قمته بعمامة بيضاء، وأكسبته اسم "الذروة البيضاء". لكن هذا غير أكيد... وقد اقتربت منه، وحينئذ أيقنت من سر تسميته بالجبل الأبيض.. لقد سمي كذلك بالنظر لأن أشعة الشمس تنعكس على صخوره السوداء الناعمة فتشعّ بريقاً ابيض اللون يخطف الأبصار.

هاهي "الحرَّة" تبدو أمامنا بين البيضاء وبين المكان الذي نقف فيه، تمتد إلى الشمال وإلى الشرق والغرب، بينما تقوم خلفنا أرض منبسطة من الصخور البازلتية السوداء الممزوجة بالصخور الجرانتية الحمراء، وهي تلك الصخور التي كنا نسافر عبرها خلال اليومين الماضيين. وعلى طول جانبها الأقصى من الشرق إلى الغرب كانت القناة الكبيرة التي تصب في وادي "الغراس". وتتجمع مياه هذه القناة من مياه الأمطار ومياه وادي "شقرا"، وهو أحد روافد وادي "الحَنَكيّة"، وكذلك من مياه واد "سُويْدَرة" و"نُخيْل". ويجري وادي الغراس جنوباً حتى الأقسام الجنوبية من الحرة، حيث يلتقي بالعديد من الينابيع الصغيرة في طريقه، ثم يتجه السيل جنوباً حتى يصل إلى "خيبر" ذاتها ويقطع السكة الحديدية إلى وادي "الحمض".

وعلى مقربة من ذلك المكان، وإلى الجهة الغربية على وجه التحديد، كنت أستطيع أن أرى كتلة جبال "شميض" بألوانها الحمراء، هذه الجبال التي وقفت في يوم من الأيام تحرس واحداً من أشهر معاقل اليهود الحصينة. ومن هنا كان جبل "البيضاء" يبدو شامخاً خلفنا، كما تُرى قبالتنا الحرّة، ترصعها فوهات البراكين الهامدة وكؤوسها.

استمر الطريق مسافة خمسة عشر ميلاً يسير بمحاذاة حقول مزروعة، وإن كانت سيارتنا قد لقيت صعوبة في قطع ذلك الطريق عبر الصخور والمسايل العديدة التي يتدفق ماؤها من التلال المجاورة باتجاه الجنوب حتى تصل إلى وادي الغراس. ولقد كانت الرحلة شاقة، ولكن ليست على قدر نعجز عن تحمله، وإن كان تسلقنا لذلك الطريق من شعب "قُطَيفَة" إلى أعالي الحرّة لم يكن من الأمور السهلة. وهناك بدأنا السير عبر حقول اللافا التي تمتد مسافات بعيدة على جانبي الطريق، ذلك الطريق الذي لاحظت أنه عامر بالحركة إلى حد ما. وقد بدأت الحركة في هذا الطريق عندما وصلنا إلى قمة جبل "عطْوة" الذي يبعد خمسة وعشرين ميلاً إلى الجهة الشمالية من الطريق، ويقع على العدوة اليمنى لوادي

الغراس. وعلى طول هذا الطريق لم أر شيئاً يستحق الذكر غير صخور "الحرة" السوداء وأخاديدها التي استطعت تدوين أسمائها، بالاستعانة بمعرفة عياض الوافية عن المنطقة.

وقد لاحظت أثناء مرورنا هناك عدة هُوّات طويلة عميقة الغور تنحدر باتجاه وادي الغراس سببّت لنا الكثير من المصاعب، بالنظر لعمقها من جهة، ولتذبّب أطراف نتوءاتها من جهة أخرى. الأمر الذي كان يضطرنا إلى السير بمنتهى الحذر. وقد أخبرني عياض أن مجموعة هذه المزالق تسمى "شعب خابو". ومع ذلك فقد استمر سيرنا دون أية مشاكل، بفضل أولئك الأشخاص الذين شقوا هذا الطريق في الأصل.

توقفنا قليلاً بعد اجتيازنا منطقة رائعة المناظر الطبيعية يسمونها شق "الخرانيق"، وقمت بفحص حطام بنايات صغيرة، ربما كانت أضرحة لبعض الأثرياء الذين عفّى على ذكرهم الزمن. وكان يبدو أن الذين بنوا هذه الأضرحة قد عانوا مشقة كبيرة في بنائها، وإن كان الزمن والإهمال قد أضاعا الكثير من مجهوداتهم هذه.

ومر بنا رجلان من أهل خيبر يمتطي كل منهما أتاناً، وكنت ما أزال أفحص بقايا تلك الأضرحة، وتوقفا ليبادلانا ما عندهم بما تناهى إلينا من أخبار حديثة. وعلمت أنهما يقصدان المدينة المنورة، كما علمت أنهما قد سمعا بأنباء قدومنا، وأن أهلهم يتمّنون أن يكون الهدف من رحلتنا هو العمل للقضاء على الملاريا في منطقة الواحات القريبة منهم، ثم إنشاء شبكة ري يستفيد منها السكان هناك. وكان غيرنا من الأجانب، بما فيهم بعض الخبراء الأمريكيين، قد سبقونا إلى المنطقة في السنوات الأخيرة، غير أنه لم يتم التوصل إلى نتائج فعلية لزياراتهم. وا أسفاه، إن زيارتنا لن تكون ذات أثر أكبر من آثار الزيارات السابقة التي قام بها هؤلاء، وإن كنت على استعداد لتقديم بعض المقترحات النافعة إلى وزير المالية السعودي. هذا إذا ما أراد الوزير تحقيقها، وبعد التخلي عن فكرة إنفاق كل ما يتأتى له في الخزينة على مشاريع تهتم بمصلحة سكان المدن الكبيرة.

وقد تمكنّا ونحن على تلة "المريقِب" ذات الصخور البازلتية الضخمة، من التمتع بمشاهدة منظر رائع يطل على "الحرة" ذاتها، ويشرف على الجبال العالية التي تقع بعيداً وراء "خيبر". ويبدو أن هذا الجزء من "الحرة"، الواقع على امتداد الجهة الشمالية من "وادي اغرسا"، يعرف باسم "حرة الكورة". بينما تقع "حرة خيبر" فيما وراء المسيل.

وسرعان ما وصلنا إلى منطقة شديدة الانحدار تمتد من هضبة "الحرة" إلى منخفض وادي "سُلَيْم"، وهو أحد الروافد الرئيسية التي تشكل وادي الغراس. وهنا أخذت صخور "الحرة" تقل ارتفاعاً وتمتد كالأصابع على شكل مجموعة عجيبة من الرؤوس المدببة، ويحصر كل إصبعين منها مسيلاً يصب المياه في اتجاه الوادي.

وقد شاهدت على إحدى هذه الصخور بقايا قلعة قديمة، يبدو من طابع بنائها أنها تركية العهد. ولم تكن بعيدة كثيراً عن الطريق الذي نسلكه، لكنه يبدو أنها لا تستحق أن ينعم فيها المرء النظر عن قرب، وخاصة أن الشمس وقت اقترابنا منها كانت على وشك المغيب.

إن هيئة المنطقة المحيطة بنا لا توحي بأنا سنجد الكثير من الراحة إذا ما ضربنا خيامنا فيها. ولذلك عمدنا إلى أقصى سرعة تمكّننا الأرض الصخرية من السير بها كي نصل إلى أرض مكشوفة نقيم فيها مخيمنا تلك الليلة.

وغابت الشمس.. ففوجئنا بالظلام يلفنّا بأستاره، غير أن ذلك لم يكن ليعوقنا على المضي قدماً. وتابعنا السير حتى وصلنا إلى مضارب كبيرة لقبيلة "حَرْب". وهناك رأينا كثيراً من قطعان الماشية وخاصة الخراف، ترقد بين شجيرات صغيرة من الأكاسيا. وعلى مقربة من هذه المضارب، وجدنا مصطبة طينية محاطة بشجيرات صغيرة تنحاز قليلاً عن الطريق. وهنا توقفنا لنأخذ قسطنا من الراحة في تلك الليلة. وبعد منتصف الليل، وحتى مطلع الفجر. كان الطقس بارداً تهبّ فيه رياح ساقعة جداً وخاصة في ساعات الصباح الباكر.

ومن المؤسف أن المشاق التي لاقيناها أثناء اجتيازنا "الحجر" قد تمخضت عن مأساة. فعندما أعددت جهاز الراديو لأستمع إلى أنباء المساء، رفض الجهاز أن يعمل. وكان "السيد" – الاسم الذي كنا نطلقه على كل سائق سيارة، إما لأنه "سيد" بالفعل، وإما لأنه الوحيد بين المرافقين الذي كانت تبدو عليه سيماء الوجاهة – هو الشخص الوحيد الذي يعرف شيئاً في الميكانيك. ولذا فقد استدعيته ليختبر مواهبه، ويحاول إصلاح جهاز الراديو. وسرعان ما أثبت هذا "السيد" أنه يعرف أكثر مني بقليل في هذا الميدان! ولم تكن هذه المعرفة بذات فائدة. لذا كان لابد لي من أن أروض نفسي على البقاء دون راديو خلال الشوط الباقي من هذه الرحلة، إلى أن يسعدنا الحظ، فنجد كهربائياً في خيبر أو "تيماء". ومع ذلك، فقد ظل "السيد" مصراً على اختبار مواهبه. وفي الساعة العاشرة مساء سمعت فجأة، صوتاً دلني على أن "السيد" قد اكتشف العطب في الجهاز فأصلحه بشكل معقول.

وكانت ثمة مشكلة أخرى تزعجني في تلك الليلة.. وهي أنه، في الوقت الذي غدت فيه "خيبر" قريبة – وربما على مسافة ساعتين لا أكثر – وجدتني مضطراً لتأجيل دعوة الضيافة الإجبارية التي فرضها عليّ حاكم المنطقة. لقد كان علي أن أقوم بمشاهدة عدد من قنوات الري الموجودة في القسم الشرقي من "الحرّة"، وهي قنوات ذات أهمية أثرية كبيرة.

درست الخطة مع عياض قبل أن أفعل ذلك، فوافق عليها. ثم ركب إلى جانبي في سيارة الـ"لاندروفر" ليرشدني فيها، مع أنه اعترف صراحةً بأنه يجهل ذلك القسم من "الحرة" جهلاً تاماً. لقد قال: إن السيارات لا ترتاده على الإطلاق. وقد بدا عياض شديد اللهفة على وصولنا إلى خيبر. كي يتسلم أجره هناك ثم يعود بأمان. ومع ذلك فإنني لست أشك في إخلاصه وشرفه، بل وأعتقد أنه قام بخدمتي خير قيام رغم ما بدا عليه من تكتم في النصرانية.

لم أكن راغباً في الإلحاح على عياض، كي يدلي إليّ بما يعلمه عن هذه المنطقة، وذلك لعلمي أن من الخير عدم الإلحاح على أدلاء الصحراء، خشية أن تثور شكوكهم.

وكذلك لأنني كنت أوقن أن معلومات هؤلاء الأدلاء لا يمكن أن تشمل منطقة واسعة جداً كالمملكة السعودية بكل أجزائها. هذا من ناحية. أما من الناحية الأخرى، فإن الأدلاء المعاصرين هم من أبناء القبائل المسالمة، وينحصر همّ أفرادها في الحصول على المال والعيش بسلام، بخلاف الأدلاء القدامى الذين كانت معرفتهم بدروب الصحراء وقفارها تكاد تكون خيالية لا يصدقها العقل، والذين كانوا يحتاجون هذه المعرفة في تحركات قبائلهم في السلم والحرب على السواء.

كانت المشكلة التي تواجهني الآن هي الحصول على بديل لعياض. وكنت آمل أن تتمكن قبيلة "حرب" التي مررنا بها من قبل، من تزويدي بشخص يعرف شيئاً عن المنطقة التي أعتزم زيارتها، والتي تضرب تلك القبيلة خيامها في أغوارها.

وكان بعض رجال هذه القبيلة قد حضروا لمشاركتنا طعام العشاء، فكلفت "العريفي" أن يبحث معهم إمكانية توظيف أحدهم علّه يقوم بمهمة الدليل. ومن الغريب أنهم جميعاً كانوا يفضلون مرافقتي حتى خيبر، ولكنهم عازفون عن الذهاب معي إلى حيث أريد. عند ذاك أخبرتهم بأنني سأبقى مع رجالي حيث نحن، إلى أن نجد الدليل الذي يقبل مرافقتنا إلى حيث أريد. وتركت هذا الخبر يفعل فعله بينهم.

وسار حظي حسناً في صبيحة اليوم التالي.. فبينما كنت أتناول الشاي رأيت سيارتي نقلٍ قادمتين من المدينة ومتجهتين نحو مخيّمنا، بقصد الاستراحة وتناول الأحاديث مع "السيد" الذي كان شخصية معروفة في المنطقة لدى السائقين.

وكان بين ركاب إحدى السيارتين واحد من مشايخ القبائل كان راجعاً من المدينة المنورة إلى خيبر. وقد أبدى هذا الشيخ اهتماماً كبيراً بالمشاريع التي كنت أنوي تحقيقها، ولو أن اهتمامه هذا كان لأسباب مالية. ومن حسن الحظ أن هذا الشيخ كان يعرف كل شبر في "الحرة"، وجميع الطرق المؤدية إلى الأماكن التي أعتزمُ زيارتها. ومن حسن الحظ أيضاً أنه كان من أبناء المنطقة، وأن قبيلته ظلت تقطن هذه الربوع منذ خمسة قرون. أما اسمه

فقد كان "ويبان بن محمد بن لاقي بن عتيق بن دخيل الله بن سعد". وكان هذا الشيخ، مثله مثل عياض، من بني رشيد الذين لا يعتبرهم ويبان من بني هتيم، بل مجموعة متآلفة من عامة العرب وخاصة "الشرارات والعوازم".

نحن الآن على مسافة مائة ميل (١٦٣ كيلومتراً) عن المدنية المنورة، فما نزال على بعد ليس بالكثير عن خيبر. وقد أثبت "ويبان" هذا أنه رفيق ممتع ودليل معترف به بين أهالي المنطقة، كما أثبت حكمته ومعرفته الفائقة بأسرار الصحراء.

وقد اصطحبته معي بدلاً من عياض، وسرعان ما وصلنا إلى أطراف وادي الغراس حيث أوقفنا السيارة في منتصفه لنتدارس الموقف وطبيعة المكان الذي وصلنا إليه. وقد تبينت وأنا هناك أن الوادي يسير من الجهة الجنوبية الشرقية صوب الشمال الغربي، حيث تقوم غابة من أشجار الدوْم والأكاسيا، ثم ينعطف إلى الشمال باتجاه السكة الحديدية ووادي الحمض.

كانت تبرز قدّمنا على امتداد العدوة اليمنى من الوادي هضاب صخرية تشكل جبل عطوه وهي سلسلة من الهضاب يخترقها الطريق الذي يؤدي إلى "خيبر" عابراً بمنطقة صخرية تقود إلى الواحات. وبعد مسيرة ميل واحد من ذلك الطريق، كنا قد قطعنا مسافة ١٧١ كيلومتراً بعيداً عن المدينة. وهنا تحولنا إلى الشرق، ومن ثم أخذنا نصعد إلى قمة الجبل "الأبيض" عبر منبسط طيني من ارض يعرف باسم "قاع القعقران". وتحيط الحرة بهذا القاع من جميع جهاته. وسرنا فيه ميلين ثم بلغنا كومة من حجار اللافا في طرفه الآخر. وقد أخبرني ويبان أن سيارة واحدة قبل سيارتنا قد وصلت البقعة التي نقصدها في وادي "ثمد" وسدوده الشهيرة.

وأظن أن تلك السيارة هي سيارة المستر ك.س. توتيشل. وكان هذا قد قدم إلى المنطقة (في سيارة من طراز فورد قبل بضع سنوات) ليدرس إمكانياتها الزراعية. ومن المؤكد أن المنطقة ليست خصبة التربة، أو مشجعة على العموم. وكان من حسن حظنا أننا وجدنا في

الميلين الأولين لساناً طينياً يخترق السهل ، فاجتزناه. ومن بعده ، كان علينا أن نسير فوق أرض صخرية استمرت فترة من الزمن. ثم وصلنا إلى منطقة تتعبثر فيها كدرات الطين الكبيرة التي كانت خطرة على دواليب سياراتنا بالفعل. ورأيت ونحن في تلك النقطة ، واديين يقعان قبالتنا مباشرة ، ويشكلان رافدين من روافد وادي الغراس ، ذلك الوادي الذي كانت النظرة الأولى إليه كافية لتدلنا على الصعوبات الكثيرة التي تنتظرنا بعد قليل. وقد رأيت أن نتوقف حيث نحن ، لأسير على قدميّ بغية التعرف على تلك الصعوبات. ونزلت..

كان من الواضح قبل كل شيء أن سيارتنا "اللوري" لا يمن أن تخاطر بالمرور في تلك المنطقة. فقررت على الفور أن أتركها حيث هي ، في مراح طيني من الأرض ، بينما أتابع السير في سيارة الـ "لاند روفر" مع بعض المرافقين.

إننا نقف الآن على بعد خمسة أميال من النقطة التي غادرنا عندها الطريق الرئيسي للتعرف على خفايا المنطقة. وسرعان ما أدخلنا التعديلات اللازمة على خطتنا. ولما كنت متفائلاً بإمكانية العودة قبل حلول الظلام ، فقد شرعت بالمغامرة الجديدة التي رافقني فيها كل من ويبان وعياض وشخص آخر. هنا ، جاهدنا جهاد الأبطال ونحن نسير فوق أرض صخرية ، حتى وصلنا إلى طرف شعب "هُدْنه". ومن ثم هبطنا إلى الوادي. ويبلغ عرض هذا الوادي خمسمائة ياردة ، وفيه خرائب قصر صغير تقع في المنحدر فوق صخرة مستديرة. وقد قيل لي بأن بناء هذا القصر قد تم قبل سبع أو ثماني سنوات على يدي بعض الفلاحين الجريئين.

هذا وقد تمكنا ، مع شيء من الصعوبة ، من عبور الوادي من نقطة منخفضة تفصله إلى شطرين. وكانت هذه النقطة كثيرة الصخور ، تدعى شعب "سُمَينان". ولا يزيد عرض هذا الشعب على مائتي ياردة ، وفيه خرائب قصر آخر ، في منخفض بعيد إلى حد ما عن

الشعب. ويدل منظر هذه الخرائب على أن القصر قد بني من حجارة صلدة بعد أن شذبت بشكل هندسي، إلا أن الزمن والإهمال قد تركاها تحت رحمة مياه السيول.

إلى يسارنا الآن تبرز قمة ملساء من الغرانيت الأحمر، يطلق عليها اسم "سُرَيْر". وهي تفصل شعب "سمينان" عن شعب "ثمد"، وتشرف على مساحة بها عدد لا بأس به من أشجار النخيل المتوّجة بالأثمار الحمراء اللون. ولقد كانت هذه الأرض مستعمرة سكنها "الإخوان:" أول أمرهم ثم نزحوا عنها.

ولم نكد نقطع أكثر من ثلاثة أميال سيراً على الأقدام بعد أن تركنا السيارة، حتى وصلنا إلى أحد الروافد الرئيسية التي تشكل وادي "ثمد"، الذي هو بدوره أحد الروافد الرئيسية لوادي "الغراس". والحق أننا لم نجد أثناء سيرنا هذه الأميال الثلاثة، أية صعوبة تذكر. وقد لاحظت أن رافد وادي "ثمد" هذا أكثر اتساعاً من رافدين آخرين يصبان في الوادي كنا قد مررنا بهما، كما أن هذا الرافد يشتمل من مسايل متعددة تسير في خطوط متوازية حتى تصل إلى وادي "الغراس" ذاته. وهي مسايل غنية بالمياه. وفي بعض النقاط، كانت هذه الروافد تتجمع على شكل بحيرة صغيرة، بل خليج واسع، وكأنما تشكّل خزاناً يحوي الماء الاحتياطي للوادي.

ووصلنا إلى نقطة تتجمع فيها المياه، وتحيط بها غابات كثيفة من أشجار الدوم. ولاحظت أن سبب تجمع المياه في هذه المنطقة إنما يعود إلى وجود نبع ماء هناك، أخبرني مرافقي أنه يعرف باسم نبع "المُعرّش"، وكان ماؤه ويا للأسف مالحاً غير صالح للشرب.

وبعد أن سرنا مسافة ميل آخر، وصلنا إلى الطرف الثاني من الوادي، وربما كانت تلك النقطة هي التي يُطلق عليها اسم "شعب ثمد". ثم سرنا صعداً مع هذا الشعب حتى وصلنا إلى واحة كبيرة رائعة تغص بمختلف أنواع الأشجار، منها الدوم والزيتون والتين الخ.. أما ماؤها فقد كان عذباً وبارداً، أطفأنا به ظمأنا وغسلنا وجوهنا. وتابعنا السير...

وعلى مسيرة ميل واحد من هذه النقطة وجدنا خرائب ذات حجارة سوداء. وقد لاحظت أن هذه الخرائب – والواقعة على الجهة اليمنى للوادي – كبيرة الحجم. كما أخبرني المرافقون أنها تدعى "حُجرة الثمد"، أو يشار إليه باسم "حُجرة ابن لافي". وابن لافي هذا هو مؤسس قبيلة مرافقي وبان. وكان قد عمّر هذا الموقف كمقر لجماعة من الوهابيين.

وتجاوزنا هذه الخرائب، بعد أن قررت الرجوع إليها فيما بعد، لنصعّد في الوادي. غير أننا ما أن قطعنا مسافة ميل واحد حتى اصبح من الضروري أن نقطع ما تبقى من المسافة سيراً على الأقدام. ها نحن قد وصلنا قطعة رائعة من هذه المنطقة، أبرز ما يميزها عن غيرها من المناطق التي مررنا بها كـ"سد حاسد" أو الحصيد. أما شعب حاسد الذي ينحدر من أعالي "الحرة" وتجري مياهه بين شعاب صخرية عالية ليلتقي بشعب "الثمد"، فهو غني جداً بالآثار القديمة. وربما كان هذه تخص يهود خيبر الذين أنشأوا شبكة للري من أجل استغلال مياه ذلك الوادي.

هنا رأيت سداً يمتد عدة أميال على مساقط المياه.. ويبلغ معدل عرض هذا السد مائة ياردة، أما ارتفاعه فهو بمعدل أربعين قدماً. والشيء الذي أثار دهشتي، هو أن هذا السد قد ظل قائماً كما شيّد في الأصل، وإن كان تطاولُ الزمن وتدفُّق المياه والإهمال قد بَرَيا زواياه. وكان من نتيجة ذلك أن حدثت فيه فجوة من كل جانب تبلغ الواحدة منها ١٢ قدماً. ومن هذه الفجوات كانت المياه تتدفق إلى الوادي لتصبَّ فيما بعد في البحر. أما ما تبقى من السد فقد صمد أمام جميع العوامل الطبيعية رغم مضي ما لا يقل عن خمسة عشر قرناً من الزمن. إن طول جدار السد حوالي مائتين وخمسين ياردة، أما ارتفاعه فيبلغ ٤٠ قدماً. وقد بنيت جدرانه من قطع غير مشذبة من الحجارة، ولكنها وضعت بإتقان ومهارة، في وجه تدفق المياه، بعد أن جعلها البناؤون تتماسك بالطين والكلس. وعلى

الرغم من أن هذه الكتل من الجص قد تآكلت في بعض الأنحاء، إلا أن الجدران لا زالت في حالة لا بأس بها على العموم.

وقد لاحظت أن القسم الذي يواجهه الماء من جدران هذا السد قد حُصّن من الأمام، بجدران إضافية بنيت من حجارة صغيرة، وتتوسطها أقواس بحجم الرجل، تضفي على الجدران منظراً هندسياً، في الوقت الذي تخفف ضغط الماء عن الأجزاء الرئيسية منها.

ولاحظت كذلك أن الثلثين السفليين من جدار السد، أكثر سمكاً من الثلث العلوي، وقد بلغ سمكهما ضعف سمك الثلث الأول. ولم أجد أي أثر في السد يدل على وجود حواجز لتنظيم جريان الماء – إذا كان هنالك مثل هذه الحواجز في الأصل – إلا إذا اعتبرنا الفتحات التي وجدناها في زوايا السد من هذا القبيل.

وليس من المؤكد، على كل حال، أن يكون قد تم بناء هذه السدود القديمة، والتي نجدها على أتم صورة في الوديان المحيطة بالطائف، بغية الاستفادة من الماء الذي تحتجزه في شؤون ري الأرض والزراعة. إذ يبدو أن بعض تلك السدود قد أنشئ بقصد احتجاز الماء ومنع الفيضانات من أن تغمر الأراضي، ثم تستخدم مياهه المحتجزة في الزراعة فيما بعد. وفي مثل هذه الحالة توفر تلك السدود الريّ لأراضٍ تبعد مسافة عدة أميال، فتجعل منها بقاعاً أكثر خصباً من غيرها.

أمام السد شاهدت حوضاً دائري الشكل، لابد أنه كان "حاكورة". وأظنه كان يسقى إما بالماء الذي يُطلق من أنفاق السد أو من الينابيع التي تنزّ من الأرض تحته بفعل تجمّع المياه. ولقد رأيت بالفعل أحد هذه الينابيع، وكانت تمتد منه قنوات فرعية للري حتى تصل إلى مساحة من الأرض تزينها أشجار النخيل الباسقة. ولكن هذا الينبوع كان جافاً في الوقت الذي قمنا فيه بزيارة مكانه، وإن كانت ثمة مياه قليلة تنبثق من ينبوع صغير تغطيه الأعشاب البرية. ومما يجب ذكره في هذه المناسبة أن مسيل "شعب ثمد" الذي لم تقم عليه

السدود، كان يصل إلى الجهة المقابلة للسد.. مما يؤكد أن مياه هذا المسيل كانت تسبب حدوث الفيضانات من وقت إلى آخر.

وعلى مرتفع من الأرض، قرب السد، لمحتُ قلعة قديمة مبنية من الحجارة غير المشذبة من الداخل، مع أن بعض أقسامها الظاهرة مشذبة الحجارة من الخارج. ويبدو أنها ظلت تعايش السد حتى بطل استعماله فخربت، لذا لا يتيسر الحكم على حالها السابقة في الوقت الحاضر.

أنهينا دراسة السد والمنطقة المجاورة له، ثم عدنا إلى السيارة حيث جلسنا نستريح من عناء السير. وبعد أن اقتسمنا ما كان يحويه "الترموس" من شاي قمنا بجمع الحطب لنشغل نار المساء، الذي كانت تباشيره توحي ببرودته. وبعد ذلك عدنا إلى "حجرة ثمد".

لم يسبق لنا أن قضينا جزءاً من الليل في السفر.. ولذلك نسينا أمر توفير الطعام الآن. ولما كان الطعام الذي نحتفظ به لا يكفينا جميعاً، فقد برزت لنا مشكلة جديدة. غير أن ويبان لم يشأ أن يهزمه مثل هذا الأمر، إذ سرعان ما خرج بحثاً عن طعام وماء في منحدر الشعب عند الجداول. ولم يطل غيابه عنا كثيراً.. ولم يعد ويبان وحده. وإنما عاد ومعه أحد أصدقائه يجر جدياً بينما يحمل ويبان قربة ماء. وعلى الأثر قمنا إلى الخرائب الموجودة هناك لنحتمي بجدرانها من برودة المساء. وأشعلنا ناراً كانت ألسنتها تبعث فينا الدفء، بينما راح الرجال يعالجون الجدي على النار فتنبعث في الجو رائحة الشواء اللذيذة التي تُمنّينا بعشاء دسم.

كان رفيقنا الجديد يدعى دُليم بن سَمران بن محمد (؟) بن سمرا، من فخذٍ آخر من بني رشيد، غير أنه لم يكن هو ولا ويبان، على علم بأي شيء عن تاريخ السد الذي زرناه، أو أي شيء يتعلق بماضي السدود الأخرى في المنطقة. وكذلك فإن اسمه الغريب "قصر البنت" لم يثر فيهما شيئاً من حب الاستطلاع، إذ كانا يعرفان أن هذا القصر ليس سداً!

وقد احتمينا من الرياح وراء جدران الخرائب التي تبينت فيما بعد أنها كانت لمسجد. كانت الرياح قد أخذت تشتد وتبرد منذ الصبح، لكن لحم الجدي عندما تم طهيه، أشاع في أجسامنا دفئاً لذيذاً. والتهمنا عشاءنا... وقُدم لنا الشاي.. وشعرت بأن العالم على خير ما يرام. وكنت في بحبوحة لولا أنني اكتشفت أنني قد نسيت إحضار شيء من الطباق!! (وهو التبغ الذي يستخدم مع الغليون) آه، لقد فطنت إلى ذلك بعد أن استهلكت كل ما معي في الكيس!

وبطبيعة الحال لم يكن معنا فراش لننام عليه، ولذلك فقد كوَّرنا أجسامنا على التراب، وحول النار التي كان "دليم" يغذيها بالوقود بين الفترة والأخرى.

والواقع أننا نمنا نوماً عميقاً كنوم أهل الكهف، رغم أسراب البعوض التي كانت تهاجمنا بحدَّة، غير آبهة بدخان النار الذي قيل أنه يمنع البعوض من امتصاص دماء الناس. لكن.. يبدو أن بعوض هذه المنطقة من النوع الجريء الذي لا يفزعه الدخان!

استيقظنا في الوقت المناسب لأداء فريضة الصلاة، ومن ثم لتناول الشاي، فتحلّقنا حول النار فترة من الزمن، تاركين لأشعة الشمس فرصة كافية لتدفئ الجو. وما أن أزفت الساعة الثامنة حتى نهضت لإحضار السيارة، إلا أن محركها رفض أن يدور.. لقد كان بارداً جداً. وهكذا عمدنا إلى دفعها. ولعلنا دفعناها مسافة ميل! وعلى الرغم من أننا كنا نلمح بارقة أمل بين الفينة والأخرى خلال هذه المسافة، فقد عاند المحرك ورفض أن يعمل. وراحت جهودنا عبثاً. حينئذٍ تطوع وبان لأن يعود ماشياً إلى المكان الذي تركنا فيه بقية السيارات، ليسأل القوم هناك أن يساعدونا. وقد أمضيت الوقت حتى عودته بدراسة المنطقة المحيطة بالخرائب.

وقد لاحظت أن جبل "البيضاء" قد اختفى عن العيان نهائياً، إلا أن "الجبل الأبيض" ظلّ يُرى إلى الشرق والشمال الشرقي من المكان الذي كنا فيه. كما كانت سلسلة جبال "الحرّة"، الذي يشكل الجبل الأبيض وسطها، بادية للعيان أيضاً. وقد استطعت أن أعدّ

ثلاث عشرة قمة من قمم تلك السلسلة، في الجهة اليسرى، وسبع عشرة واحدة في الجهة اليمنى. والجدير بالذكر أن جميع هذه القمم قد تشكلت إثر ثورة بركان حَدثَ في غابر الأزمان.

وتمتد في أقصى الشمال الغربي على كتف جبل عطوة سلسلة عظيمة من الجبال المعروفة باسم جبال "الحَجَر" ذات القمم الثماني المرتفعة. ولو نظرنا شمالاً إلى أبعد من جبال الحجر لوجدنا قمم "جَمْره" الذي يبين الطريق المؤدي من خيبر إلى "حايل"، وهذا الطريق التي كان يتحتم علينا أن نسير فيه بعد قليل، قبل أن نتحول إلى خيبر. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الطريق المباشر الذي يصل بين خيبر و"العلا" الواقعة على الخط الحديدي – ويجتاز سهل "صحن" – يستغرق ثلاثة أيام إذا ما أراد المرء أن يُظعن على الجمال.

كانت الساعة قد بلغت الثالثة من عشية يوم عيد الميلاد عندما عاد ويبان ومعه "فريق الإنقاذ"، وكان هذا الفريق مؤلفاً من محمد العريفي و"السيد" – السائق – الذي راح يعالج سيارة الـ "لاندروفر". وسرعان ما استجابت له ودار محركها بانتظام. ولم آسف لأنني سأغادر هذه المناظر التي تحيط بي. فالمسجد الذي لم يعد مسجداً منذ قديم الزمان ولم تؤدّ فيه الصلوات التي كان بُناته يريدونها أن تؤدى فيه.. كان يستعمل عندما زرناه، كزريبة للماشية. كما كان يلجأ إليه من كان مثلنا، لطهو طعامه.

أما المسيل الرئيسي لوادي الغراس، والذي كان علينا أن نسير بمحاذاته حتى نصل آبار "عفاريّة"، فقد كان على بعد ميل من مكاننا.

ووصلنا إلى تلك النقطة، ومن هنا أصبح مستحيلاً علينا أن نتقدم ياردة واحدة بالسيارات. كان السد فوقنا على مسافة ميل لا أكثر، وقد سرنا باتجاهه فوق أرض صخرية وعرة كنا نجد خلالها عدداً كبيراً من البرك المائية، قيل أنها تكونت عقب الأمطار التي هطلت أخيراً وسببت فيضاناً قبل خمسة أسابيع. كانت الآبار الستّ في "العفارية" تحتوي

على ماء عذب غزير، وان هذا الماء موجوداً في تلك الآبار على عمق يتراوح بين قامتين وأربع قامات. وتقع هذه الآبار وسط مجموعة من أشجار النخيل. وفي هذه النقطة كان الاتجاه العام للوادي يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي.

إن السد المشهور باسم سد "قصر البنت" أكثر أهمية من سد "حاسد"، غير أن ربع جداره الأيمن قد جرفته السيول، ولم يبق منه إلا بعض الحجارة التي تدحرجت إلى ضفة الوادي. أما بقية السد فهي ما تزال قائمة بارتفاع يبلغ حوالي خمسين قدماً، وبسمك يبلغ ١٣.٥ قدماً. ويبلغ هذا السمك ضعف ذلك الرقم عند قاعدة السد.

كان يبدو أن طول السد الأصلي يزيد على خمسمائة ياردة، وأن جدرانه قد بنيت من حجارة صلدة غير مشذبة، وإن كانت قد رتبت فوق بعضها بعناية ومهارة، ثم عالجها البناؤون بالجص. وقد لاحظت أن القسم العلوي من السد قد دعم بطبقة من "الملاط" إلى مسافة عشرة أقدام. ولعل ما تبقى من جدران السد كانت مدعمة بطبقة مماثلة من الملاط إلا أنها جرفتها المياه. وهنا أيضاً لم أجد أي أثر للإنفاق المنظمّة لتدفق الماء. وربما أن ما قلته عن سد حاسد ينطبق تماماً على سد قصر البنت؟

والأرجح أن المنطقة الزراعية، كانت في أعلى الوادي حيث وجدنا أعداداً من الأشجار المختلفة الأنواع، كما وجدنا أنواعاً من الخضراوات التي نبتت في المناطق شبه الصحراوية. ولم يكن ويبان يذكر أنه قد وقع فيضان كبير في هذا الوادي، غيرأن السكان الذين قابلناهم في المنطقة ذكروا أن فيضانين هائلين قد حدثا على ما يذكرون، نتيجة انحباس الماء عند سد حاسد. وقد بلغ من قوة هذين الفيضانين أن طغت مياههما فوق السد. ومن هؤلاء السكان علمت أن الفيضان الثاني حدث قبل عشرين سنة. أما الأول فقد حدث قبل خمس سنوات من هذا التاريخ.

وحين عدنا إلى المخيم، وجدت أننا لم نكن نملك شيئاً للاحتفال بعشية عيد الميلاد، باستثناء نوع من الخبز المحلّي الأسود الذي يشبه، إلى حد كبير، الخبز "المحمص" عند

الغربيين. حتى أننا كنا نضطر إلى غمسه في الشاي ليصبح قابلاً للأكل. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن لدينا طباق لـ "غلايينا" وكل ما كان لديَّ في تلك اللحظة "علبة" سجائر، رُحنا ندخنها بنهم ونحن نحتسي الشاي. ولم يكن من الممكن أن نجد لحماً في تلك الليلة، بالنظر لعدم وجود رعاة في تلك المنطقة، نشتري منهم بعض الماشية. ، إني لأشكر الله على أننا استطعنا أن نشعل ناراً في تلك الليلة. وتحلّقنا حولها..

وقد أتحفنا "السيد" بروايته قصصاً عن البطولات العربية، التي حفظها أثناء دراسته، كما ساهم ويبان في ذكر بعض المعلومات عن المنطقة.

وعند البئر الرئيسية من آبار "عفارية" وجدت بعض المنقوشات غير ذات أهمية. وكان أحد الحجارة المنقوشة يحمل تاريخ ٣٢٢، وربما كان المقصود بذلك سنة ١٣٢٢ للهجرة، أي ١٨٩٤-١٨٩٥ بعد الميلاد. وكانت هنالك حجارة أخرى مماثلة، لعلها نُصُب تذكارية لعائلة حاولت أن تقطن بالقرب من هذه الآبار. ومرة أخرى وجدت الكثير من البعوض في هذه المنطقة.

هذا وقد بدأنا رحيلنا في صباح يوم عيد الميلاد، بينما كانت أشعة الشمس ما تزال باهتة تحاول اختراق السحب التي تتجمع في السماء. ولم يمض طويل وقت حتى وصلنا إلى "المُعرَّش" وهي النقطة التي بدأنا منها سيرنا في هذا الاتجاه. وهناك التقينا ببقية الرفاق. وفي تلك المنطقة اشترينا كمية من تمور وشاي المدينة. ووجدت كمية من التبغ استطعت أن أسد بها حاجتي الماسة إلى الطباق والتدخين. وهكذا، انهمك طاهينا في إعداد طعام إفطار لذيذ مؤلف من التمر المهروس والبصل والبيض. وفي الوقت ذاته جلست استمع إلى أخبار الإذاعة البريطانية.

كان الوقت يقارب الساعة الحادية عشرة صباحاً عندما استأنفنا سيرنا من جديد. وإذا كانت الريح تهب باردة فقد جعلتنا على عجل من أمرنا. وسرعان ما وصلنا إلى الطريق الرئيسية من جديد، ومن ثم أدرنا وجوهنا باتجاه "خيبر"، وأخذنا نجتاز سهلاً واسعاً تشع

فوقه بين الفينة والأخرى أشعة الشمس الباهتة. وكان صخور جبل "عطوَه" تقع إلى يسارنا وتمتد بمحاذاة الطريق الذي نسير عليه ، إلا أنها لم تلبث أن تحولت إلى الجهة اليمنى من الطريق بعد مسيرة لا تزيد على نصف ميل. وبعد مسيرة بضعة أميال أخرى عاد الطريق ليصبح صعباً ووعراً كثير النكد. لكنه لم يمض طويل وقت حتى استطعنا العثور على اللوحات الشهيرة ، تقبع بين أشجار النخيل لتحدّث الناس بكل أمجادها. كما عثرنا على القلعة القديمة التي شيدها اليهود على المرتفع الصخري القريب من تلك الواحات ، والذي يطل على أشجار النخيل وغيرها من الأشجار التي عاصرت التاريخ. وهنا توقفنا لبعض الوقت كي نقوم بدراسة المنطقة ، قبل أن نصل إلى الميدان الذي يقع فيه سوق "الشُرَيف".

وبذا نكون قد قطعنا في رحلتنا هذه ٢٢٥ ميلاً منذ أن غادرنا المدينة المنورة ، مع أن المسافة من المدينة إلى خيبر على الطريق العادية لا تزيد على ٨٩ كلم. وكان "قصر البنت" يقع على بعد حوالي ٣٠ كلم من خيبر ، بينما كانت المسافة من خيبر إلى "سد حاسد" تعادل الثلاثين كيلومتراً أيضاً.

# خيبر وجاراتها

شعرت وأنا في خيبر، بأنني في مكان مقدس، مكان زارهُ "شارلز دوتي" منذ نيّف وسبعين سنة. وقد وصفه بروعة وإتقان، ولم يترك إلا القليل القليل يذكره غيره عن مثل هذا المكان الأثري.. وما أقلّ ما تغير فيه منذ اليوم الذي زاره فيه شارلز! إن الموقع مبنيٌّ بشكل طبيعي يجعله حصيناً ضد السيارات والآليات الأخرى. فإذا ما استثنينا بعض البنايات التي شاهدها شارلز أثناء زيارته، والتي هدمها الزمن والإهمال، فإن التغير الوحيد الذي طرأ على المنطقة لم يكن غير تغير طفيف، مجمله نمو ضاحية جديدة في الجهة الجنوبية على مقربة من الواحات. وفي هذه النقطة بالذات يتحتم على السيارات ومختلف أنواع الآليات أن تتوقف.

وفي وسط هذه الضاحية أقيم مركز تجاري فيه متاجر ومخازن تحيط بالسوق وبيوت السكن. وهي بيوت أحدث طرازاً من تلك الموجودة بين الخرائب، وتمتد على جانبي السوق فوق مرتفع من الأرض يحيط بجانبي تلك السوق. في هذه المنطقة أنشأ تجار "المدينة" وغيرها من المدن السعودية فروعاً لمحلاتهم، وبيوت سكنٍ يقيمون فيها كلما حضروا إلى خيبر من أجل تنشيط تجارتهم وتوسيعها. والمعتَقد بشكل عام، أن المرتفع من الأرض الذي

شيدت عليه منازل السكن صحي أكثر من المناطق المخفضة، كما أنه خال من البعوض. غير أن هذا التحرر من البعوض كان أمراً نسبياً. إذ أني وجدت البيوت الجديدة التي كان من المقرر أن تصبح مقراً لنا أثناء إقامتنا، مليئة بمختلف أنواع الحشرات المخيفة، كما أنها خالية من المراحيض. والأصعب من ذلك أنها كانت خالية من الحمامات، أو حتى مجرد "مسيلة" للماء من أي نوع كان.

تركنا السيارات في رعاية السائقين والخدم، فور وصولنا، وتوجهنا على التو لنقدم احتراماتنا إلى حاكم المنطقة. وكانت طريقنا إلى الحاكم تمر عبر غابات من أشجار النخيل، تمتد على طول الطريق الذي يمر بثلاثة ينابيع تزوّد الأراضي المحيطة بها بالماء. وقد انتهى بنا الطريق إلى أسفل صخرة القلعة. وتسلقنا هذه الصخور بصعوبة فائقة لنجد أنفسنا أمام "السراية" أي مسكن الأمير، الذي وقف في الباب الأمامي ليرحب بنا حسب الطريقة المعروفة هناك في المجاملة.

كان هذا الأمير يدعى "حمود بن سيف"، وهو في الأصل من سكان حايل. وهو شخصية مهيبة في السبعين من عمره. وكان قد تولى منصب حاكم خيبر مدة عشر سنوات أو أكثر. ويبدو أنه كان قادراً عل السيطرة على "ناحيته"، كما أنه كان كثير التجوال في أرجاء المنطقة بشكل يفوق غيره من حكام المناطق الأخرى. ويساعد هذا الحاكم في تصريف أمور "الناحية" ولداه، وهما شابان أحدهما يدعى عبدالكريم والثاني يسمى إبراهيم. وهما يعتبران من جملة موظفي الحاكم ويتقاضيان رواتب من الدولة. وكان الأول، عبدالكريم، مسؤولاً عن إمارة "جيزان" عندما زرتها لأقوم بمسحها في سنة ١٩٣٧ . وقد رافقني أثناء قيامي المهمة، واثبت أنه موظف رسمي يستطيع القيام بواجباته في نقطة حساسة تقطنها قبائل معروفة بشراسة الطبع.

دار الحديث بطبيعة الحال، عن تلك الأيام الخوالي، وعن المناطق التي نود أن تجري فيها أبحاثنا هذه المرة. وكنا نتحدث، بينما نحن نحتسي القهوة، ثم تركت مضيفي وأنا أشعر بشيء من الاقتناع بأنه سيلبي جميع رغباتي التي شرحتها له.

وفور عودتي إلى "الشُريْف" عبر الطرق التي قدمنا منها، قمت بمعاينة البنايات التي خُصصت لنا، فوجدتها قديمة البناء تقع وسط صف طويل من الدور التي يجري تشييدها لحساب تاجر من المدينة المنورة يدعى "حسن غَوْث". وقد اخترت لنفسي غرفة واسعة وضعت فيها متاعي وحاجياتي، بينما أجتمع بقية المرافقين في غرفة اصغر، طلباً للمزيد من الدفء. وكانوا يتحلقون حول وجاق كبير أعدوا ناره لصنع القهوة. وفي هذه الغرفة كانوا يحتسون القهوة ويستقبلون زوارهم من المدينة، ليل نهار دون انقطاع.

وكنا بعد غياب الشمس نعود من عملنا فنعرّج على قلعة "مَرْحَب" حيث يقوم الأمير بالترحيب بنا ويقيم لنا مأدبة تليق بعيد الميلاد، فهي فاخرة عامرة بالأرز ولحم الغزلان، وغير ذلك من الأطباق الشهية الأخرى. ويبدو أن قلعة "مرحب" كانت في عهد الأتراك، وربما عندما زارها دوتي، خراباً. أما مركز الحكومة فقد كان في قلعة يطلق عليها اسم "قصر الصفصافة" الذي أصبح مجموعة من الخرائب الآن. وهو يقع في الأراضي المنخفضة بين أشجار النخيل والقسم العلوي من الوادي، على مقربة من الينابيع التي تدعى بالاسم ذاته.

ومهما يكن من أمر فإن قلعة "مرحب" قد أعيد ترميمها زمن الحكم السعودي (وعلى وجه الدقة في سنة ١٩٣٠) بناء على طلب أحد الحكام، وكأن هذا الحاكم أراد أن يعيش بسلام، بعيداً عن جيوش البعوض التي تنطلق من المستنقعات التي تخلّفها مياه الواحات.

كانت أحاديثنا، أثناء تناول طعام العشاء وبعده، تدور حول موضوعات رزينة ذات بال، بما فيها التاريخ التقليدي لمدينة خيبر، التي كانت تقطنها بعض جاليات اليهود، والذين هاجمهم النبي محمد ﷺ. وقد نشبت المعركة الفاصلة بين الفريقين في موقع قرية "أُم

كداء" Kida، حوالي ميلين إلى الجنوب الغربي من القرية الرئيسية في المنطقة المعروفة باسم "قريّات البشر، وهي على مرتفع من الأرض يطلّ على جدول يخترق "الحرة" ليعود فيتصل بغيره من الجداول التي ترفد وادي الغراس. وهناك رأيت مسجداً أقيم تخليداً لذكرى معركة الرسول مع يهود خيبر. أما شهداء المسلمين الذين سقطوا في تلك المعركة فقد دفنوا في مقبرة أطلق عليها اسم "مقبرة الشهداء"، تقع في مكان قريب من قرية البشر، هو في الواقع أرض رخوة لقربها من المستنقعات التي تزوّدها بالماء عدة ينابيع صغيرة هناك.

إن الأرض المرتفعة التي تحيط بخيبر مسيّجة بجدار من الحجارة الصلدة، بنيت كيفما اتفق، لتشكّل شبه غرف غير مسقّفة، يؤمها البدو كل سنة، عندما يحين موسم جني محاصيل التمور، فيتزودون بحاجتهم منه طوال العام. ويشاطر البدوُ في ملكية هذه الأشجار "العبيد" الذين يقومون بجميع الأعمال التي تتطلبها فلاحة الأرض والعناية بالأشجار. وكل ذلك على نفقتهم الخاصة، مقابل الحصول على نصف المحصول. أما البدو فليس لديهم أي اهتمام بأمور الفلاحة، وكل همهم أن يحصلوا على حصتهم من التمر بوصفهم ملاّكي الشجر، ودون القيام بأي عمل.

ويبدو للوهلة الأولى أن تلك "المرابط"، كما يدعوها البدو، لها شأن ووظيفة. وهي خط الدفاع عن خيبر ضد غارات البدو. ولكن الحقيقة، كما رأيتها، هي أن هذه المرابط ليست أكثر من مقرات تنفع حشود البدو المهاجمين. وبذلك يكون عملها معاكساً لما يمكن أن يتوقعه المرء أو يطرق خلده.

ومن الطبيعي أن الحكومة تنال حصتها من ناتج التمر قبل اقتسام المحصول بين البدو والعبيد. وفي مقابل ذلك نراها لا تأتي بأي عمل للوقوف في وجه اغتصاب البدو أثمارَ النخيل، ولا تبدي أي اعتراضا على الطريقة التي يقتسمون بها الأثمار مع أولئك الذين يقضون كل أوقاتهم في العناية بالأشجار، رغم أن هؤلاء يعيشون حياة مزرية للغاية.، بل إنها لا تتدخل لتحسّن أنصبة "العبيد" من تلك الأثمار.

هـذا وقد حدث في الفترة الأخيرة أن زار خيبر عدد من الأمريكيين والخبراء الأجانب بما فيهـم عـدد مـن الأطباء المصريين. وذلـك مـن أجـل تقديم تقرير عن خير السبل الكفيلة بالقضاء على البعوض في المنطقة، وأحسن الوسائل لمد شبكة للري فيها. غير أن دولة البعوض ما زالت تهيمن على المنطقة دون منازع، كما أن المياه ما زالت تتدفق فوق الأرض فتركد فيها مشكّلةً عدد من المستنقعات. تماماً كما أرادتها الطبيعة أن تفعل منذ بدء الخليقة.

وباستثناء رواتب موظفي الحكومة وعلاواتهم فإن رجال البوليس، وغيرهم من الموظفين الذين لا يتلقون رواتبهم بانتظام، لم يروا شيئاً من الأموال الكثيرة التي تفيض من إنتاج البترول. تلك الأموال التي نال منها كل قسم من أقسام البلاد حظه بشكل أو آخر. وبقيت خيبر كما هي منذ قديم الزمان. حتى أن الحكام المحليين لمثل هذه الأقاليم المنسيّة يعترفون صراحة بعدم إطلاعهم على نشاط الحكومة المركزية، إذ لا تصلهم بخصوص ذلك أية معلومات إلا نادراً.

تناولنا طعام الغداء في دارنا في اليوم الأول لوصولنا.. ثم أمضيت بعد ظهر ذلك اليوم في بحث شاق عن الحجارة المنقوشة بين الأحجار والصخور الواقعة على مقربة من "دُونانه" في أعالي نبع "عين إبراهيم". وكذلك قمت بإجراء أبحاث قرب "الصفصافة"، وتقع فوق العين نفسها والقلعة التي تحمل ذات الاسم. وقد رافقني كل من عياض وويبان في هذه العملية الشاقة. ولم يمض وقت طويل حتى وجدنا القسم الأكبر من سكان خيبر والواحات القريبة يدورون حولنا، يرقبون وقوع إحدى المعجزات.

هذا وقد عرضت بحماقة على أهالي خيبر مبلغ "ريال" (ويساوي شلنين) لكل من يدلني على أحد الحجارة المنقوشة، أو يدلني بأية معلومات تؤدي إلى العثور على أحد هذه الأحجار، شريطة أن لا تكون هذه مجرد نقوش عربية لا قيمة أثرية لها. وكانت تلك المنطقة الصخرية مليئة بالنوعين من تلك الحجارة. أما التي كنت أسعى للحصول عليه،

فهي الحجارة المنقوشة التي تعود إلى عهد ثمود، وتحمل نصوصاً عبرية. ومما أغاظني بالفعل أنني تلقيت كيساً مليئاً بالنقوش، إلا أنني لم أجد بينها أي نقشٍ عبري يحمل اسم أي يهودي، أو يتحدث عن نشاط اليهود في خيبر.

والتفسير الوحيد لذلك، هو أن اليهود كانوا متقدمين أكثر من العرب في ذلك الوقت، ولذلك فإنه من المحتمل أن يكونوا قد استعملوا سعف النخل، أو رِق الغزال، أو غير ذلك من المواد السريعة التلف، في تدوين ما شاؤوا من تاريخهم ومراسلاتهم. ومن الطبيعي أن مثل هذه الأشياء لا تعمر طويلاً، وخاصة إذا كانت مدفونة في أراضي الواحات التي تشبه المستنقعات. أما المنقوشات التي تحمل الأسماء العربية وتواريخ الأعراب الذين عاشوا في المنطقة، فقد كانت كثيرة للغاية، لكنها لا قيمة لها!!

كانت صورة الوعل تحتل مكان الصدارة بين الصور المنقوشة على الحجارة، ومن حين لآخر كنت أقع على صورة لجمل أو غيره من الحيوانات التي تكثر في هذه المنطقة. إلا أنني قلما وجدت صورة أحد المخلوقات الأخرى، ولو على سبيل تغيير المنظر.

ولم يكن بعد ظهر ذلك اليوم الأخير مشجعاً، ومع هذا فقد كان لدي الكثير من العمل. وقد تمكنت عن طريق الصور الموجودة هناك، من أن أدرس طبيعة المنطقة دراسة وافية. فإلى ما وراء دونانة والصفصافة كانت الصخور تمتد. وقد بدا لي أن لهذه الطبقة الصخرية خواص مغناطيسية ظاهرة، استدللت عليها من تحرك إبرة البوصلة التي كنت أحملها. ومن هذه النقطة استطعت أن أحظى بأروع منظر للواحات، ولقصر "مرحب". وكان يقع إلى الشمال الشرقي من المكان الذي أقف فيه. كما أنني شاهدت ضاحية "الشريف"، ولمحت قبالتي تماماً إلى الشرق — جبلَ الأبيض.

أما دوني مباشرة، فكانت تقوم قرية "البشر"، دورها عند أسفل الصخرة المؤدية إلى القلعة. ولو التفتّ إلى اليمين قليلاً، لوجدت الينابيع التي سبق أن أشرت إليها، بما فيها

"عين علي". وفي هذا المكان بالذات قام الإمام علي منفرداً، بذبح كبير اليهود الذي كان يقطن في قصر "مرحب". ومن هنا نشأت فكرة تكريم النبع فأطلق عليه اسم "عين علي".

أما عين إبراهيم فهي "المروى"، أي المصدر الرئيسي الذي يزود القرية بماء الشرب. وذلك بالنظر لأن معظم الينابيع الأخرى لها طعم المياه المعدنية. وهنالك "عين الراية" وهي تحدد البقعة التي نصب فيها الرسول رايته. أما قطاعا قرية "أم كِدّا" فهما يقعان في الجهة الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية على التوالي.

وتقوم قرية "روّان" (وتلفظ أحياناً "روّال") على مرتفع صخري يقع إلى الشمال الغربي من الواحات، يميزها عما حولها تلك القمة الرملية التي تتوج جبل "القُرَيْن"، والتي كانت تبدو من مكاني وكأنما هي ترتفع من وسط الحوض بين حقول النخيل.

خصّصت اليوم التالي لزيارة موقعين أثريين في "الحرّة" قيل لي أنهما مليئان بالنقوش. ويسمى المكان الأول "المقَطْب"، أما الثاني فهو "أبو قُتَيْبَة". ومن هذين الاسمين يمكن للمرء أن يتصور وجود النقوش فيهما.

وهكذا.. وجدتني في اليوم التالي اصطحب ويبان وأحدَ رجال الأمير (ويدعى عبدالله) لنمضي إلى هدفنا على ظهور الحمير. وقد مررنا أثناء رحلتنا هذه بمكان يدعى شعب الـ "زِيَدية"، رأينا فيه مزرعة يطلق عليها اسم "العُميني"، لاحظنا فيها بئراً وعدداً من أشجار النخيل، وبعض محاصيل الحبوب.

من هنا انطلقنا نصعد إلى "الحرّة" ذاتها، بينما كان مسيل "زيدية" على يميننا، وشعب "هَلهَل" الأهم منه، على يسارنا. وفي هذا الشعب وجدنا بساتين صغيرة من أشجار النخيل.

وبعد مسيرة قليلة وصلنا إلى المنطقة الزراعية التي تعرف باسم "عين قصّبه". وكانت هذه المنطقة ذات منظر رائع لما تحويه من نبات "السعد: الملتف، وشجيرات المريمية التي

يسمونها "القرط". هذا بالإضافة إلى حقول الحبوب. ولم نلبث طويلاً حتى وصلنا إلى آخر هذه المنطقة الزراعية، ومن ثم أخذنا نسير في أرض بور غير مستصلحة، بينما كان مسيل شعب "هلهل" الآن قد غدا إلى يميننا مصعّداً نحو أعالي "الحرَّة". وفي الوقت المعين وصلنا إلى خرائب "المقطب"، بعد أن وصلنا أرضاً صخرية يصعب السير فيها.

هذا وتعترض المسيل في قاع الوادي صخور ضخمة تحجز المياه خلفها على شكل بركة صغيرة مياهها آسنة. وعلى هذا المستنقع، كان البدو يوردون قطعان مواشيهم وإبلهم منذ قديم الزمان، حيث تركوا عند صخوره نقوشَهم الكثيرة التي ترجع إلى عهد ثمود. وقد قمت بنسخ هذه النقوش وتصويرها بصعوبة كبيرة، في الفترة التي جلسنا فيها للاستراحة وتناول طعام الغداء.

وبعد أن تناولنا غداءنا توجهنا جنوباً، ومن ثم باتجاه جنوبي غربي قاصدين إلى هدفنا الثاني. فعبرنا إليه عن طريق ممر لا يتسع لأكثر من حمار واحد، ويخترق صخوراً عالية مبعثرة في ذلك القفر اللانهائي من سواد الحرة.، وقد استغرقت طريقنا عبر هذا الممر إلى "أبو قتيبة" حوالي الساعة، ووجدناه عبارة عن غدير يتوسط مسيل شعب "سُدَير". وفي "أبو قتيبة" وجدنا مياهاً غزيرة، على نقيض غدير "المقطب" الذي كان جافاً عندما زرناه في الصباح. وقد قيل لي أن المقطب يحتجز كميات من مياه السيول في أعوام الخير، إلا أن هذه المياه لا تلبث أن تغيض في الأراضي المحيطة به، أو تتبخر بفعل حرارة الشمس. أما "أبو قتيبة" فقد كان مليئاً بالماء الذي شكّل لغزارته بحيرة يبلغ طولها مائة متر، ومعدل عرضها الخمسين متراً. وتقع هذه البحيرة بين صخور عالية، وعلى جانبيها سد صخري طبيعي مرتفع يشبه إلى حد ما، تلك السدود التي تُنشأ لمنع الفيضانات.

وفي هذا المكان أيضاً وجدت العديد من النقوش بين الصخور، إلا أنها كانت كلها باللغة العربية، وليست بذات قيمة تاريخية جليلة. ولعلها نقشت بأيدي الحجاج الذين تحولوا عن الطريق الرئيسي طلباً للماء.

الآن لاحظت أن شعب "سُدَير" يلتقي بشعب "زيدية" في وادي خيبر. وقد تتبعنا في سيرنا مسيل الوادي المغطى بالشجيرات والأشواك زمناً من الوقت كنا خلاله ننحدر مع القناة، حتى وصلنا إلى مخاضة قطعناها إلى أرض أقل وعورة، توجهنا منها نحو الطريق الرئيسية التي تؤدي إلى المدينة المنورة. وهناك وجدنا سيارتنا "اللاندروفر" بانتظارنا بين أنقاض خربة "العمائر" المكومة على حافة الطريق.

كانت المنطقة التي زرناها حتى الآن تقع إلى الشرق من خيبر. وقد جفل منا سرب من غزلان "الإدمي" عندما اقتربنا من "أبو قتيبة". فجرّب وبيان مهارته في الرماية وأطلق عياراً نارياً أخطأ مهاه عن قرب.

وتناولنا طعام العشاء المعهود.. ثم لم نلبث أن توجهنا إلى بيت كبير تجارِ المنطقة حيث دعانا لشرب القهوة هناك.

كان هذا التجار المعتبر يدعى عبدالله الهندي. وكما يدل اسمه فقد كان الرجل هندي الأصل، ولكنه قطن المدينة المنورة منذ زمن بعيد، وكون لنفسه ثروة لا بأس بها. وقد أصبح "عبدالله" الآن من أصحاب الأراضي المعتبرين، بعد أن اشترى رقاعاً من الأراضي ومزارع النخيل من أصحابها البدو، ثم فلح أراضيه بذكاء ومهارة فدرت عليه أموالاً طائلة.

ومن بين ضيوفه الذين قابلناهم في بيته الشيخ "علي أبا الخيل" قاضي خيبر، وهو من عشيرة "بُرَيْده" الرفيعة، التي كانت في وقت ما من العائلات ذات السلطان والنفوذ. وشاء هذا الشيخ أن يحتكر الحديث طوال الفترة التي مكثناها هناك، لكنني لم أمكنه من ذلك، فقد تجاذبت مع الحاضرين أطراف الحديث وبحثنا في تاريخ المنطقة، وموضوع النقوش، ومكان وجودها، وغير ذلك من الموضوعات العامة التي أثارها كون التاجر الهندي يملك جهازاً للراديو، ويواظب على سماع نشرات الأخبار من مختلف الإذاعات العربية.

وقد قال لي مضيفي أنه في الموسم التي تهطل فيها أمطار غزيرة تتدفق بها السيول، ترسل ينابيع خيبر كميات من المياه على شكل نهر تقريباً. وفي هذا النهر توجد أسماك يبلغ طول الواحدة منها قدمين، تعيش في الفجوات المغمورة التي تتشكل بين الصخور. وبالإضافة إلى ذلك فإن التمور والقمح والشعير تنمو بكميات وافرة في المنطقة. غير أن هذه المحصولات تخضع لنظام الضرائب العينية، التي يحصّلها أعوان أمير حايل. ولم يكن من السهل أن احصل على معلومات تدلني على نسبة هذه الضرائب من مجموع المحصول، غير أني توصلت إلى فكرة عامة عن ذلك، بعد محادثات عديدة حول هذا الموضوع. ومجملها أن حصة الحكومة من محاصيل التمور في المواسم العادية تبلغ ثلاثمائة حمل جمل، وكان الحمل منها يتألف من "فردتين"، وكل "فردة" تزن سبعين "وزنة"، كل وزنة تبلغ حوالي كيلو غرام. وتذهب هذه الكمية إلى الأمير وموظفيه في حايل. يضاف إلى ذلك مائة حمل أخرى كمصروفات لمحصّلي الأعشار الذين يسافرون في العادة على شكل مجموعات يرأس كل مجموعة منها رجل مسؤول. وهكذا، تكون الضريبة العينية التي يدفعها أصحاب التمور حوالي ستة وخمسين ألف كيلو غرام، على أساس أن مجمل المحصول من التمر يقدر بخمسمائة وستين ألف كيلو غرام، أو ما يعادل خمسمائة وستين طناً.

وتعادل أعشار القمح ضريبة التمور من حيث الكمية، إلا أنها تختلف عنها في أن محصّلي الضرائب يبيعون نصيبهم في المكان الذي يحصّلونه فيه. ومن ثم يعودون وهم يحملون النصيب نقداً. وبطبيعة الحال فإن مقدار هذه الأعشار يختلف بين سنة وأخرى وفق المحاصيل وتبعاً لأسعار الحبوب في الأسواق. ولم يستطع عبدالله الهندي أن يعطيني ولو فكرة تقريبية، عن حصة الحكومة من هذه الضريبة، إلا أن تقديراتي الخاصة بعد مشاهدتي الأراضي التي تزرع بالحبوب في تلك المنطقة، أقنعتني بأن منتوج الحبوب فيه وفير في سنوات الخصب.

واستناداً إلى أقوال عبدالله الهندي، لا يزيد عدد سكان الواحات على ثلاثة آلاف رجل، موزعين على القرى السبع الموجودة في الوادي، وهي قرية البشر (وهذه هي المركز الإداري للمنطقة) وقرية "أم كدا"، و"زُوَّان" و"نتاح" و"لاتاح" و"أبو وشيع"، و"الوجْده"، وأخيراً "الوادي". وتقوم القرية الأخيرة في أول وادي الغراس، عند تجمّع روافده على مقربة من قرية "زَيَران" التي تقوم على الضفة اليمنى للوادي.

هذا وقد قدر الهندي عدد البدو الذين يفدون إلى المنطقة في موسم جني الثمر بما يتراوح بين ٥٠.٠٠٠ و٦٠.٠٠٠ نسمة. ولم أرَ في هذا التقدير أية مبالغة، لا سيما وأنا أعرف المساحات الشاسعة التي تغطيها أشجار النخيل.

وليس من شك في أن بين هؤلاء البدو عدداً كبيراً من الزائرين الذين يفدون إلى المراكز التجارية لشراء مؤونة السنة، مما يحتاجون إليه من مواد غذائية وغيرها. وقد سمعت من الأمير فيما بعد، أن عدد الشباب الذكور البالغين الذين يقطنون هذه المنطقة يبلغ ألف شخص. ويعني هذا التقدير أن عدد السكان بأسرهم، أكثر ما قدره عبدالله الهندي، بما يعادل ألف شخص تقريباً وربما أكثر.

كان اليوم التالي مخصصاً لرحلة شاقة متعبة للبحث عن النقوش قرب الواحات. ومن حسن حظي أن الأتان التي أركبها (وكانوا يسمونها "العجلاء" نسبة إلى سرعتها) كانت أتاناً ممتازة ذات خطوات ثابتة، ولا يخشى راكبها من أن تزل قدمها وهي تصعد بين الصخور.

وقد رافقني في هذه الرحلة كل من ويبان ورجل الأمير المدعوُ عبدالله، وهو من قرية "زلفي"، وشخص آخر يدعى مُطيْر من قرية البشر. وكان الأخير يعرف المنطقة معرفة جيدة، وتلك البقعة التي كنا ننوي زيارتها على الخصوص. ولم يكن ممن رافقوني من المدينة متحمساً لمرافقتي في هذه الرحلة الشاقة، وإلى أماكن لم يسبق لأي منهم أن رآها من قبل. ولذا فقد سروا كثيراً لبقائهم في الدار يستقبلون ضيوفهم بحماسة، ويقدمون لهؤلاء

الضيوف الذين كانوا يفدون من القرى المجاورة، فناجين القهوة العربية المرة، فيحتسونها برفقتهم حول وجاق النار.

وبعد أن مررنا بينبوعين هما "عين الراية" و"عين الرُفيْفة" صعدنا في شعب "مُقيطا" الذي هو نفسه شعب زيدية، رغم أن الاسم يطلق فقط على أعاليه التي تتصل بشعب سدَيْر. وكان القسم المنحدر من هذا الشعب غاصاً بأشجار النخيل التي تمتد مساحات واسعة حتى تصل إلى ينبوع "الرفيفة". ويشترك في ملكية قسم منه صديقي عبدالله الهندي، كما يملك حصة في أشجار النخيل التي تسقى من ذلك الينبوع.

وقد حدثني عبدالله أنه اشترى هذا النصيب من أشجار النخيل، قبل بضع سنوات، بثلاثمائة ريال فقط.

ووراء أشجار النخيل مررنا من جديد بحقول الحبوب التابعة لمزرعة "العُمَيني". ومن هذه النقطة غيّرنا اتجاهنا، في اليوم السابق، لنعبر حقول القمح في "الغيّاب"، حيث رأينا الفلاحين يعملون في حقولهم.

وقد سألت مرافقنا الجديد "مُطير" عن معنى الاصطلاح الذي استعمله "شارلز دوتي" ليعبر به عن العمال الزراعيين "وهو فُطني"، فلم يعرف. وكانت قطعة الأرض التي وصلنا إليها: بما فيه البئر الموجودة هناك، قد آلت إلى عبدالله الهندي ذات يوم، ولكنه تركها مؤخراً إلى رجل من "أم كِدا" يدعى "محمد بن حيدر الحجّي".

وأثناء اقترابنا من نبع "الهلهل" والجداول المتفرعة عنه، والتي تسمى بالاسم ذاته، رأيت أحد النسور يحلق فوق قمة صخرة عالية. وكان وبيان كعادته مستعداً لاستعمال بندقيته، فأطلق عليه رصاصة. إلا أنها أخطأته.

وبعد مسيرة نصف ساعة من هذه النقطة، بلغنا أحد الأهداف الرئيسة التي قمنا بهذه الرحلة من أجلها، وهو سد "مَشْقُوق" الذي يقع عند شعب يحمل الاسم ذاته. والحق، أن

هـذا السـد كـان مخيباً للآمال. وخاصة بعد أن رأيت سد "حاسد" وسد "قصر البنت". إذ أنه لم يكن إلا عبارة عن بناء على ارتفاع ستة أقدام، يبلغ سمكه خمسة عشر قدماً. أما طوله فلا يزيد على مائة وأربعين ياردة. وقد أقيم هذا السد وسط مجموعة من الصخور القليلة الارتفاع القائمة على جانبي المسيل. وكان حين رأيته مبنياً من حجارة غير مشذبة أُلقيت على جانبي المسيل. وكان حين رايته مبنياً من حجارة غير مشذبة أُلقيت بعضها فوق بعض دون ضابط أو نظام، وُحشرت بينها قطع من الخشب المأخوذ من أغصان الأشجار. وكانت السيول قد أثرت على قسم يبلغ طوله ثلاثين ياردة في الجهة اليمنى منه، وفي تلك النقطة بين جدار قصير من الحجارة كي يمنع مياه الوادي المتجمعة خلفه من أن تتسرب إلى الأراضي المجاورة. لعل أكثر ما يسترعي الاهتمام في هذه البقعة، قطعة من الأرض مفتلحة، ترتوي من بئرين في الجهة السفلى من السد.

وقد شاهدت في المكان بضعة أكواخ تناثرت هنا وهناك حول الحقل، بنيت كلها في الأرض المرتفعة التي تحيط به. ويملك هذا الحقل، رجل من قرية "البشر" يدعى "علي بن أحمد"، لا مجال للشك في أنه فعل خيراً حين استثمر كل شيء في المنطقة: السد والأرض على السواء. فقد رأيت نبت القمح يرتفع قليلاً عن الأرض في منطقة طولها ٥٠٠ ياردة، وعرضها ٢٥٠ ياردة. والجدير بالذكر أن شعب "مشقوق" يشكل أحد روافد شعب "هلهل" الذي يخترق بساتين النخيل التي مررنا بها من قبل.

وبعد مسيرة عشرين دقيقة براحة تامة، أثناء صعودنا إلى المرتفع الذي كان يقع إلى يميننا، وصلنا إلى ضفة الشعب. ومن هناك ارتقينا مرتفعاً، ألقينا منه نظرة إلى حوض "نُقرَة الحرضَة"، وتحيط به إحاطة تامة صخرةٌ يبلغ ارتفاعها حوالي خمسين قدماً. وفي هذا الوادي عدد غفير من الآبار التي تستخدم في سقي مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية الخصبة التربة لامتزاجها باللافا.

وعند هذه الأرض وبالقرب منها رأيت عدداً من الصخور المعزولة التي كانت تبدو وكأنما تحمل نقوشاً. وقد وجدت هذه النقوش عندما فحصت أول صخرة مررنا بها. وكذلك رأيت نقوشاً على كثير من الصخور. والحق أنني استطعت أن أجمع كمية لا بأس بها من المعلومات عن تاريخ "ثمود" من هذه النقوش. مع أن معظمها لم يكن سوى أسماء شخصية يرجع تاريخها إلى عهد بعيد جداً، حين كانت نسبة الأميّة بين العرب أعلى بكثير مما هي عليه في الوقت الحاضر. ولما لم يكن لدى العرب ما يكتبون عليه في ذلك الوقت، فقد لجأوا إلى النقش على الصخور. وبهذه الطريقة استطاعوا أن يُبقوا أصدقاءهم وأعداءهم، على حد سواء، على اطلاع بنشاطهم الماضي. ولعل الذين نقشوا هذه الأسماء والتواريخ على الصخور كانوا هم أول من امتلك "وادي حرضة" وفلحوا أرضه. وهي تشكل مساحة واسعة على الجهة اليسرى من الوادي، وتمتد بمحاذاة مرتفعي "صَفَر" و"أحفره" في الجنوب الغربي ، حتى تصل إلى المسيل الرئيسي لوادي "الغراس".

وفي هذه المنطقة حوالي اثني عشر بئراً يوجد فيها الماء على قامتين، غير أن واحداً منها فقط كان يستعمل في أغراض الري لذلك اللسان الأرضي العامر بالزرع.

والمنطقة توحي للمرء أنه في صحراء، إذ أن علائم وجود الحياة فيها، باستثناء الآبار والأرض المزروعة، غير ممثلة الآن إلا في رأسين من البقر ينضحان الماء من البئر الرئيسية، بينما يشرف على العملية رجل واحد.

استأنفنا سيرنا.. وها قد وصلنا إلى نقطة يمر منها شعب "الحرَة" مبتعداً عن الوادي. وبعد مسافة قصيرة أخرى بلغنا جداول ينساب فيها الماء ببطء. وقد علمنا أن هذه الجداول تشكلت من مياه السيول المنصبّة في شعب "هلهل"، فتتسرب من الشعب على هذه الصورة لتصب في وادي "الغراس". وحيث تعود الجداول لتخرج من الحرة عند نقطة صخرية في الجهة المقابلة شاهدت بساتين النخيل الغنية في أراضي "ناتاح" و"أبو وشيع".، كما أبصرت حقول الحبوب الواسعة التابعة لهاتين القريتين، تمتد أمامنا حتى تصل إلى هدب حقول

الحبوب الواسعة التابعة لهاتين القريتين، تمتد أمامنا حتى تصل إلى هدب "دهام" الواقع في الغرب من المكان الذي نقف فيه. وفيما وراء هذه الأراضي في الطرف القصي، وجدنا بحيرة تحيط بها شجيرات المريمية والسعد.

وقد عبرنا تلك المنطقة خلال طريق صخرية وعرة، يبلغ عرضها حوالي عشرة أقدام. ثم صعّدنا في مرتفع عبر طريق ضيقة جداً أدت بنا إلى أرض واسعة، أغلبُها أرض طينية تدعى "سهلة"، تشكل جزءاً من وادي خيبر. ولم يمض طويل وقت حتى وصلنا إلى قلعة "مرحب" عندما مررنا بقرية "البشر". وبعد أن عبرنا مقبرة القرية توجهنا رأساً إلى بيتنا في "شريف".

وتناولنا طعام العشاء. وكان مؤلفاً من لحم الغزلان. وكغيره من وجبات طعام العشاء كان مقدماً كهدية من الأمير. بعد ذلك قمت بزيارة القاضي في بيته: وهناك وجدت الأمير ورجالاً آخرين يتكئون على أرائك وثيرة ويرشفون أقداح القهوة المرّة. وقد أثرت أثناء الحديث نقطة طالما تقت إلى معرفة حقائقها طوال سنين عديدة.

يذكر قرّاء "دوتي" أن مضيفيه عندما زار خيبر كانا الشقيقين، محمداً وأحمد النجومي، اللذين يملكان بيتاً في ذلك الزقاق القذر الضيق في قرية ابشر. كان "مطير" في ذلك المساء قد أراني هذا البيت، وقال أنه يستعمل الآن كقاعة للمحكمة أيام موسم جمع المحاصيل حيث تكثر المنازعات.

إن القاضي ذاته هو الذي يباشر المحاكمات في تلك المحكمة. ولما كان فضيلته غريباً عن المنطقة، فلم يكن يهمه معرفة شيء عن العائلة التي كانت تملك البيت منذ زمن طويل قبل حضوره إلى المقاطعة وتسلُّم منصب القضاء فيها.

إنه من أبناء "بريدة" ولربما لم يسمع من قبل باسم "دوتي". ومهما يكن من أمر فقد استطعت خلال إقامتي في خيبر، بطريقة أو بأخرى، أن أجمع بعض المعلومات عن عائلة

"النجومي" هذه. زرتُ بيتهم مرة أخرى بعد ظهر اليوم التالي والتقطت له بعض الصور. ولشد ما كان استغرابي عندما علمت أن صديقي عبدالله الهندي، هو الشخص الوحيد الذي يعرف عن آل "النجومي" أكثر من أي واحد من خيبر. ليس هذا فحسب، بل إنه كان على علاقات طيبة مع الشقيقين وعائلتهما.

وقد علمت أن بئر "الغيّاب" الذي كنت قد مررت به صباح ذلك اليوم ملكٌ لمحمد النجومي، ومن المرجح أن يكون "دوتي" قد أمضى في هذه المنطقة بالذات يوماً في نزهة مع مضيفه محمد. وقد سبق لي أن أشرت إلى أن هذه المنطقة كانت ذات يوم ملكاً لصديقي عبدالله الهندي، ولكنه باعها فيما بعد إلى شخص من قرية "أم كدا". كما علمت أن اهتمام عبدالله بهذه المنطقة إنما يعود إلى كونه قد تزوج إحدى فتيات عائلة النجومي، وربما كانت هذه الفتاة حفيدة محمد النجومي أو شقيقه أحمد.

وقد يكون السبب الذي من أجله تزوج عبدالله تلك الفتاة عائداً إلى رغبته في تأمين أشرافه على أراضي "الغيّاب"، تلك الممتلكات التي كانت قد آلت إلى زوجة عبدالله من أبيها عبدالمطلب النجومي. أما جدها لم أستطع أن أتوصل إلى اسمه. ولابد أنه قد تزوج هذه الفتاة في المدينة المنورة أو "ينبع". فلما انتقل إلى خيبر سنة ١٩٣٣ فرضت عليه المناسبة أن يشرف على ممتلكاتها. ثم ظل يتولى الإشراف عليها بعد وفاته عام ١٩٣٧ نيابة عن ابنتها ووارثتها الوحيدة.

أما ابنته منها فقد تزوجت "أحمد الخطيب" إمام مسجد قرية البشر في الوقت الذي زرت القرية. ومهما يكون من أمر فقد تُوفيت منذ ثلاث أو أربع سنوات فيما بعد، ولربما استولى بعد ذلك على "الغياب".

هذا وقد أخبرني أحمد الخطيب أن أصدقاء "دوتي" محمداً وأحمد، قد قتلا على يدي أحد رجال قبيلة (جُهَينَة)، وكان قد أخذهما على حين غرة، وهما يلعبنا لعبة تدعى (بيعة)، ربما كانت هي (دومينو).

وربما كان قتلهما يتعلق بقضية ثأر قديم، إذ أن أحد أفراد قبيلة "هينة" ويدعى "ابن بخيم" كان ذا علاقة بالميراث المتخلف عن الشقيقين محمد وأحمد النجومي اللذين كانا من قبيلة "حرب". هذا ولا يزال الواقع يشهد بأن عائلة النجومي قد انقرضت من خيبر. وثمة شائعة تقول بأن من تبقى من هذه العائلة قد استقروا في "ينبع" حتى يومنا هذا، إلا أنه لم تتح لي الفرصة كي أتحقق من ذلك.

وعبدالله الهندي من قرية في منطقة كراتشي (الباكستان)، غادر بلاده منذ سنة ٩٠٨ ليؤدي فريضة الحج إلى مكة، ويقضي ما تبقى من حياته في شبه الجزيرة العربية. وبعد أن قضى خمس أو ست سنوات في مكة هاجر إلى المدينة. وانقضت حوالي عشرين سنة على ذلك. ثم تزوج من إحدى وارثات خيبر، نزح معها إلى حيث يسكن أهلها ليقيم هناك ويصبح من الأثرياء.. وعبدالله الهندي رجل على جانب كبير من الوسامة، وذو نظرة فلسفية في الحياة. ولم يكن أثناء زيارتي له يستغني عن الراديو ولا عن السيارة، كل هذا كي يتصل بالعالم الذي هجره منذ زمن بعيد.

أمضيت يومي الأخير في الواحات بحثاً في أقسامها الجنوبية. وقد سرت على طول هدب مرتفعات "دونانه" وراء عين "الصفصافة" كما زرت القلعة القائمة هناك.

واجتزنا مرتفعات عين "الصفصافة" عبر ما يشبه المسرب في الأراضي الواطئة الطينية المعرفة باسم "السبيكي". وكنت أرى في هذه المنطقة أحواضاً من الملح السائل أو الجاف، تنعكس عليها خيالات أشجار النخيل القائمة على الناحية المقابلة. والأرض التي تنبت فيها هذه الأشجار تدعى "الوطيح"، وترويها مياه عين "البُحير". ومن هذه العين تنفجر مياه صافية رقراقة، تسير في جدول راح يمتد إلى جانب الطريق الصخرية التي نسير فيها. وكانت هذه منعطفاً يظل يتلوى بين جدارين بازلتيين يبلغ ارتفاعهما ستة أقدام.

وما هي إلا دقائق حتى كنا نصعد فوق بخد "أم كدا" لنصل إلى بوابة القرية الأثرية. وقد عبرنا هذه البوابة ثم طفنا حول القرية حتى تتاح لنا فرصة إلقاء نظرة شاملة على

المناظر المحيطة بها . ومن ثم سلكنا طريقاً ضيقاً يصل بين الهضبة وبين منبسطات بساتين النخيل. وكانت هذه الطريق تزدحم بجامعي التمور من البدو الذين كان منظرهم ، وهم عائدون من عملهم في تشذيب أشجار النخيل ، منظراً مبهجاً للغاية ، كما أن منظر المنطقة من تلك البقعة كان رائعاً جداً.

وإليك موقعنا الآن :

إن قلعة "مرحب" قائمة إلى الجهة الشمالية الشرقية ، بينما تلوح قرية "روّان" إلى الشمال تقريباً. أما إلى الجهة الغربية والشمالية الغربية فقد كانت تقوم قرية "مجمعة" ، أي نقطة تجمع مياه الوديان حين تلتقي بمنطقة البساتين الكثيرة المزروعة بأشجار النخيل. وكان علينا أن نمر بهذه القرية ونحن في طريق عودتنا.

وإذ واصلنا الهبوط في ذلك المنحدر باتجاه نخيل "طيْران" ، وجدنا عدة تصاوير منقوشة على الصخرة المجاورة ، كما وجدنا بعض النقوش التي تحمل أسماء عربية كان بينها واحد يعود إلى عصر "ثمود". غير أن الذي كان يشغل اهتمامنا هنا هو عين "طيران" والكهف المجاور لها. وكان مدخله قد أُقفل من جراء تدحرج الصخور والحجارة المتساقطة.كانت الأساطير قد ذكرت أن الكهف مليء بالكنوز ، فاندفع بعض سكان المنطقة إلى القيام بالتحري الضروري حول صحة هذه الأساطير.

وبلغنا الكهف ، وقد تجمّع حولنا عدد من سكان المنطقة ، فانبرى أحد الصبيان ليؤكد بأن والده واثنين آخرين قد هاجمهم حارس الكهف أثناء ما كانوا يقومون بالحفر في داخله. أما ذلك الحارس فهو تنين أو عقرب بحجم الثور. وقد أضاف الغلام أن الرجّال الثلاثة ماتوا فيما بعد متأخرين بجراحهم.

ولما لم تكن لدينا رغبة ولا وقت نضيعه هنا في البحث عن كنوز مزعومة ، فقد تابعنا سيرنا واجتزنا نخيل "طيران" و"بحير". ومن ثم خرجنا إلى فضاء فسيح تقوم فيه قرية "دكاك".

وكانت هذه القرية الصغيرة قد بُنيت مؤخراً بنشاط شخص يدعى "محمد الفرحان"، كي تكون منزلاً له ولعائلته وعماله، عندما يفدون إلى المنطقة في موسم الحصاد أو جني التمور، أو حين يحضرون لزيارة "خيبر". ومحمد الفرحان هذا هو شيخ عشيرة "عيْده" وهي أحد أفخاذ قبيلة "عنَزة".

وتتألف "دكاك" من حوالي اثني عشر كوخاً صغيراً يتوسطها واحد أكبر منها حجماً وأعلى سطحاً وأجمل شكلاً، أظنه مخصصاً لاستعمال شيخ القبيلة. ومما يؤسف له أن هذه القرية كانت خالية تماماً حين مررنا بها.

ووراء هذه القرية الصغير مباشرة تقع قرية (سَلالِم). وقد عبرناها إلى حزام طويل من النخيل وجدنا قربه خرائب ضريح مشكوك في أمره. عند ذاك ذكّرتني هذه الخرائب بمثيلات لها في "المدينة" يقال أنها كانت إحدى بنايات اليهود. ومن ثم قررتُ أن أجعل استراحة الظهر في ذلك المكان، علّني أقوم بالتحقيق في هوية أصحاب هذا الضريح الذي يطلق عليه الأعراب المجاورون اسم "قصر سلامه". ولم يتمكن أحد من مرافقيّ أن يزوّدني بشيء من المعرفة حول تاريخ ذلك "القصر" أو بعض الأساطير التي تدور حوله، كما أنني لم أجد شيئاً مهماً في الخرائب ولا في الضريح ذاته، فظللت أجهل ما إذا كانت الأتربة حوله طبيعيةً أو أنها وضعت بفعل فاعل. وربما كان الاحتمال الأخير هو الأقرب إلى الصحة في الوقت الحاضر. ومهما يكن من أمر فقد تكون هذه الخرائب لكنيس يهودي قديم، تهدم واندثر.

ومن أعلى تلة الضريح، حيث تناولت طعام غدائي المؤلف من الشاي و"البسكويت" وثمار الأناناس المعلبة، كنت أتمتع بمنظر جميل للمنطقة التي كان علينا أن نمرّ بها عندما نستأنف تجوالنا في صبيحة اليوم التالي.

هذا وترتفع قمة جبل "مخَطط" العالية في الغرب البعيد قبالة الضريح. وعلى خط السكة الحديدية أو قربه إلى جانب هذا الجبل، يقع جبلا "الحسين" و"غرّا". بينما يمتد سهل

اللافا حتى يبلغ حضيض هذه الجبال. أما جبل "سَوْرة" وهو أقل ارتفاعاً من الجبال السالفة الذكر، فيقع إلى جانبها. ولكنه يمتاز عنها بوجود قلعة (سوره) فيه. وهي موضع كان الحجيج يهتدون به في طريقه إلى مكة والمدينة.

في سفح هذا الجبل تقع محطة "سكة حديد سوريا". وتمتد إلى الشمال الغربي من ذلك المكان سلسة من الجبال العالية تعرف بأسماء (حِصار) و(أثمار) و(طربان) و(ضُرَيْب). وينتهي آخر هذه الجبال عند سهل (صحن) الذي يقود إلى (العلا). وإذا انحرفنا من (العلا) قليلاً صوب الشمال الشرقي، نرى قمع (الغمرة) وهي أحد معالم المكان الذي كنا نزمع زيارته في اليوم التالي، أي قرية (الحفيرة) وآبارها. وهذه أيضاً مساكن لشيخ قبيلة (عَيْدة). وكان علينا أن نسافر بضعة أيام في هذه المنطقة قبل أن نصل إلى هدفنا الذي يقع في أول وادي (الحن)، وهو الوادي الذي كان علينا أن نجتازه عبر سلسلة جبال (حرب).

وما أن استأنفنا المسير حتى اكتشفنا أننا قد ضللن الطريق وسط غابات كثيفة من أشجار النخيل. الآن لم يكن لنا بد كي نتخلص من هذا المأزق، من أن نعود أدراجنا إلى قصر (سلامة). وقد حاولنا أن نسلك طريقاً آخر، ولكننا أصبنا قليلاً من النجاح، فمررنا بينبوعين يطلق على أولهما اسم (عين سلالم) وعلى الثاني (عين أم البيضة). ومن ثم وصلنا إلى بئر قديمة تدعى بئر الوَثيري). وقد حدثني (مطير) بأن هذه البئر كانت مركزاً يتجمع فيه أهل خيبر قبل حكم ابن سعود، ليمارسوا ألعابهم (الوثنية)، ويقدموا قرابينهم الأسطورية على المنحدرات التي تتدرج هابطة نحو المسيل الذي تتجمع فيه مياه خيبر — المتشعبة المصادر — قبل التقائه بوادي الغراس.

ومن المؤكد أن مرافقي كان صغيراً جداً حينذاك فلم تتح له فرصة الاشتراك في مثل هذا القصف والعربدات، ولذا أراه على معرفة قليلة بطبيعة تلك المجون. ولست استبعد أنه كان يخشى التحدث عن مثل تلك الفظائع، بناء على أوامر من الحكومة الجديدة. ويبلغ اتساع الوادي عند البئر حوالي ألف ياردة، كان تدفق المياه فيها ظاهراً. وتمتد دون هذا

الوادي على مرمى النظر بيوت (رُوّان) وبساتين النخيل الواسعة التابعة لتلك القرية. ومع أننا اقتربنا من تلة (رُوّان) الشديدة الانحدار، إلا أنني لم أزر القرية، بل قررت العودة إلى المخيم.

وبعد اجتياز عين (القوَيْر)، وهو نبع اكتشف حديثاً غير أنه لم يجرَّب في الأراضي الموجودة حوله أي نوع من أنواع الزراعة، مررنا بصخرة ترابية رائعة التكوين تقع إلى الشمال الغربي من جبل (قُرَين). وصخور هذا الجبل عالية جداً ترتفع حتى ليظن المرء أنها تلامس الأفق. وهي تبرز للعيان فوق جميع الجبال المجاورة في تلك المنطقة.

وتقول الروايات المنقولة أن النبي محمداً قد استراح تحت ظلال تلك الصخور أثناء غزوة خيبر. ومن هنا كان اسم هذه الصخور (ثوير النبي). وهو تعبير يصعب علي تفسيره، مع أن الكلمة تتضمن معنى (بركان ثائر) أو ثورة بين الناس. وقد وجدت على صفحة الصخرة الأمامية نقشاً باللغة العربية غير مألوف الشكل. وكان عبارة عن نقش طويل مؤلف من سبعة أسطر، ولكنه – بكل أسف – قد تهشم بفعل الأحوال الجوية إلى درجة أنه تعذر علي استنساخه. ليتني استطعت ذلك، إذن، لأمكنني الحصول على تفسير إحدى تلك الأساطير القديمة هناك. لقد تسلقت أعلى (ثوير)، غير أنني لم أجد فوقها ما يثير الاهتمام سوى خدوش عربية صغيرة بالإضافة إلى رسوم بعض الحيوانات. وحتى هذه لم أستطع أن التقط لها صورة، رغم جميع المحاولات التي بذلتها في سبيل ذلك.

ومن هنا توجهنا مباشرة إلى قلعة (مرحب) متبعين طريقاً يقع فوق بساتين النخيل. ومن ثم دخلنا قرية (البشر) من البوابة الوحيدة المتبقية فيها، وتسمى (باب خوخه). هذا إذا جاز لنا أن نسميها بوابة، ولو مجازا، إذ أنها ليست إلا نفقاً نُحت من أسفل صخرة مرحب الكبيرة، وفي قاع بناء متجهم يبرز عن طرف تلك الصخرة الشديدة الانحدار، ويطل على بساتين النخيل الفسيحة أمامه. وقد أصر صاحب الدار، وكان يدعى (حسن غوث) على أن يستضيفنا لنشرب القهوة والشاي. وهناك انضم إلينا أحد أقرباء دليلنا

مطير، وكان شاباً يشغل منصب إمام المسجد، ويدعونه (أحمد الخطيب) بالنظر لأن اسمه أحمد، كما انه يقوم بإلقاء خطبة الجمعة في المسجد.

والحق أن الحكم الوهابي في المملكة السعودية قد تمكن من إزالة الكثير من العنعنات القبلية في هذه المقاطعات النائية من شبه الجزيرة. غير أن أحمد هذا وقريبه مطير، كانا لا ينفكان يتبجحان بأمجاد أسرتهما التي ترجع إلى عشرة أجيال، أي منذ أن استقرت عائلتهما في "خيبر".

وبعد ذلك توجهنا إلى قصر "مرحب" لنستأذن الأمير بالسفر. وهناك تناولنا القهوة والشاي بينما رحت أشكر الأمير على كرم وفادته: وعلى المساعدات الجمة التي قدمها لنا أثناء مقامنا في خيبر. كما أبلغته باختصار عن الأعمال التي حققتها في بلده، وانطباعاتي الخاصة عن الطريقة التي يسوس فيها الناس. وشرحت له آرائي بصدد تحسين المنطقة في المستقبل وعدته بأن أنقل إلى وزير المالي السعودي ما شاهدته من ضرورة إصلاح هذه المنطقة، في أول اجتماع أعقده معه عند عودتي إلى مكة.

ولما نهضت مستأذناً ومودعاً، أبدى الأمير رغبته في مرافقتنا حتى المراعي القريبة، حيث كانت ماشيته وإبله هناك، حيث أرسل عائلته مؤخراً في رحلة إلى الخلاء. وهم يعيشون هناك في خيام يضربونها خصيصاً لهذا الغرض، أي لقضاء عطلة راحة واستجمام. وفرحت بالاقتراح ورجوته أن يكون مسيرنا الهوينا كي أشاهد المنطقة بجلاء، فأستطيع أن أسجل معالمها على الخريطة. ولم يعترض الأمير على رجائي هذا، غير أنه كان يأمل أن تتمخض زيارتي عن تحسين شؤون المنطقة التي يحكمها.

وفي طريق عودتنا إلى بيتنا تسكعت في القرية وزرت مسجدها الكبير وسوقيها اللذين يعرفان باسم (السهين) و(الرحبَة)، ذينك السوقين اللذين مشى فوق أرضهما دوتي من قبل. كما التقطت صوراً لبيت النجومي الذي عاش فيه "دوتي" فترة من حياته، وصوراً

أخرى للمدرسة الحديثة التي تقع بمواجهة البيت في الشارع العام. هذا وقد أفلت الشمس قبل أن نصل إلى بيتنا لأداء صلاة المغرب.،

لقد أمضيت أربعة أيام لا غير، في خيبر، ولكنني لم أضع دقيقة واحدة منها في بلادة أو كسل.

# من خيبر إلى تيماء

■ كتب "دوغلاس كارّ وتهرز" في سنة ١٩١٧ حول موضوع رحلات "غوارماني" في شمال الجزيرة العربية سنة ١٨٦٤ فقال: "إن المنطقة التي تتوسط ما بين "تيماء" و"خيبر" لم يسبق أن جابها إنسان من قبل باستثناء دوتي". وفي الواقع أن هذه المنطقة هي التي كنت أعتزم اكتشافها في هذه الرحلة، رغم علمي اليقين بأن العديد من الأميركيين قد قاموا، بعد الحرب الثانية، بزيارة كثير من المناطق الرئيسية في هذا الجزء البكر من المملكة السعودية، بحثاً عن النفط والماء، وغير ذلك من الثروات الطبيعية الأخرى.

كنت أعلم أن هؤلاء الأمريكيين قد تمكنوا بحكم مهماتهم في هذه المنطقة من زيارة معظم أرجائها. ولكن زياراتهم كان سريعة عابرة. وان كل همهم أن يؤدوا واجباتهم دون أن يهتم أحد منهم بتسجيل معالم المنطقة. ولو لم أكن أعرف هذه المعلومات مسبقاً، لكان من المرجح أن أجد — أثناء عبوري لهذه المنطقة — الكثير من الدلائل التي تشير إلى الطريق التي سلكوها.

ولا يسع المرء إلا أن ينتقد هؤلاء الأمريكيين، كما لا يسعه إلا أن ينتقد "غوارماني" لقيامه بزيارة المنطقة دون أن تكون لديه ذرة من المسؤولية أو التحسس بالمسؤولية.. ذرة تحمله على تسجيل معالم هذه المنطقة المجهولة، أو شبه المجهولة. لقد اكتفى غوارماني

والأمريكيين بالتمتع بمعالم المنطقة بشكل أناني دون أن يتيحوا الفرصة لغيرهم من المهتمين بها، لاستقاء المعلومات عنها بفضل خبرتهم هم. وعلى الأقل فيما يتعلق بالطرق التي اتبعوها أو أسماء الأماكن التي شاهدوها أو زاروها.

إن كل ما أعلمه وأستطيع قوله بهذا الخصوص هو: من المحتمل أن تكون هذه المعلومات قد دونت في بعض التقارير الجغرافية التي حجزتها بعض الحكومات أو الشركات التجارية فلم تنشر. غير أنني لا أتردد في إعلان هذه الحقيقة، وهي أن رغبة الإنسانية في معرفة شيء عن المناطق النائية من عالم (تيماء — خيبر) لم تتحقق على يد أيّ ممن سبقوني، باستثناء دوتي طبعاً، وخاصة فيما يتعلق بهذه المنطقة بالذات. كنت أعتمد على ما سجله "دوتي"، إذ أن المرء يستطيع أن يتتبع خط سيره بشكل مستمر وبصورة دائمة دون أية صعوبة في أية منطقة من مناطق العالم سبق له أن تجول فيها.

في صباح اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩٥٠ كان كل شيء في بيتنا بشارع "الشُريف" قد تم حزمه وإعداده. وكنا على استعداد لحمله إلى السيارات كي نشرع في هذه المسيرة في تمام الساعة التاسعة والنصف صباحا. كان الأمير وحاشيته معنا، وكانوا يرشفون أقداح القهوة التي قدمناها لهم، أثناء ما كان رجالي ينقلون أمتعتنا إلى السيارات. وقد قرر الجمع أن يسافروا في سيارة "اللوري" بينما اختار دليلي الجديد أن يركب معي في سيارة "اللاندروفر". وكان هذا الدليل يدعى "مهماز" أو "محماس".

تقدمت وإياه الركبَ في طريق المدينة المنورة مسافة ميلي تقريباً، فوصلنا إلى نقطة استدرنا منها شمالاً، وسرنا مع امتداد وادي "سلامه". وعلمت أن مسيل الماء الذي يصب في هذا الوادي، ينبع من أعالي "الحرّة" في جوار جبل الأبيض، ويظل ينساب في هذا الوادي حتى يندمج مع المسايل الأخرى النابعة من منحدرات جبل "عطوه"، ثم يتابع سيره حتى يمر بقرية "أم كدا".

وقد حافظنا على مسيرنا إلى شمال الوادي كي نتجنب أجمات شجيرات "السَلم" الكثيرة هناك. وكانت تلك الآجام الشوكية هي العلامة الفارقة للطريق الذي نسير فيه. كان سيرنا سهلاً لم نجد فيه صعوبة تذكر، اللهم إلا في الأرض الوعرة في الحرة، بحث يخترق الوادي تلك المنطقة ثم ينفذ إلى بساتين النخيل التي تحمل اسمه، في ضواحي قرية "آم كدا".

وبعد ذلك مباشرة مررنا ببئر ماء، وحقول حبوب تابعة لقرية "بير عبد اللطيف". وبعد تلك القرية أخذنا نصعّد في مرتفع يؤدي بنا إلى قلعة (دكا). ومن ثم عبرنا بساتين النخيل التابعة لقريتي "طيران" و"سلالم"، ثم بساتين النخيل التابعة لقريتي "دوّاعي" و"وجده"، حيث بلغنا المسيل الرئيسي للوادي في نقطة تبعد قليلاً عن مصبه في وادي الغراس. ويبلغ عرض الوادي في تلك النقطة حوالي خمسين ياردة، أما مياهه فهي متدفقة بقوة، كما أنها عميقة.

والحق أن دليلنا أثبت معرفة كبيرة بطبيعة المنطقة، إذ سرعان ما قادنا إلى نقطة عبرنا منها الوادي دون صعوبة تذكر. ومن ثم أقبلنا على بساتين للنخيل تقع في أسفل وادٍ يدعى "معين". وهو عبارة عن امتداد لواد آخر يدعى مجمع"، يقع بين هضبي "دَهان" وأحفَره". وهنا غدت طريقنا تحتم علينا التصعيد في هذا الوادي.. فقطعناه ثم أخذنا نصعّد في النجد، وعندما بلغنا منتصفه توقفنا لنلقي نظرة على ما حولنا...

كانت قلعة "مرحب" في اتجاه جنوبي غربي مقابل جبل "عطوة" والنقطة التي انحرفنا فيها عن طريق المدنية المنورة. كنا قد قطعنا حتى تلك اللحظة مسافة تسعة أميال، وإن كنا لم نبتعد إلا أربعة فقط عن النقطة التي تحركنا منها.

ومن هذه النقطة التي وصلناها، كان علينا أن نسافر شمالا، (أو لعله اصح لو قلنا: أن نسافر باتجاه شمالي شرقي). وبعد أن قطعنا منطقة الصخور المنخفضة التي تربط حاشيتي "دهام" و"صفَر" وصلنا إلى نقطة وعرة جداً فيها لسان صخري يشير إلى أن أي

تقدم نحو الأمام لن يكون أمراً يسيراً. وهنا توقفنا لنعطي الدليل الفرصة لاستعمال فطنته والعثور على الطريق التي يبدو أننا قد أضعناها من قبل. ثم تبين لنا أنه يتوجب علينا العودة إلى الوراء مسافة ميل. ولكننا ما أن فعلنا ذلك، حتى وجدنا أنفسنا لا زلنا تحاصرنا أرض الحرة من كل جانب. ومع هذا فإننا لم نيأس، ولم يمض طويل وقت حتى وجدنا لنا طريقاً عبر شعب "أحفره". وكان تلك الطريق عبارة عن مسرب يخترق صخور "أحفرة" ويؤدي بالتالي إلى بئري ماء وحقول حبوبٍ تابعة لقرية "الخضارنة". والماء في هذه المنطقة وفير لا يزيد على قامتين تحت سطح الأرض. أما أشجار النخيل الكثيرة فيها، فهي تضفي على المنطقة جمالاً رائعاً وقيمة كبيرة.

ليس هذا الوادي أكثر من فرع لوادي "أحفره" الذي يشكل بدوره أحد روافد وادي "الغراس. وها هي طريقنا الآن تسير في الوادي باتجاه شرقي حتى تصل إلى نجدٍ من اللافا يبلغ ارتفاعه مائة قدم، ويقوم على الضفة اليمنى لذلك الوادي. ومن على هذا النجد كان بوسعي رؤية ذرى "عطوة"، ولكنني لم أستطع أن ألمح أي شيء من آثار خيبر.

وصعدنا مسافة ميلين بعيداً عن البئرين، ومن ثم تركنا الوادي واتجهنا شمالاً، فوصلنا أخيراً إلى مضارب الأمير في مكان يدعى "روضة أم العَمر". وقد قطعنا في هذه الرحلة مسافة عشرين ميلاً، وإن كنا في الواقع لم نبعد عن خيبر أكثر من خمسة عشر ميلاً.

ولقد استغرقت سفرتنا أكثر من خمس ساعات، غير أن معظم هذا الوقت ضاع في توقف إجباري أو اختياري، استطعت بفضله أن أحقق ما أريده من مسح للمنطقة التي كنا نمر بها.

كانت "روضة أم العمر" مكاناً بديعاً، فيه عدد من الأكواخ الطينية، يعزل الواحدَ عن الآخر لسان بازلتي من صخور الحرّة فيه نقور كثيرة، أو برك صغيرة حفرته السيول الأخيرة. وتحيط بهذه الأكواخ أعداد لا تحصى من أشجار الأكاسيا.

وكانت رياح جنوبية قد بدأت، منذ اليوم السابق لوصولنا، تدفع معها سحباً داكنة. فما أن أفلت شمس ذلك النهار حتى كانت السماء ملبدة بالغيوم. وظهرت في أقصى الغرب سحب سوداء تنذر بقصف الرعود. وشاهدت عدداً كبيراً من (الصقور) تتدافع نحو شجيرات العوسج، التي نبتت وحدها ويلغ بعضها حداً جعلها تبدو كالأشجار الكبيرة. ولعل مرد ذلك إلى طبيعة الأرض الخصبة. ولاحظت أن جميع المسايل الموجودة في هذه البقعة، تصب في وادي "الخضرانة".

ومما تجدر الإشارة إليه، أن القسم الأكبر من مياه الأمطار الأخيرة قد انسابت في هذه القنوات لتصب في الوادي المذكور. أما ما تبقى منها، فقد غار في الأرض أو تبخر بفعل حرارة الشمس.

أما القاع المنخفض الذي ضربنا خيامنا فيه، فقد لاحظت أن ماء بركته قد تناقص مؤخراً، بحيث بدا أن مستواه قد انحسر عن طرفها العلوي بخمسين ياردة. وقد أمضيت بعد ظهر ذلك اليوم عند كومة من الحجارة في حاشية الحرة القريبة وأنا أدرس طبيعة المنطقة، يساعدني في ذلك دليلي "محماس". ولم احتج إلى طويل وقت بعد أن التحق هذا الرجل بخدمتي لأعرف أن معلوماته الجغرافية تختفي بالسرعة ذاتها التي اختفت فيها معالم خيبر حين خلّفناها وراءنا. أما الآن وهو يبدي جهله المطبق بكل ما في المنطقة الواقعة أمامنا، فإن الأمر يجب أن لا يهمل بتاتاً.

لهذا صرفته بعد أن حمّلته رسالة إلى الأمير، وأخرى إلى جماعتي في المخيم. وقد قلت فيهما أنني سأبقى حيث أنا طوال الليل، إن لزم الأمر، حتى أجد الدليل الكفؤ الذي يستطيع أن يتولى إرشادي. وبذلك كنت أهددهم بالامتناع عن الطعام، وهو شيء لا يتفهمه العربي ولا يراه معقولاً.

لم أكن قد تناولت غير قدح من الشاي في صبيحة ذلك اليوم، ولم أذق بعده شيئاً، وإن كان مرافقيّ قد حرصوا على أن يتناولوا إفطاراً دسماً قبل أن نتحرك. ولم يروا أنه من

المناسب أن يدعوني لمشاركتهم في ذلك الطعام. وقد اكتشفت ذلك فيما بعد، فلم أكتم حنقي على مثل هذا التصرف الذي يجانب أصول اللياقة. وحينئذ حاول المرافقون أن يرشوني بشيء من "البسكويت" فرفضت ذلك منهم، مدعياً أنني لم أعد جائعاً بالمرة. وفي هذه الأثناء تبين لي أن محمد "لعريفي" وبقية مرافقيّ الذين استعرتهم من الأمير "عبدالله السديري" في المدينة، لم يعودوا موضع ثقة، كما أنني لم أعد متحمساً لرفقتهم. فعدى عن جهلهم بالمنطقة جهلاً تاماً، فقد كانوا لا يبدون أي اهتمام بها، ولا بما أريد تحقيقه من عمل. الأمر الذي أثارني وأدهشني معاً. وقد استغربت في نفسي وسألتها: لماذا تراهم أبدوا شيئاً من الحماس عندما سألتهم مرافقتي؟ وان عليّ أن أجد الجواب على هذا السؤال فيما بعد.

كنت أستطيع أن ألاحظ من تجاربي الخاصة، أن صرفي للدليل "محماس" قد خلق استياء بين مرافقي. ولم يمض وقت طويل حتى سيق إليّ أحد الفتيان الرعاة، ليعمل كدليل. وقد أثبت ذلك الفتى معرفة جيدة بالمنطقة، ولكنه سرعان ما تركني وانصرف دون وداع حين رأى نعجة من نعاجه تشذ عن القطيع. ثم وجدته بعد ذلك جالساً بين بقية المرافقين يحتسي معهم القهوة، فوبخته على فعلته وأبلغته أنني لم أعد في حاجة إليه، فتركني وانصرف.

وفي الوقت ذاته استمر البحث عن الدليل الصالح الذي كان سيرافقني في الصباح. ولكنني لم أستطع العثور على مثل هذا الدليل إلا بعد غياب الشمس، عندما جاءني شاب يدعى "خمسان" من "بني رشيد"، وهي القبيلة ذاتها التي ينتمي إليها "ويبان". وقد أكد لي "خمسان" هذا بأنه يعرف المنطقة الواقعة ما بين هذه النقطة و"الحفيرة" معرفة تامة، على الأثر أفطرت من صيامي على وجبة فخمة من طعام العشاء الذي بعثه إلينا الأمير. لقد شعرت بأن كل شيء سيكون على ما يرام عندما نستأنف الرحلة. وكان الطقس في

تلك الليلة معتدلاً يبعث في النفس كثيراً من البهجة والسرور، وكانت درجة الحرارة الدنيا هي ٥٩ درجة فهرنهايت.

وبعد أن استأذنا الأمير بالسفر، شاكرين له ما لاقينا في رحابه من حسن وفادة وكرم ومساعدة، أخذنا نتأهب للقيام بالمرحلة الثانية من رحلتنا. وقد بدأناها بأن سرنا مسافة ثلاثة أميال، دخلنا بعدها مسيل "شعب العين" الذي سمي على هذه الصورة نسبة إلى عدد من الينابيع التي تنبثق من الصخور العليا.

والحق، أن هذه المنطقة رائعة جداً، وفيها أشجار "دوم" متفرقة هنا وهناك. ولكنها تمتد مع الشعب ابتداء من تلة تعرف باسم "رجث" أو "يرْث" وتستمر حتى تتصل بأشجار شعب "سمْحه". وفي هذا الشعب عدد قليل من الينابيع وأشجار النخيل، كما أن مسيل الماء فيه يسير باتجاه جنوبي غربي حتى ينضم إلى وادي "الغراس" حيث يعبر وادي "البُق"، الذي يشكل رافداً رئيسياً لوادي "الحمض"، فيما وراء السكة الحديدية.وبعد أن سرنا مع الشعب، ثم ارتقينا صخور ضفته اليمنى، وجدنا أنفسنا نصل بسرعة إلى آخر نجد في حرة خيبر حيث يبدأ طرفها الشمالي من مسيل وادي الغمرة القريب من موقعنا الحاضر قليلاً إلى الأمام.

ودخلنا "الغمرة".. فوجدناه يتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، من نقطة تدور حول نجد "الضهيرة". وهنا مرت فوقنا في تلك اللحظة طائرة كانت متجهة شمالاً.. ولعلها أقلعت من "جدة" إلى دمشق عن طريق المدينة المنورة. وفي أسفل الوادي وجدنا بئراً عليه شجرتان أو ثلاث شجرات.

إن هضبة "الغمرة" المزدوجة القمة، ليست بعيدة عنا، فهي تقع إلى الشمال الشرقي من المكان الذي وصلنا إليه. والآن كان علينا أن نعبر القناة فوق رمال مبتلة. ومن حسن الحظ أننا وجدنا آثار جماعة من "عنَزة" هناك. كان هؤلاء قد زاروا خيبر عن طريق دمشق قبل شهر واحد، فأرشدتنا معالم آثارهم إلى الطريق التي يجب أن نسلكها. ومع ذلك، فأن

الممر الذي كان علينا أن نعبره، كان واحداً من الممرات التي تصعب على كل سيارة "لاندروفر". وهكذا، وجدت سيارتي تنغرز عجلاتها في الرمال المبتلة، بينما لاحظت أن السيارات الأخرى قد شقت طريقها عبر أرض مواتٍ اجتازتها لتعبر الوادي دون صعوبة تذكر.

ومن الطبيعي في تلك الحال أن نتعرض لشيء من المصاعب حتى نتخلص من الورطة التي وقعنا فيها. وأخيراً تمكنا من عبور الوادي، وأخذنا نصعّد فيه حتى بلغنا ارتفاعاً لا بأس به، وصلنا إلى نقطة كان فيها عرض الوادي يتراوح ما بين ٥٠٠٠ و١٠٠٠٠ ياردة. لما كانت الحرة تحتضن الضفة اليسرى من الوادي، فقط انعطفنا مع الطريق لنجد رافداً يعرف باسم "شعب حالويا". ومن هنا مِلنا شمالاً مخلفين وراءنا وادي "غمرة"، لنتوجه شرقاً إلى منابع مياه هذا الوادي قرب الجبال.

كانت النقطة التي ينبع منها رافده الأول، تقع بين سلسلتي جبال "وَجْره" و"وَبّر": ، فسرعان ما تركنا هذه النقطة ونفذنا إلى سهل واسع سارت فيه سياراتنا بسهولة تامة، حتى وصلنا إلى "شُهيل حالويا". والمكان عبارة عن صخرة يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم، توقفنا عندها ورحت أتسلقه أنا و"خمسان"، بينما جلس بقية المرافقين يشربون قهوتهم المحبوبة. ومن هذه النقطة كان باستطاعتنا أن نرى ذروة جبل "عطوة" قرب خيبر، وأن نلمح تلة "سُرَيْر"، التي تقع بالقرب من وادي "لمد"، وقرية "أم رقبة".

وإلى الشمال الغربي من موقفنا، كان هنالك ممر يدعى "رِيع شَرْف الإمامة"، وهو ينحاز إلى يسار سلسلة جبال "عَناب" قدّام تلة "ويّلات الغَزوة". وفي تلك النقطة قاتل بنو رشيد جماعة "ابن رقادة" وقتلوه، وهو من قبيلة "بيلّي". وقد جرت هذه المعركة إثر قيامه بثورة فاشلة ضد ابن سعود في أوائل سنة ١٩٣٠.

كان باستطاعتنا الآن أن نرى إلى الشرق من موقعنا أشجارَ النخيل التابعة لقرية "سمْحه"، ونبصر الهضبةَ الواطئة التي يطلق عليها اسم "البِرْك"، ومن هذه الهضبة تنبع الروافد التي تشكل وادي "هلهل".

وفي الوقت ذاته كان طرف مرتفعات الحرة يبعد عنا مسافة ميلين إلى الجهة الجنوبية الشرقية. كما كان بئر "حالويا" يقع إلى الشرق مع ميلٍ بسيط إلى الشمال. بينما كانت تلال "جرث" الممتدة قممها على شكل فقاعات "العتّاب" تقع إلى الشمال الشرقي منا.

هاهي القمم الجرانتية "مُسَيْلِخة" تقع إلى الشمال. ومن الهضبات الواقعة خلف هذا الجبل تنحدر مسايل "خُضيرة الغَضْن" التي تسير على شكل مجارٍ متعددة في السهل الذي يحمل الاسم ذاته. وهو السهل الذي كان يقع أمامنا مباشرة ونحن نسير مع حضيض تلال "غمرة". إننا الآن نجوس في منطقة تجوّل فيها "دوتي" من قبل، وهي تلة وبئر "اليمَن"، وكذلك تلال "الخفيضة"، وتلال "الختَم".

هاهو السهل الذي يمتد أمامنا حافل بشجيرات الدفلة، وبين هذه الأشجار آثار بعران قادتنا إلى مياه غمرة" التي يستقي منها الأعراب. وهي تتجمع من عدة ينابيع تنبثق من سلسلتي جبال "وَبر" و"عتاب" إلى يسار ذلك السهل. أما بئر "العشّاش" فهي إلى الشمال لشرقي من ملتقى وادي "العَزيز" بوادي "الخفيضة".

وهكذا... وجدنا أنفسنا وسط عقد متشابكة من سلاسل الجبال والتلال التي لها وديانها وينابيعها الخاصة، بينما كان هدفنا ليس إلا ممراً ضيقاً عبر الحجارة الجرانيتية الحمراء لجبل "المُيْلِخة" وكان علينا الآن أن نجتاز ثلاث مجموعات من المسايل هي: "غصن" و"عزيز" وأبو خشب". وتلتقي هذه المسايل بعد انحدار بسيط، ثم تسير معاً مسافة قصيرة قبل أن تتفرع، وتعود فتصب في وادي "الخفيضة" فوق نقطة التقائه مع وادي "غمره" الذي يشكّل المصدر الرئيسي للري في هذه المنطقة.

ومن خلال الفجوة بين الواديين كانت تلوح لنا قمة جبل "الأبيض"، وتظهر مساحةً شاسعة من ارض الحرّة. والمعروف بين أهل المنطقة أن جبلي "جرْث"، (ربما كان اسمه جرس)، وعتّاب"، هما أفضل الأماكن لصيد الغزلان.

قطعنا مسيل وادي "غصن" في نقطة تقع على بعد ميل واحد تقريباً من منابعه. وسرعان ما وجدنا أنفسنا أمام ممر "مسيلخة"، أي بين صفين من السيافير الجرانيتية العالية. ولا يبلغ طول الممر ميلاً، أما عرضه فليس أكثر من ٢٠٠ ياردة. ولم نجد في عبوره أية صعوبة، إلا أننا ما أن اجتزناه حتى وجدنا أنفسنا نسير فوق أرض صلبة هي قاع لشعب "العزيز"، في نقطة تبعد مسافة ميلين عن منابع مياهه من سلسلة جبال "الشَقراء"، التي كانت تقع إلى يسارنا. وقد اصبح السير في الطريق صعباً للغاية بعد ذلك، بحكم ما يعترضها من الصخور العديدة التي تزيد في وعورتها. ودون هذه الطريق الوعرة تقع تلال "أم بَردية" و"أبو خشب". ومن خلفها إلى الشمال الشرقي تلوح صخور حاشية (حَمراء بَضيع) Hamra Badhi الشديدة الحمرة.

هذا ولم نجد صعوبة في عبور شعب "أبو خشب" الصغير، كما عبرنا سلسلة جبال "سميّة" عن طريق ممر يسّر لنا ذلك. ولم نجد فيه أية عقبة تعترض سيرنا، وإن كنا مررنا فوق مساحة قصيرة من الأرض الصخرية قبل أن نصل إليه. وهنا كنا في نقطة تواجه مجرى وادي "حضيرة" الذي يتراوح عرضه بين ألف وألف وثلاثمائة ياردة، ويقع بين مجموعة جبلي "أبو خشب" و"أم رضّام". وكلا هذين الجبلين صخري ذو سيافير سوداء قاتمة كانت تلمع أثناء غياب الشمس.

هنا اخترنا مكاناً فيه شجيرات قصيرة على الجهة اليمنى من الوادي، وكانت بقعة لطيفة، ثم سرعان ما ضربنا خيامنا هناك للمبيت. لقد أمضينا يوماً ممتعاً حقاً، وإن لم نقطع خلاله أكثر من ثلاثين ميلاً.

ووادي "حَفيرة" هو آخر الوديان التي تزوّد أعالي وادي "مرة" بالماء وإن لم يكن أقلها شأناً.. كان الطقس بارداً في تلك الليلة، حيث تدنت درجة الحرارة إلى ٥٠ درجة فهرنهايت. وكنا في نقطة ترتفع ألف قدم عن خيبر التي لا تبعد أكثر من خمسين ميلاً عن مكاننا.

وقد أجبرتنا الرمال الكثيفة في أرض الوادي على التحول عنها وتسلق جانب الوادي الأيمن. لكننا لم نجد في العبور مشقّة تذكر، إذ أن سيارات أخرى كانت قد سبقتنا فجعلت مرورنا سهلاً. وعلى بعد ثلاثة أميال من مخيمنا، وجدنا جبلاً عالياً صخوره حمراء، يدعى "الخنزيرة". وهو يمتاز عن الجبال الأخرى التي تحيط به، لأنها معروفة بألوان صخورها السوداء. وبعد أن عبرنا شعبه، وهو أحد روافد "حفيرة" توقفنا قليلاً لإجراء بعض الأبحاث. وكنت مستغرقاً في البحث حينما تمكن مرافقيّ من العثور على جحر "نيْص"، تمكنت من التقاط عدد من (الفقار العظيمّة) من داخله. ومما لا شك فيه أن هذه الحيوانات نادرة في مثل هذه المناطق الجبلية، وقلما رؤيت على قيد الحياة. ولست أذكر مطلقاً أنني رأيت وحداً منها حياً في يوم من الأيام.

إن قبيلة "هتيم" وغيرها من القبائل غير الرفيعة الشرف بين العرب لا تأنف من أكل لحوم هذه الحيوانات، ولا لحم القنفذ. أما القبائل الأخرى،. فلا تتقبل ذلك ولا تسمح به، دون النظر إلى عدم ورود نصٍ بتحريمه من وجهة شرعية. وقد أخبرني خمسان" أن المنطقة المجاورة، الكثيرة التلال، منتجَع يقصده صيادو النياص من بني "هتيم".

ويدخل شعب "سَوْلَة" وادي "حفيرة" في نقطة مقابل "خنزيرة".

من هنا استأنفنا المسيرة وأخذنا نبتعد عن مسيل "حفيرة" الذي تحول عن طريقنا ليصعّد بين "أركة" و"أم رضام"، بينما دخلنا نحن "حرَيمل" عن طريق العقدة الجبلية في "أم سحليل". وفي هذه النقطة، أفزعت سياراتنا غزالاً وحيداً كان يلتمس الكلأ، فبادر إلى الهرب، ولم يلبث أن تبعَه من وراء صخرة مشرفة غزال آخر.

ثم مررنا بعدد من الأضرحة، يُعتقد أنها قبور أشخاص كانوا يقطنون في هذه البقعة. ولم تكن هذه القبور ذات أهمية تذكر، كما أن "خمسان" لم يكن يعرف عنها شيئاً .. وهنا ابتعدنا عن مسيل "حريمل" الذي يجري نحو التلال، المعروفة باسم تلال "أم سحليل"، ثم يمتد بعد ذلك إلى الشمال. ومن هذه النقطة، كنا ما نزال نستطيع أن نرى المكان الذي ضربنا فيه خيامنا والمنطقة المحيطة به. ولكننا ما أن ابتعدنا قليلاً حتى اختفت كل تلك المناظر، ولم نعد نستطيع أن نرى شيئاً من ذلك المكان.

هاهو ينبسط أمامنا سهل فسيح عرضه ميلٌ، تحيط به جبال "سحليل". وتحت هذا السهل مباشرة، تتلوّى الطريق التي نعتزم المرور فيها. وقد توقفنا قليلاً قبل أن ننزل المنحدر الهابط إلى تلك الطريق، كي أجمع بعض الآثار الموجودة في المنطقة، وكانت هذه ظاهرة للعيان. وقد فعلت. إلا أني لم أجد بين ما جمعته أي أثر ذي بال.

كنت آمل أن نمر بالقرب من صخور "حمراء بضيع" الحمراء اللون، لأقارن بينها وبين صخور جبل "خنزيرة"، التي كانت، بالإضافة إلى جمالها، تسترعي الاهتمام. غير أننا تركنا هذه الصخور إلى يميننا، وسرنا على ضفة "حفيرة"، فلم أستطع أن أرى شيئاً من تلك الصخور.

ومهما يكن من أمر، قد اشتدت في الجهة التي أمامنا، كتلة من الصخور الحمراء.، وحين سألت "خمسان" عن اسم تلك الصخور، كان جوابه مفاجأة لي، فامتلأ دماغي بكثير من التخيلات. لقد قال: "إن هذا الحجارة تدعى: المذبح". قالها ببساطة، وكأنه ينطق بأحد أسماء غيرها من الأشياء والمواقع التي أخبرني بها خلال الثماني والأربعين ساعة الماضية ليرضي فضولي، ويجيب على أسئلتي التي لا تنتهي. وأنه ليجب أن أقرر هنا اعترافي بأن ما قاله "خمسان" عن معرفته بالمنطقة الواقعة بين "الروضة" و"الحفيرة" كان صحيحاً مائة بالمائة، كما ثبت ذلك خلال هذه الرحلة. ومن المؤكد أن "خمسان" عندما نطق باسم تلك الصخور، لم يخطر بباله أنه يعني "مذبح التضحية" الذي قد يكون من

الأماكن الأثـ ٠٠ة النـادرة. وقد سألته عما إذا كان قد سبق له أن رأى أية صور أو نقوش في هـذه النـواحي ، فأجـاب بالنفي. ولعله لم يكلف نفسه أن يحيد عن الطريق الرئيسية ، ليلقي نظـرة عـلى تـلك الصـخور الـتي لا تـبعد إلا مـرمى حجـر. ولـو فعـل لعَـلم الكـثير عـن هذه الصخور النادرة!!

وقد أشـار خمسـان إلى مـا وراء تلك الصخور الحمراء ، إلى مسيل "شعب يطروحة" ، وسلسـلة المرتفعات التي تقوم إلى اليسار ، ويدعونها بالاسم ذاته. وقال "خمسان" : إن هذه السلسـلة تتصـل بسلسـلة جبال "اليمَن" في أقصى الجنوب ، وجبل "الختم" العالي الذي يعتبر رأس وادي "غمرة". وكـان "دوتـي" قد سجل كل هذه الأسماء ، أثناء تجواله في هذه المنطقة غير أنه لم يزر وادي "يطروحة" ، كما أنه لم يسمع باسـم "المذبح". وتحت هذا الوادي رأيت صخوراً رملية تدعى "الأبرقيَّة".

وبعـد مسيرة ميلين أو أكثر قليلاً ، رأيـت مصـارف الميـاه الـتي كـانت تمـر بالسـهل ، تـنعطف إلى اليمين ، لـتدخل في وادي "حفيرة" (وهو يبعد ميلاً واحداً عن المكان الذي نحن فيـه) ثـم تسير بشـكل مسـتقيم حتى تصل إلى صخرة رأينا من فوقها شعباً آخر تابعاً لشعب "حريمل". وكـان هـذا الأخير يقطـع علينـا طريقـنا ويـتجه نحـو "حفـيرة" إلى يميننا. ومـن هذه الـنقطة استطعنا أن نـرى الـوادي اخـترق الهضـبة المنخفضـة الـتي كنا نسير فيها ، والصخورَ الحمـراء المسـماة "المذبـح" ثـم يميـل في زاويـة تبلغ ٤٥° ، تبدأ من الشمال الغربي وتنتهي في الشـمال. ويقـع وادي "اليطـروحة" في الجهـة القصـوى لـذلـك الـوادي ، محاطـاً بسلسـلة مـن الصخور السوداء.

قطعـنا شـعب "حـريمل" ، وعـلى بعـد ميـل واحـد منه وصلنا إلى حافة وادي "حفيرة" ، فعـبرته ، ثـم قـدّت السـيارة مباشـرة إلى أول مجموعـة مـن الصـخور ، رغـم احـتجاجات "خمسان" على أنني قد ابتعدت عن طريق السيارات وغامرت باتباع هذا الطريق التي تغرز فيـه الدواليـب. ولكـن كـل شـيء جرى على ما يرام. وما هي إلا هنيهة حتى كنت في أسفل

تلك الصخور، أسجل منظراً أثرياً ذا قيمة كبرى.. كان أمامي متحف يعرض لوحات رائعة تحمل تواقيع أثرية ترجع إلى عهد "ثمود". ولعلها كانت تواقيع الفنانين الذين اشتركوا في نقشها.

إلى الآن لم نقطع سوى ١٢ ميلاً حيث ضربنا خيامنا في الليلة الماضية، ومع ذلك، رأيت أنه قد يكون مناسباً أن نخيم هاهنا لنمضي بقية اليوم. و كان ذلك اليوم هو آخر أيام السنة، فضربنا خيامنا بكل نشاط قبل بداية السنة الجديدة بفترة لا تزيد على إحدى عشرة ساعة. وأخيراً غادرنا "المذبح" قبل بزوغ فجر أول يوم في السنة الجديدة.

ولعل "غروماني" قد مرّ بهذا الطريق دون أن يخطر بباله مدى أهميته، أما "دوتي" – كما سبق أن ذكرت – فلم يهتم بها كثيراً. ولعلي كنت أنا الأجنبي الوحيد الذي مر بهذه المنطقة التاريخية، ودرس نشاطاتها منذ قديم الزمان. ولا يتسع المجال لذكر تلك الدراسات الآن، فهو يحتاج إلى مجلد خاص. أما النقوش التي حصلت عليها من "المذبح"، ومن غيره من الأماكن، فقد أُجريت عليها دراسةٌ مستفيضة قام بها الدكتور "فان دن براندن" الموجود في "حريصا" الواقعة إلى الجهة الشمالية في جبال لبنان. وقد طبع الدكتور بهذه الدراسة كتاباً في سنة ١٩٥٦، غير أنني لا أستطيع إلا أن أذكر بهذا الصدد أن تحرّياتي التي أجريتها فيما بعد، قد بيّنت أنني لم أكن أول أجنبي يمر بهذه المنطقة.. لقد وجدت أحد النقوش مكتوباً باللغة العربية! ولعل كاتبه مترجم عربي كان يرافق جماعة قد ضمت عدداً من الجيولوجيين الأميركيين.

كان أول اهتمام لي، بعد أن نسخت النقوش، والتقطت الصور الضرورية التي وجدتها في المناطق المجاورة، أن أتسلق الصخور العالية التي يزيد ارتفاعها على مائتي قدم، وعند هذه الصخور أقمنا مخيمنا. وإلى الجنوب الغربي خلف الضفة اليمنى لوادي "حفيرة" توجد تلة "أم سحليل" بينما تقوم سلسلة جبال "شقران" خلف هذه التلة على بعد

حوالي ستة أميال منها، متميزة بقمتين عاليتين. وإلى الغرب والشمال الغربي من الأفق، كنت أرى أن الطريق مسدود بهدب جبلي مقفر يدعى "حَمَّة".

كانت سلسلة جبال "الأرْدَم" الطويلة المتشعبة تقع على بعد شاسع في الاتجاه الشمالي الغربي، وتبدو صخور "المذبح" وكأنما تشكل سناماً لهذه الجبال. وتعتبر "حفيره" قسماً من سلسلة جبال "حَجر"، التي تمتد باتجاه جنوبي شرقي حتى أول "الغمرة" شاملة "أم سحليل" و"يطروجة" و"أبو خشب" و"أم رضَام"، وكذلك "الختْم" و"المُخيْط" والتلال المحيطة بآبار اليمَن. وربما أمكن اعتبار "جرث" و"العَتاب" ومن ضمن المجموعة. ورأينا "حمراء بضيع" من المكان الذي وصلناه بينما غابت بقية المجموعة، ولم تكن لتبدو لنا إطلاقا. والجدير بالذكر أن مجموعة جبال "حجر" كانت تُعتبر قسماً من الحجاز، بخلاف مجموعة "شِفا" التي لم تكن لتعتبر كذلك، وإن لم تكن حدود هذه المجموعة قد تم تعيينها حتى ذلك الوقت.

وأعتقد أنه من المعقول اعتبار حدود الحجاز ممتدة شمالاً بحيث تضم جميع وادي الحمض وروافده حتى تصل إلى البحر الأحمر في نقطة تبعد قليلاً إلى الجنوب من الـ "وجْه" وأنه لمن الصعب إطلاق اسم واحد على جميع المنطقة الواقعة إلى الشمال من هذا الخط، حتى تصل إلى "العقبة" وخليجها. أما لو أجرينا بعض التعديلات على هذا الخط لمصلحة المنطقة الشمالية، وذلك خلافاً للاعتبارات السياسية القديمة، فإنني أعتقد بأن القسم الأخير جدير به أن يعتبر "أرض مديَن.." تلك الأرض التي تمتد حدودها الجنوبية من القسم الجنوبي من المذبح حتى بئر "مُغَيرة" قرب سكة حديد الحجاز إلى الجنوب من "العلا". ومن هناك تمتد حتى رأس وادي "عنتر" الذي تسير معه حتى البحر.

أما السبب الذي يدفعني إلى تقديم هذا الاقتراح الذي أحترز حين أقول عنه منطقياً، فيرجع إلى أن الخط الذي رسمته على خريطتي يبدو وكأنه يحدد القسم الجنوبي من المنطقة التي كان موطن "النبطيين" في القرون الأولى قبل الميلاد وبعده. وهم الذين شردوا الـ"ميناعيين" من "العلا" و"مداين صالح" (الحِجْر أو إغرا القديمة). وهؤلاء بدورهم لحقوا

بـ(اللحيانيِّين) الذين نعرف أنهم ربما كانوا سكان "مديَن" أنفسهم، أو لعلهم غزاتهم والذين خلفوهم. أما الشيء الوحيد الذي كان أكيداً فهو أنه إذا ما استثنينا مناجم الذهب في "مدين"، تلك المناجم التي يستبعدها الخط الذي أقترحُ رسمه في خريطتي عن الحجاز، فإنه لا تتوفر لدينا أية معلومات مطلقاً عن أية مستعمرات "مدْينية" في المنطقة، ولا أية شواهد أثرية تدل على وجود أهل "مدين" خارج المنطقة التي تنص عنها الأخبار في التوراة.

ومهما يكن من أمر، فإن القسم الأكبر من المنقوشات التي وجدتها في الصخور القريبة من "المذبح"، لا تترك لدي شكّاً في أن الناس الذين سجلوا هذه المنقوشات كانوا يعرفون المنطقة، وربما قدموا إليه نشداناً للقنص أو قضاءِ فترة الربيع في خيام يضربونها هناك. ويجوز أنهم قد أتوا من "مداين صالح" حيث يحكمون هناك كملوك، أو تُراهم قصدوا ذلك المكان في زيارة للقيام ببعض الطقوس الدينية.. وهو استنتاج يتبادر إلي من اسم "المذبح".

عندما هبطنا من النقطة التي كنا فيها، بدأت جولةً في المنطقة، فرحت أجوس خلال تلك الناحية وأجمع النقوش من هنا وهناك. وكان معظمها يعود إلى عهد "ثمود". وقد تحولتُ من صخور "المذبح" إلى وادي "يطروحة" كي أفحص الناحية الشرقية من الصخور، حتى وصلنا إلى نقطة يلتقي فيها واديان عند أقدام صخور المذبح. وخلف الطرف الغربي لتلك النقطة، وبعد أن اتجهنا شرقاً عبر طريق صغير ينحرف قليلاً عن خط امتداد صخور المذبح، وجدنا صخرة منعزلة يبدو أن الطبيعة قد نحتتها على شكل "أبي الهول". ومما يستثير الإعجاب والدهشة رأسُها المنبسط الذي يشبه رأس أبي الهول في مصر، وكذلك الرقبة والجسم، الأمر الذي جعلني أتصور أن "المذبح" قد أقيم ههنا حيث توجد هذه الصخرة، كي يقدّم الناس عليه قرابينهم لأحد الآلهة. وقد اكتشفت أن فخذ (أبي الهول) قد قشط حتى غدا أملس ناعماً، ومن ثم نُقشت عليه عبارة بلغ طولها سبعة إنشات إلى ثمانية. غير أن هذه النقوش كانت – بكل أسف – قد تآكلت بشكل بشع، بحيث كان من

المستحيل أن ينسخها أحد أو يجزم بأنها نبطية أو ثمودية. وكانت هذه الحقيقة مؤلمة فعلاً، غير أنني كنت على شبه اليقين من أننا قد اكتشفنا المذبح الذي وهب المنطقة اسمها. ولما كان الوقت آنذاك متأخراً، فقد عدنا إلى المخيم مؤجلين فحص بقية المنطقة إلى اليوم التالي.

رأينا أثناء جولتنا عدداً من الطيور الغريبة الشكل، لكنه لم يكن معنا ما نصيدها به.. كما أنني عجزت عن التعرف على أنواع هذه الطيور، أو أين تعيش. وربما كانت من الطيور المعروفة باسم "سيسي" إذ أنها لا تشبه الطيور المعروفة بالحباري في شبه الجزيرة العربية.

هذا وقد تناولنا في عشية السنة الجديدة عشاءً خالياً من اللحم، ومع ذلك استمتعنا بليلة هادئة جوُّها لطيف، وإن كان الندى قد تكاثر عند انبلاج افجر.

وفي هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية يختلف الطقس بين الحار والبارد. فالطقس الحار موجود في الحجاز، أما الطقس البارد ففي "الشفا" التي تقع في الناحية الغربية من صحراء "شمّر". وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في تلك الليلة هو ٤٦ درجة فهرنهايت. وكنا في ذلك الوقت على بعد ٦٢ ميلاً من خيبر، أي أنه ما زال أمامنا مسافة ٢٠٠ ميل كي نصل إلى "المدينة المنورة.

وفي صبيحة اليوم التالي، وهو رأس السنة الجديدة، استأنفنا تفحُّص صخور "المذبح"، وما يقع خلف صخرة "أبي الهول" على الخصوص. إلا أننا لم نستطع العثور على الكثير من النقوش. وكنا نتعرض هنا وهناك إلى مشقة عظيمة من جراء الرمال الكثيفة، وخاصة عند أول صخرة قريبة من "أبي الهول"، حيث كان لسان رملي يمتد من حول الصخرة حتى قرب مسيل "حفيرة". ولذ فقد مضينا في عملنا متجهين إلى الناحية الشمالية الغربية، مصعّدين باتجاه وادي "حفيرة" ودرنا حول صخرة كبيرة تدعى "عبد الحفيرة" تميّز المكان الذي توجد به الآبار. وقد وصلنا إلى أول بئر من هذه الآبار بعد مسيرة

مسافة ميلين تقريباً بعد أن أزعجنا، للمرة الثانية أثناء سيرنا، مجموعات من تلك الحجلان السود الرؤوس.

وتدعى البئر التي تقع في أسفل الوادي "حفيرة الدنيا"، وكان فيها ماء على عمق ست قامات. وقد حُفرت هذه البئر في صخرة صلدة، وجُعلت لها "خُمّرة" بيضاوية الشكل. وبالقرب من هذه البئر وجدنا كوخين حقيرين مهجورين، كان أهلهما فيما سبق، لا ريب، يتزودون بالمؤن من القرى المجاورة التي تبعد عنهما مسافة ميل واحد. وعندما وصلنا إلى تلك القرية وجدنا بيوتاً حديثة البناء تخص شيخ قبيلة "عيدة".وهنا رأينا "قصر" شيخ القبيلة وحوله عدد من الأكواخ، غير أنها كانت جميعها خالية إلا من امرأة عجوز وابنتها التي تبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من عمرها. ولقد علّمنا أن سكان هذه القرية خرجوا إلى الفلاة لتمضية فصل الربيع كعادتهم كل عام. ولم نجد في هذه الأكواخ أيّ أثر للحياة، - باستثناء العجوز وابنتها -، غير كلبين اثنين. أما تلك العجوز فقد تركها أهل القرية لترعى شؤون بلدتهم أثناء غياب شيخ القبيلة الذي نسي على ما يبدو أن يترك لها ما قد تحتاج إليه من مواد غذائية. وقد تبرعت لها بوجبة الغداء التي كانت مخصصة لي.. كانت تلك العجوز وابنتها عبدتين تبدو حياتهما مزرية للغاية. ومع ذلك فقد بدتا ودّيتين تجاهنا، وقانعتين بحياتهما الضنكة على قسوتها، على اعتبار أن نصيبهما في هذه الحياة لا يمكن أن يكون أفضل مما هو.

وقد وجدنا في أحد المنحدرات، الذي يشكل رأساً من رؤوس وادي "فحيرة" الكثيرة، عدة آبار، وبستاناً صغيراً من أشجار النخيل، وحقلاً ضيقاً مزروعاً بالحبوب. ومن المؤكد أن القوم الذين كانوا يقطنون في هذا المكان هم من "الإخوان" الذين عُرفوا في أوائل عهد المذهب الوهابي. ويبدو أنهم قد اختاروا هذا المكان مفضّلين إياه على رمال الصحراء المحرقة. ولكن نظرة إلى بقايا دورهم الخربة، تؤكد للناظر أنهم كانوا يفضلون حياة الصحراء الرحبة على المكوث في جحورهم هذه، وإن كان هذا القول لا ينطبق على

القصر الذي يخص كبيرهم. وكان هذا "القصر" قد أستخدم معظمه كمخزن لممتلكات "الشيخ".

كانت بئر "المروى"، وهي البئر الرئيسية التي يستقي منها الناس ماء الشرب، مبنية بشكل هندسي من الحجارة المنقوشة، وعلى بابها أحجار سوداء رأيت على إحداها نقوشاً تحمل اسم "محمد بن فرحان". وتقع هذه البئر عند الطرف البعيد لصخور "أم سحليل". والماء فيه على ثلاث قامات.

وكان شعب "جُفَر"، وهو أحد رؤوس وادي "حفيرة" يجري إلى أسفل البئر في ممر صخري ضيق. وكذلك فإن شعباً آخر كان ينحدر من المرتفعات المؤدية إلى تلة "عبدالحفيرة". أما الشعب الأول فيبدأ من نقطة تقع على مقربة من جبل "حَمَّة" وفي أسفله بئر على مسافة ميلين من "القصر".

هذا وقد أخبرتنا المرأة العجوز، أن سكان القرية يضربون خيامهم الآن في مكان قريب من آبار "مِندَسَّة" التي تبعد عن القرية قليلاً إلى الشمال. وعند ذلك ولّينا وجوهنا شطر مضارب القوم. وإذ قطعنا سهل "الجهْرة" الذي يشكل أول واديي "حفيرة" و"يطروحة" توقفنا عند مجموعة من الصخور أثارت انتباهي لارتفاعها. وقد علمت أنها تدعى "طويْلات" أو "ضليْعات" "الضاعا". من هنا كانت حاشية (أردم) ذات الصخور الرملية تبعد ما لا يقل عن عشر أميال إلى جهة الغرب، بحيث لا تكاد تظهر بجلاء. وتتصل تلك المرتفعات بصخور عالية أخرى تدعى "أسياخ" تمتد باتجاه جنوبي غربي. وكنا من مكاننا الذي وصلنا إليه ما نزال نستطيع أن نرى قمة جبل : "عتّاب"، كما وقعت عيناي ههنا لأول مرة على قمة جبل "إثنان" البركاني. وهو الجبل الذي ذكر "دوتي" أنه وجد إلى جانبه آثار النعام المنقرض حالياً من شبه الجزيرة العربية. إن "اثنان" هذا ينتصب إلى الجهة الشرقية من المكان الذي كنا قد وصلنا إليه. أما إلى الجهة الشمالية الغربية فقد رأيت لأول مرة أيضاً جبل "بَرْد" الشامخ. وبمجرد رؤية هذا الجبل استدعيت في ذاكرتي كلاً من "دوتي" و"هوبر"

وغيرهما من المستكشفين العظام. وقد لاحظت أن خمسان يلفظ اسم هذا الجبل "يرُد".
هذا ويمتد أمامنا مباشرة وفي اتجاه شمالي شرقي حوض آبار "المندّسة" الواسع الذي تمتد خلفه هضبة من الصخور الرملية، وإلى الغرب من تلك الهضبة وجدنا خيمة سوداء كبيرة تخص شيخ "عيدة" كما وجدنا خياماً أخرى لأتباعه ومواشيه.

الآن اختفت الوديان والجبال التي مررنا بها خلال الأيام القليلة الماضية، مفسحة المجال أمام صحراء وسهول مفتوحة تمتد شرقاً حتى مشارف جبل "شمّر" موطن حاتم الطائي، مضرب المثل في الجود والكرم. جبل "خيبر" الآن يقع إلى الجنوب منا، بينما يقع "العلا" إلى الغرب.

وعلى بعد ميل من طرف "مندسّة" امتدت أمامنا الطريق سهلة لا صعوبة فيها مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلنا إلى مراح طيني رائع أكثر مما يتصور المرء.

وقد أُعجبت بهذا المراح.. واجتزناه فبلغنا النقطة الوحيدة التي يمكن للسيارات أن تصعد منها إلى ما فوق الصخور القليلة الارتفاع الواقعة على الجهة الثانية لسفح "مندسّة". وبعد دقائق قليلة، وصلنا إلى مضارب قبيلة "عيدة" الرئيسية. وكان من سوء حظنا أننا وجدنا الشيخ محمد بن فرحان غائباً عن المضارب، غير أننا سررنا إذ وجدنا هنالك ابنه "ذعّار". وكان هذا الابن قد قابلني في سنة ١٩٣٧ حيث احتفى بي بكرم ظاهر. وذلك عندما التقينا سوية في "ليث" التي كان حاكماً عليها عندما زرت تلك النواحي، وأنا عائد من رحلتي في تخوم اليمن إلى مكة المكرمة. وبعد المجاملات التقليدية والترحيب الحار، استأذنته في أن نضرب خيامنا على مقربة من مضاربه وفي نقطة تقع عند أسفل الصخور، حيث كان من الواضح أنني سأجد الكثير من الأشياء التي تستحق الاستقصاء والبحث. وكانت المنطقة التي تضم السهل الواقع تحت تلك الصخور مباشرة وتمتد حتى تصل إلى المنطقة الجبلية التي مررنا بها مؤخراً، تشمل مرتفعات "يطوحة" و"المذبح"، و"أم سحليل" و"صفران" و"سيناف" و"عجارم" و"أسياخ" و"أردم" كما تشمل مشارف "العلا" و"مداين

صالح" وخط السكة الحديدية. وكنا بالإضافة إلى ذلك قادرين على رؤية "خنزيرة" حيث ترد الإبل والماشية من هناك. أما "عتاب" فلم يعد ظاهراً للعيان.

هاهي تقع خلفنا إلى الجهة الشرقية، منطقة واسعة تنتشر فيها الصخور. وليس في هذه المنطقة أية علامات تدلنا على الطريق، اللهم إلا تلة "أم رُقَيْبة" التي تقع بعيداً إلى الشمال الشرقي. أما آبار "حفيرة شملي" الموجودة في الطريق ما بين "تيما" و"حايل" فتقع خلف تلك التلة على مسافة ليست بالقصيرة منها. كان يخيل إلينا ونحن في تلك المنطقة أن السماء تهطل مدراراً في منطقة الآبار سالفة الذكر. وحينما ألقيت من مكاني نظرة على آبار "مندّسه" رأيت الإبل والماشية ترد الماء هناك. والجدير بالذكر أن ثمة آباراً أخرى موجودة عند أسفل المرتفع المجاور إلى جهة الشرق والمعروف باسم "الأبرقيّة"، غير أن مياه هذه الآبار كانت ضحلة بالنظر لانحباس المطر عن هذه المنطقة خلال فصل الشتاء الحالي.

بعد غياب الشمس مباشرة، دعينا لتناول طعام العشاء في مضرب شيخ قبيلة "عيدة" لنجدَ هناك عدداً من وجوه القبيلة قد اجتمعوا لاستقبالنا. وكان مضيفنا "ذعّار" مضيفاً مبهجاً، قريباً إلى القلب، زاخراً بمختلف الأحاديث التي يمكن أن تروى. غير أن الطعام الذي قدّم لنا لم يكن جيداً. فعلى الرغم من اقتصاره على اللحم والأرز واللبن، وهي مألوفة لدى طاهيته، إلا أنه كان سيئ الطهي، من الصعب على المرء أن يأكله في الظلام. وقبيلة "عيدة" هي الفخذ الرئيسي لقبيلة "ولاد علي" التي هي بدورها فرع من قبيلة "عنَزة". وكان الشيخ محمد بن فرحان نفسه قد وسّع حدود قبيلته حتى نقطة تقع على مقربة من "علا"، وذلك استناداً إلى ما كان يقوم به من غزوات ضد قبيلة "بيلّي". وكان الشيخ بن فرحان قد زار بصحبة "ابن رقادة" وهو خصمه في القبيلة الثانية، الملك عبدالعزيز بن سعود في مدينة الرياض أثناء ذلك الصيف، كي يحتكما إليه حول موضع "ملكية الآبار". ويبدو أن القرار النهائي كان في مصلحة ابن فرحان، وإن كان هذا القرار مقيداً بشروط معينة،

تضمن حقوق الجميع في ورود الماء، بما في ذلك أفراد قبيلة "بيلي" الذي أُعطوا حق ورود الماء لمواشيهم، والتزود بحاجتهم من مياه الشرب.

وقد حضر أثناء وجودنا هناك الأمير "خالد السُديرَي" أمير "تبوك" الذي كان يجتاز "منلسه" في طريقه إلى "الرياض" عبر "حايل". وقد رأيت، قبل رحيلنا، سيارات الأمير خالد الخمس تمرّ بمراح "القاع" الطيني عند "الأبرقية". ثم استدارت من هناك يميناً في طريقها إلى "بيضاء ناثيل". وعندما دار الحديث حول المنقوشات، أخبرني "ذعّار" أن تلال "خنزيرة" تضم عدداً من هذه المنقوشات. وهكذا، كان من سوء حظنا أننا مررنا بهذه التلال دون أن نلاحظ شيئاً منها. ولعله يتاح لبعض المستكشفين الآخرين في المستقبل أن يجدوا تلك النقوش.

كان ذعّار يعرف البعثة الأمريكية التي زارت "المذبح" برفقة "أحمد فخري" تلميذ "ك.س. تويتشل". وكان أحمد فخري هذا إذ ذاك يشغل منصب مدير دائرة المناجم والمشاريع بوزارة المالية. وقد توفي في مطلع سنة ١٩٥٤. وكان بحكم منصبه الرسمي مسؤولاً عن متحف "جدة"، ذلك المتحف الذي أنشئ استناداً إلى مبادرة رجل إنكليزي من "ويلز" يدعى "جيبس". ثم حُشِر هذا المتحف بالكثير من الآثار وبخاصة تلك التي كانت قد جمعتها في رحلاتي السابقة، ثم أضيفت إليها النقوش والآثار التي وجدتها أثناء رحلتي الحالية، والرحلات التي تلتها. ولقد أثارني سفر (جيبس) بعد أن انتهى تعاقده مع الحكومة السعودية، وذلك لأن المتحف وما يحويه (وكان بعضها ذا قيمة كبير ونادرة) سيكون عرضة للدمار. وكنت أخشى أن أحداً من رجال الحكومة لن يكلف نفسه مشقة زيارة المتحف، أو حتى إلقاء نظرة واحدة على محتوياته، رغم أنني كثيراً ما ذكرت أمام المسؤولين أهمية الموجودات فيه. وكذلك فقد أُهمل اقتراحي الذي قدمته فيما بعد، بأن يشرّف الملك هذا المتحف بزيارة سامية.

إن أحمد فخري هو الذي سجل نقوش (المذبح)، تلك النقوش التي تم العثور عليها أثناء زيارة الأمريكيين لتلك المنطقة. وقد اكتشفت أيضاً أن (ذعّار) يعرف عن صخرة (أبي الهول) الآنفة الذكر. فقد قال لي أن هذه الصخرة معروفة لدى سكان الناحية باسم (القُطَيْعة)، ثم تطوع بإعطائي معلومات تفيد بأن الأمريكيين لم يروا النقوش الموجودة على تلك الصخرة.

هذا وقد وعدني "ذعّار" أن يزودني بدليلين يرشداننا في ما تبقى من رحلتنا، غير أن أياً من هذين المرشدين لم يحضر عندما اجتمعنا لتناول طعام الإفطار مع مضيفنا في الصباح. ولما كنت آمل أن يكون أحدهما قابعاً في إحدى الخيام، فقد طلبت إلى رجالي تحميل السيارات بالمتاع الذي كنا قد أنزلناه الليلة الماضية. وهكذا، أعددنا العدة لاستئناف السير ولأن أحداً لم يظهر إلى أن تناولنا طعام الغداء. وبعد ذلك جاء رجلان، لكنهما كانا يريدان أن ننقلهما معنا إلى "تيماء" حيث كانا يودان قضاء بعض الأعمال الخاصة بهما. ولم تكن معرفتهما بشؤون المنطقة، كما بدا لي، من الأمور المشجعة. إذ أنني لما حاولت أن أقرر أيهما أكثر خبرة بشؤون المنطقة من غيره، أوضحا لي بما لا يقبل الشك بأنه علي أن أصطحب كليهما أو أتركهما كليهما، ولما كان لدينا متسع كبير في السيارات فقد قررت أن أقبل إنذارهما، ومن ثم اخترت أحد الرجلين ليشاركني سيارتي "اللاندروفر" بينا أشرت إلى الآخر بأن يستقل واحدة من سياراتنا الأخرى.

كنت وضعت خمسين ريالاً في جيبي لأوزعها على خدم الشيخ (ذعّار) عرفاناً مني بما قدموه لنا من خدمات. ولكنني انهمكت في تفكير عميق في الطريقة التي يمكنني بها أن أنقل هذه النقود من جيبي إلى أيديهم! وكنت منشغلاً بالتفكير في الأمر عندما اقترب مني مضيفي ليهمس في أذني قائلاً: إذا كان معك ما يفيض عن حاجتك من نقود فإنني بحاجة إليه! ولم يكن من عادتي أن (أبرطل) مضيفي أثناء تجوالي في أنحاء المملكة السعودية، ولكنني كنت أعرف تقاليد الصحراء في منح خدم المضيف ما يعادل ما قُدم لي من قبل

سيدهم. وهنا شعرت بأن الخمسين ريالاً التي كانت ترنُّ في جيبي تكاد تطل برؤوسها، ولكنني كنت أواجه حالة غير اعتيادية، إذ أن مضيفي يطالب (بالبرطيل) لنفسه، غير هياب ولا خجل! ولم يسعني إلا أن أضع المبلغ في يديه رغم إرادتي.

ثم ودعته وركبت سيارتي وابتعدت عن مضاربه. ولم أنس قبل أن أستقل السيارة، أن أطلب إليه توزيع المبلغ على خدمه، ولم ينس هو أن يشكرني، ثم ابتعدت بأسرع ما يمكن.. كان (ذعّار) هذا رجلاً ضئيل الجسم في الخامس والثلاثين من عمره. وهو محدث لبق ولكنه على ما يبدو شجاع إلى حد ما، ولعل ذلك ما يؤهله لوارثة قيادة قبيلة عربية مشهورة كهذه القبيلة.

وابتعدنا قليلاً عن المضارب، فرأيت قوافل الإبل وقطعان الماشية متوجهة نحو مراعيها. وقد لاحظت أن الماشية تسير شمالاً في الطريق التي تقع فوق الصخور، أما الإبل فكانت تسير في الطريق السفلية.

هذا وقد قدت السيارة مسافة ثلاثة أميال قبل أن نتوقف لكي نتزود بنظرة من المنطقة التي تحيط بمضارب تلك القبيلة. ثم تابعنا سيرنا فوق مرتفع من الأرض، يقع بمحاذاة مرتفعات (مندسة).

وقد أخبرني الدليل الجديد، أن هذه الأرض تدعى "أم شيطات"، وهي عبارة عن نقطة تتجمع فيها مياه الأمطار والسيول من المناطق المجاورة، وليس فيها أية قناة لتصريف المياه. لذلك فقد كانت أرضها سبخة طرية.

وعندما وصلنا إلى هذه الأرض كنا قد بلغنا في مسيرنا نهاية مرتفعات "مندسة" وبدأنا نتجه إلى سهل "القَوْع" الواسع، ويخترقه الوادي الذي يحمل الاسم ذاته. وهو واد يمتد من الطرف الأبعد لمرتفعات "أردم" حتى الأرض السبخة الواسعة المعروفة باسم "سَلَمِيَّة"، الواقعة على طريق "تيماء". ومن هذه النقطة كانت طريقنا ممهدة إلى حد ما، فجعلت

سياراتنا تسير فوقها بسهولة، وإن كانت تجد أمامها في بعض الأحيان عدداً من الصخور أو الحجارة الكبيرة. وكنا في سيرنا نتبّع آثار الشيخ "عبدالله الشنيفي"، تلك الآثار التي تركتها عجلات سياراته قبل بضعة أشهر عندما توجه إلى "تيماء" ليتولى منصبه فيها كحاكمها الجديد. ومن المؤكد أن "خالد السديري"، قد أتبع هذه الآثار (ولكن في الاتجاه المعاكس لاتجاهنا) في الفترة الأخيرة.

ووصلنا بعد مسيرة سبعة أو ثمانية كيلومترات بعيداً عن مضارب قبيلة "عيد"، إلى قناة "القوع". وقد تبعنا خط سير هذه القناة، وكنا تارة نسير على ضفتها اليمنى وتارة أخرى على الضفة اليسرى. كما أننا أحياناً نسير باتجاه شمالي غربي عبر أرض كثيرة الحصباء تنتشر فيها (بحيث تكاد تكسوها) نباتات الرمث الجافة. وبعد مسيرة بضعة أميال قطعنا المجرى الوعر إلى ضفة الوادي اليسرى، وذلك حتى نختصر امتداده العريض الذي كان إلى يميننا. ورغم الصعوبة التي واجهتنا في قطع هذه الطريقة الرملية، فقد تمكنا من ذلك، وبعدها عدنا إلى الطريق الرئيسية، بعد أن كسبنا مسافة أربعة أميال فقط من كل عمليتنا هذه. وقد لاحظت أن السهل الواسع أخذ يتكشف عن تُليلات مختلفة الأحجام كنا نلحظها هنا وهناك. وعند تلك النقطة وصلنا إلى بئر (القوع) أو (مِشاش) وتعرف هذه البئر من التلة المسماة (كحيل القوع).

ثم سرنا عشرة أميال، فدار بنا الطريق قليلاً نحو الشمال، ورأينا الوادي قد أقفل من الجهة اليمنى، ومع ذلك فقد كانت طريقنا سهلة ولم نجد فيها أية صعوبة تذكر. هذا وكانت معالم جبل (بُرد) تزداد اتضاحاً لنا كلما اقتربنا من صخوره العالية. وقد لاحظت أن قمة الجبل مسطحة ومستديرة، وإلى يمينها تفردت صخرة شاردة يخيل للمرء أنها أُلحقت بالقمة إلحاقاً، كما رأيت صخرة أخرى إلى الشمال بارزة بشكل واضح.

وهنا أخذ السهل الواسع يتعرج ذات اليمين وذات اليسار، غير أن سيرنا فيه كان سهلاً فوق طريق حصوية، ثم بدأ عدد من التلال يتراءى للعيان وكانت هذه التلال إلى

يسارنا. وبعد أن قطعنا مسافة خمسة وثلاثين ميلاً بعيداً عن مضارب قبيلة (عيدة) عبرنا أول روافد وادي (القوع)، وأتينا إلى ما أعتقد أنه شعب (فاره). وما أن قطعناه حتى وصلنا إلى شعب آخر أكبر منه يدعى شعب (حَبير) Habir، وهو كالأول ينبع من تلال (فاره) التي كانت تقع إلى الجنوب الغربي من قافلتنا. هناك وجدنا عدداً من الجمال ترعى شجيرات الرمث والرمرام والعذير النامية قليلاً. أما في مسيل الوادي فقد نما عدد من أشجار طلح الأكاسيا.

وبعد ذلك أصبحت الطريق أمامنا سهلة جداً لمسافة تزيد على سبعة أميال. ثم مررنا بشجرتين اثنتين فقط من الطلح على جانبي الطريق، هما الأثر الوحيد للحياة في تلك الصحراء.

الآن أصبح جبل (بُرد) يقع إلى الجهة الشمالية الشرقية منا فلاحت لنا كومة من القرى المنتشرة على سفحه. أما جبال (الوَسْك) فقد ظهرت خلفه ممتدة على شكل قوس زاويته ٣٥ درجة. وقبالة هذه السلسلة الجبلية في الشرق رأينا تلة أخرى كبيرة يطلق عليها اسم "الروّاف". أما في الغرب فهناك هدب هضيبات "العريضة" على شكل خطين متوازيين يفصلهما ممر يدعى "البويب". وعن طريق هذا الممر تصل الجمال إلى "العلا".

إننا الآن نقارب الطريق الوعرة في وادي "تيماء"، وأمامنا ١٢ ميلاً قبل أن نصل إلى الطرق النكدة التي تعرف باسم "حُجَيرين". وكانت قناة "القوع" ما تزال تجري إلى يمينا إلى حيث تصب في وادي "سَلمية". إن وجهتنا ما زالت نحو الشمال الغربي باتجاه كثير من التلال والصخور النائية. وبعض هذه الصخور مفيد حقاً، إذ أنها كانت بمثابة علامات تدلنا على الطريق في تلك المنطقة. وقد مررنا بعد ظهر اليوم بمساحة كبيرة من الأرض مغطاة بالجراد، وان هذا أول سرب من الجراد نراه منذ أن غادرنا (المدينة). وقد لاحظنا أنه يتمتع بهدوء بال وحرية تامة في قرض المزروعات القصيرة والأعشاب النامية بالقرب من القناة التي كانت في بعض الأحيان تعترض طريقنا إلى حيث تصب في وادي (القوع).

وكذلك شاهدت كثيراً من أشجار الطلح في هذه النقطة. ولم ينس الجراد أن يجعل منها هدفاً، فتسلقها حتى غطى أغصانها وأوراقها، ونعم بوجبة لا يتذوقها إلا هو.

وفي تلك الأثناء، كنا ما نزال على بعد ثلاثة أميال من طرف الوادي، عندما دار بنا الطريق فجأة إلى الغرب. وقد قيل لي أن هذه هي الطريق التي اتبعها (خالد السديري) أثناء عودته من (تبوك) مؤخراً، وأنها تمر بمدينة (تيماء) والأراضي الوعرة المحيطة بها. ولما كانت مدينة (تيماء) ذاتها تقع في اتجاه شمالي غربي، فقد قررت بعد استشارة دليلي، أن أمضي في خط مستقيم على أمل أن أجد طريقاً حول ذلك الوادي الذي يظل يعترض سيرنا.

ومن محاسن الصدف أن أمير (تيماء) الجديد اتبع وهو في طريقه من (حايل) إلى أمارته طريقاً قريباً من الجبال التي كانت تقع على يميننا. وقد استطاع أن ينفذ منها بيسر إلى طرف وادي تيماء عند نقطة قريبة من جبل (غُنيمة)، وهو الجبل الذي كنا نراه آنئذ قدامنا مباشرة.

كانت أسراب الجراد ما تزال نشطة في القضاء على أعشاب المنطقة وأوراق أشجارها، عندما انحدرنا نحو غابة صغيرة في أراضي جبل (غنيمة) حيث لاحظنا أن جبل (بُرد) أصبح يقع في عين الشرق. وسرعان ما مررنا بأحد الأحواض المعروفة باسم (حُفرة الجهرة). وفي هذا المكان وقعنا في ورطة فعلية. فقد كانت الأرض وعرة تبرز منها صخور رملية ملساء أو منحرفة، وتحتها طبقة كثيفة من الرمال تغطيها شجيرات (الحمض)، التي وقفت عقبة أمام سياراتنا، تمنعها من التقدم. وقد ناضلنا للتغلب على هذه الصعاب، فقطعنا ميلين حتى وصلنا إلى أرض أخف وعورة من سابقتها. ولكننا اكتشفنا هناك أن سيارة (اللوري) قد أصيبت بعطب شديد في الناحية الأخرى من الوادي فتوقفت عن السير.

وكان مما زاد الأمر تعقيداً أن دليلي الجديد، ويدعى (هزّاع بن زطام) من قبيلة (أولاد علي)، كان يبدو قليل الاهتمام بالتقدم إلى الأمام في ذلك اليوم. وكان هذا الدليل قد قام

بواجبه خير قيام، إلا أنه قبل مدة من الزمن، أخذ ينطوي على نفسه، ويميل إلى الصمت أكثر فأكثر كلما تقدمنا في الطريق، حتى أنه لم يعد يستسيغ الإجابة على أسئلتي.

وكنت في تلك الأثناء قد كونت فكرة جيدة عن المنطقة وما يحيط بها، وعن أسماء معالمها التي مررنا بها. وكذلك غدوتُ قادراً، كلما وصلنا إلى أرض سهلة، على قيادة السيارة مسافة كبيرة دون الحاجة إلى التأكد من خط السير الذي نتبعه. أما الآن فإن الأمور قد اختلفت.. لقد أصبحت في حاجة ماسة إلى إرشاد (هزّاع)! وإذ استعرض خبراتي السابقة في رحلات كهذه، أجد أنه كان يجدر بهزاع أن يبلغنا – منذ البداية – بأنه من المستحيل على السيارات المحملة أن تمر بمنطقة كهذه. ولكن (هزاع) الآن لم يكن هو نفس الدليل الذي بدا متحمساً لإرشادي إلى الطريق في أول الأمر.

توقفنا في تلك النقطة بانتظار أن تتمكن السيارة (اللوري) من التخلص من ورطتها وتلحق بنا. وهنا صفق (هزاع) فرحاً، ثم أخذ يفرك يديه وكأنه يريد أن يقول أن لا حيلة له بالأمر حينئذٍ رأيت أن أفضل ما يمكننا عمله، هو أن نبحث عن أنسب مكان نضرب فيه خيامنا لنبيت تلك الليلة. وقد أسرع (هزاع) يغادر السيارة ليلحق بنا، وليساعدنا في التفتيش عن ذلك المكان. وحينئذ لم يسعني إلا أن أقود السيارة إلى النقطة التي اخترناها وأنا أكاد أتميز غيظاً.

قدت (اللاندروفر) مسافة تزيد على ميل، غير أن العربة الملحقة بها لم تلبث أن أجبرتنا على التوقف التام. ولما اكتشفت أن عجلات العربة انغرزت كلياً في الرمال، عملنا على تخليصها منها. ومن ثم قررت العودة إلى حيث تقف سيارة (اللوري) وبقية مرافقيّ، خاصة وأن الوقت قد أصبح متأخرا. وقد رأيت سيارة (اللوري) قادمة باتجاهنا ثم توقفت عندما وصلت إلى المكان الذي كنا نقف فيه.

وحاولت أن نقضي تلك الليلة على خير ما يرام، فاخترت قطعة من الأرض الحصبائية تحيط بها رقعة رملية ناعمة تنتشر فيها صخور رملية كبيرة ناتئة. وحول ذلك

المكان كنت أرى شجيرات حمض بدا واضحاً أنها قد ارتوت من مياه الأمطار في الأسابيع الأخيرة. وفي هذه الأثناء اكتشفت سبب انطواء (هزّاع) على نفسه، فقد كان المسكين مريضاً. وسرعان ما أعددنا له فراشاً وألقيناه عليه، بعد أن أعطيناه جرعة من قوية من الإسبرين. وما أن انقضى هزيع من الليل، حتى كان (هزاع) هو الذي يتولى زمام الحديث مع جميع أفراد المخيم. وأنا أشكر الله على شفائه. هذا، كانت تلك الأمسية باردة إلى حد ما والسماء ملبدة بالغيوم.

وبعد مسيرة حوالي ثلاثة أميال في اليوم التالي، تمكّنا من قطع الوادي من مسرب يقع بين شبكة الصخور الرملية الواقعة في تلك المنطقة. وكنا نعمل ما في وسعنا لكي تظل سيارتنا فوق الأرض الصلبة، بعيداً عن الرمال والشجيرات البرية. ووصلنا إلى أرض مرتفعة قريبة من الوادي، ومنها نفذنا إلى طريق صالحة لدواليب السيارات، فتابعنا السفر مسافة عشرة أميال على أرض سهلة نوعاً ما. وهنا كان علينا أن نسير فوق أرض تمتد مسافة ليست بالقصيرة بين حاشيتين من الصخور تفصلان حوض (الجهرة) عن حوض (السَمْك) أو (السموك بالجمع). وقد ظللنا في هذه الطريق خمسة أميال. وكان وادي (السمك) مشابهاً من جميع نواحيه لوادي (الجهرة) ولكن الطريق القريب من وادي (السمك) يمتاز عن الطرق الأخرى بوضوح معالمها.

وبعد مسيرة خمسة أميال أخرى بلغنا طرف الحوض الأقصى، ثم منحدراً حصبائياً عاد الطريق فيه فأصبح جيداً، وجعل يتسع هنا وهناك، وتدور حول الوادي، أو تخترقه عبر ممرات سهلة وإن كانت غير خالية من طبقات الرمال الكثيفة. وخاصة عند المنعطفات فيها.

وإلى أقصى الغرب رأيت سلسلة هضاب (جَبَله) المنخفضة تمتد باتجاه (مداين صالح). وكان أبرز ما في تلك المنطقة تلةٌ مرتفعة تعرف باسم (النزلة) بينما كان جبل (بُرد) يقع على مسافة بعيدة خلفنا باتجاه جنوبي شرقي.

وهنا دار طريقنا قليلاً نحو الشمال لنسير ثمانية أميال فوق طريق متعرجة فنجد نفسنا فجأة أمام هضبة (العُقيلة). أما الوادي فقد أصبح إلى الجهة الشرقية منا. وكان سهل (جُريدة) يمتد أمامنا باتجاه غربي إلى شمالي شرقي. وتنتشر في أماكن متفرقة من هذا السهل بعض الصخور القليلة الارتفاع، ذات الأشكال الغريبة بالفعل. وتعرف هذه الصخور باسم (غراميل الرُوَلى). وعلى مسافة بعيدة إلى يمينها، كنت أستطيع أن أرى سلسلة جبال (غُنَيم) تمتد شمالاً مشكّلة حاجزاً طبيعياً لوادي (تيما)، ذلك الوادي الذي كنا من قبلُ لا نرى منه شيئاً.

وقد ذكّرتني هذه المنطقة، بعض الشيء، بوادي (سرحان) ووادي (جوف) و (سكاكا). ومن خلال الفجوة ما بين مرتفعات (عُقَيلة) البعيدة، عبرنا الطريق إلى قفار فسيحة تمتد حتى الأفق البعيد.

وبعد أن سرنا ما ينوف عن ثلاثين ميلاً وسط ذلك السهل، بدا أن الصحراء الخالية من كل معلَم، تنحدر تدريجياً إلى وادٍ واسع على جانبيه حاشيتان من الصخور الواطئة المتميزة.. كان القسم الغربي من وادي (السمْك) يقع إلى يسارنا وتتلوه (أباريق الحمض)، بينما كانت (غراميل روَلى) وصخورها إلى يميننا. أما الوادي الواسع الذي نزلنا فيه فيدعى وادي (جريدة) وهو مصرف مياه المرتفعات المجاورة، يهبط بها قليلاً ثم يصب في وادي (السمك). وكانت السيارات في تلك الأثناء قد دخلت ذلك الوادي وبدأت تصعد في طريق مقبولة، وجدتها ما تزال مبتلة فبفضل الأمطار الأخيرة التي غمرتها غير أنني لاحظت أن هذه الأمطار لم تكن غزيرة بل متوسطة على أكثر تقدير.

وبعد أن توقفنا برهة لإلقاء نظرة على خرائب (غراميل رُوَلى) علّنا نجد منقوشات هناك تابعنا المسير بين مجموعتي الهضاب عبر مجرى أخذ يضيق أول الأمر، ثم ما لبث أن اتسعت فجوته حتى بلغ عرضها ميلين. وفي تلك النقطة فوجئنا برؤية خيمة منفردة حولها عدد من السيارات. ولم أشأ أن أضيع الوقت عبثاً بالاقتراب من هذه الخيمة لأتحقق من

هوية ساكنها، ولذلك فقد تابعت المسير، بينما طلبت إلى بعض مرافقيّ في سيارة (اللوري) أن يذهبوا إلى الخيمة يستطلعون خبرها.

وبانتظار عودتهم قمت أنا بمسح المنطقة. وسرعان ما رأيت سيارة (اللوري) تعود باتجاهنا، ترافقها أخرى تقلّ (عبدالعزيز السديري)، وهو شقيق خالد أمير تبوك. كان عبدالعزيز يشغل منصب أمير ما يدعى بالمنطقة الشمالية، أما مقره ففي (نبك) بوادي سرحان. وقد حضر إلى هذه المنطقة لمقابلة بعض الأمراء السعوديين الذين ينتظر وصولهم إلى (تيماء)، ولذا فقد ضرب خيمته في منطقة يعتقد بأنهم لابد أن يمروا منها. وان يمضي الوقت بالبحث عن بعض الحيوانات التي يقنصها، بواسطة مطاردتها بالسيارات.

ولما كنت راغباً في الوصول إلى (تيماء) قبيل غياب الشمس، فقد رفضت دعوته لقضاء الليلة في ضيافته. وكنت أعرف عبدالعزيز منذ أن قابلته لأول مرة في سنة ١٩٣٥، عندما كان حاكماً لمنطقة الجوف، وكان آنذاك ما زال شاباً. أما (الجوف) هذه فقد مررت بها أثناء الرحلة التي قمت بها أنا وزوجتي بالسيارة، من إنكلترا إلى دمشق، عن طريق الساحل الشمالي لأفريقيا. وعبدالعزيز صهر الملك عن طريق أخته (حصّة) كما أنه الابن الثاني من مجموعة الأبناء الثمانية للأمير المعروف أحمد السديري. وكان جميع هؤلاء الأبناء باستثناء أصغرهم يحتلون مراكز في حكومة المملكة السعودية كحكام للمناطق. وحتى أحمد نفسه ظل مسؤولاً عن منطقة الحدود المهمة لفترة من الزمن. وهو لا يني يتحدث باعتزاز عن (غلوب باشا)، الذي كان على اتصال مستمر به لتسوية قضايا الحدود. وفي سنة ١٩٥٥ استدعي عبدالعزيز من على رأس إمارته ليعهد إليه بمنصب وزير الزارعة، ولكنه توفي بعد شهر واحد من وصوله إلى جدة.

قادنا الوادي بعد ذلك باتجاه شمالي غربي، إلى حيث رأينا سلسلة من البيوت الطينية، على بعد خمسة أميال من خيمة (السديري). ومن ثمة أخذنا نصعّد في طريق أدى بنا إلى سهل حصباوي واسع تجنبنا بفضله الكثير من المصاعب التي كانت ستواجهنا لو

مرورنا بسلسلة الجبال التي تشكل قوساً كبيراً يمتد حتى غربي (تيماء). وإنه لمن سوء الحظ (أن (هزاع) كان لا يعرف غير اسم واحد من سلسلة الجبال المذكورة، وهو جبل (الضبْعة) أقرب الجبال إلى (تيماء). وقد انقضت عدة أيام قبل أن أعرف شيئاً عن أسماء هذه الجبال.

ومما يذكر أن عبدالعزيز كان قد أخبرني عَرَضاً أثناء الحديث، بأن الخرائب التي مررنا بها تدعى (سارية الكشْل) وليس (غراميل روى)، ولعله كان على حق في ذلك، إذ أن اسم (سارية الكشل) كان أكثر إيقاعاً في الأذن. وقد أثار دخولنا أول السهل غزالين راحا يتسابقان طالبين النجاة. وإذا استثنينا هذين الغزالين، فإن الوحشة كانت تسيطر على ذلك القفر الذي بدا وكأنه خال من الحياة.

منذ أن غادرنا السديري جعلنا نسير باتجاه شمالي.. وعلى بعد من موقعنا كان الطقس يبدو وكأنه يمطر بغزارة، أما السحب التي تنذر بالعاصفة، فكانت تتجمع في السماء فوقنا وفوق جبل (الضبعة) وغيره من الجبال الموجودة في تلك المنطقة. لذا فقد مضينا قدماً قبل أن تداهمنا العاصفة.

وبعد مسيرة ميلين، وصلنا إلى طريق قادنا فوراً إلى الطريق الذي يربط بين (تبوك) و(تيماء). وهو طريق ينفَذ عبر فجوة بين سلسلة الجبال المقوّسة، ثم تتجه نحو الشمال الشرقي. وقد تجمعت السحب الكثيفة، وبدأت تهب الرياح الشديدة من الجنوب الغربي، دافعة أمامها رمالاً غزيرة باتجاه الشمال.

وبعد مسيرة ميلين آخرين وصلنا إلى ما يمكن أن يسمى أحدث طريق يربط بين (تيماء) و(تبوك). وقد قطعنا هذا الطريق باتجاه جنوبي شرقي، ثم أتينا إلى واد واسع فيه منبسط من الأرض الطينية، يبلغ طوله ميلين اثنين. وينحدر هذا المراح باتجاه حوض وادي (تيماء). وهنا أمرت بالإسراع في المسير خشية أن تداهمنا العاصفة إلا أن السحب كانت قد بدأت تتجمع حولنا. وأخذت السماء تجود بالمطر بعد غياب الشمس بقليل. وقد اضطررنا إلى الالتجاء فترة من الوقت إلى خرائب قريبة، اتقاءً من غضب الطبيعة الذي كان شديداً.

وهـذه الخـرائب تدعـى (مِـنطار بـني عطيّـه)، وفي آثارهـا المـتهدمة قـررنا أن نضـرب خيامنا لنمضي تلك الليلة. فقد كان أفضل محلٍّ نبيت فيه لنتجنب شرّ مثل هذا الطقس العاصف. لكنني خشيت البلل، وقلّبت الأمر على وجوهه، ولذا قررت أن أنام في سيارة (اللاندروفر)، فهي المكان الوحيد الذي أستطيع أن أبقى فيه بمنجاة من البلل.

والحق، أنني لست أدري ما دفع مرافقيّ أن يقدموا لنا طعام عشاء دسم مكون من اللحم الأرز. وأن اللحم هدية من عبدالعزيز.

وبينما كنا نتناول طعام العشاء مرّت بنا جماعة عرفنا أن أفرادها كانوا في طريقهم إلى (تيماء)، لمقابلة الأمير عبدالله بن فيصل. وقد قطعوا من رحلتهم مدة ساعة من الزمن قضوها في ضيافتنا، فشاركونا طعام العشاء. وكان هؤلاء قد سمعوا بأن عبدالله بن فيصل قد وصل إلى شعب (حبير) أثناء النهار، حيث ضرب خيامه لقضاء الليلة هناك قبل أن يواصل سيره إلى (تيماء). وأن أول مكان توقف فيه يدعى (حفيرة شمْلي) على مرحلة يوم من (حايل).

ولم نكد نرفع طعام العشاء حتى بدأ المطر يتساقط خفيفاً ولكن باستمرار. وما أن انتصف الليل حتى أخذ ينسكب من أفواه القرب. وقد استمر على هذه الحالة مصحوباً برياح صاقعة حتى مطلع الفجر. ومن المؤكد أن كمية الأمطار التي سقطت في تلك الليلة تزيد على إنشين، عدا أن كل شيء معنا كان يسبح في بركة من الماء عندما استيقظنا في الصباح. ومن الطبيعي أنا كنا نحمل معنا خياماً، غير أنني رأيت أن لا تضرب لمجرد ليلة قصيرة. وهكذا وجدت جميع مرافقيّ يسبحون في خضمّ من البلل.

في صبيحة اليوم التالي تسلقت السفح إلى القلعة المتهدمة التي كانت نقطة ثابتة لحراسة الحدود عند الواحات، مع أنها ليست مشرفة لتصلح لذلك. إن نظرة واحدة إلى الصخور المحيطة بها لكفيلة بأن تحمل المرء يدرك أن معركة قد دارت في هذه النواحي من

أجل الحفاظ على القلعة. وقد لاحظت أن هذه القلعة لم تستعمل منذ سنوات، كما أن جدرانها الآن متهدمة، مع أن أرضها ما زالت محتفظة بشكلها القديم الذي كانت عليه.

وتتألف أرض القلعة من مربعين متلاصقين طول ضلع الواحد منهما ٤٠ قدماً ويواجهان الجهة الشرقية من الوادي. وفي أقصى الناحية الشرقية لكل مربع جُعلت شبه كوة للحراسة والمراقبة، تطلّ من غرفة صغيرة طولها (١٠) أقدام وعرضها ٧,٥ قدماً. وتطل هاتان الكوتان على الطريق الذي كنا نسير فيه كما تشرفان على امتداده حتى الصخور التي تبعد عن القلعة.

بعد ذلك ينعطف الطريق شرقاً عبر واد ضيق ثم يتجه نحو الواحات، بينما تميل الصخور إلى جهة الشمال ثم تتقوس لتشكل دائرة صخرية تحصر أرضاً مراحاً يطلق عليها اسم (سبخة). وإلى هذه الأرض تصل جميع الروافد التي تصب في الوادي. وإلى الشمال الشرقي من تلك الصخور وعلى بعد قليل منها إلى الخلف تطل الصخرة المعروفة باسم (طُويّل سعيد) وعليه قلعة الحراسة المشهورة. أما عند أقصى طرف الهضبة فتقف تلتان تعرفان باسم (جلّ الملح). وتميز أشجار النخيل الباسقة منطقة الواحات والينابيع المتاخمة المعروفة باسم ينابيع (حدّاج)، وتقع هذه الينابيع إلى الشمال الشرقي من الواحات. وعلى بعد ليس بالقليل خلفها تقع سلسلة جبال (كُتَيْب)، التي تمتد وراءها رمال شاسعة كثيرة تدعى (رمال نَفود).

وعلى العموم، فإن هذه المنطقة خالية من المناظر المؤثرة، أو التي يمكن أن تكون علامة تدل على تاريخ شبه الجزيرة القديم.

وعلى الرغم من هطول الأمطار وهبوب الرياح أثناء الليل، كان الطقس مقبولاً، وإن تدنت درجة الحرارة إلى ٥٥ درجة فهرنهايت. وصادف أن مرّت طائرة بينما كنا نستعد للسير في الصباح وسرنا.. ولم نستغرق وقتاً في قطع الأميال الستة التي كانت تفصلنا عن مشارف (تيماء) وواحاتها، وهي مشارف صخرية مرتفعة تحميها الواحات من مياه

الأمطار والسيول. وأخيراً وصلنا إلى بوابة قلعة الأمير، التي هي بمثابة الطرف الخارجي للقرية.

هكذا قطعنا ٢٢٩ كيلو متراً من خيبر إلى أطراف وادي (جهرة). ولما وصلنا إلى تلك النقطة كنا ما نزال على بعد ثلاثين كيلومتراً من (تيماء) إذا ما سرنا في خط مستقيم يمتد من الشمال إلى الشمال الغربي. ولكننا في الطريق الذي اتبعناه قطعنا مسافة ٢٦٠ كيلومتراً! وعلى كل حال، فإن طريقنا قد قادتنا مسافة ١٧ كيلومتراً عبر طريق اضطررنا أن نرجع منه حتى وصلنا إلى الطريق العادية، التي كانت تخترق الوادي. الأمر الذي ربما قد ضاعف المسافة. ومن تلك النقطة سرنا ١١١ كيلو متراً حتى نصل إلى (تيماء). وبذا نكون قد قطعنا مسافة ٣٥٧ كيلو متراً، لنقطع طريقاً لا يزيد طوله على ٢٦٠ كيلو متراً، لو أن الطريق عادي وفي خط مستقيم.

وبالإضافة إلى هذا، فقد وصلنا إلى (تيماء) من الناحية الجنوبية الشرقية، بينما كان من المتوقع أن نصل إليه من الجهة الشمالية الغربية. وبذلك يتضح أننا قطعنا، منذ أن غادرنا المدينة حتى وصلنا إلى (تيماء)، مسافة ٦٢٧ كيلو متراً.. بينما لا تزيد المسافة، حسب تقديري، على ٤٣٦ كيلو متراً، أو ما يعادل ٢٧٤ ميلاً.

ولما دخلنا (تيماء) كان ذلك اليوم هو الرابع من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٥١. أما اليوم الذي تركنا فيه القرية لنقوم بالمرحلة التالية من تجوالنا، فهو الثالث عشر من الشهر ذاته.

# تيماء وجوارها

كان "عبدالله الشنيفي" صديقاً قديماً لي، ولطالما كنت أسرّ بزيارته خلال إمارته الطويلة الأمد في "دوادامي"، وهي المحطة الرئيسية في الطريق بين مكة والرياض. وكان هذا الشخص هو ذاته الذي أعد لي في أوائل صيف سنة ١٩٥٠ جميع الترتيبات التي مكنتني من زيارة النقوش السبئية في ودي "مسيل" واستنساخها. تلك النقوش المشهورة التي استكتبها ملوك سبأ في القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد.

كان شقيق الملك، الأمير عبدالله بن عبدالرحمن آل سعود، هو أول من حدثني بوجود تلك النقوش.. وقد جاء حديثه عنها غامضاً غير محدد المعالم. ثم زار السيد فؤاد حمزة الوادي في شتاء ١٩٤٩ – ١٩٥٠، وهو من موظفي وزارة الخارجية السعودية، فأرسل إلي بعض ما استنسخه من تلك النقوش. غير أنه تبين لي أن هذه المستنسخات لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية. ولعل مرد ذلك إلى أن السيد حمزة كان على عجل من أمره، يود العودة إلى "دوادامي" حيث يجد الراحة والدعة. وقد أرسلت مستنسخات السيد حمزة إلى البروفيسور ج. ريكمانز من جامعة "لوفين"، وهو أشهر خبير في العالم بشؤون تاريخ سبأ، فقام البروفيسور بدارستها ثم ألقى عنها محاضرتين: إحداهما في لندن، والثانية في أكسفورد، وذلك في أوائل شهر مارس (أيار) سنة ١٩٥٠. وبعد هاتين المحاضرتين قمت

بزيارة المنطقة كي أنسخ تلك المنقوشات نسخاً دقيقاً حسبما تؤهلني كفاءتي. هذا وقد نشر البروفيسور "ريكمانز" مستنسخاتي الجديدة في أواخر ذلك العام.

وفي شهر فبراير (شباط) كان من دواعي سروري أن أرافق البروفيسور "ريكمانز" وجماعته من الخبراء إلى وادي "مسيل" بعد أن قمنا بجولة طويلة في "نجران" وأقاصي المناطق الجنوبية من الحدود السعودية.

لديّ من الأسباب ما يجعلني ممتناً لعبدالله الشُنيفي لتعاونه الودّي معي ومساعدته لي في اكتشاف واستنساخ ونشر أول منقوشات سبئية عثر عليها حتى ذلك التاريخ في أواسط شبه الجزيرة العربية. وكان عبدالله وشقيقاه عبدالرحمن وعبدالعزيز، من ذوي الوسامة واللطف، فهم يرعون شؤون تقاليد الشهامة حسب الأعراف القديمة. أما كرمهم فقط طبّقت شهرته الآفاق.

نشأت عائلة "الشنيفي" في الأصل بمدينة "حايل" حيث ظل والدهم "إبراهيم الشنيفي" مقيماً خلا ل سنوات طوال، وإن كان من المتوقع أن يصل قريباً إلى "تيماء" مع عائلة الأمير، التي خلفها ابنه وراءه في (دوادامي) ليسرع بتسلم مهام منصبه الجديد في المنطقة التي نقل إليها في ظروف سأسردها في هذا الكتاب متى يحين وقتها.، وفي الوقت ذاته فإن شقيقه عبدالعزيز كان قد عين في سنة ١٩٤٩ أميراً لإقليم "الخرج" وكان مقره في "السيْح"، كما أن عبدالرحمن قد خلف والده في منصب حاكم "دوادامي".

وغني عن القول بأن إقامتي الذي استمرت تسعة أيام في "تيماء"، لم تكن إقامة ممتعة فحسب بل ومفيدة غاية الفائدة أيضاً. وذلك بفضل التعاون الصادق والضيافة الرائعة التي عوملت بهما من قبل "عبدالرحمن". كان هذا، إذا توخينا الحقيقة، غائباً نصف المدة التي قضيتها هناك. غير أنه عاد في الوقت المناسب ليعمل على الإسراع في تحركنا شمالاً. أما تغيبه عن المدينة فكان مصادفة، إذ أنه كان قد أخذ علماً باقتراب والده الشيخ ونساء بيته

وأطفاله، ولذا فقد أسرع لملاقاتهم حتى يجنّبهم وعورة الطريق التي بلغه أنهم قادمون عليها.

لقد استهل عبدالرحمن فترة ولايته على المنطقة بإصدار أوامره بشق طرقاً جديدة تكون عاملاً من عوامل ازدهار "تيماء" والمنطقة بأسرها. أما الطرق الطويلة المتعبة والضيقة التي سرناها، فقد أصبح من الجائز تسميتها "طرق أثرية"، ولم تعد بحال من الأحوال، تشجع الانتقال أو التجارة بين "تيماء" و"حايل" أو "خيبر".

ولولا المبادرات الشخصية من حكام المناطق التقلميين، أمثال مضيفنا وغيره وهم كثيرون منتشرون في مختلف مناطق المملكة العربية السعودية – لولا هذه المبادرات الشخصية، لظلت مناطق أواسط شبه الجزيرة العربية على الحال الذي كانت عليه قبل عدة قرون من الزمن، عندما كانت الإمبراطورية العربية منشغلة بغزواتها الخارجية، لا تولي بلادها أدنى اهتمام.

هذا وقد دعانا "عبدالله الشنيفي" – الذي كان قد وصل إلى "تيماء" في شهر أكتوبر (تشرين الأول) الماضي كأول حاكم للمدينة – إلى غداء فخم في بيته الصيفي الجميل ذي الحديقة الغناء التي تطل على قلعة المدينة. وكان هذا البيت قد شيد بعناية، وذلك من أجل توفير أبسط أسباب الراحة، كما تقتضيها الحياة في العربية السعودية، للعائلة الحاكمة. وكذلك من أجل حماية تلك العائلة من العداء الحقيقي أو الوهمي الذي يكنه العالم أجمع للعائلات الحاكمة.

لم يكن البناء بحد ذاته فخماً ذا روعة خاصة، غير أن حديقته أضفت عليه الكثير من الرونق بما حوته من أشجار الحمضيات وغيرها من الأشجار المثمرة المختلفة الأنواع. وخاصة أشجار الكرمة بأنواعها، وأشجار النخيل الباسقة التي كانت تتمايل كلما هبّت الريح فيتحرك سعفها المشرفة من علٍ على أرجاء تلك الحديقة.

والجدير بالذكر أن موعد جني المحصول هنا يتأخر عنه في الجنوب، إذ أننا وصلنا إلى المدينة وكان المزارعون قد فرغوا لتوهم من جني المحاصيل، ويبدأ الناس يأكلون تمراً طازجاً.

وكان للحديقة جدار خلفي هو في الواقع قسم من الجبل الملاصق لها بحيث يشكل جداراً يقيها شرور الغزو، وخاصة في الليالي الحالكة الظلام، لا سيما وهي في وضعها المنعزل البعيد عن بيوت المدينة.

ورأيت في غرفة القهوة عند مدخل البيت، نقشاً عربياً طويلاً. وقد حاولت فيما بعد أن أستبينه لتظهر نقوشه. لكنني لم أوفق في ذلك. فلم أعرف ما إذا كان نقشاً حديثاً يعود تاريخه إلى أوائل هذا القرن، قد وُضع في مدخل البيت لمجرد الزينة، أم أنه كان نقشاً قديماً يمكن أن تكون له قيمة أثرية، وُضع في البيت ليشهد على مسؤولية قاطنيه. ولم تتح لي الفرصة أن أفحص غرف هذه الدار التي لم تكن، مفروشة بأثاث يختلف كثيراً عن الأثاث المعروف في "نجد".

وبعد أن تناولنا طعام الغداء ثم قضينا وقتاً ممتعاً في الحديقة، قادنا أحد رجال الأمير إلى البيوت التي خصصها لنا سيّده طيلة مكوثنا في "تيماء". وكانت هذه البيوت عبارة عن أكواخ صغيرة يتألف الواحد منها من غرفتين أو ثلاث غرف. والبيوت في مجموعها صغيرة ومشيدة من الطين وكل بيت منها مؤلف من طابقين. وكان الطابق الأول منهما عبارة عن غرفة واحدة أمامها ساحة في منتهى القذارة تتكوم فيها الأوساخ، كما يكسو أرضها الطين.

وقد اخترت الغرفة العليا في أحد البيوت لنفسي تاركاً بقية الغرف لمرافقيّ. لكن الغرف فاضت عن حاجتهم. ورأيت سقف غرفتي مبتلاً وأظنه يرشح كلما أمطرت السماء،، أما الشيء المفروض أن يكون نافذة، فلم يكن إلا فتحة في الجدار لا أستطيع أن أعطيها شكلاً معيناً. وفي أقصى الغرفة كان يوجد "باب" ما. ولعله يسمى باباً من قبيل المجاز

لا أكثر. وفي مقابل الباب الأول ثغرة أخرى يسمونها كذلك "باباً". ويفضي الباب الأول إلى سطح البيت. ويبدو أن مصممي هذه البيوت قد افترضوا أن يُستعمل السطح عند الحاجة الماسة كمرحاض. وقد يكون العيش في الخيام خارج المدينة أكثر ملاءمة من السكن في هذه البيوت، ولكن تهديد السماء بالمطر المدرار جعلني أقبل الإقامة في هذه البيوت. لقد قُدمت لنا على كل حال!

أمضينا بعد ظهر ذلك اليوم في زيارة لبئر "حدّاج" الكبيرة، ثم وفي جولة سريعة لمنطقة الواحات وما جاورها. وكان يرافقني في هذه الجولة اثنان من أبناء مدينة "تيماء". أما الأول فيدعى محمد، وأما الثاني فيسمى "ضَيغَم"، وهما حفيدا الشيخ "سلامة" الذي يعتبر أحد ثلاثة شيوخ كان جميع سكان "تيماء" ينتسبون إليهم، بل ومن نسلهم، عندما زارها "دوتي" سنة ١٨٧٧.

وقد ترك سلامة وراءه ولدين هما "حسين" و"عبد". وللأول ولدان: "عُبَيد" و"حُميدي". أما "عبيد" فقد كان له ولد واحد في الثامنة من عمره ويدعى كذلك "محمد". وكان لعيد ولد واحد هو "صَنعان" الذي لم يعقّب غير صاحبنا "ضَيْغَم" الشاب في أول رجولته.

أما الشيخ "خلف العُمَر" وهو يمثل شيخاً ثانياً من شيوخ المدينة الثلاثة زمن زيارة "دوتي"، فقد كان أثناء زيارتي ممثلاً بحفيده "دقّاق بن حميدي"، وهو شاب في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره.

ولقد انطبع في ذهني أن جو "تيماء" وأوضاعها هما السببان الأساسيان فيما يعانيه أهل المدينة من حياة مزرية.

لقد قابلت كثيراً من المسنّين، غير أن هؤلاء ما كانوا لينفوا الحقيقة التي لا مجال للخطأ فيها، وهي أن رياح الفقر والجوع هي التي تسيطر على المنطقة.

ولقد سألت أحد الأولاد الذين قابلتهم ورافقوني في جولتي بعد ظهر ذلك اليوم، عما إذا كانت المنطقة قد تعرضت مؤخراً لأحد غزوات الجراد، فأجابني أنه يأمل في أن تفد أسراب جديدة منه خلال الموسم القادم. ثم شرح وجهة نظره، فأبان أن الناس ينتظرون مثل هذه الغزوة بفارغ الصبر ليخزنوا من الجراد ما يكفيهم لمؤونة السنة !

وكنت أعرف أنه في السنوات التي تكون فيها غزوة الجراد كبيرة، لا يكتفي السكان بأكل فقسه بعد تحميصه، بل يخزنون منه كميات يتناولونها على مدار السنة. كما يبيعون منها للبدو عندما يفد هؤلاء لشراء حاجاتهم من السوق. ومن المؤكد أنه بعد أن تم جني التمر لهذا الموسم، لم يبق ما يُخشى أن يدمره الجراد سوى سعف النخيل.

وتتألف واحات "تيما" من ثلاث نواح متمايزة، أهمها الناحية الوسطى، حيث تنبت بساتين النخيل وتتجمع في مساحة واسعة حول بئر "حدّاج". أما "تيماء" ذاتها فتتألف من مجوعة من البيوت التي لا يصح إلا أن يطلق عليها وصف "حفيرة". وهي بيوت طينية تظهر وكأنها تتدافع بالمناكب حول بساتين النخيل وفي نهاياتها أزقة قذرة ضيقة. وليس في "تيماء" مكان يعرف على أنه سوق، ولا مكان خاص تتجمع فيه المتاجر. والمتاجر هناك تشكل على الغالب قسماً من أماكن سكن اصحابها.

أما "الدرب" الجديدة التي تمتد من قصر الأمير حتى بئر "حدّاج"، فمن الواضح أنها أنشئت حديثاً. وكان للطبيعة الأثر الأكبر في إنشائها بما يتفق مع آراء آخر حاكم محلي لمنطقة الواحات. وما ذلك إلا لتتاح له الفرصة كي يشرف على قوافل الجمال التي ترد الواحات طلباً للري. وكذلك لكي يشرف من قلعته على أوسع منطقة ممكنة، حتى يأمن غزوات ابن رشيد. الذي كان يهاجم السلطة في أوائل هذا القرن، أو غزوات ابن سعود بعد أن احتل "حايل" في سنة ١٩٢١.

وفي الجنوب من هذه المنطقة، تقع أرض واسعة تنتشر فيها خرائب عديمة الفائدة. وكلها تخص مدينة "تيماء" الأثرية التي كانت (في يوم من الأيام) العاصمة الصيفية للملك "نبونيدوس" ملك "بابل".

أما الضاحية الغربية، ويطلقون عليها اسم "الغرب"، فهي مفصولة عن مركز الواحات بواسطة القناة العريضة لوادي "السِيْفيّة" التي تستمر حتى تصل إلى "السَبْخة". وكانت الفيضانات التي تقع في الوادي تروي مساحات شاسعة من الأراضي المفلوحة على ضفتي الوادي. أما الأرض المرتفعة التي تقع فوق ضفة الوادي الشمالية، فإنها تضم قرية صغيرة، وعدداً كبيراً من الآبار تستعمل في أغراض الري لبساتين النخيل وحقول الحبوب. غير أن تلك القرية بأكملها كانت خراباً.. وفي الوقت الذي زرت فيه المنطقة كانت قد طمرت منذ سنة ١٩١٦ على يد حاكم مجنون رأى في وجودها هناك تهديداً لسلامته.

وقد لحق بالضاحية الشرقية ما أصاب أختها الغربية بعد خمس سنوات فقط من تدمير الأولى.. لذا لاحظت أن آبار الضاحية الشرقية وبساتين النخيل فيها، وغير ذلك من الأشجار، باستثناء بستان نخيل واحد يقع قرب القسم الأوسط، كل هذا قد دُمر عمداً حتى لا يشكّل مكاناً قد يختبئ فيه غازٍ طامع، أو تختفي جموع يقوم بها ابن سعود لغزو المنطقة بقصد احتلال الواحات.

والحق، أن الفوضى القديمة التي كانت قائمة هنا قد اختفت إلى الأبد، وساد السلام والأمن في المنطقة بعد أن تم احتلالها على يدي ابن سعود. ولا يمكن للمرء أن يشك لحظة في أن الرخاء والسعادة سيعودان من جديد إلى تيماء. غير أن تحقيق هذا الرخاء وتلك السعادة سيتم بشكل بطيء، اللهم إلا إذا ساعدت حكومة المملكة السعودية سكان المنطقة على إصلاح آبار منطقتهم، وإعادة زراعة بساتينهم.

لقد دمر هذه الآبار طاغيةٌ لم يقدر المسؤولية عندما أقدم على تلك الفعلة.. كان قد أعماه الخوف من عدوٍ وهمي فلم يدرك حقيقة ما فعل. يبدو أنه كان يخشى حدوث غزوات متوقعة ، وبدافع حرصه على حماية نفسه أقدم على فعلته دون وازع من ضمير.

ولقد وضع اغتيال ذلك الطاغية في عقر داره حداً لشروره. وقد تم اغتياله على يد ابن عم له في شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٥٠ ، وبعدها تم لابن سعود أن يسيطر على الواحات.

وقد زار الملك سعود تيماء في سنة ١٩٥٤ كجزء من زياراته التي كان يقوم بها إلى شمالي مملكته بعد انتصاره. ولابد أنه قد اطلع على حاجة المنطقة الماسة للمساعدة. غير أنني لم أسمع بأي إجراء اتخذ منذ ذلك التاريخ لتخفيف المأساة التي يعيشها أهل تلك الواحات.

ويبدو أن القليل من تاريخ تيماء خلال الاثني عشر قرناً أو ما يقارب هذه الفترة التي تلت خضوعها للنبيّ معروف معرفة كافية. ويبدو أن النبي قد نصب خيام معسكره في الأرض الصخرية التي تعرف باسم "المحجّة" ، وإن كان الاسم كما عرفت ، أقدم من المناسبة التي يظهر انه أطلق من أجلها. عرفت ذلك من أحد النقوش "الثمودية" التي عثرت عليها هناك.

ومهما يكن من أمر ، فإن "تيماء" ظلت خلال الأربعمائة سنة الأخيرة تحتل مركزاً لا يذكر في سياسة شبه الجزيرة العربية.. ذلك لأنها كانت تتمتع بوضع أشبه بالمستقل ، وإن تخللته فترات أصبحت فيها "تيماء" أشبه بالمستعمرة. وكان ذلك أثناء ازدياد قوة "حايل" ، وخاصة بعد أن أصبحت إمارة خاضعة لعبدالله بن رشيد في منتصف عام ١٨٤٠.

ولما زار "غروماني" منطقة "تيماء" في سنة ١٨٦٤ ، حيث أوفده الحاكم التركي في دمشق ليشتري له عدداً من الخيل ، كانت "الواحة" حينذاك مستقلة ، يحكمها شخص من أبنائها ، هو "رمّان ابن حُطيم". وقد ظل حكم المنطقة بيد نسله إلى ما قبل زيارتي لها بقليل.

وكانت الأسرة الحاكمة الأخيرة تدعى أسرة "ابن رمّان". وتؤكد هذه التسمية أن "رمان بن حطيم" مؤسس هذه الأسرة، وأنه كان رجلاً في حوالي الستين من عمره. أما تاريخ تأسيس أسرته فيعود إلى سنة ١٨٤٠.

وقد وجد "غورماني" أن "رمان" هذا كان ينظر إلى الأتراك نظرة وديّة، كما أنه كان على وفاق مع "طلال بن رشيد"، الذي كان في ذلك الوقت حاكماً لمنطقة "حايل". وقد أعطاه طلال رسالة إلى ابن رمّان قدّمه إليه فيها، وطلب إليه مساعدة غورماني في قضاء مهمته.

وعندما وصل "اشرلزهوبر" إلى "تيماء" في أوائل عام ١٨٨٠ – وكان "دوتي" قد سبقه إليها ببضع سنوات – كان حاكم المنطقة يدعى "عبدالعزيز"، وهو أكبر أولاد "رمان". وقد ذكر "هوبر" بشكل غير صريح ولكن بوضوح تام، بأن حاكم "تيماء" هو في الحقيقة من أعوان حاكم "حايل"، وكان الحاكم في ذلك الوقت "محمد بن رشيد". وعلى كل حال فإن "ابن رشيد" لم يعين له ممثلاً في "تيماء"، بل كانت إدارة المنطقة بأسرها في يدي الحاكم المحلي.

وكذلك فقد ذكر "هوبر" إنه اجتمع بإثنين من أشقاء حاكم "تيماء" هما "ثويني" و"زيد"، ولكنه لم يقابل "عليا" الذي كان ابنه "عبدالكريم" خير من حكم الواحات خلال النصف الأول من هذا القرن. وخلافاً لما كتبه "هوبر" عن "تيماء" لم تتوفر لدينا أية معلومات عن المنطقة طيلة حوالي ربع قرن من الزمن.

وعندما زار "دوغلاس غرّ وثرز" المنطقة في سنة ١٩١٠ كان إدارتها في يدي ممثل "ابن رشيد"، ويدعى "سعيد" – وإن لم يذكر "غروثرزو" اسمه صراحة –. ولكنه سرعان ما استُبدل سعيد هذا بشخص آخر يدعى "ناصر ابن عتيق"، وذلك في سنة ١٩١٦. غير أن هذا الأخير قُتل مع جميع أفراد حرسه على أيدي رجال "عبدالكريم" الذي أعاد إدارة المنطقة إلى أسرة ابن رمان.

ولكي يحمي المنطقة من عودة "ابن رشيد" إليها، نراه أسرع ببناء القسم الرئيسي من القلعة الحالية، وهو القسم الذي يقع عند طرف بساتين النخيل. ولم يبنّ البناية الثانية الملحقة بالقلعة إلا بعد عشرين عاماً، حيث خصصها لعائلته. ولكي يطمئن أكثر إلى سلامته أثناء الليل، وفي ساعات استراحته، بنى حائطاً عالياً على شكل سور مزوَّد بجميع وسائل الدفاع المعروفة آنذاك. هاهو الباب الحديدي الذي يفصل القلعة عن بيت الحريم، ودونك باباً آخر مماثلاً، لعله المخرج الوحيد إلى جناح القلعة الذي كان مخصصاً للحكم واستقبال أبناء المنطقة الوافدين للتقاضي.

ومن هنا تمتد ساحة بنيت فيها بيوت لسكان المنطقة، وفيها كذلك مسجد خلفه قاعة واسعة للقهوة، كانت تستعمل للحفلات عندما يود الحاكم أن يرفّه عن رعيته في مناسبات خاصة.

أما البرج العالي الواسع الذي كان يحيط بقاعة القهوة والحفلات، فهو يُستعمل كمكاتب للإدارة، وهي موجودة في الطابق الأرضي من البرج. أما الطابق الثاني فقد جُعل للحرس. وكان هذا الطابق يشرف على مسافة شاسعة من المنطقة المحيطة بالقلعة. وقد مُنحت امتياز الصعود إلى برج المراقبة لأقوم ببعض عمليات المسح، والتقط بعض الصور للجوار.

ومما لا شك فيه أن شيوخ "ابن رشيد" الذين يبدو أنهم من "شمّر" كانوا يوظفون عدداً كبيراً من رجال الحرس الموثوق بهم. وكان جلّ هؤلاء الحرس من العبيد. وكانت مهمتهم ذرع السور جيئة وذهاباً بقصد الحراسة والحماية. ولم يكن ليسمح لأحد أثناء الليل بأن يوجد داخل السور إلا الحاكم وعائلته وأفراد حرسه وعبيده وخدمه.

ومما يذكر أن هؤلاء الحكام كانوا قبل سنة ٩١٦ يعيشون في قلعة طينية اصغر كثيراً من القلعة الحالية وأقل أماناً، قد بنوها عن طريق السُّخرة، مستخدمين في ذلك اتباعهم

وخدمهم. وكانت هذه القلعة واقعة في منتصف بساتين النخيل، في المنطقة الواسعة التي تضم بئر حدّاج.

وفي الوقت ذاته، وكما ذكرت سابقاً، فإن عبدالكريم قد دمر الضاحية الغربية كما دمر القسم الأكبر من الضاحية الشرقية بشراسة. وبذا يكون قد دمر الأهمية الاقتصادية للمنطقة التي يحكمها. كل ذلك في سبيل أن يؤمن منطقة مفتوحة أمامه يستطيع منا أن يرى غزاته وهم تماماً على مسافة معقولة من مقره هو. أما هدفه من وراء ذلك فهو المحافظة على استقلال منطقته في حالة تعرضها لغزو من الخارج. ويبدو أن الضرر الفادح الذي لحق باتباعه لم يكن ليهمه في كثير أو قليل. ولعله كان قوياً بما فيه الكفاية بحيث استطاع أن يفرض إرادته على اتباعه السيئي الحظ.

وفي الحقيقة، فإن "سعود بن رشيد" كان لا يبدو مشغولاً كثيراً بالدفاع عن أراضيه، ضد القوة التي كانت تتزايد في "الرياض". ولم يقم بأي مجهود أو محاولة للانتقام لمقتل ممثله في تيماء، كما أنه لم يحاول إعادة سلطته على المدينة.

ولما سقطت "حايل" ذاتها بيد ابن سعود في سنة ١٩٢١، قرر الملك الوهابي الحكيم أن يترك حاكم تيماء يعيش في الفراغ الذي أوقع نفسه فيه بما أسماه "شبه استقلال". اللهم إلا إذا حاول الاعتداء على أراضٍ غير أراضيه. وعلى كل حال، فقد استمر "عبدالكريم بن رمان" يحكم منطقة الواحات دون أي تدخل من الإدارة المركزية التابعة للملك السعودي، فترة تبلغ ثلاثين عاماً.

وكذلك كان الحال في الجنوب، إذ ترك ابن سعود منطقة واحات "نجران" بأيدي حكامها المحليين حتى مطلع عام ١٩٣٠، عندما أصبحت هذه المنطقة موضع خلاف بين ابن سعود والإمام يحيى ملك اليمن. وحينئذ أصبحت تلك المنطقة جزءاً من المملكة السعودية بعد قتال بسيط بين الجانبين: السعودي واليمني.

ويبدو أن عبدالكريم كان كثير الشك في جيرانه، فلم يأمن لهم، ولم يغرب عن باله اهتمام ابن سعود بمنطقته، ولا أنه من الممكن، بل من المحتمل، أن تصبح منطقة تيماء في يوم من الأيام جزءاً من المملكة السعودية.

وكان الملك ابن سعود عاقلاً فلم يشأ أن يضم هذه المنطقة بالقوة، في حين يدرك أنها تنضم إلى مملكته إن آجلاً أو عاجلاً. ولعله كان يظن أن وضع تيماء لابد وأن ينتهي بوفاة عبدالكريم الذي كان بالرغم من طغيانه وظلمه، ما يزال يعتبر من أبطال الصحراء، مثله مثل "فيصل الدوَيْش" و"فيصل بن حَشْر" و"خالد بن لؤي" وغيرهم كثيرون. ومن بينهم "ابن رشيد" و"ابن سعود" نفسه. غير أن أيام أبطال الصحراء قد أخذت تزول مفسحة المجال لعهد جديد.

ومما لا شك فيه أن "عبدالكريم بن رمان" كان شخصية من شخصيات أبطال الصحراء. وأنه لمما يؤسف له اننا لا نملك تاريخاً مفصلاً عنه. والحقيقة أنه لا "دوغلاس غروثرز" ولا "بيير حاسن" ولا "سافيغناك" قد تعرفوا على عبدالكريم أثناء زيارتهم لمنطقة تيماء عام ١٩١٠.

منذ ذلك التاريخ ظلت منطقة الواحات مقفلة في وجوه الأوروبيين، حتى قمت بزيارتها بعد أربعين سنة. وعندها كان كل ما رايته من آثار عبدالكريم ضريحه الذي كان قد أعيد بناؤه. ويقع هذا الضريح في مقبرة خارج القلعة، قرب المسجد الكبير الذي كان قائماً في الأيام الخوالي. ذلك المسجد الذي أوحت إليّ أعمدته، كما أوحت إلى "هوبر:" من قبل سنة ١٨٨٤، بأن المكان الذي بني فيه المسجد كان مكاناً أُعد للعبادة.

وكذلك فقد استقبل عبدالكريم بكل حفاوة البعثة الأمريكية المشبوهة، التي كانت تدعي أنها تفتش عن البترول. حتى أن جماعة من أفراد هذه البعثة التي وجدتُ آثارها عند "المذبح" قد وصلت إلى مشارف "طويّل سعيد". ومن هناك تمكنوا من إلقاء نظرة على

المنطقة المحرمة ولكن عن بعد. وقد رأيت على قمة برج المراقبة عشرات من الأسماء الثمودية حفرها أصحابها هناك في قديم الزمان ليدللوا على أنهم مروا بالمنطقة.

وفي سنة ١٩٥٠ كان عبدالكريم قد حكم تيماء فترة خمسين سنة تقريباً، فكان لابد وأن يصبح شيخاً مسناً. وأنه لمن غير المعقول أن اتباعه كانوا خلال هذه الفترة، غير عالمين بالتطورات التي جرت في المناطق المجاورة لهم، حيث بدأت الثروات تتدفق على المملكة السعودية. فأخذوا يشعرون بالقنوط لحياتهم المزرية التي يعيشونها نتيجة تعسف عبدالكريم نفسه، وتمسكه بأن يكون الحاكم الفرد المستبد. ولقد كان عدد من أفراد عائلته يشعرون بالنقمة وعدم الرضا الذي يجتاح اتباعه الآخرين.

وهكذا .. بلغ الخطر القمة في السادس من شهر أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٥٠. إذ بينما كان عبدالكريم خارجاً من المسجد الملحق بالقلعة بعد صلاة الجمعة فاجأه ابن عم له يدعى "فارس بن عبيْد الله بن ثويني بن رمان" فأطلق عليه النار وأرداه قتيلاً. غير أن فارس هذا قتل في الوقت ذاته على أيدي عبيد القصر الذين مزقوا جثته شر ممزق.

كان من الغريب أن الملك منحني إذناً بزيارة "مدَين" قبل ثلاثة أيام من وقوع الحادث. ومن الطبيعي وأنا أزور "مدَين" أن تكون خطتي قضاء بعض الوقت في تيماء. لقد كنت في حضرة الملك مساء اليوم السادس، عندما تبلغ الملك عن طريق جهاز اللاسلكي، أنباء اغتيال عبدالكريم. وعلى الأثر هب ابن سعود فأصدر أوامره بإعدام القاتل على الفور. لكن القاتل كان بطبيعة الحال قد مات على أيدي عبيد القصر، كما سبق أن ذكرنا.

وكان من الطبيعي أن يخلف عبدالكريم ابنُهُ الأكبر "عبدالعزيز"، إلا أنه بالنظر للاضطرابات التي اجتاحت تلك المنطقة ، أصدر الملك ابن سعود إلى "خالد السديري" — وكان أمير "تبوك" آنذاك — أوامر سرية تقضي بأن يتوجه مستصحباً قوة كافية إلى تيماء في الحال. وذلك ليتأكد من أن النظام قد استتب هناك.

وكان طبيعياً أن يتولى زمام السلطة في تيماء ابن عم القتيل ويدعى "برجديس ابن محمد بن ثويني" ، وذلك بعد وقوع الكارثة ، أو قل المأساة الفظيعة. ولكنه هو الذي سلم منطقة تيماء إلى حكومة ابن سعود فور وصول خالد السديري. وكان ذلك في التاسع من شهر أكتوبر (تشرين الأول).

هذا وقد دعي "برجيس" مع أبنائه الثلاثة وشقيقه وحفيده وابن أخ عبدالكريم للإقامة في "الرياض" كضيوف على الملك. ومن المؤكد أنهم ما زالوا يقيمون هناك إن لم يكن أحد منهم قد توفي إلى رحمة الله. أما الإبنان الصغيران للمرحوم عبدالكريم فقد أقاما في "مداين صالح" حيث سمح لهما بالبقاء هناك. وكان الشخص الوحيد من العائلة الحاكمة والذي سُمح له بالبقاء في تيماء هو "سعود بن عبيد الله" ، أي شقيق القتيل. وكا مقيماً هناك في الوقت الذي زرت فيه "تيماء".

هكذا غدت "تيماء" من المملكة السعودية. وفي نهاية شهر أكتوبر (تشرين الأول) ، سلم "خالد السديري" منصب حاكم المنطقة إلى "عبدالله الشنيفي". وبذلك توارت إحدى العائلات الحاكمة واختفت في ضريحين يضمان جدثي "عبدالكريم" وقاتله. أما شجرة تلك العائلة الحاكمة فكما يلي :

رمّان بن حُطيم :

عبدالعزيز :

فارس ، برجيس ، نهار ، سعود ، فيصل.

ثويني : محمد ، برجيس ، عبيدالله ، سعود فارس (توفي سنة ١٩٥٠).

علي : عبدالكريم : (توفي ١٩٥٠) ، عبدالعزيز ، هزاع ، زيد ، فيصل ، نهار ، شبيب.

عبدالرحمن : زيد ، حطيم ، فايز ، شبيب.

ووادي "تيماء" مغلق من الناحيتين، الغربية والشمالية، بسلسلتين من الصخور الواطئة تبدأن من (منطار بني عطية) ثم تدوران حتى تصلا إلى تلال "جلّ الملح". ويمتد من هذا الأخير جدول اصطناعي يسير مسافة ميلين تقريباً قبل أن ينحرف إلى الجهة الغربية بمحاذاة الحدود الجنوبية للوادي حتى يلتقي بسلسلة صخور "المنطار".

وتقع بساتين النخيل على طول الطرف الجنوبي من تلك الصخور. كما تقع في الاتجاه ذاته حقول الحبوب وبيوت السكن الحديثة التي أنشئت حول الواحات، في حين تقع خرائب تيماء القديمة بين الجدول والصخور. والواقع أن قسماً من السور الدائري الذي بني حول تيماء القديمة، ما زال قائماً. أما ما عدا ذلك فكل شيء آخر في حالة من الفوضى لا توصف. حتى أنه ليمكن القول، بأنه ليس لغير علماء الآثار المختصين أن يكشفوا أسرار هذه المدينة الأثرية لكثرة ما تراكم فوقها من حجارة وأتربة.

وتقع في أعلى نقطة على سلسلة الصخور القليلة الارتفاع التي تمتد عبر المدينة القديمة، خرائب ما يمكن أن يكون بناية. وتقول الأساطير المحلية أنها تخص "بدر بن جوهر"، أحد أبَطال العصور القديمة. غير أنه ما من شيء معروف عن هذا البطل، وإن كان الكثير من الدلائل تشير إلى أنه "يهودي".

وهناك قلعة أقدمُ من الخرائب الأخرى في الناحية الغربية من النقطة التي تقوم فيها المدينة الرئيسية، وعلى مقربة من طريق السيارات المؤدية إلى المدينة. وتعرف هذه القلعة باسم "قصر الأبلق" أو "قصر السموأل". ويقال أن اليهودي "السموأل" قد لاقى قصاصه العادل في هذا المكان بالنظر لموالاته للأعداء الذين كان العرب يقاتلونهم، مقابل ضمان هؤلاء الأعداء ما يملكه من أسلحة وأشياء أخرى إذا ما حاول أن يهرب بنفسه من ذلك القصر. ومن الطبيعي أن لا نجد أي أثر من آثار هذه الأخبار التي يرجع تاريخها إلى عصر الجاهلية الذي سبق ظهور الإسلام. ولكن "هوبر" تمكن – أثناء زيارته للمنطقة في سنة ١٨٨٤ – من شراء قطعة أثرية كبيرة القيمة مقابل بضعة شلنات. وقد وجد الرحالة هذه

القطعة الأثرية التي يرجع تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد عند الضاحية الغربية. وهي الآن موجودة في متحف "اللوفر" بباريس حيث تشكل جزءاً من مجموعة الحجارة التي استخدمت في بناء ما يطلق عليه اسم "بيت الطليحان". وذلك البيت الذي دمره "عبدالكريم" منذ مدة طويلة.

لقد زرت المكان المشهور والتقطت له بعض الصور، غير أنني لم أستطع أن أجد أي أثر يهديني إلى صاحبه السابق. وقد قيل لي أن اصحاب القصر السابقين هربوا إلى مكان أكثر مناعة بقصد الاحتماء فيه. وبدا لي أن هذه الخرائب هي غير تلك التي رآها "دوتي" في سنة ١٨٧٧ بين ما رآه من مثيلاتها قرب بئر حداج. ولكي أتأكد من هذا، كان لابد لي من أن أقوم بحفريات حول معبد "سلْم" لكن ذلك يتطلب استعداداً كثيراً.

لم يكن من الصعب أن يجد المرء بين خرائب "تيماء" القديمة الكثيرَ من الأشياء الأثرية، بما في ذلك قطع الحجارة المنقوشة وبقايا أوانٍ من الخزف، وقطع النقود وما اشبه ذلك. وقد جمعت منها مجموعة لا بأس بها، عرضتها في متحف "جدة" لمن شاء أن يجري عليها دراسة ما.

وقد قمت بملء علبة كبريت من قطع النقود التي وجدتها لأقدمها هدية إلى المتحف البريطاني في لندن. وبين هذه القطع وجد المسؤول عن دائر النقود الأثرية، المستر "جون ووكر"، قطعتين نادرتين لست أستطيع أن أقول عنهما شيئاً أكثر ما يعرفه المستر "ووكر". وهو لم ينشر بعد – مع الأسف – ما يعرفه عن هاتين القطعتين. ويبدو أنهما تعودان إلى زمن "مِيْنان" في القرن الأخير الذي سبق عهد المسيحية.

وتمر الطريق من تيماء إلى حايل عبر جزء من السور الدائري الأثري الذي ما يزال قائماً. وما أن يمر المرء من هذا السور حتى يجد الكثير من الخرائب المنتشرة حول فجوة كبيرة من الأرض، هي كل ما تبقى من بئر أثري كبير، أو لعلها كانت نبعاً أطلقوا عليه اسم "الوجّاج". أما متى ولماذا نضب ماؤه، فلم أجد أحداً يستطيع أن يشفي غليلي. غير أنني

قدرت من حجم البئر أو النبع ، أن هذه الفجوة لابد وأن تكون إما فجوة مجاورة لبئر "الوجّاج" أو أنها فجوة سبقت ظهور النبع ، الذي لا بد وأن يكون على عمق خمسين قدماً تحتها.

ومن المؤكد أن إجراء عمليات الحفر وتنظيف الفجوة مما تراكم فيها من أتربة وأوساخ قد يكشف الحقيقة المتوارية تحتها. ويجوز أن يجعل البئر صالحة للاستعمال ، من يدري ! فقد يعود ماء النبع للتدفق من جديد. فمما لا شك فيه أن الماء موجود في مكان ما تحت هذه الأنقاض ، وذلك لأن تاريخ تيماء القديمة وواقعها الحديث يؤكدان أن منطقة تيماء كانت – كما أنها لا تزال – تعتمد على جداول المياه التي تصل إليه من مختلف الاتجاهات. حيث تروي تلك الجداول مساحة من الأرض تمتد مسافة عشرة أميال. كما ثبت بالفعل ، أن في هذه المساحة أعداداً كبيرة من الجداول والروافد.

ويمتد "وُدّي الحمل" من تلال "الرباع" الواقعة إلى الشرق من تيماء حتى يزود بالماء (عند نقطة تقع في منتصفه) الجداولَ المنبثقة عن "الأطرش". وينبع الأخير من هضاب "برقة أم سَبْع". وإلى جانب هذا الوادي وإلى الجهة اليمنى منه يقع وادي "حسينية" الذي ينبع من نقطة تقع بين "برقة أم سبع" وهضاب "سمرا" ثم يدخل إلى وادي تيماء في نقطة إلى الشمال الشرقي من الضاحية الشرقية.

أما الوادي الثالث فيدعى "وادي خُوَيلد" وهو ينبع من هضاب "سمرا" ليمر بين الضاحية الشرقية والقطاع الرئيسي من "حدّاج" ويصل إلى "السبخة". ويأتي وادي "صيفية" من سلسلة هضاب جبل "غنيم" العالية ، ثم يجري بين الواحات الرئيسية والضاحية الغربية بعد أن يمر بالخرائب الأثرية بأن يدور حولها. وإلى القرب من هذا الوادي نجد المنحدرات الصحراوية التي تصب مياهها في "السبخة" عن طريق مسيل يعرف باسم "فاو الطلْحة". وهي تمر بعيداً عن حدود الواحات ، عبر منطقة تنتشر فيه الصخور القليلة الارتفاع.

في هذه المنطقة وجدت عشرات النقوش، وان معظمها من النقوش العربية. وهي تدل على أن المنطقة كانت تستعمل منتجعاً للنزهة أو محطاً تضرب فيه الخيام للحجاج الذاهبين إلى "المدينة". ولم أجد أي أثر لوجود بناء في هذه المنطقة، رغم أن هناك بعض القبور العادية الطراز.

وأخيراً هناك شعب "الرضّامة" — وليس الغضّامة، كما كتب على الخريطة المرفقة. ويمتد هذا الشعب باتجاه الغرب. وتصب فيه أثناء سيره الكثير من الجداول. ومن المعقول أن يكون النهر السابع لمدينة تيماء هو "الأطرش" الذي ورد ذكره فيما سبق، رغم أنه يلتقي بوادي "الحمل" قبل أن يصل بالفعل إلى "السبخة"،، ولعله يكون شعب "غيران البنات" الذي يبدو وكأنه أحد روافد قناة "الحسينية". وقد لاحظت أن شبكة المسايل والأنهار التي تحيط بمدينة تيماء قد قطعت في عدة أماكن.. ربما لإتاحة المجال أمام الجداول الأخرى كي تصب مياهها في الوادي المنخفض. وربما تم قطعها عمداً من أجل حماية تيماء من الفيضانات، أكثر من حمايته من الأعداء.

ومما لا شك فيه أن الطابع المميز لمدينة تيماء هو بئر "حدّاج"، وهي عبارة عن حفرة مستديرة الشكل دون انتظام. ومع أن جدرانها قد بنيت بحجارة مصقولة، فهي تحتاج إلى إصلاح في هذا المكان وذاك. وتتسع هذه البئر إلى كميات كبير من الماء. أما عمقها فهو ست قامات تبدأ من أسفل عنق البئر. وقد كانت خدّاج مورداً لكثير من قوافل الجمال وقطعان الماشية التي تقصدها من أماكن بعيدة. هذا علاوة على أن الواحات المجاورة كانت تروي من مياه هذه البئر.

ويقول السكان المحليون أن خدّاج تستطيع أن تسقي تسعة وتسعين جملاً دفعة واحدة، أثناء فصل الصيف الجاف القائظ. ولكنني علمت أن عدد الجمال التي تردها في الدفعة الواحدة هذه الأيام، لا يزيد على سبعة وسبعين جملاً، كما أن مثل هذا العدد من الجمال ضروري لنزح الماء من البئر. غير أنني عندما بلغت المكان أثر يوم ممطر، لم أجد

غير ثلاثة جمال تعمل في نزح الماء! وبعد أسبوع واحد من هذا اليوم، وجدت سبعة وثلاثين جملاً تعمل هناك. ومع ذلك فإن سكان المنطقة بذلوا جهوداً جبارة، على ما أعتقد، لتوفير سبعين جملاً، جعلوها تنزح الماء عندما زار الملك سعود تيماء في سنة ١٩٥٤.

ومن الغريب أنني كنت أقول لنفسي أن مضخة آلية واحدة يمكنها أن تريح الحيوانات من هذا العبء، كما تساعد على مضاعفة إنتاج الواحات من المزروعات التي لاشك أن السكان في أمس الحاجة إليها.

هذا وقد قام خبراء منظمة الزراعة والتغذية الدولية بزيارات إلى هذه المنطقة، ووضعوا التقارير الضرورية عن وسائل تحسينها. إلا أن الحكومة السعودية لم تقم بالدعاية لمثل هذه التقارير. وحتى لو أرادت الحكومة القيام بدعاية من أي نوع كان لمثل مشاريع منظمة الزراعة والتغذية الدولية، فإنها تكرّس كل ذلك لخدمة المراكز القريبة من العاصمة. آه لو أمكن إعادة بئر "الوجّاج" صالحاً لخزن الماء بعد أن يتم تنظيف نبع "الوجاج"! حينئذٍ لا شك سيبزغ أمل في أن تعود تيماء بلداً غنياً كما كانت قبل ٢٥٠٠ سنة.

هذا وتنقل المياه من البئر بواسطة قنوات ضيقة مصنوعة من الحجارة غير المصقولة. وقد استطعت أن أعد سبعاً وعشرين قناة منها صالحة للعمل. وكان هناك أربع قنوات غير صالحة لأنها قد تهدمت في أكثر من مكان. ويمكن للمرء أن يلاحظ أن المياه هناك مقسمة إلى ثلاثين سهماً، إذ ليس من الضروري أن يكون الماء موزعاً بنسبة عدد العائلات في تلك المنطقة. كما يلاحظ أن كل سهم يعود إلى شخص يملك ثلاثاً من هذه القنوات. وقد قيل لي أن بعض مالكي القنوات من الفقر بحيث لا يستطيعون شراء الجمال لنزح الماء من أجل سقي أراضيهم.

وقد علمنا مما كتبه "هوفر" أن عدد أشجار النخل في الواحات التي كان يملكها "رمان" في الأصل يبلغ ٨٠٠، غير أن خليفته عندما تسلم حصته من ورثة "رمان" لم يجدها تزيد

على ٢٠٠ نخلة. ولكن المعتقد أنه استطاع زيادة هذه الحصة عن طريق شراء أو استملاك أو استخلاص حصص غيره من الأتباع.. كثيراً ما تجوّل "دوتي" في هذه الأنحاء، وفي بساتين النخيل القريبة بصورة خاصة. وكان تقديره لارتفاع مجموعة من أشجار النخيل بتسعين قدماً، وقوله أن هذه المجموعة من الأشجار تشاهد من بعد وأنها علامة فارقة لمنطقة الواحات ذلك التقدير وهذا الوصف كثيراً ما أثار شكوكي. ولم أكن لأصدق ذلك لو لم أر هذه المجموعة بنفسي. ومع ذلك فإن لدي شكا في أن الأشجار التي رأيتها هي ذاتها الأشجار التي رآها "دوتي".

ومهما يكن من أمر فقد قررت أن أضع الموضوع تحت التجربة فاستدعيت بعض المتطوعين لتسلق أطول الأشجار. ولكن طاهي الأمير في "تيماء" اقترح علي أن أدفع ريالين لكل من يتسلق شجرة، وحضر معي إلى البستان كي يشاهد العملية. كنت قد رأيت كثيراً من الأشخاص الذين يعملون في جني محصول التمر وكيف يتسلقونه أشجار النخيل. فهم يستعلمون حزاماً يلتف حول جذع النخلة ويدور حول ظهر المتسلق الذي يرفع الحزام كلما صعد إلى أعلى، ويمسك الجذع بيده، بينما يضع رجله على أماكن السعف المقصوصة، التي تُزال كل سنة. وهي أماكن ناتئة تسهّل عملية التسلق. غير أن ذلك الطاهي لم يشأ أن يعتمد على الحزام، بل اعتمد كلياً على يديه وقدميه. وهكذا صعد إلى قمة الشجرة ووقف فوقها. وكان قد أخذ معه حبلاً مربوطاً في آخره بحجر، وأدلى بالحجر وحبله. ولما وصل الحجر إلى الأرض أشرنا إليه بالتوقف عن إنزال الحبل، فقام هو بقطع الحبل بيديه. وقد وجدت أن الحبل الذي يمثل طول الشجرة يبلغ ٧٥٠ إنشاً، وقدرت أن القمة ترتفع خمسة أقدام عن المكان الذي كان يضع فيه يده المسكة بالحبل. وبذا يكون ارتفاع الشجرة ٨١٠ إنشات أو ٦٧ قدماً ونصف قدم.

وحين نزل الرجل عن الشجرة، بالطريقة ذاتها التي صعد بها إلى أعلاها، نظر إليّ شاكراً عندما ضاعفت منحته تقديراً لما أبداه من مهارة في تسلق الشجرة دون الحاجة إلى حزام.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المنح الصغيرة لها أثرها الكبير في شبه الجزيرة العربية، وخاصة تلك التي تقدَّم مقابل أعمال صغيرة كهذه. ولعل القوم هناك ما زالوا يذكرونني على أني الرجل الذي يدفع ضعف ما يتفق عليه. فلقد وجدتهم هناك ما زالوا يذكرون (هوبر) الذي كان يدفع مثلي ضعف ما كان يتفق عليه مع السكان مقابل القيام بأي عمل من الأعمال. غير أنني لم أعثر على أي صدى لزيارة (دوتي) للمنطقة. كما أن القوم هناك لا يذكرون شيئاً عن زيارة (غروثرز)، ولا زيارة البعثات التبشيرية التي قدمت إلى المنطقة من القدس.

ويقدِّر (عبدالله الشنيفي) عدد الأشخاص الذين يقطنون تيماء بألف نسمة، وهو عدد يقل كثيراً عن سكان المدينة في الأزمنة القديمة، كما يستدل على ذلك من بقايا بناياتها حول الواحات، في المكان الذي يُعرف باسم (القُرَيَّة). وقد وجدتُ في تلك المنطقة حجراً نصف مدفون في التراب، يحمل النصف الظاهر منه بعض النقوش. وكان قد استخرج هذا الحجر بعضُ المغامرين الباحثين عن الكنوز. كما وجدت حجارة أخرى في المقبرة القديمة عليها نقوش ثمودية تدل على أسماء أشخاص. وكانت هذه الحجارة مكسوة بطبقة من الرمال ومدفونة في الطرف الغربي للمدينة الأثرية.

أما في المقبرة الحديثة، فإن القبور الموجودة هناك لا تحمل غير أسماء أصحابها. ومعظم تلك القبور لأناس معروفين مثل (عبدالكريم) وقاتله، اللذين دفنا جنباً إلى جنب بعد أن صلّي عليهما في احتفال جنائزي مشترك. هاهما القبران متصلان ببعضهما — وإن كان صاحباهما قلما اتفقا وهم على قيد الحياة!

ويقع مقر حاكم المنطقة عند طرف بئر (حدّاج)، وهو يدعى (قصر المغيض). ولهذا القصر شرفات جميلة لعلها بنيت في زمن عبدالعزيز، لأنها كانت موجودة عندما زار (هوبر) المنطقة. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الشرفات والقصر ذاته، كانت ملكاً لممثلي ابن الرشيد. وقد ظلت مقراً لقيادتهم حتى تمت إبادتهم على يدي عبدالكريم في سنة ١٩١٦.

هذا، وقد قضيت آخر يوم لي في (تيماء)، وهو اليوم الثاني عشر من شهر يناير (كانون الثني) سنة ١٩٥١ في بحث مرهق، ومسح متعب للمنطقة المعروفة باسم المدينة القديمة. وقد زرت خلال ذلك اليوم "قصر بدر" وهو أبرز ما في تلك المدينة من آثار. وكانت الساحة الخارجية للقصر واسعة يبلغ عرضها ٢٥٠ ياردة.

وتمرُّ طريق حايل بالقرب من منطقة الخرائب ومن المنطقة التي يلتقي فيها طرفا السور عند بئر "وجاج". أما قلعة الحاكم فتقع على بعد ميل من القصر إلى الناحية الشرقية الشمالية، كما أن قلعة "الغرّافة" تقوم بالقرب من المدينة الحديثة، وإلى شمالها على وجه التحديد.

وعلى بعد ليس بالقليل من هذه القلعة وبذات الاتجاه، تبدو قلعة طويّل سعيد"، بينما يقع بئر الوجاج إلى الجنوب الشرقي، وهو أقرب إلى القلعة من قصر "زلوم". وعلى مسافة من البئر تطلُّ أرض مرتفعة تعرف باسم "خشم غُنيم".ومنها تمتد سلسلة من الهضاب باتجاه الشمال مارة بكل من "سمرا، وأم باشا، وقمم قليب، وأم سبع، والضليعات، وغار الحمام، والربع" شاملة بذلك الشرق ومنتهية عند ذروة جبل "قَرْن البَدَن" المشهورة. وإلى الشمال الغربي يظهر الجبل المعروف باسم "القُصير". ومن عند هذا الجبل دخلنا من قبلُ وادي تيماء.

وتعتبر المنطقة المحيطة بمدينة تيماء أغنى مما تستحقه المدينة، إذا ما قارناها بالمناطق الأخرى التي زرتها أثناء تجوالي للبحث عن النقوش. ولكنها لم تكن بذات أهمية تذكر

بالنسبة إليّ، لأني لم آت لأمتع نفسي بجمال الطبيعة بل للبحث عن النقوش والآثار. ولذلك وجدت أنني قضيت فيها فترة أكثر مما يجب.

كان الهدف الأول الذي أسعى للوصول إليه هو قمة جبل "غُنيم"، وهي قمة عذراء لم يرتدْها أحد بعد، يبلغ ارتفاعها ٤,٠٠٠ قدم عن سطح البحر. وهكذا باشرنا في تطبيق الجزء التالي من برنامجنا. فبعد أن مررنا بخندق الخرائب في الضاحية الشرقية، وكنت قد اضطررت للعودة إلى تيماء لاستبدال الدليل الأمي الجاهل الذي كان يرافقني، بعد ذلك، توجهنا جنوباً ثم ملنا إلى الجنوب الشرقي، وأخذنا نصعد في شعب "الخويلد".

وهنا تركنا طريقنا الذي كان يمر بمحاذاة القناة لنرى بعض الصخور التي لمحناها في الطريق. وتعرف هذه الصخور باسم "رضمات الخنّوف". وهناك وجدنا بعض المنقوشات العربية العديمة الأهمية، كما وجدنا أعداداً كبيرة من الرسوم المنقوشة على الصخور تمثل رجالاً يمتطون صهوات الجياد ويحملون الحراب في أيديهم، أو يمتطون الإبل وغير ذلك من الحيوانات. وتوجهنا من هذه النقطة إلى قمة "غار الحمام"، الذي سمّي كذلك بالنظر لوجود قلعة في قمته كان الحمام يتجمع فوقها بأعداد كبيرة.

وقد وجدت أن الحائط الشرقي للقلعة يبلغ طوله ١٢ قدماً. وكان قائماً ومبنياً بسبع عشرة قطعة من الحجارة المصقولة، عليها نقوش باللغة العربية. ووجدنا ثلاث عشرة قطعة من الحجارة المنقوشة باللغة العربية بين الصخور القريبة من القلعة، لعلها من نقش الحجاج الذين مروا بالمنطقة. ورأيت أن الجدار الشمالي في حالة أحسن من الجدار الشرقي. وهو يتألف من ثلاثين قطعة من الحجارة المصقولة، أما طوله فيعادل طول الجدار الشرقي. واكتشفت أن على هذا الجدار نقوشاً تمثل سبعة أحرف ثمودية!

أما الجداران الباقيان من بناية هذه القلعة فقد دمرا تدميراً شديداً، فغدا كل ما تبقى منهما لا يزيد على سبع و ثماني قطع من الحجارة. وفي داخل هذا البناء المربع الشكل التي

كانت أرضه ما زالت صامدة رغم تساقط السقف والجدارين عليها ورغم أن القلعة الأساسية، لابدّ أنها بنيت على شكل برج للمراقبة من طابقين.

وقد تمتعنا برؤية منظر بديع لواحات تيماء ونحن نقف على الجدار، حيث كانت هذه الواحات الآن، إلى الشمال الغربي من موقعنا. وعلى مسافة بعيدة باتجاه جنوبي شرقي كنت أستطيع أن أرى سلسلة جبال "الحلوان" والتلال الرملية المعروفة باسم "كتيب" و"الدفافة". أما راس شعب "خويلد" فيقع عند أسفل هذا المرتفع.

بدأنا سيرنا الآن بمحاذاة سفح سلسلة هضاب "غنيم" عبر الطريق السهل التي تمر بأعالي القنوات، والتي تستمر في امتدادها هذا مسافة ثمانية أميال. وبعد ذلك وصلنا إلى سفح جبل "غنيم" ذاته. ويبلغ ارتفاع هذا الجبل ألف قدم، وصخوره سوداء بفعل العوامل الجوية، وتختلط بها هنا وهناك صخور صفراء عالية. غير أننا لم نجد في تسلقها صعوبة كما لقينا في تسلق صخور جبل "ثمود". لقد وجدنا ههنا مسرباً. ومع أنه لم يكن واسعاً، إلا أنه كان كافياً ليقودنا إلى القمة التي كان يقطنها الآلهة القدامى. وربما كان من بينهم الإله "سَلْم" نفسه، فقد وجدت على صخرة ناعمة يبلغ ارتفاعها عشرين قدماً عدة صور منحوتة تمثل راس ذلك الإله. وكان رأسه بيضاوي الشكل، لا ذقن له. أما جبهته فواسعة مستقيمة، يبرز من طرفيها قرنان فوق الأذنين الواسعتين. والإله ينظر إلى العالم بعينين أشبه ما تكونان بعيني هندي أحمر. وكانت الكتب التي قرأتها في حداثتي تصورهما وكأنهما تقدحان شرراً.

وأمام هذه الصخرة وجدت أرضاً ممهدة عريضة قدّرت أنها ربما كانت المذبح الذي تُقدم فيه القرابين. ولم يكن من الصعب أن أميز هذه الأرض من بين كتل الصخور التي تغطي وجهها،، وأن المرء ليستطيع أن يتصور المنظر كما كان في قديم الزمان، عندما يأتي الوثنيون ويتجمعون في كل مكان حول الإله يراقبون خزعبلات قسسهم. ثم يتخيلونهم

وهم يعدون العدة لتضحية بعض الحيوانات. وربما قدموا في بعض الأحيان فتاة عذراء عارية قرباناً للآلهة، وخاصة الإله "العظيم"، سلم.

كان هؤلاء الوثنيون ينفقون الوقت الذي قد يمتد ساعات وساعات بانتظار انتهاء الطقوس الدينية، بحفر أسمائهم على الحجارة. كما كانوا ينقشون عبارات تدل على امتيازاتهم، وكذلك تحياتهم للإله العظيم. وكان بعض هؤلاء نقاشين ماهرين يستطيعون النحت في الصخر بدقة فائقة كما، كانا من أصحاب الذوق في تزيين ما ينحتون بإطارات جميلة. بينما كان بعضهم الآخر بسيطاً في نحته ونقشه وربما لا يعرف أكثر من كتابة اسمه أو رسم صورة بدائية لبعض الحيوانات.

هنا أمضيت أربع ساعات أو اكثر من بعد ظهر ذلك اليوم وأنا أنسخ نقوشهم ورسومهم محاولاً جهدي الحصول على كافة التفاصيل عن المنطقة التي كنا فيها. وقد لاحظت ونحن نصعد باتجاه القمة عدداً قليلاً من "الوصمات" البدوية، غير أنها لم تكن تحمل أية نقوش بالعربية على الإطلاق. كما أنني لم أجد أية آثار تدل على سكان المنطقة في أوائل عهد الإسلام، ولا في عهد الوهابيين الأخير، حيث قيل لي أن أحداً من الوهابيين لم يسبق له أن وطئت قدمه هذا المكان الأثري. ولو أنهم فعلوا، ما تركوا من الأحجار الأثرية حجراً واحداً فوق أخيه..

ولعل من الإنصاف أن أذكر هنا دليليّ، وهما رجلان من أبناء تيماء أحدهما يدعى "صويلح" والآخر "ليلي" كانا مثلي في حالة استغرب شديد عندما اكتشفنا معبداً أثرياً عند قمة الجبل. ومن المؤكد أن "هوبر" كان سيزور المكان لو أُخبر عما فيه من منقوشات عديدة، ولو أنه علم بما جمعه "بيرزجاسن" و"سافيغناك" من نقوش بديعة من مكان يبعد عنا مسافة ثلاثة أميال إلى الجهة الجنوبية الغربية. وكذلك فإن هؤلاء الثلاثة لم يسمعوا أو لعلهم لم يكتشفوا الطريق المؤدية إلى "المحجّة"، حيث اكتشفتُ، كما سيرد ذكره فيما بعد، أن صخرة واحدة هناك عليها مئات من النقوش والصور.

وأعتقد أن اكتشاف قمة جبل غنيم من بين النتائج الرئيسية التي استطعت أن أحققها خلال تجوالي الطويل في ارض "مدين". أما أكثر النقوش أهمية فتسجل قصة استسلام ملك "بابل" (وربما كان نابونيدس) إلى رجل أسره في إحدى المعارك وقدم رئته إلى الإله كقربان. وثمة نقش آخر حفره رجل اشترك، كما يبدو، في الحرب ضد "ديدان" (العلا الحديث).

وهنا يجب أن أذكر شيئاً مهماً لا يجوز المرور به مر الكرام، فقد اكتشفت فيما بعد أن المسؤولين في حكومة المملكة السعودية، وخاصة الأمير "فيصل" قد تبرعوا بالقول بأن الخرائط التي رسمتها وأسماء الأمكنة التي سجلتها عليها خاطئة بمعدل خمسة و سبعين في المائة. وكنت على استعداد لأن أصحح أخطائي التي ما كنت أشك لحظة في أن أدلائي قد خدعوني فأوقعوني فيها. ولكن حادثة وقعت بعد ذلك بقليل أظهرت لي بكل وضوح أن اتهامات المسؤولين في حكومة المملكة السعودية لم تكن قائمة على أساس، وأن إدلائي كانوا يصدُقونني القول في المعلومات التي سألتهم عنها.

فقد حدث أنني كنت، في إحدى المناسبات - الشخص الوحيد من بين عدد من الأشخاص اجتمعوا في بلاط الملك ابن سعود ذات يوم - الذي استطاع أن يهدئ قلق الملك على زوجته (وكانت مسافرة على متن إحدى الطائرات إلى الرياض) حين وردت برقية لاسلكية من ملاح الطائرة يقول فيها أن أحد المحركات في الطائرة قد أصيب بعطب شديد في النقطة الواقعة فوق جبل "غُوور". وقد اجتمع مستشارو الملك ولكنهم اختلفوا في تحديد مكان وجود الطائرة، إذ أن كلا منهم أدلى بمعلومات تناقض الآخر. غير أنني كنت قادراً على إبلاغ الملك أن الطائرة أصيبت بعطب في نقطة تقع إلى أقصى شمال جبال "الدمخ" أي على بعد ساعة تماماً من الرياض، حسب سرعة طائرة الملك "الداكوتا". وقد ظل مجلس الملك منعقداً ليتسنى للملك أن يتلقى آخر التقارير عن وصول الملكة إلى العاصمة. وقد وصلت بعد ساعة واحدة تماماً كما قدرت أنا.

وبعد أن انتهيت من دراسة المنطقة التي تقع في أسفل الجبل الذي كنا فوقه، ثم منطقة جبل "آكباد" أو "آشباد" كمايلفظون الكلمة هناك، وكما سجله كل من "غورماني" و"هوبر" – نزلنا من قمة الجبل، لنستعد للقيام برحلة العودة إلى تيماء حيث وجدنا الأمير يضيف واحداً من أشقاء "السديري". وكان "سليمان السديري" قد جاء إلى المنطقة برفقة طبيب سوري من مخيم "جُريدة" الذي ضربه "عبدالعزيز" في المكان الذي وصل إليه "عبدالله بن فيصل" لقضاء بضعة أيام في الصيد والقنص في تلك المنطقة. وقد تحدثنا عن تيماء وتاريخها وآثارها، كما تحدث الأمير عن إمكانيات القيام بعمليات الحفر في الأماكن الأثرية الواقعة في المنطقة التي أصبحت تحت إمرته. هذا وقد انتهى يومي ذاك بعشاء دسم وفراش وثير، الأمر الذي أثار استحساني حقاً.

وكنت قد قمت بجولة تبلغ عشرين ميلاً رأيت خلالها كل ما يمكن أن يرى في تلك المنطقة وخاصة في القسم الرئيسي من سلسلة جبال "غنمي". وهناك قدما لي دليلاي مساعدة لا تنسى وخاصة "ليلي" فأثبتُهما وعيّنت ليلي لمرافقتي حتى نهاية الرحلة.

وقد خصصت اليوم التالي لرحلة أكثر مجازفة من سابقتها. أما السبب في تفكيري القيام بتلك الرحلة، فيعود إلى أن "هوبر" لم يزر منطقة آبار "الكتيب" مع أن مرافقيه قد أحضروا له من تلك المنطقة نقشاً ثمودياً فريداً. ولعل مرافقي "هوبر" قد توجهوا إلى هناك بحثاً عن خروف أو وقود للاحتفال بعيد جلوس الأمير حاكماً على المنطقة. لقد ذهب أولئك المرافقون إلى آبار "كتيب" مشياً على الأقدام. أما اليوم فإن الذهاب إلى هناك متيسر بالسيارات.

وقد اتبعنا في سيرنا إلى المنطقة آثار عجلات السيارات التي سبقتنا إلى هناك، وآثار العجلات الراجعة من تلك المنطقة. وكانت المسافة بيننا وين المنطقة، جيئة وذهاباً، لا تزيد على خمسين ميلاً. ولم يكن أملي الوحيد أن أجد النقش الذي استنسخه هوبر، بل أن أجد كثيراً غيره في ذلك المكان الذي ما شككت لحظة في أن رجال هوبر لم يفتشوه تفتيشاً

دقيقاً. ومع أني قمت بمسح دقيق، للمنطقة، إلا أن النتائج لم تكن مشجعة في الأراضي الممتدة حتى أقصى "الكتيب" غير أن هذه الرحلة تمخضت عن نتائج مهمة أخرى.

فبعد أن عبرنا القنوات التابعة لكل من "خويلد" و"حسينية" و"حنوف" (والأخير، على ما يبدو، كان النهر السابع لمدينة تيماء، وربما كان أحد روافد وادي "الحمل" أو "غوردان البنات") – بعد ذلك مررنا بأرض سبخة قريبة من شعب "الأطرش" وشعب "طليمة". ومنها عبرنا الطريق إلى قناة شعب "ضاعة" حيث تكثر الأعشاب على ضفتيها، وحيث يلتقي الشعبان الآخران بشعب "الحمل". ويسير الشعب الأخير منحدراً فوق سكة "الرباع" في أقصى شمال جبل "غنيم".

وفي هذه النقطة كان سهل "منطار الفُريجة" يقع ما بين النقطة التي كنا فيها وبين الصخور المنتشرة هنا وهناك حول سكة "الرباع". وهو سهل تنتشر فيه الصخور، وبقايا ثلاث أو أربع قلاع قديمة ربما كانت خط الدفاع الخارجي عن تيماء، قبل أن تبنى المدينة القديمة، أي حين كان أهلها يسكنون الخيام والمضارب.

وبعد مسيرة مسافة ثمانية أميال تقريباً من النقطة التي بدأنا منها، وصلنا إلى طريق "الرباع". ذلك الطريق التي عبرناه إلى ممر واسع، وقعنا بعده على عدد من الجداول التي تنبع من المنطقة المجاورة وتمر بشعب "دُوَير" وشعب "دُغَيْمه". وعلى الرغم من هطول الأمطار في المدة الأخيرة، والتي كانت غزيرة في بعض الأحيان، فإن وجه الأرض كان صلباً والسير فوقه سهلاً. وسرعان ما وجدنا أنفسنا في الطرف الثاني بعد أن قمنا بدورة زرنا خلالها عدداً من الصخور التي بدت لي ذات أهمية. وتصنع صخرة "المشطبة" وصخرة "غار النودا" شكلاً مخروطياً اعترض طريقنا عند أقصى المنحدر. وقد وجدنا عند "المشطبة" صوراً ونقوشاً باللغة الثمودية القديمة، أما على "غور النودا" فقد وجدنا برجاً عالياً عليه بعض النقوش العربية.

كانت الأرض المنبسطة المعروفة باسم "حيرة الرباع" تبلغ حوالي ميلين طولاً وثلاثة أميال عرضاً . أما الصخرة المخروطية الشكل، فقد كانت خالية من النقوش. ودون هذه الصخرة هنالك طريق سهلة تمتد مسافة أربعة أو خمسة أميال بمحاذاة الصخور التي يبلغ ارتفاعها ٤٠ قدماً وبعد ذلك خرجنا إلى أرض مكشوفة تدعى "خَبْرا الفطير"، أنفذتنا إلى منطقة صخرية وعرة تنحدر إلى شعب "مُختبي" . وقد سرنا فيه حتى وصلنا إلى أرض "نِقْدة" التي مررنا منها إلى قناة شعب "كتيب"، حتى وصلنا إلى مياه ضحلة في نقطة من نقاط الوادي. ولا يبدو أن لأيٍّ من الجداول في هذه المنطقة التي تنبع من "الشواريات" أي مخرج، إذ تتجمع كلها في الوادي في نقطة تقع مقابل طريق "نفود" حيث تشكل التلال الرملية العالية المعروفة باسم "دفّافية" معالم مميزة، كما توحي أسماء هذه التلال "دفافية" فإن السكان المحليين يقولون بأنها رمال تغني!! غير أنه لم يكن معي من الوقت ما يمكنني من الاقتراب من تلك التلال لإجراء تحقيق عن كثب. كما أن المطر المنهمر والرياح الباردة التي رافقتنا طوال رحلتنا في ذلك اليوم، قضت على كل فرصة لنا بالاستماع إلى موسيقاها. وذلك لأن مثل هذه الرمال، كما يقول السكان المحليون، لا تغني إلا وهي جافة.

وتقع آبار ماء "الكُتيب" على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً من تيماء إلى الشرق من جبل "غنيم"، على مقربة من طرف التلال الرملية المعروفة باسم "بتراء نفود". وهي التلال التي تشكل تلال" الدفافية" جزءاً منها. وخلف هذه التلال مباشرة تقع سلسلة جبال "حَلوان" و"أكباد" وغيرها على طول امتداد الطريق إلى "حايل". وليست آبار ماء "الكتيب" إلا حفراً في الأرض يبلغ عمقها ثمانية أقدام، وعشرة في بعض الأماكن. وهي تمتلئ بمياه الأمطار. إلا أن معظم هذه الحفر طمرتها الرمال التي تذرها الرياح، فلم أجد سوى حفرتين صالحتين للاستعمال العادي في ذلك الوقت. وقد وجدت أن فتحات هذه الحفر،

قد بنيت بحجارة صلبة بينا كانت جدرانها منحوتة في الصخر. ولم أستطع أن أجد أثراً للحياة حولها.. وكذلك فشلنا في العثور على أية نقوش بين الصور القريبة منها.

ولكي أغير خط سيرنا فلا نصاب بالملل، قررت أن نتبع الطريق الرملي مسافة أربعة أميال. وبعد ذلك انعطف بنا الطريق باتجاه الشمال اشرقي. كان سيرنا في هذا الطريق، صعباً إلى حد ما، إذ أنه كان يتحتم علينا أن نمر فوق القنوات التي أقفلها "النفود". ومن هنا خرجنا إلى سهل تكثر فيه الصخور، ومع ذلك فقد كان سيرنا فيه أسهل، وخاصة عند طرف الصخور المعروفة باسم "سرايا. وهناك أيضاً لم نجد أي أثر لأية نقوش، غير أنني لم أرجع بخفي حنين، إذ أنني التقطت بعض الصور لعدد من الفتيات وهن يرقصن. والواقع أن هذه الصور كانت جميلة ورائعة.

من تلك النقطة، انطلقنا رأساً إلى طريق "الرباع" حيث لم يكن حظنا بأحسن منه في النقاط الأخرى التي زرناها. وذلك أننا لم نجد أثراً لأية نقوش وإن كنا قد وجدنا بعض الصور والرسوم التي لا قيمة لها، وفي مقابل ذلك تحملنا لسعات الهواء البارد.

ومن ثم تحولنا للعودة عن طريق قناة "النفاخية" التي تشكل أحد روافد "الأطرش". كانت آخر خمسة أميال من رحلتنا صعبةً صعوبةً فشلنا في وجود أية نقوش. وكان الطقس بما جادت به السماء من أمطار ورياح، غير صالح أبداً للقيام بأي بحث. ومع ذلك فإن حظنا كان كبيراً إذ عدنا قبل أن تهب العاصفة التي رأينا بوادرها تتجمع في الأفق. وقد وجدت، حين عدت إلى غرفتي، أن الحد الأعلى لدرجة الحرارة هو ٧٠ درجة فهرنهايت، وإن كنا قد شعرنا بطقس ابرد من ذلك ونحن في الصحراء.

ولقد شعرت أنني ربما لم أُقم بمسح معقول للمنطقة بالنظر للأحوال الجوية، كما اجتاحتني الخيبة لأنني لم أعثر على النقوش التي نسخها "هوبر" قرب تلال "براق الرباع". ولذا، قررت أن أقوم في اليوم التالي بحملة استكشافية مركزة في منطقة تلك التلال.

وقد غدنا بالطريق ذاتها التي مررنا بها في المساء، فوصلنا، ثم تسلقنا تلال "قرن البدن" في طريق "الرباع" التي تبعد مسافة ١٢ ميلاً إلى الشرق من بساتين نخيل تيماء. ومن تلك البقعة، استمتعنا بمنظر رائع للمنطقة المجاورة. غير أني لم أجد هناك أي أثر لكتابة أو فن أثري. وعلى كل حال فقد لاحظت على بعد ميل تقريباً صخرةً ذات منظر مثير تدعى "الحصّين" — تصغير حصن — وبدا لي أنها تستحق الزيارة.

وما أن قمنا بزيارة المنطقة حتى نلت مكافأة على أتعابي وفشلي في اليوم السابق، إذ وجدت حصيلة جيدة من النصوص الثمودية والصور، كانت كلها في حالة جيدة.

وتقع هذه الصخرة إلى الشرق من بحيرة جافة (خبرا) من المفروض أن تصب فيها مياه جميع المنطقة المجاورة فيردها الناس في فصل الصيف. أما في فصل الشتاء حيث تمطر السماء، فإن المنطقة تتحول إلى بحيرة كان الأقدمون يضربون حولها الخيام. وعلى مقربة من هذا المكان رأيت صخرة أخرى ما أن زرناها حتى أعطتنا حصيلة أوفر من الأولى، إذ وجدنا فيها عدداً كبيراً من النقوش.

ومن هناك تحولنا إلى جهة تلال "براق الرباع" حيث وجد "هوبر" بعض النصوص المنقوشة. وصلنا إلى مكان لا يبدو أنه أعلى نقطة في تلك التلال بعد مسيرة أربعة أميال تقريباً، فوجدت أن المكان عبارة عن هضبة ذات قمة عريضة صخورها وحجارتها مغطاة بالنقوش الثمودية.

وحين وصلنا إلى تلك النقطة، كان النهار جميلاً دافئاً، غير أنا ما لبثنا أن فوجئنا برياح باردة تهب من الجهة الشمالية الشرقية. فكان لزاماً علي وأنا أمسح الحجارة المنقوشة أن استخدم يديّ المتجمدتين، بينما أظل أترجف من البرد. وما أن انتهيت من عملي حتى وليت عائداً إلى بيتنا — الذي لم يكن يبعد عن مكاننا غير مسافة عشرة أميال — راضياً عن عمل هذا اليوم، وإن كنت قد دهشت لاكتشافي أن النقوش الثمانية التي استنسخها "هوبر" لم تكن بين المجموعة التي وجدتها. ومما لا شك فيه أنه ما زال هناك عملاً كثيراً لمن

سيزرون هذه التلال في المستقبل، بالنظر لأنها لابد وأن تكون مليئة بالنقوش الأثرية. وإذا ما أمكن رفع الأنقاض عن المدينة القديمة، فإن ثروة يمكن العثور عليها هناك من شأنها أن تغني معلوماتنا عن منطقة الشرق الأوسط في التاريخ القديم.

وفي اليوم الثامن من شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٥١، وهو يوم الاحتفال باليوبيل الفضي لعيد جلوس الملك عبدالعزيز بن سعود ملكاً على الحجاز، قمت بزيارة خاطفة إلى منطقة أخرى كان "هوبر" قد زارها خطأ وهو يعتقد أنها "غار الحمام". وقد سبق أن تحدثت عن زيارتي لها. وكان تلك البقعة ذات مستنقعات كغيرها من الأراضي السبخة في المنطقة، على الرغم من أن مجاري الماء تنحدر هناك إلى أسفل وادي تيماء. وقد وجدت أن ضفتها الشمالية حافلة بالصخور المثيرة التي طمرتها الرمال إلى عمق لا بأس به، من جراء الفيضانات التي تعاقبت على مرّ العصور، بحيث لم تترك إلا أعالي تلك الصخور ليلجأ إليها الناس اتقاءً للشمس أو المطر. وهنا اكتشفت أن الأقدمين قد استفادوا كثيراً من بقايا الصخور التي ظلت ظاهرة للعيان فملؤها بالنقوش. وكان واضحاً أن هذه النقطة هي التي ظن "هوبر" أنها "غار الحمام"، وذلك لأنني وجدت جميع النقوش (ما عدا واحدة)، التي نسخها هوبر وعزا وجودها إلى هذه المنطقة. كما وجدت كثيراً من النقوش التي لم يعثر عليها "هوبر"، إذ يظهر أنه لم يرَ مما يستحق العناء أن يتسلق تلك الصخور حتى أعاليها.

هذا وقد قال دليلي "ليلي" أن هذا المكان يدعى "غيران البنات"، ثم تطوع بإعطائي معلومات عن الملاجئ الموجودة في تلك الصخور، فقال أنها كانت تستعمل في الماضي، ولا زالت، كمحطة للحجر الصحي للمصابين بالجدري. ومن هنا كان القوم يطلقون عليها اسم "غيران المجدّر". وقد استُخدمت هذه الملاجئ للحجر الصحي لآخر مرة قبل ثماني سنوات من زيارتي لها، أي في سنة ١٩٤٣.

ويتحدر دليلي "ليلي بن علي" من سلالة استوطنت تيماء منذ قرون، ولكنه يدعي بأن أصله من عشيرة "الفُقْرا"، وهي فرع من قبيلة "عنيزة" من أصل جماعة "الحجاج" الذي قال أنها تنتمي إلى قبيلة "الخمايرة".

أما الدليل الآخر في هذه المرحلة فرجل يدعى "خليف بن مرشد" وهو في حوالي السبعين من عمره، تقطن عائلته في الضاحية الشرقية من تيماء منذ عدة قرون. وكانت هذه العائلة قد هاجرت إلى تيماء من قرية "موقاق" قرب "حايل". وقد أبلغني أنه كان صغيراً عندما جاء "محمد بن رشيد" إلى تيماء لإنشاء إدارة مباشرة في المنطقة، قبل بضع سنوات من وفاته في سنة ١٨٩٧. أما الرجل الآخر الذي قابلته من سكان الضاحية الشرقية لمدينة تيماء بعد ظهر ذلك اليوم، فقد كان يدعى "صبر العياضة"، وهو رجل أُقدر عمره بين السبعين والخامسة والسبعين.

وفي اليوم التالي قمت بزيارة الأمير، حيث تحدثت معه ونحن نرشف أقداح القهوة والشاي. ثم ودعته لأقوم بما يكمن أن يدعى آخر زيارة استكشافية لي في منطقة تيماء وجوارها. وقد مررنا في طريقنا بالخرائب القديمة لطريق "حايل"، ومنها صعدنا إلى وادي "صيفية" أو (سيفيَّة)، مارين بآبار "لميال ابن حميّان"، التي أطلق عيها هذا الاسم بعد أن تولى أحد أعوان "ابن رشيد" حكم المنطقة.

وتبّعنا، بعد هذه النقطة، قناة "صيفية" مصعّدين إلى أعلى بمحاذاة ضفتها الشمالية، حتى وصلنا إلى نقطة تقع بالقرب من قمة جبل غنيم ولا تبعد عنها أكثر من ميل واحد إلى الجهة الشمالية الشرقية. ومن هذه النقطة كانت طريق حايل تمتد باتجاه جنوبي شرقي نحو الفضاء الواقع ما بين "برد" و"أكباد" الذي يفضي من الناحية الشرقية إلى "حفرة شملي" و(بيضاء ناتيل)، ثم يمتد نحو (شمّر).

ولما كان هدفي أن أزور خرائب (خوبو) Khubu، وهي الخرائب التي سبق أن زارها كل من (جاسن) و(سافيغناك) حيث وجدا عدداً كبيراً من النقوش، قد بدأنا سيرنا صوب

الجنوب الغربي فوق أرض صلدة جعلت مسيرنا عليها صعباً، حتى وصلنا إلى ناحية تكثر فيها الهضاب. وقد قال لي دليلي أن هذه الناحية والطريق الصخرية المحيطة بها تدعى طريق (المحجّة). ولم يكن (ليلي) ولا (خليف) يعرفان (خوبو) هذه، غير أن الأرض ما بين النقطة التي كنا فيها و(سَمْك شمراخة) كانت مليئة بالصخور من كل حجم وشكل، فقررت أن أزورها. وأنا أعتقد أن هذه المنطقة هي التي رآها كل من (جاسن) و(سافيغناك) وأطلقا عليها اسمي (خوبو الشرقية) و(خوبو الغربية).

كانت هذه المنطقة هي وجهتنا، ولكن السير فيها كان صعباً، فلم نكد نقطع مسافة قليلة حتى توقفت سيارة (اللاندروفر) أثر إصابتها بعطب شديد. لقد انغرزت عجلاتها في رمال عميقة. وقد ذهبت جميع محاولاتنا لإخراج السيارة من الرمال إدراج الرياح. وأخيراً توقفنا عن بذلك الجهود التي لا فائدة منها، وتطوع (ليلي) بالعودة إلى تيماء مشياً على الأقدام، أي مسافة خمسة عشر ميلاً ليأتينا بالمساعدة. وفي هذه الأثناء قمت أنا و(خليف) بتفتيش المنطقة بحثاً عن النقوش بين الصخور العالية التي تقع إلى الغرب من ذلك الموضع. ومنها استطعت أن أتبين ان هذه المنطقة هي جزء من (الخوبو).

كان من حسن حظنا أن ذلك اليوم كان ممتعاً يغري بالمشي رغم تلبد السماء بالسحب. وكانت السحب تسمح لأشعة الشمس أن تتسلل من بينها فتبعث الدفء في النفوس رغم برودة الهواء. وتقع (المحجة) بين المكان الذي خربت فيه سيارتنا وبين سلسلة الهضاب قدّامه.. وهي (أي المحجّة) أرض منخفضة كثيرة الأخاديد والمملوءة بالرمال والحجارة، وتنتشر فيها النباتات الصحراوية، الأمر الذي جعل من الصعب علينا أن نجد أصل مجموعة من الوديان هناك. والمحجة تشترك في أصلها مع وادي (السيفية) وسفح جبل (غنيم)، بينما يصبح رأسها على مسافة منا إلى الجهة الجنوبية الغربية، على شكل مصرف لمياه السيول هناك. ثم يمتد حتى يصل إلى سكة حديد الحجاز تقريباً، حيث يصب في خزانات قلعة (المعظّم)، وهي محطة رئيسية للحجيج القادمين من دمشق.

وكان كل من (جاسن) و(سافيغناك) قد عبر وادي (المحجة) في طريقهما من (مداين صالح) إلى تيماء وأوضحا خط سيرهما على الخرائط التي رسماها. وقد أتيحت لي الفرصة أن أطلع على هذه الخرائط بعد سنتين من رسمها، كما أتيحت لي الفرصة أن أرى (المحجة) في وقت كانت فيه الفيضانات على أشدها في منطقة (المعضم)، وأن السيول تأتيها من تيماء.

ولقد كان من المؤكد أن هذه الأرض الوعرة، تصبح من الأراضي الخصبة في مواسم الأمطار الغزيرة والفيضانات، بحيث تؤمها القبائل القاطنة في المناطق المجاورة بالإضافة إلى أهالي تيماء ذاتهم. وهم يفدون إلى هناك فيضربون خيامهم طيلة أيام الربيع.

هذا، وهنالك كثير من الدلائل في تلك المنطقة تشير إلى أن ظروفاً مماثلة كانت تقع هناك في الأزمنة القديمة. فقد وجدت العديد من النقوش والصور بين الصخور المنتشرة في تلك المنطقة. وكانت نقوشاً وصوراً "ثمودية". لذلك أمضيت يوماً كاملاً في نسخ نصوص تلك النقوش، واستنتجت أن المنطقة عذراء فعلاً، إذ أن أحداً قبلي لم تطأ قدماه أرضاها في مثل مهمتي. وقد بذلت كل ما في وسعي حتى لا أترك لزائر بعدي أي شيء يمكن أن يدّعي اكتشافه، وإن كنت لا أدعي لنفسي أنني استنفدت كل الإمكانيات في التنقيب.

عبرنا من نقطة تقع عند أقصى صخور ذلك الموقع إلى منطقة وجدنا فيها مجموعة غير عادية من الصخور، فأطلقت على تلك المنطقة اسم "خوبو الشرقي". وقد قمت بإجراء مسح دقيق لذلك الخوبو الذي تبلغ مساحته الميل المربع تقريبا. وعلى الرغم من أن هذا الخوبو محاط بالصخور، إلا أن داخله خالٍ منها تماماً، لهذا بدا وكأنه قطعة من سهلٍ ما فيه إلا الرمال والحشائش البرية. وقد مضت ساعات بعد الظهر بسرعة، مما يجعلني أعترف بأنني لم أقم بفحص كل صخرة من صخور تلك المنطقة. وما ذلك إلا لضيق الوقت من ناحية، وكثرة عددها البالغ حوالي المائة من ناحية أخرى. ولكنني زرت عشر صخرات منها وخرجت بنتيجة غير مشجعة إذا ما قورنت بالحصيلة الزاهرة التي جمعتها من زياراتي

الرائعة إلى "المحجة". وصحيح أنني وجدت عليها بعض الأسماء الثمودية منقوشة هنا وهناك، غير أنني لم أجد أي أثر يدل على أن هذه المنطقة كانت منتجعاً محبَباً للسادة المثقفين أيام ثمود.، ولذا فقد أبعدت من فكري الرأي القائل بأن رياح الصحراء الحارة هي التي مسحت تلك النقوش على مر الأجيال.

ولما توارت الشمس خلف الأفق، عدت مع دليلي إلى المكان الذي تركنا فيه السيارة، كي نقضي الليلة هناك. وأعتقد بأننا قطعنا أربعة أميال تقريباً مشياً على الأقدام حتى وصلنا إلى مكان السيارة في الساعة السابعة والنصف مساء، بعد أن ضللنا الدرب ورحنا نتخبط كثيراً قبل ذلك. وما أن وصلنا حتى بدأ "خُليف" يشعر بأن يكاد يغمى عليه، لأنه – كما قال – لم يتناول القهوة طوال اليوم منذ غادرنا تيماء. وقد عزا السبب في عدم تمكنه أن يدلني إلى مكان السيارة إلى هذا النقص في معدته بالذات!!

واسترحنا قليلاً ثم بدأنا نهيئ المكان الذي سنقضي فيه تلك الليلة. ولم يكن هناك بطبيعة الحال ما يدعو إلى انتظار ليلة مريحة. أما طعام العشاء فلم يزد على بقايا طعام الغداء، وكان عبارة عن شاي و"حلاوة طحينية" وبعض قطع البسكويت.

وفيما كنا نتناول طعامنا سمعنا صوت سيارة يقترب. وقد تبينا فيما بعد أنها إحدى سيارات الأمير وقد استقلها عدد من رجاله وبعض أصدقائي من "المدينة" ثم "ليلي" الذي كان يتولى إرشادهم إلى الطريق. وهكذا وجدت نفسي و"خليف" نستقبل زواراً ليشاركونا طعام العشاء "الفاخر"! ورغم هذا الحشد، لم يكن لنا بد من قضاء الليلة المتعبة حيث نحن. وكم كان امتعاضي شديداً حين اكتشفت أنهم لم يكلفوا أنفسهم بإحضار طعام معهم أو جلب فراش وأغطية لنا. ولقد كان كل همهم أن ينفذوا المهمة التي أوكلت إليهم، وهي جر السيارة وإخراجها من الرمال ومن ثم يعودون معنا منتصرين!!

ولكن الأمور كانت أسوأ مما ظنوا، فقد تبين لنا أن الجهود التي بذلناها لإخراج السيارة بادئ الأمر قد تمخضت عن إصابتها بعطب، فأصبحت بحاجة إلى ميكانيكي خبير. ولكن "السيد" فضل أن يبقى غارقاً بين قدور اللحم في تيماء على أن يأتي لإنقاذنا.

ولم أعد أستطيع التحكم في ألفاظي وأنا أصف كفاءتهم في العمل. وكل ما أذكره أنني رجوتهم أن يعودوا إلى تيماء ويتركونا محلنا بأمان. وقد اقترحوا على أن أرافقهم في سيارة "اللوري" إلى تيماء لأنهم لم يكونوا على استعداد لقضاء الليل في هذا المكان الموحش دون أن يكون معهم فراشهم. وحينئذ أجبتهم بأنني لن أترك مكاني بأي شكل من الأشكال، ومهما كانت الظروف، حتى أرى السيارة قد أصبحت صالحة للقيادة.

وقد ساد الجو شيء من التوتر ونحن جلوس حول النار نتبادل الكلمات القاسية، حتى تأكدوا من أنني لا أعتزم التحرك من مكاني بأي ثمن. وخصوصاً حين أكدت لهم أنهم يستطيعون الذهاب إلى جهنم إن شاءوا! إلا أنني لن أرافقهم حتى ولا إلى الجنة.

أما بالنسبة للرجال الذين كانوا يرافقونني في هذه الرحلة، فقد لمست أنهم يغلون غضباً كالمرجل، ولكنني لم أبالِ بهم، وقررت أن الوقت قد حان لأتخلص منهم فور عودتي إلى تيماء، وساعة تمكنُّهم من إيجاد وسيلة نقل تحملهم إلى المدينة.

والحق أن "محمد العريفي" وصحبه كانوا عديمي الفائدة. أما رجال الأمير فقد بان عليهم القلق من جراء ذلك الوضع. وأخيراً اتفقوا على أن يمكث اثنان منهم هما (سُويد) و(ناصر) معنا أنا و(خليف)، بينما يعود الباقون إلى تيماء ليرسلوا لنا السائق مع سيارة (لوري) تساعدنا على سحب سيارتنا في الصباح الباكر.

وعلى هذا الأساس ساد السلام ذلك الظلام الذي كان يلف المنطقة، وجلسنا نحن الأربعة جنباً إلى جنب في شيء من التناسق والوئام، نحملق في النار ونرشف أكواب الشاي. ومكثنا على هذه الحالة مدة ساعة أو ساعتين، قبل أن نكوّر أجسامنا حول ما تبقى

من جمر في موقدنا ، ونحاول النوم على الرمال، ولا غطاء لنا غير الملابس الصيفية التي كنا نرتديها حين غادرنا تيماء في الصباح.

لم تكن تلك الليلة دافئة بأي شكل من الأشكال.. وقد استيقظت حوالي منتصف الليل على لسع البرد، لكنني لم ألبث أن نعست ونمت حتى الساعة الثالثة صباحاً، ثم نهضنا لنوقد النار علّها تساعدنا في قضاء الساعات الثلاث المتبقية لطلوع الفجر، وبالاشتراك مع كؤوس الشاي و(الشابورا).

وعلى العموم، كانت هذه ليلة ليلاء فظيعة. ولم يطلع الفجر بسرعة كما بدا لنا. وكنت كلما نظرت إلى السماء أرى النجوم تتلألأ وكأنها تريد أن تقول لنا: "إن الفجر ما زال بعيداً".

وبالإضافة إلى هذه المشاق أخذ الطلّ يتساقط بكثرة، كما أن جميع حفر طريق (المحجة) كانت ممتلئة بالمياه نتيجة للأمطار الأخيرة.

وما أن أرسل الفجر أول خيوطه، وأصبحنا قادرين على تمييز الأشياء حتى نهضت أنا وخليف، تاركين الرجلين الآخرين في حراسة السيارة، وتوجهنا إلى منطقة صخور (خوبو). وبينما نحن في طريقنا، التفتّ من على هضبة ورائي، فسررت إذ وجدت سيارة اللوري قادمة على الطريق. وكنا في تلك الأثناء ما نزال إلى الغرب من قمة (غنيم)، وإلى الجنوب من (طويّل سعيد) وتيماء، بينما كانت منطقة (خوبو) التي زرناها في اليوم السابق، تلوح بعيدة إلى الغرب والشمال الغربي.

وواصلنا السير باتجاه هضبة تشرف على منطقة (خوبو).. وهناك وجدنا كمية لا بأس بها من النقوش والصور، فباشرت بنسخها وتصويرها. وكان عملاً طويلاً ذلك الذي بدأت، لا سيما وأنا أجلس بين مجموعة مذهلة من النقوش!

كنت ما أزال منهمكاً في استنساخ النقوش إلى حوالي الظهر، عندما وصلت محلّنا سيارتنا اللوري واللاندروفر. وقد أحضر (السيد) معه كمية لا بأس بها من الطعام تكفي لإعداد وجبة شهية. وكانت المسافة بين المكان الذي أُعطبت فيه اللاندروفر، والمكان الذي كنت فيه أنسخ النقوش، لا يزيد على ستة أميال.

وبعد مسيرة ميل أو أكثر بقليل، وصلنا إلى الأرض الصخرية الهائلة التي أطلقتُ عليها اسم (خوبو الشرقي).. كانت هذه الأرض محاطة بدائرة من الحجارة الضخمة، أما وسطها فكان ممتلئاً بالماء الذي انحدر إليها من المرتفعات حاسراً عن الصخور بضعة أقدام من الرمال. وقد وجدت على جوانب الأرض المبتلة أعداداً هائلة من النقوش الثمودية، فأسرعت أنسخها دون تأخير. إلا أنني لم أتمكن من نسخ أكثر من خمسين نقشاً حتى بدأ النهار يضمحل منذراً بقرب غياب الشمس. وكان لزاماً علي أن أفكر الآن في العودة إلى تيماء. كما كان حرياً بي أن لا أضيع الوقت في نسخ هذه النقوش، لأنني، عندما عدت إلى تيماء في المساء، تبينت أن (جاسن) و(سافيغناك) قد نسخا النقوش جميعاً من قبل، نشراها في مجلد طبعته دار (فان دن براندون) للنشر. وعلى الرغم من خيبة أملي في الاكتشاف، إلا أنه وفر علي عناء العودة إلى تلك المنطقة في اليوم التالي، كما كنت أعتزم أن أفعل.

ومهما كان الأمر، فقد كانت حصيلة اليومين الماضيين لا بأس بها. خصوصاً فيما يتعلق باكتشاف (خوبو الشرقي) والحصول على حقيبة مملوء بالنقوش الثمودية كانت كلها جديدة باستثناء الخمسين الأخيرة. والحق أنه من المحتمل أن تكون هذه المنطقة هي (خوبو الغربية) التي اكتشفها (سافغناك) غير أنني لم أستطع حل هذه المشكلة بشكل أرضى عنه.

كان الوقت قد أمسى متأخراً، كما انقلب الطقس بارداً.. ولذلك أسرعنا إلى سياراتنا وبدأنا رحلة العودة على طريق (حايل) مصعِّدين نحو هضبة (أم سبع). وكانت الطريق

وعرة للغاية، ومع ذلك فلم تصادفنا أيّة عقبات كبرى. وأخيراً وصلنا إلى الطريق بعد مسيرة عشرة أميال تقريباً.

وفي هذه الأثناء كانت سيارة اللاندروفر في حالة يرثى لها، لكني استطعت أن أصل بها إلى تيماء وهي تلفظ آخر أنفاسها. وهناك تركتها للتصليح الذي سيستغرق بضة أسابيع. هذا وقد قطعنا في اليومين الماضيين مسافة لا تقل عن أربعين ميلاً معظمها وعرة صخرية.

وهناك في (تيماء) اكتشفت أنه نتيجة للخلاف الذي نشب في الليلة الماضية، فإن محمد العريفي ومساعديه قد اختفوا.. بعد أن أخذوا معهم كل ما نملك من قدور وأوانٍ، بالإضافة إلى ما وجداه في مخزننا من مؤونة يسيرة. وقد احتج هؤلاء بأنهم لاقوا مني ما فيه الكفاية، وأنهم غير مستعدين للتعاون معي أكثر من ذلك.

وليس ثمة ما سرني في ذلك الوقت أكثر من تخلّصي من رفقة (محمد العريفي) وصاحبيه.. كان باستطاعتي أن أعيدهم وأستعيد ما أخذوه من مؤن وأدوات صُرفت لي أنا في (المدينة) وليس لهم، لكنني لم أشأ ذلك رغبةً في التخلص منهم بأي ثمن.

وقد أثبتت الفحوصات التي أجريت على سيارة (اللاندروفر) خيبتي بحالتها، إذ جاءني (السيد) في اليوم التالي ليقول بأنها لا يمكن أن تتحرك من موضعها إلا بعد إجراء فحص كامل، كما أنها بحاجة إلى قطع غيار غير موجودة هنا، وسيطلبونها من (جدة). ولما كان من المؤكد أن استحضار القطع سيستغرق وقتاً طويلا، فقد قررت — وأنا آسف — أن نواصل رحلتنا بسيارة (اللوري)، دون حاجة إلى انتظار إصلاح (اللاندروفر). وتركتها تحت إشراف الميكانيكي (الغشيم) الذي كان يرافقني وريثما تصل قطع الغيار ويتم (الترميم).

وفي صباح اليوم التالي، وبعد أن زرت الأمير لأبحث معه خطط سفرنا، عثرت على اكتشاف مهم قرب واحات تيماء وخرائب المدينة القديمة. وقد سبق الحديث عن بعضها:

وخاصة النقش العربي الموضوع في قاعة القهوة بقصر الأمير، والجدارين اللذين ما زالا قائمين. كما اكتشفت شارع المدينة القديمة أيضاً. وكان شارعاً لم أر له مثيلاً في أي مكان آخر. وكان هذا الشارع والطريق المؤدية إليه يستعملان في الوقت الحاضر كمراحيض.

وكذلك فقد زرت السوق بمتاجره العشرين، ويملكها، كلها تقريباً، أناس ليسوا من أهل تيماء. وكانت هذه المتاجر مغلقة وأصحابها غائبين. ورأيت أحد المتاجر مفتوحاً فدلفت إليه وأخذت أتحدث مع صاحبه "عبدالصمد" من أهل (المدينة) فجعل (الأفندي) يشكو من حال تجارته.

ومررت، متخطياً الواحة الرئيسية والخرائب، إلى الضاحية القريبة لألقي نظرة أخرى على قلعة (قصر الأبلق)، ولأزور بيت (طليحة) الذي التقطت له وللبئر المجاورة له عدة صور. ثم مررت وراء خرائب المدينة إلى شعب (خويلد) الذي يبعد أقل من ميل عن (الوجاج). وهنا وجدت بئراً على الضفة الشمالية للقناة، ووقعت على كثير من النقوش الثمودية، وخاصة في الأرض المنبسطة أمام تلك الضفة. وكانت هذه النقوش تملأ الأرض. وعلى أثر تبادلي الحديث مع (ليلي) أثناء تجوالنا، قدم لي الدليل نوعاً من الخبز المصنوع محلياً من حبوب تنبت في الصحراء تدعى (السمح). والحق أقول أن طعمها كان لذيذاً للغاية، أما لونها فكان بنياً غامقاً.

وينبت (السمح) دون زراعة في هذه المناطق الشمالية من الصحراء في شبه الجزيرة العربية، وأكثر من يفتش عنه هم البدو والجماعات الفقيرة من شرقي الأردن. وقد رأيت بعضهم عندما كنت هناك. واستناداً إلى معلومات (ليلي)، فإن هذه الحبوب تنضج وتصبح قابلة للحصاد في منطقة تيماء عندما ترتفع الثريّا أو حوالي منتصف فصل الصيف تقريباً.

والغريب أن المرء يستطيع أن يمضي أشهراً في تيماء دون أن يستنفد جميع ما فيها من أماكن أثرية أو بقاع للترويح عن النفس.. لكنه كان علي أن أحافظ على الوقت. كما

شعرت بأن الشيء الوحيد الذي ينقصني حتى أكمل زيارتي للمنطقة هو زيارة القلعة الواقعة عند مرتفعات "طويِّلة سعيد".

وهكذا قمت بعد ظهر ذلك اليوم بقيادة سيارة "اللوري" التي تقرّر أن تكون وسيلة النقل الوحيدة بقيّة الرحلة. وأسوأ ما في هذه السيارة أن (عدّادها) كان عاطلاً لا يعمل، مثله مثل أي (عداد) في أية سيارة عامة أخرى في المملكة السعودية، إذ يعطلون العداد حتى يتجنب السائقون مشكلة فحص استهلاك البنزين من قِبل أصحاب السيارات.

وبعد أن عبرنا "السبخة" وقطعنا تلال "جلّ الملح"، درنا حول مجموعة من المسايل حتى وصلنا إلى سفح تلة، ربما كانت على بعد ثلاثة أميال من السبخة. وقد بنيت على قمة هذه التلة، التي بسطت اصطناعياً، وربما جرى ذلك خصيصا – قلعة أثرية، شيدت من حجارة مصقولة كبيرة الحجر. ورأيت عشرة مداميك من هذه الحجارة ما زالت قائمة بحالة جيدة، كانت تدور حول القلعة بكاملها.

ومن الواضح أن هذه القلعة لم تكن أكثر من برج للمراقبة، القصد منه تحذير (تيماء) في حالة اقتراب الأعداء. ويستدل على ذلك من أن مساحتها لا تزيد على عشرة أقدام مربعة. غير أن هناك من الدلائل ما يشير إلى أنها كانت تستعمل منذ زمان قديم، إذ وجدت على جدرانها كثيراً من النقوش الثمودية وبعض الكتابات العربية، وتوقيع الأمريكيين اللذين لم يسمح لهما بدخول تيماء، وقد نُحت كل ذلك على حجارة القلعة بعناية فائقة.

أما الصخرة التي تقوم هذه القلعة عليها، فيبلغ ارتفاعها خمسة عشر قدماً من جميع الاتجاهات. وقد رأيت على جانبها الجنوبي أن بعض الزائرين العرب قد نحتوا علامة ظاهرة إشارة إلى "القِبلة". وكانت هذه على زاوية مقدارها ٢٩٢ درجة باتجاه (ينبع) و(بور سودان) بينما أن مكان القِبلة الحقيقي هو مكة، وتقع على درجة ١٦٨.

ولطالما ساءلت نفسي عما إذا كان من المفيد أن أتم وضع خريطة للعالم الإسلامي على أساس القبلة ومسجدها، غير أن خبرتي في مثل هذه الأمور كانت تشير إلى أن النتيجة لابد أن تكون تناقضاً عجيباً مع المعلومات الجغرافية العادية.

وعلى سبيل المثال، اذكر هنا أنه من المعتقد – كما أكد ذلك الملوك القدامى مراراً – أن القبلة في جوامع الوهابيين في الرياض ليست باتجاه مكة ولا الحرم الشريف فحسب، بل وباتجاه الكعبة بالذات. أما الحقيقة، فهي أن قبلة الوهابيين في جوامع الرياض تشير إلى اتجاه المدينة المنورة على بعد ٢٥٠ ميلاً إلا الشمال من الكعبة.

وقد تكون قلعة (طويّلة سعيد) هذه قد أخذت اسمها الحديث من (سعيد) عامل (ابن رشيد) في الفترة التي زار فيها (غرّوثرز) هذه المنطقة. فقد أُمر (سعيد) هنا بحكم منطقةٍ شاسعة تشمل جميع المناطق المجاورة لتيماء، ومن المؤكد أنه نفذ الأمر.

إن أشجار النخيل الباسقة التابعة إلى (حدّاج) تقع الآن إلى الغرب مع ميل نحو الجنوب. كما أن سلسلة جبال (غنيم) تمتد من (قرن البدن) إلى المرتفع العالي الذي يمتد من الشرق إلى الجنوب. أما الجبال الرملية المعروفة باسم (بترة) Batra و(الدفافية) فهي تلوح قبالتي في الجهة الشرقية. وقد رأيت مجموعة أخرى من الجبال الرملية تدعى (مُريره) وتقوم في الجهة الشمالية الشرقية. أما (منطار بني عطية) فهو إلى الجهة الجنوبية الغربية بينا تلوح سلسلة جبال (الضبعة) و(الغمرية) في الجهة الغربية.

وتوجد في أسفل التلة خرائب قلعة قديمة كبيرة، لم أرزها لأنها بدت لي حديثة البناء نسبياً. كما يوجد في أسفل القلعة مجموعة من الخرائب غير واضحة المعالم، ولربما كانت بقايا خط دفاعي قديم.

وقد عدنا على ذات الطريق الذي قدمنا عليه، فتوقفنا عند بيت (صبر العياضة)، والشمس مائلة للمغيب، لكي أتبادل معه الحديث الأخير قبل مغادرتي تيماء. وهناك قدم لنا الرجل القهوة والشاي، ثم عدنا إلى مقرنا لنمضي فيه آخر ليلة لنا تيماء.

وفي صبيحة ذلك اليوم وجدت أن جميع مرافقي قد جاؤوا — ولست أشك في أن ذلك تم بأمر من الأمير — واصطفوا أمام سيارة (اللوري). وكم أحزنني أن سيارة (اللاندروفر) لن ترافقنا في العودة، فقد تقرر تركها مع الميكانيكي الذي كان قد رافقني من (الرياض) ليشرف على إصلاحها. وحتى تلك اللحظة كانت السيارة قد قطعت مسافة ٣.٧٣٧ كيلومتراً أو ما يعادل ٢٣٣٥ ونصف ميلاً على طرق في مختلف درجات السوء، بل وأحياناً على ما لا يشبه طريقاً بالمرة.. ولكن ما العمل؟

# من تيماءَ إلى تبوك

■ في الثالث عشر من شهر يناير (كانون الثاني)، ودعنا (تيماء) وسيارتَنا (اللاندروفر) وكدّسنا متاعنا في سيارة (اللوري) استعداداً للمضي في طريقنا إلى (تبوك).

كان العدّاد لا يشتغل، وهذا نقص شديد في أية سيارة تعمل مع أية بعثة استكشافية، ولكن جماعتي الذين كانوا يرافقونني لم يهمهم من الأمر شيء. لقد بدوا، وكأن شيئاً في هذا العالم ما كان ليهز ضمائرهم وهم على ظهر "اللوري"، مكوّمين بين جالس ومضطجع، وسط أكداس المتاع التي نحملها. كانوا يتبادلون الحديث غير مبالين بوعورة الطريق التي نجتازها، ولا بالجلسة غير المريحة عل ظهر "اللوري" الذي ما انفك يتمايل إلى الشمال حيناً وإلى اليمين أحياناً. ومع هذا فقد لاحظت أن السائق بدا وكأنه يستعذب القيادة في مثل تلك الطرق.

كان دليلنا الجديد يجلس بيني وبين السائق، وكان اسمه "سلامة بن علي" من قبيلة "بني عطية"، تلك القبيل التي اعتبر نفسي مديناً لها كثيراً في نجاح هذا الجزء من الرحلة. وكان ثمة جو من الخوف لا أدري سببه يخيم فوقنا، وربما كان مرده إلى التشاؤم. أما المسافة التي كان علينا قطعها فهي لا تزيد على ١٥٠ ميلاً، وربما أكثر من ذلك بقليل، أي حسب الطريق التي سنتبعها. وكان من المفروض أن نقطع هذه المسافة في ما لا يزيد عن ثلاثة أيام.

وقد اعتزمت أن اصرف جميع حاشيتي باستثناء "السيد" وسيارته "اللوري" فور وصولنا إلى "تبوك"، حيث ستكون عودتهم إلى "المدينة" من هناك أسهل بكثير منها من تيماء. ومهما يكن من أمر فإنني كنت بحاجة إلى فريق جديد من الرجال لمساعدتي في استكشاف "المناطق الشمالية"، إذ أنه يمكن اعتبار هذه المنطقة مقفلة بصفة رسمية.

ولقد قطعنا المسافة في مدة تزيد عشر ساعات عن معدلها، وهو ثلاثة أيام، لأننا كنا نسير بمعدل خمسة عشر ميلاً في الساعة، هذا إذا ظلت سيارة "اللوري" تتحرك، رغم أن تحركها لم يكن يجري بانتظام.

وفي طريق العودة مررنا عبر خرائب "فاو الطليحة" واجتزنا عدة جداول تابعة لشعب "الرضام"، ثم سرنا بمحاذاة الضفة اليسرى لذلك الشعب وأخذنا نصعد نحو "منطار بني عطية" حيث توقفنا عند منطقة قريبة من شعب "الجريدة". ويعود اسم هذا الشعب إلى المنطقة ذاتها أكثر مما يعود إلى أي من الجداول التي تمر فيها. وكان هنالك ثلاثة منها تسير في اتجاهات مختلفة. وقد تمكنا في النهاية من الوصول إلى النقطة العليا التي تصب فيها هذه الجداول في وادي تيماء على بعد خمسة عشر ميلاً من الواحات. ومن ثم سرنا في أرض منبسطة بعد أن عبرنا أرضاً سبخة ضيقة. ولم يكن دليلي متأكداً من أن هذه الأرض هي التي تدعى "خبرا محجة" (على الرغم من أنه لا علاقة لها بوادي المحجة الذي سبق أن ورد ذكره). ومن هناك وصلنا إلى ما يبدو أنه مسيلان لجدولين، كانا يسيران باتجاه معاكس لبعضهما. فالأول الذي كان يقع إلى يسارنا ظل يرافقنا حتى تيماء، أما الثاني فكان يجري باتجاه شمالي – شرقي حتى يصل إلى مكان يدعى "الجريش"وهو عبارةعن أرض منبسطة تمتد من سفح سلسلة من الجبال تحمل الاسم ذاته. ويلتقي هذا المسيل في كثير من النواحي بعدد من المسايل النابعة من سلاسل الجبال المختلفة التي تقوم في تلك المنطقة. وهي من اليسار إلى اليمين: "الرحْل" ويقع خلف "المعيزله" (وهو أعلى سلسلة الجبال هذه)،

و"البيّاضية" و"الضبع" و"الغمرية" و"الجريش". وقد رأيت جبل الضبع متوجاً بقمتين رائعتين بينما كان لجبل "الغمرية" قمة واحدة.

ومن هذه النقطة دخلنا إلى منطقة جديدة تمتد باتجاه الغرب مسافة قصيرة حتى تصل إلى فراغ يقع بين "البيّاضية" والضبع. ومن هناك تدور الطريق باتجاه شمالي غربي. وقبل أن نصل إلى هذا الفراغ، عبرنا قناة "جريدة" الرئيسية من طريق بدأت تنقلب إلى وعرة جداً وتزداد وعرة كلما اقتربنا من الجبال.

كانت هذه الطريق مغطاة بالأدغال، ومع ذلك فلقد كان الشيء الحي الوحيد الذي أزعجناه ونحن نقطع تلك الطريق هو أرنب بري. ولعل كثرة ارتياد "عبدالله بن فيصل" و"السديري" لتلك المنطقة قد أفزع الغزلان التي كانت تعيش فيها. وكنا نعرف أن الصيادين المذكورين، قد مرا في هذه المنطقة مستقلين سيارة قطعنا بها المسيل ثم اتجها نحو الشمال الشرقي قاصدين أرضاً منبسطة تدعى "عسّافية" أو "الصفية"، في طريقهما إلى رمال "نفود" التي تقع وراء تلك الأرض مباشرة.

وقد واصلنا سيرنا نحو الصخور العليا التي تشكل إطاراً يشمل مجموعة الجبال المختلفة في تلك المنطقة. وهناك توقفنا لتناول طعام الغداء قرب صخرة متوسطة الارتفاع، معزولة عما عداها من صخور جبل "الضبع". وتقع هذه الصخرة في نقطة تسبق مدخل الممر المؤدي إلى الوادي القائم بين تلك التلال، حيث كنا نعرف أننا سنفقد جميع المعالم التي قد تدلنا على الطريق.

كانت قمة جبل "غنيم" تقوم إلى الجنوب الشرقي، أي في الاتجاه ذاته الذي تقع فيه (تيماء)، غير أن الجبل حجبها عن العيان. وكنا نستطيع أن نرى على بعد كبير في اتجاه الجنوب الغربي – قمة "المطلع" وغيرها من القمم العالية البركانية في منطقة "حرات العُوَيْرض" و"حرات الرُّها". والأخيرة هذه تقع خلف خط السكة الحديدية بين قلعة "المعظّم" و"تبوك".

ورأينا وراء منطقة الفرع سالف الذكر بعضَ معالم المنطقة التي كان من المقرر أن نمر بها في طريقنا. فقد كان جبل "سَلاو" العالي يرتفع خلف الجهة الواقعة إلى أقصى يمين البياضية، وهضاب "الضاحكية". وبين البياضية والضاحكية كانت سيارتنا تسير. وأخيراً وجدنا في طريقنا، بجانب الممر الواقع بين سلسلتي الجبال، مجموعة من الصخور على شكل دائرة تدعى "ريك الضبع". وكانت لهذه الصخور أشكال غريبة تشكل حاجزاً صخرياً طبيعياً. وقد توقفنا عندها لنلقي عليها نظرة إعجاب أقوم بعدها بالفحص المطلوب. وتمخض هذا الفحص عن فشل ذريع في العثور على أية نقوش، أو صور.

وهنا بدأنا السير بمحاذاة قناة "سلاو" ورافدها الذي يدعى شعب "قليب القانص"، وتجري مياه سيول هذا الشعب بمحاذاة الطرف الأيسر بجبلي "الضبع" و"غنيمة". وفي تلك المنطقة رأينا دغلاً صغيراً من أشجار "الطلح" في أرض منبسطة، عادتها أن تحتفظ بمياه الأمطار لعدة أشهر في مواسم الأمطار الجيدة.

هذا وقد أخذ الممر الذي كنا فيه، والواقع بين قنوات الماء وسلسلة الصخور القليلة الارتفاع، يضيق تدريجياً، فبعد أن كان عرضه يبلغ الميلين، أصبح لا يزيد على ميل واحد في النقطة التي وصلت إليها سيارتنا بين هضاب "بَرْقا" التابعة لجبل "تَهيّه" وبين مرتفعات "الضاحكية".

وفي تلك النقطة، أخذت الطريق تنحدر بنا إلى أسفل، ثم ترتفع إلى أعلى بشكل غير منتظم. وقد اعترضتنا في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم، أسراب كبيرة من الجراد الطيار. وكنت أرى بعضها تنتشر رفوفه في الوادي المليء بالعشب، كما كنت أرى أسراباً أخرى تنتشر فوق الصخور المبعثرة على جانبي ذلك الوادي، وكأنما تتجمع لتعيد الكرة على المزروعات في تلك المنطقة. وقد سررنا بمنظر بضعة غزلان في المرحلة الأخيرة من رحلتنا، ومررنا بقناة ماء تصل في شعب "الخُوَيْنات المتاخم لهضاب "الضاحكية"، ثم لا تلبث أن تنضم إلى القناة الكبيرة لشعب "عَقَلا". وهو أحد الرواد التي تنضم إلى بعضها لتشكل

المورد الرئيسي لمياه آبار "القُليبه" في أعالي وادي "الفجر"، الذي يشكل بدوره أحد الروافد الكبرى لوادي "الهاوي" الواقع في الطرف الجنوبي من وادي "سرحان".

كان الوقت قد أمسى متأخراً، ولذا قررت أن نضرب خيامنا بالقرب من رافد صغير من روافد شعب "عقلا"، يقع تحت المكان الذي يلتقي فيه هذا الشعب مع شعب "الخوينات". أما الوادي الصغير الذي ضربنا فيه خيامنا فكان يدعى "وُدّيات النعام". ويبدو أن مساقط المياه لجميع المسايل الموجودة في المنطقة، والتي تؤدي إلى وادي "الفجر"، تشكل في مجموعها هضاب "الفرَل" و"لَبَدَ" أو "العَبْده".

والحقيقة أن منظرها كان ممتعاً. فهي هضاب تطلّ على أرض منبسطة، تنحدر عند طرفها، وتنتشر الصخور في معظم أجزائها. وهنا كانت مرتفعات وصخور "الضاحكية" تقع على الضفة اليمنى لشعب "عقلا"، وتستمر في الامتداد شمالاً بمحاذاة الأرض المرتفعة التي تعرف باسم "الزّيليّات". بينما كان على الضفة الشمالي للشعب ذاته، سلسلة مرتفعات "عبده" التي تمتد مسافة بعيدة حتى فجوة كبيرة تشكل وادي "الكلبه"، وهو فوق نقطة اتصال شعب "عقلا" بتلك الفجوة. وتحت هذه النقطة يقع وادي "قليبة". أما الطريق الوعرة إلى الشمال من وادي "الكلبة"، وهي طريق ترتفع عن مستوى الوادي، فكانت تدعى طريق (البَيْضا).

ولقد رأينا المزيد من أسراب الجراد عندما أستأنفنا سيرنا منحدرين نحو نقطة اتصال شعب (عقلا) بوادي الكلبة عبر تلة معزولة، تفصل مجرى الشعب والوادي. وفي هذه النقطة خلّفنا التلال وراءنا إلى سهل يبلغ عرضه ميلاً أو أكثر. ويشق هذا السهل وادي الكلبة ليزود بمائه الآبار والمركز العسكري في القلبية. وهناك يضيق السهل حتى يمر بين سلسلتين من الهضاب العالية.

والجدير بالذكر أن النقطة التي يضيق فيها السهل بين الهضاب، كانت بمثابة سد طبيعي يحجز مياه الفيضانات. وكنتيجة لذلك فقد كانت المنطقة خصبة، تنبت فيها أشجار

الطلح الباسقة، بأعداد كبيرة. وكنا نجد هنا وهناك مساحات من الأرض مزروعة بالحبوب المختلفة. ويبلغ عرض السهل، قبل أن يضيق عند الهضاب، حوالي ميلين. وهناك دلائل تشير إلى أن هذا السهل كان يملكه رجل واحد في قديم الزمان، وإن كان الآن يبدو خالياً إلا من مركز عسكري أنشأ حديثاً لحماية الحدود.

أما البئران الصالحتان للاستعمال في هذه المنطقة، فقد كانت الأولى منهما مشيدة بحجارة مصقولة، ومن فوهتها التي تبلغ أربعة أقدام حتى ارتفاع الماء فيه وكذلك كانت الثانية، وإن كانت فوهته تبلغ خمسة أقدام. أما كمية الماءفي كل منهما فتبلغ خمس قامات.

والجدير بالذكر أن هناك عدداً آخر من الآبار في المنطقة، ولكنها مهجورة غير مستعملة، ولعلها لم تنظف بعد لتصبح صالحة للاستعمال.

وقد وجدت بالقرب من البئر الرئيسية صخرة كبيرة تبدو على شكل الرأس ، كما رأيت اسماً ثمودياً منقوشاً في وسط صخرة أصغر منها حجماً. ومن المؤكد أن هذه الصخرة تشير إلى ضريح أثري، وجدت على مقربة منه ضريحاً آخر محاطاً بالحجارة من ثلاث جهات. كما وجدت كتابة مختلطة قديمة على أحد الحجارة، لكنني لم أستطع فهمها.

وعلى مقربة من تلك الآبار، ولكن في منحدر عند الهضاب المواجهة، رأيت حامية المنطقة.. كانت مؤلفة من ثلاثة عشر رجلاً وقائدهم. ولمحت عدداً من الأكواخ الصغيرة مبعثرة في الجوار. وقد قيل لي أنها أماكن سكنى عائلات الجنود الذين شاؤوا أن يكون نفيهم أقل مشقة على نفوسهم عن طريق الزواج بفتيات من قبيلة (بني عطية) الضاربة في الصحراء المجاورة.

كان قائد هذه الحامية، ويدعى (عبدالعزيز التويجيري) غائباً في الوقت الذي وصلنا فيه المنطقة.. إنه يقوم بزيارة بعض خيام البدو. وقد أرسل إليه رجال الحامية موفداً خاصاً ليبلغه بقدومنا. وهكذا..عاد ليقدم لنا القهوة والشاي قبل أن يسمح لنا بمواصلة السير.

وفي أثناء ذلك تسلقت الصخرة المشرفة على المكان الذي يضيق عنده السهل، لألقي نظرة أكثر شمولاً على المنطقة، ولكي أتتبع مجرى القنوات التي تزود هذه المنطقة بأسرها بالماء. بما في ذلك المنحدرات الشرقية التي تحاذي المرتفعات المتاخمة لوادي (تبوك) في أقصى الشمال.

ومن هذه المنطقة، اتجهنا نحو الشمال الغربي، حتى غدونا على مسافة خمسة وسبعين ميلاً من تيماء، أي في منتصف الطريق تقريباً إلى تبوك. غير أنه كان علينا أن ننعطف إلى الجنوب الغربي لكي نمر بهضاب "الضُفَيّر" التي كنا نراها من مكاننا.

وتقع سلسلة هضاب "خُنصَر" إلى يمين الطرف القصي لهضاب "الضُفَيّر" وهي تسير بمحاذاة الحدود الأردنية مسافة ليست بالقصيرة. وفي الوقت الذي كنا لا نستطيع أن نرى غير قمة جبال "بركانه" في أقصى الشمال، حيث يقع بئر وادي "فجر" في نقطة الحدود السعودية الفعلية، فإن نقطة الحدود المعروفة باسم "مُغيرة" تقع خلف البئر إلى اليمين. وتقع هضاب "الزبيليّات" إلى الجهة الشمالية الشرقية من "مغيرة"، وهي عبارة عن سلسلة من الصخور ترتفع في ست أو سبع نقاط. أما التلال الواطئة التي تسير بامتداد الضفة الشمالية للوادي وتشكل رأس وادي "فجر" فتعرف باسم "قُوار القليبة"، ويمر بينها جدول آخر يصب في وادي فجر، يعرف باسم شعب "عرّاده".

واستأنفنا سيرنا على طول امتداد تلك التلال، وبعد أو ودعنا مضيفنا وجنوده الذين بدوا وكأنهم في غاية السرور في منفاهم النائي المذكور. ولقد زاد سرورهم إذ رأوا وجهاً غريباً جاء إليهم من العالم الكبير الذي يقع خلفهم.

هذا وقد وصلنا إلى مجموعة من الخرائب، بعيد مرورنا بـ (قليبة). وكانت هذه الخرائب تقع في الأرض الواطئة على الضفة الشمالية للوادي. وهنا قررت أن أقوم بفحص هذه الخرائب، وأن نتوقف عندها بعض الوقت لتناول طعام الغداء.

كانت هناك عشرات من الخرائب منتشرة على القمة المسطحة لسلسلة الهضاب الموجودة في تلك المنطقة. ولربما كانت هذه الخرائب قلاعاً أثرية. غير أن دليلي (سلامة) أفاد بأنه لم ير هذه الخرائب من قبل، وأنه تبعاً لذلك لا يعرف شيئاً عن تاريخها، وإن كان يظن بأنها من بناء قبيلة (بني هلال). تلك القبيلة التي كانت تعزى إليها جميع الإنشاءات في تلك المنطقة، أثناء هجرة أفرادها من جنوب شبه الجزيرة العربية في طريقهم إلى مراكش.

كانت إحدى الخرائب بيضاوية الشكل تبلغ مساحتها ٢٧×٢٠ قدماً، وثمة أخرى مستطيلة الشكل مساحتها ١٥/٥٠ قدماً، وثالثة لم تكن أكثر من كومة من الحجارة الصماء، مساحتها ١٠/١٥ قدماً.والمعتقد بأن هذه الثالثة، هي المعبد الرئيسي، بالنظر لوجود دائرة من الحجارة تشكّل نوعاً من الساحة المستديرة التي يبلغ قطرها ١٥ قدماً.

وقد وجدت في مجموعة أخرى من هذه الخرائب ما جعلني أعتقد أنها قبور سبئية، ربما كانت تضم أجداث قوم من جنوب شبه الجزيرة العربية، (مَهياش) مثلاً... وتنتظم هذه المجموعة من القبور في شبه دائرة يبلغ قطرها ١٥ قدماً، أما ارتفاعها عن سطح الأرض فيبلغ ٤ أقدام.

هذا وكان داخل الأضرحة مليئاً بالرمال. ومع ذلك فقد كان من الواضح أنها تتسع لأكثر من جدث واحد.، وكان من الصعب أن يدرك المرء أهمية هذه الخرائب، إذ أنه من المحتمل أن تكون قد شيدت لإحياء ذكرى معركة وقعت في الأزمنة القديمة. وعلى كل فإنني لم أستطع أن أجد أية نقوش يمكن أن استدل منها على حقيقتها. وتقع هذه الخرائب على بعد يقل عن ميلين إلى الشمال الغربي من "قليبة".

وتابعنا السير، بمحاذاة الوادي في الاتجاه ذاته، وقطعنا حوالي ميلين قبل أن نصل إلى نقطة يلتقي عندها شعب (عرادة) بالقنوات التي تشكل وادي (فجر) في عدة نقاط. وهنا تحولنا إلى طريق علوي باتجاه (عراده) ومنها سرنا باتجاه جنوبي غربي، يقع إلى يمين اتجاهنا السابق. في هذه النقطة كنا قد قطعنا حوالي ثمانين ميلاً منذ أن غادرنا تيماء.

ومن غريب الصدف أن طريقنا هذا هو الطريق الذي مر به (غورماني) نفسه. وهناك أكثر من دليل على صحة هذا الاعتقاد. لقد ذكر (غورماني) أنه مر بطريق يخترق وادي فجر ثم يمر بوادي قليبة. وحسب هذا الوصف — وصف غورماني — تكون طريقه هذه هي الطريق التي سلكناها من تيماء. ولابد أن يكون غورماني في طريقه من المناطق المجاورة لمدينة (معان) — وليس من وادي سرحان — قد مر بوادي فجر على بعد قليل من النقطة التي وصلنا إليها الآن.

هذا وكان الطريق الواقع ما بين التلال، والتي تسير على امتداد الضفة اليمنى لوادي (عرّاده)، ما زال هو ذاته التي تعرف باسم (قُوار القليبة). ومن تلك النقطة تحولنا عن الوادي، وصعدنا في مرتفع أوصلَنا إلى مجرى ماء ليس له اسم، وربما كان (شعب الضفّير) الذي نبع من المرتفعات المحيطة والتي تعرف باسم هضاب (الضفّير). وفي تلك النقطة وجدنا مجموعة من الخرائب المنتشرة بين الصخور، تشبه تلك التي سبق أن وصفتها. ولكنها كانت في حالة أسوأ من سابقتها.

كنا ما نزال نصعّد منذ دخلنا وادي عرادة، ولم يمض طويل وقت حتى وصلنا إلى خليج منخفض يقع بين سلسلة من الصخور والهضاب. وكان هذا الخليج يضيق تدريجياً كلما اقتربنا من نهاية الممر. وبعد أن مررنا به، خرجنا إلى طريق سهل، لابد وأنه قد لقي عناية من أحد من المسؤولين. وقد قادنا هذا الطريق إلى دغل قررت أن نضرب خيامنا فيه لقضاء الليلة، وحتى تتاح لي الفرصة كي أتسلق قمة الجبل الواقع إلى يمين السهل وأقوم بعملية مسح عامة للمنطقة من هناك. وقد ضربنا الخيام على ارتفاع ٥٠٠ قدم عن سطح السهل بينما كان ارتفاع الجبل يزيد على ألف قدم.

ومن مخيمنا كنا نتمتع بمنظر رائع للصخور الممتدة إلى يمين شعب عراده وإلى يساره، حيث يمتد جبل ضفيّر العالي إلى ما بعد مخيمنا بمسافة تتراوح بين خمسة وستة أميال. ومن هناك أيضاً كنت أستطيع أن أرى أن طريقنا سيسير مسافة أربعة أميال في أرض سهلة، ثم

يدور فجأة إلى الشمال نحو الجبال الرملية الهائلة الموجودة في منطقة (تعوس الأرقانا)، والتي تسد الطرف الجنوبي من وادي تبوك.

هذا ولم أر أيّة معالم بارزة في هذه المنطقة. غير أنني لاحظت أن الوديان الموجودة فيها مليئة بالمزروعات، وخاصة واديي (رَغْل) و(بُعيثران) وإن كنت لم أجد شيئاً من الأحياء في السهول والقمم. وقد لاحظت بحقٍ أن قليلاً من المطر يكفي لتحويل المنطقة إلى أرض خصبة تمور بالجنائن اليانعة.

وهنالك الكثير من الأدلة التي تشير إلى أن قوافل الجمال كانت ترد إلى هذه المنطقة في فصل الصيف طلباً للكلأ والمرعى، الأمر الذي يشهد بأن هذه المنطقة يمكن أن تصبح خصبة. ووادي عراده هو المجرى الوحيد في هذه البقاع الذي فاضت مياهه خلال الموسم الحالي. وقد رأينا آثار هذا الفيضان ممثلّة بعدد من برك الماء المنتشرة على طريقنا. بخلاف شعب ضفير الذي كان جافاً على طول امتداد الطريق.

وقد استغربت عندما لاحظت أن (سلامة) يتسلق القمة إلى جانبي بصعوبة. وسألته فأخذ يحدثني عن جرح أصابه في فخذه إبّان الثورة العربية، عندما اشتبك العرب مع الأتراك قرب محط سكة حديد (قلعة الأخضر)، التي كانت تلوح من المكان الذي جلسنا نستريح به..

وقد أخبرني سلامة أنه يتألم حين يتسلق جبلاً، ولكنه لا يشعر بأي ألم مهما سار على أرض منبسطة. وكذلك فإنه يشعر بألم بالغ كلما اضطرته الظروف إلى تسلّق تلال أو السير في أرض صخرية وعرة.

وأكثر أجزاء قصة سلامة تشويقاً كان قوله: إنه عندما كان يقضي دور النقاهة من جراحه، جاء إلى هذا المرتفع الذي كنا نتسلقه بالذات فرأى أنه من أحسن المراعي الكثيرة الكلأ في هذه المنطقة إثر تساقط الأمطار في سنة ١٩١٦. وبينما كان هناك، شاهد زوجاً من

المها (الظبي الأفريقي الآسيوي) في الشعب الصغير الذي كنا نخيم فيه. وكان ذلك قبل خمس وثلاثين سنة من زيارتنا هذه.

والغريب أن المها قد انقرض من شبه الجزيرة العربية قبل عقد من الزمن على أقل تقدير.

ولقد كان "سلامة" رفيق سفرٍ أنيس، غير أنه كدليل كان مزعجاً للغاية، بالنظر لقلة معلوماته عن جغرافية منطقة قضى حياته فيها. لقد كان ينقصه حب الاستطلاع الذي يمكن أن يجعل منه دليلاً جيداً، أو مستكشفاً لا بأس به.

هاهي الشمس قد مالت للمغيب مرسلة أشعة حمراء رائعة، لم تلبث أن اختفت وراء سحابة سوداء داكنة، فتكسرت أشعة الشمس في الأفق. وعلى الرغم من الارتفاع الذي كنا قد وصلنا إليه، فإن تلك الأمسية كانت دافئة لم يتساقط خلالها الندى. غير أن "محمد العريفي" فاجأنا بنوبة راح جسمه يرتجف منها، الأمر الذي حملني على إعطائه جرعة من "الأسبرين"، لم يلبث بعدها أن هدأ وذهب ارتجافه وجزعه.

إن الطريق الممتدة تحت الممر الذي جئنا منه، تجري عبر وادٍ يتراوح عرضه بين ٢٠٠ – ٤٠٠ ياردة. غير أن مجرى هذا الوادي كان مسدوداً بتلال (عرقانا) الرملية، التي تجعله يشكل بحيرة واسعة كانت جافة تماما؟ عندما وصلنا إليه. وكانت هذه التلال الرملية تعترض طريقنا هنا هناك.

وفي أسفل الوادي تسلقت مع سلامة، أحد تلك التلال لنلقي نظرة على المنطقة التي كنا نعبرها. كانت المناظر التي تحيط بنا غير ذات بال، باستثناء منطقة البراكين الخامدة في (حرّة) خلف السهل الذي يمتد من سفح (ضُفير) حتى خط السكة الحديدية. وقد اعترضتنا بعض الصعاب في المرور فوق الرمال الكثيفة، والرمال السافية التي كانت الرياح تحملها إلى طريقنا، فظللنا نصارع هذه الصعوبات حتى وصلنا إلى ممر يقع بين (نفَود) وسلسلة

جبال (غَوانم) التي تلاصق ضفّير باتجاه الشمال. ومن هذا الممر، خرجنا إلى سهل سرنا فوقه سبعة أميال ثم وصلنا إلى قناة شعب (الأخضر) المليئة بأدغال "الغَضا" وغيرها من النباتات. وتمتد هذه الأدغال من أعالي "الحرّة" قرب محطة سكة حديد "قلعة الأخضر" حتى تصل إلى وادي "تبوك".

وما أن خرجنا إلى ذلك السهل، حتى بدأت عاصفة تهب من الجنوب، ولكن رياحها لم تكن قوية عاتية، كما أن الرمال التي كانت تذروها تلك الرياح كانت خفيفة ناعمة، وكافية لأن تغطي سطح الأرض بطبقة مزعجة من الرمال. ومن هناك وصلنا إلى وادي "غَضيّ"، وهو أحد روافد وادي "الأخضر"، وينبع من مرتفعات جبل "البِرْك" البركاني الذي يقع خلف سكة الحديد.

ومن هذه النقطة توجهنا فوق أرض تغطيها الرمال الناعمة إلى التلال الرملية المنتشرة هناك، والمعروفة باسم "العجّات". غير أن هذه التلال أخذت تتحول إلى أكوام صغيرة عندما اقتربنا، ثم عبرنا مجرى وادي "الإثل" الذي ينبع كذلك من بعض جبال "الحرة" المعروفة باسم "وتْر" و"شيبان". ويلتقي هذا المجرى بغيره عند البحيرة الطينية المعروفة باسم "خَبرة القصيم"، وتقع بالقرب من محطة سكة حديد "محتَطَب". ومن تلك النقطة بدت للعيان قمم أشجار النخيل الباسقة المزروعة في ضواحي "تبوك"، وكانت هذه في مواجهتنا تماماً.

وقد قطعنا سكة الحديد بعد نصف ساعة فقط من رؤيتنا لقمم النخيل، وبعدها وصلنا إلى القصر الذي أنشأته الحكومة المحلية هناك. وهو يستعمل كدار للحكومة تُفضّ فيه المنازعات والمشاكل بين القبائل المختلفة.

هذا، وكانت المسافة بين مخيمنا الذي قضينا فيه ليلتنا الأخيرة وبين تبوك لا تزيد على خمسين ميلاً.

# واحات تبـوك

■ "ما هذا الذي تبوكُونَه"؟

يقال أن النبي "محمداً" وجّه هذه الملاحظة إلى بعض أصحابه حين مر بهم فرآهم منهمكين في جرف رمالٍ كانت تطمر موقع النبع الكبير الذي كان يعتمد عليه القسم الرئيسي من الواحات، وما زال كذلك حتى الآن. وطالما أن هذا النبع كان موجوداً فمن المعقول أن يكون اسم "تبوك" قد اشتق منه كما قال لي السكان المحليون.

ويقول "لويس موسيل" المكتشف النمساوي المشهور والرجل الواسع الإطلاع والثقافة: إن اسم "تبوك" قد اشتق من هذه الملاحظة. ويقول أنه من تبوك - ثابوا - وعن طريق "كراجي" و"رام" أو "أرامو" يمتد أقصر طرق، يصل بين جنوب شبه الجزيرة العربية، و"بترا" عاصمة النبطيين، وأكثر الطرق راحة.

ومن المؤكد أنه كان لمدينة تبوك، منذ الأزمنة القديمة، مركز ممتاز على الطريق العام الممتدة من الشمال إلى الجنوب. تلك الطريق التي كان يسلكها التجار في طريقهم إلى دنيا البحر الأبيض المتوسط. كما أنها درب الحجاج في طريقهم إلى المدن الإسلامية المقدسة في الوقت الحاضر.

ومن المؤكد أن النبطيين قد استغلوا مركز "تبوك" هذا في توسيع رقعة إمبراطوريتهم حتى "مداين صالح"، بل ، إلى أبعد من ذلك إلى الجنوب.

وقد استغني عن الجمال التي كانت – منذ بداية التاريخ وحتى أوائل القرن الحالي – وسيلة النقل الوحيد العاملة على هذه الطرق، واستبدلت بالسكة الحديدية المعروفة باسم سكة حديد الحجاز، منذ أكثر من عقد من الزمن. وكانت هذه هي وسيلة المواصلات الرئيسة في شبه الجزيرة العربية أبان الحرب الكونية الأولى. وقد استأنفت قوافل الجمال القيام بمهمتها القديمة حتى ما بعد احتلال الوهابيين للحجاز. ولكنها ما لبث أن أُعفيت من مشاق هذه المهمات عندما استبدلت بالسيارات التي كانت محتكرة لنقل التجارة ما بين سوريا و"المدينة".

ومهما يكن من أمر، فإن أي نوع من أنواع المواصلات كانت تجد في تبوك مركزاً لا غنى عنه لتأمين حاجتها وحمايتها. وما كان لتبوك أن تظل قائمة لولا العين العظيمة التي تتدفق مياهها من تحت الأرض الممتدة تحت ظلال أشجار النخيل الباسقة. من يدري، فقد تتمخض المحادثات العقيمة التي استمرت طوال ثلاثين عاماً حول إعادة تسيير خط سكة حديد الحجاز وبعثه إلى الحياة من جديد، عن إحياء الأمل في جعل هذه المحادثات تتحول إلى أعمال. فيعاد إصلاح الخط لإعادة تسيير القطارات عليه. لكنه من السابق لأوانه أن يكون المرء متفائلاً وذلك لأن هذا المشروع ما زال قيد الدرس منذ ثلاث سنوات، دون أن يتقدم البحث فيه قيد أنملة. ومما لا شك فيه أن المعجزة ستحقق يوماً كما يأمل كل شخص، وعندها ستبدأ تبوك عهداً من الرخاء لم تشهد له مثيلاً على مر تاريخها الطويل.

هذا وتظهر حالة تبوك الاقتصادية والاجتماعية الراهنة تقدماً في جميع المجالات التي عرفت في الأزمنة القديمة تلك المدينة. فعدد سكانها، حسب إحصاء سنة ١٩٥١ قد بلغ ٢,٠٠٠ شخص، ونصف هؤلاء من التجار والموظفين الذي هاجروا من "نجد" و"الحجاز".

وقبل قرن من هذا التاريخ أي عندما زارها "أوغسطس والين"، الذي يعتقد بأنه أول أوروبي زار المنطقة، كانت تبوك عبارة عن قرية صغيرة لا يزيد عدد بيوتها على ستين بيتاً.

وعندما زار المنطقة "دوتي" في سنة ١٨٧٧ لم يجد هناك أكثر من أربعين أسرة. ولم يكن يحمي هذه العائلات من طغيان القبائل البدوية وفوضاها غير دفع المال. وعقب هذا التاريخ بسبع سنوات قام (هوبر) بزيارته للمنطقة فوجد القرية المهجورة، كما وجد قلعتها يحتلها خمسة رجال يحملون البنادق.

وفي سنة ١٩١٠ عندما بُدئ بتسيير سكة الحديد إلى نقطة قريبة من "تبوك" قدّر "غروثرز" عدد سكان القرية بما لا يزيد على ٢٠٠ شخص فقط. وليس من شك في أن هذا العدد قد ازداد باضطراد، عندما أصبح خط السكة الحديدية يصل "المدينة". غير أن عدد القاطنين ما لبث أن تضاءل إبان الحرب الكونية الأولى وما بعدها، حتى تسلم الوهابيون الإدارة ممثلة بشخص "عبدالله السديري" (حاكم المدينة الآن). وقد استبدل بهذا ابن عمه "خالد" في سنة ١٩٤٧، وظل خالد حاكماً للمنطقة حتى سنة ١٩٥٦. وإلى خالد هذا تدين مدينة "تبوك" بما تتمتع به حالياً من تقدم وثراء نسبي.

وكما ذكرت سابقا، فإن "خالد السديري" كان قد استدعي لتسوية المشكلة التي نجمت عن مقتل "عبدالكريم" في تيماء، وكان ذلك في شهر أكتوبر (تشرين الأول). وكنت في المدة الأخيرة قد تتبعت آثار عجلات سيارته وهو ذاهب إلى الرياض للتشاور مع الملك. وأثناء غيبته عن تيماء كان سكرتيره "علي ثروة" يقوم بمهام حاكم المنطقة، حتى أنه تولى إمارة المنطقة في غيبة "خالد". وعلي هذا رجل وسيم جداً وكفؤ إلى أقصى حدود الكفاءة. والحق أنني مدين له بكل ما حققته أثناء تجوالي في المنطقة المجاورة لمدينة تيماء.وكذلك فقد كان رجلاً عذب الحديث، ذكياً إلى أبعد حدود الذكاء في ميدان عمله الرسمي.

أما دار الحكومة الجديدة، فقد وجدتها بناءً قوياً ذا جدران سميكة جداً. كانت السلطات قد أنهت بناءها في المدة الأخيرة. وكنت أول زائر يحلّ في هذه العمارة التي لا تزيد على طابق واحد، وإن كانت ليست معدّة لاستقبال ضيوف الحكومة فحسب، بل ولكي تكون دوائر ومكاتب لموظفي الأمير أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك فهي المكان المهيّأ لإقامة الاحتفالات الرسمية في المناسبات المختلفة.

إن غرف هذه الدار واسعة جداً يبلغ طولها ١٨ متراً وعرضها ستة أمتار، وقد فرشت أرضها بالسجاد الذي يساعد على بعث الدفء. كما أنها غاصة بالمقاعد التي صفت على امتداد ثلاثة من جدران كل غرفة. وأمام المقاعد كانت تنتشر الطاولات الصغيرة وغير ذلك من الأشياء الضرورية للاحتفاء بالضيوف.

وفي واحدة من هذه الغرف كنا نتناول طعامنا، لكن لا الطريقة العربية، حيث نجلس على الأرض أثناء وجبات الطعام التي كانت ممتازة بالفعل – كما اكتشفنا ذلك في الليلة الأولى لوصولنا – إذ دعا "علي ثروة" مدير المالية ومدير البوليس وغيرهما من كبار موظفي المنطقة لمقابلتنا.

كانت الغرفة التي خصصت لي مثل بقية غرف البناية، غاصة بالأثاث والمقاعد على وجه الخصوص. وكان في أحد أركانها طاولة فخمة تستعمل كمكتب، ولم أفطن إلى ما إذا كان في الغرفة سرير للنوم. وحين تأكدت من عدم وجوده فما بعد، اضطررت إلى النوم على فراشي الذي اصطحبه معه في جولاتي الخارجية. وقد فرشت هذا الفراش على الأرض ونمت.

وعلى الرغم من أن كل نافذة من نوافذ الغرفة كانت مقفلة بإحكام، إلا أن الطقس داخل الغرفة كان بارداً جداً، حتى أنني اضطررت إلى فتح عدد من النوافذ كي يدخل

هواء الشتاء الذي يمكن اعتباره ساخناً بالنسبة للهواء داخل للغرفة، وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في مثل هذه الأيام يبلغ ٥٠ درجة فهرنهايت.

هذا وقد اصطحبني "علي" بعد ظهر ذلك اليوم في نزهة بالسيارة إلى منقطة الواحات وحولها، لكي ألقي نظرة شاملة على المنطقة بقصد التعرف على معالمها. وكان أكثر هذه إثارة بالنسبة إلي، وجود العديد من أشجار (اليوكالبتس) نامية في مختلف أنحاء القرية. وقد علمت أن هذه الأشجار استوردت من الخارج لتزرع في هذه المنطقة بقصد مكافحة "الملاريا" في الواحات. وقيل لي أنه منذ أن تم زرع هذه الأشجار انخفضت نسبة الإصابة بالملاريا، إذا لم نتحوط فنقول أن المرض بمجموعه قد اختفى.

ويعتبر جبلا "عين السكّري" الذي تنبع منه العين المسماة بالاسم ذاته، و"حجّ قلعة" الجبلين الرئيسيين في تبوك. وقد أتيحت لي الفرصة أثناء إقامتي في تبوك لزيارتهما مراراً، والتنقيب فيهما عن الآثار بشكل مفصل.

أما النبع المسمى "عين السكري" فيخرج من نقطة محاطة بسور مجري يبلغ ارتفاعه معدل ارتفاع كتفي الرجل. وقطر هذا السور مائة قدم بينما يزيد سمكه على ياردة واحدة. ويحيط السور، وهو غير كامل الاستدارة بالنبع إلا من الجهة الغربية حيث توجد فيه فجوة يبلغ طولها ثلاثين قدماً، تسمح للمياه الزائدة بالتدفق إلى بركة، أقدّر مساحتها ثلاثين قدماً مربعاً. ومن هذه البركة تنساب المياه إلى بساتين النخيل عبر قناة طينية غير مستوية تبتدأ من الجهة الغربية للبركة.

ويقوم خزان آخر عند الجهة الشمالية، وهو على شكل مربع تبلغ مساحته ثلاثين قدماً أيضاً. ويشكل جدار هذا الخزان الجنوبي جزءاً من بركة الماء الأولى، والخزان يستعمل لحفظ مياه الشرب، وكذلك لري بساتين النخيل على ما يبدو. وليس هنالك أية عناية بهذه المجموعة من خزانات الماء، ولا نظام التوزيع للمياه، مع أنها تعتبر أشهر مورد للري في

تبوك والواحات المجاورة. ويستدل على ذلك من قذارة المنطقة المجاورة. ولا ريب في أن إعادة تنظيم النبع وبناء البكرة والخزان على أسس حديثة، قد يأتي بفائدة جمة للسكان عموماً.

وبالإضافة إلى هذا النبع، فإن منطقة الواحات تزخر بالعديد من الآبار التي يرتفع فيها الماء بمعدل ثلاث أو أربع قامات. وتستعمل مياه هذه الآبار لري بساتين النخيل وحقوق الحبوب الواسعة الممتدة وراء الواحات. وخلافاً لهذه الآبار، كانت البئر القريبة من محطة السكة الحديدية، إذ أن عمقها يبلغ ثلاث عشرة قامة قمت أنا شخصياً بقياسها. وهي لا تبعد عن مجموعة الآبار السالفة الذكر غير ميل واحد.

هذا، وهنالك ينابيع أخرى غير هذه في منطقة تبوك، سيأتي ذكرها في حينه.

والظاهرة المميزة لجميع هذه الينابيع والآبار القريبة من الواحات، أنها تنبع من باطن الأرض، وتنساب في قنوات طبيعية لتروي حقول المزروعات. ولذلك يمكن اعتبار نزوح هذه الآبار وجفافها بين الفينة والفينة، عائداً إلى الإهمال الطبيعي المتوفر عند السكان، والمنازعات الدورية بين قبائل المنطقة. بيد أن السياسة القاسية التي اتبعها "خالد السديري" جعلت المنطقة تستعيد كامل مقدرتها على الإرواء. وقد اشترى خالد نفسه حصة في النبع، كما اشترى حديقة قربه تعرف باسم "بستان حرب"، نسبة إلى اسم والد شيخ قبيلة "بني عطية".

ولما زرت مدينة تبوك مرة أخرى، كانت المنطقة المحيطة بالآبار ملكاً له. كما وجدت أن المنطقة بكاملها قد أصبحت مزرعة حديثة، رغم كثرة زيارات الجراد لها. وكان "خالد" هذا، خلافاً لأقرانه من أبناء شبه الجزيرة العربية، يؤمن بفائدة السموم لمقاومة أسراب الجراد والمحافظة على المزروعات. وهو يؤمن كذلك، بأن معظم الحشرات تفضل النخالة المسمومة على طعامها العادي.

وتقع "قلعة الحج" بالقرب من الناحية الشرقية للنبع المعروف باسم "عين السكري". وهي عبارة عن قلعة مبنية بناء حديثاً، صمم للمحافظة على موارد الماء وإسقاء الحجاج الذين يخيمون في المنطقة أثناء طريقهم إلى المدينة المنورة وإليها.

ومما لا شك فيه، أنه لا بد وأن تكون في هذه المنطقة آثار قلعة تاريخية بنيت في قديم الأزمان. وذلك بالنظر لأهمية الموقع. غير أن القلعة القائمة – كما عرفنا ذلك من أحد النقوش العربية الموجودة على أحد جدرانها – قد بنيت على التحقيق سنة ١٠٦٤هـ وسنة ١٦٥٢/١٦٥٤م. وقد وجدتُ في أحد النقوش الموجودة على مدخل القلعة الرئيسي عبارة تقول: "جددت وأصلحت هذه القلعة المباركة بناء على أمر صاحب الشرف السلطان ابن السلطان، السلطان "محمد خان" ابن السلطان "إبراهيم خان" ابن السلطان.. "عثمان" حفظ الله ملكه.. طول الزمن.. وقام على تجديدها العبد لله القدير محمد بن.. من دمشق الشام غفر الله له في السنة الرابعة والستين بعد الألف للهجرة.

والسلطان محمد الرابع، هو ابن السلطان إبراهيم، الذي هو بدوره ابن السلطان أحمد الأول (لم يكن اسم الأخير ظاهراً على النقش لتآكل حروفه)، تولى العرش العثماني في سنة ١٠٥٨ للهجرة (١٦٤٧ – ١٦٤٨)م. وكان حينئذ قاصراً في السابعة من عمره، وقد حكم حتى سنة ١٠٩٩هـ (١٦٨٧ – ١٦٨٨)م، حيث تنازل عن العرش.

ولم يكن بالاستطاعة معرفة اسم المهندس الذي تولى بناء القلعة، نظراً لأن اسم والده كان غير ظاهر في النقش. وكان محمد الرابع هذا على ما يبدو معروفاً بأنه شجاع وماهر في الصيد والقنص. ومن هنا يمكن القول بأن القلعة بشكلها الراهن بنيت قبل ثلاثمائة سنة. وقد فشلت في إيجاد أي جزء منها، حتى أساسها، يمكّنني أن أستدل منه على أن القلعة بنيت قبل أكثر من ثلاثمائة سنة.

إن حجارتها في حالة جيدة ، كما أن جدرانها مزينة بنقوش تمثل مختلف أنواع الحيوانات الصحراوية. وليس من شك في أن النقوش قد أضيفت إلى القلعة بعد إنشائها.

أما داخل القلعة فكان يبدو أن يد الإصلاح لم تتناوله بالقدر الذي تناولت به مظهرها الخارجي. حتى أنني رأيت ، عندما زرتها ، أن البنائين المحليين عاكفون على ترميم الجدران الخارجية ، من أجل أعدادها لتكون مركزاً صالحاً للشرطة كي تحتل مكاتبهم الطابق الأرضي فيها. أما الطابق العلوي فيتخذونه غرفاً للنوم.

وفوق الطابق الثاني ، يوجد سطح ، وغرفة للمراقبة يحتلها الجندي المكلف بالحراسة. وللطابق الأرضي مساحة مكشوفة. أما المكاتب فموجودة على جانبي الساحة ومدخل البناء. وقدام الساحة غرفة ذات باب ناصيته على شكل قوس. وقد علمت فيما بعد أنها مقر قائد الشرطة في المنطقة وفيه يستقبل ضيوفه الزائرين.

هنالك قسم من الساحة المكشوفة قد سوّر بأسلاك شائكة ليستعمل كمركز للتوقيف ، ولم أجد في هذه النظارة الصحراوية غير رجل واحد قيل لي أنه متهم بقتل أحد أبناء عمومته.

ويمكن القول بأن الحجارة التي شيدت منها القلعة كانت حسنة التشذيب مع أن قطعها كبير سميك.

وتبلغ مساحة الساحة المكشوفة ثلاثين ياردة مربعة. ويقع مدخل القلعة في الجهة الشمالية للممر الطويل الممتد من طرف السوق ، حيث ينتهي هناك بشارع عريض جميل.

أما المدينة القديمة ، فتقع إلى الجهة الشمالية من القلعة على مسافة لا تزيد عن ثلاثمائة ياردة ، بينما يقوم القسم الجديد من المدينة ، ويطلق عليه اسم "الجديدة" ، في الجهة الشمالية الشرقية. وهو يمتاز عن القسم القديم بأبنيته الحديثة وأشجار "اليوكاليبتوس" التي تحيط به. ويحتل هذا القسم الجديد مساحة شاسعة.

وتقع ضاحية "الخالدية" الجديدة في القسم الشرقي من المدينة الجديدة. أما القلعة الأساسية للمدينة التي تعرف باسم "قصر السديري" — وقد بناها "عبدالله السديري" — فتقع في الجهة الشرقية من السوق.

وتحتل مكاتب المالية والجمارك هذه القلعة، بينما تحتل الدوائر السياسية والسلطة التنفيذية، بناية المستشفى التركي القديم. وهو بناء طيني كبير ملاصق للمحجر الصحي للحُجاج. ويقع هذا المستشفى بين المحجر وبين خط السكة الحديدية، الذي يبعد مسافة ميل واحد عن القلعة باتجاه شمالي وشمالي شرقي.

وسوق مدينة تبوك مثال للنظافة والترتيب. ويرجع الفضل في إنشائه إلى الأتراك الذين صمموه على هذا الشكل الرائع لمواجهة المتطلبات الآنيَّة والمستقبلة للسكة الحديدية. وهو عبارة عن شارع فسيح تحفُّ به من الجانبين بنايات جميلة تستعمل للأغراض التجارية، كما تستعمل للأغراض الخاصة بأصحابها. وقد وجدت أن داخل بعض البيوت الممتازة البناء لا يقل من حيث المظهر عن أي بيت حديث مزود بأحسن أنواع الأثاث.

وقد زرت ذات يومٍ أحد التجار المعروفين في متجره المؤثث النظيف الذي يحتل قسماً من الطابق الأرضي للبيت الذي تقطنه عائلته. وكان ذلك التاجر رجلاً له مركزه بين أعيان البلد، واسمه "عناد الغريِّض". ولم يكن عناد على ثرائه قد فقد أياً من مميزات تجار العرب القدامى، الذين وصفهم "دوتي" بأنهم أمراء التجارة.

كان والد "عناد" هذا يشغل منصب رئيس البلدية، أما هو — الولد — فيكفيه أنه يملك القسم الأكبر من بساتين النخيل في (تبوك)، والتي اشتراها في مناسبات مختلفة بقصد تدعيم تجارته. وبالرغم من ثرائه ومركزه التجاري، كان "عناد" محافظاً، يحب أن يظهر كأي ر جل عادي. فجده الأكبر كان يدعى (غريِّض) من فخذ (حميضات) من قبيلة "الكعابنة" — بني كعب — وهي فرع من قريش. ولهذه القبيلة أفراد كثيرون يقطنون "معان"

في شرق الأردن وإن كان بعضهم قد هاجر إلى مدينة "الزرقاء" في الأردن أيضاً، ومال زالوا هناك حتى يومنا هذا.

و"عناد" أكبر أشقاء خمسة بينهم اثنان ما زالا صغيرين هما "محمد و"إبراهيم". ولعناد نفسه ثلاثة أولاد: هم "محمود" و"أحمد" و"حامد"، أما شقيقه الثاني "سالم" فله ولدان هما "محمد" و"سليمان". وللشقيق الثالث ولد واحد يدعى "عبدالله".

ويشتغل معظم أفراد هذه العائلة بالتجارة مع "معان". وفي ذلك الوقت كان عناد مهتماً بمشروع كانت الشركة التي أمثلها – سوكوني افكوم أويل – تحبذ تحقيقه فيما إذا ثبت لها أنه مفيد من الناحية التجارية. فقد كانت السيارات التي تدخل المملكة العربية السعودية من الشمال، حاملة البضائع والحجاج، تتزود بما تحتاجه رحلتها من وقود، قبل أن تغادر معان إلى المدينة. وكان ذلك شيئاً اضطرارياً تمليه الظروف القائمة آنذاك. وكان سعر صفيحة البنزين يعادل سبعة ريالات ونصف (سعودية). وكانت هذه السيارات تضطر إلى دفع جمارك باهظة على جميع الوقود الذي تحمله فور دخولها الحدود السعودية. وكانت ا لمشكلة أن هذه السيارات لا تستطيع التزود بحاجتها من الوقود في الأراضي السعودية حيث يقل سعر الصفيحة هناك.

ومن الواضح أن عملية نقل المحروقات إلى تبوك، سواء على الجمال أو بواسطة السيارات، عملية عقيمة. اللهم إلا إذا بادرت الحكومة إلى إنشاء طريق للسيارات يربط تبوك بميناء "ضُبَه". والمسافة بين البلدين لا تزيد على مائة وخمسين كيلومتراً، تقابلها مسافة تزيد على ثلاثة أضعافها بين تبوك و"مدين" التي يؤتى منها إلى تبوك بالمحروقات.

والغريب أنه قد أتيحت لي الفرصة الآن لأدرس الموضع من جديد مع أحد تجار "علا" – كنت قد قابلته عندما توجهت إلى دائرة المالية في قصر السديري. وكان هذا التاجر في طريقه إلى "معان" لبعض أعماله هناك، ولإرجاع عائلته الموجودة في ضيافة بعض

الأصدقاء والأقارب في الأردن. ويدعى صاحبي "عبدالمحسن القَبلي" وهو من التجار والملاك المعروفين في "علا". وكنت قد تعرفت على شخص آخر من ذات المدينة يدعى "عطا الله" من حاشية الأمير عيَّنوه مسؤولاً عن أحد بعثاتي الاستكشافية إلى (روافا)، وأتحدث عن هذه الزيارة بالتفصيل في الفصل القادم.

هذا ويدعى الشخص المسؤول عن دائرة المالية في تبوك "محمد صالح"، وكان قد تناول طعم العشاء معنا في بيت الضيافة في الليلة السابقة. وقد علمت من الحديث الذي دار بيننا آنذاك أن مضيفنا "علي ثروة" قد أصيب منذ قدومه إلى تبوك، قبل بضع سنوات، بمرض (البلهارسيا) نتيجة لاستحمامه في مياه البرك.

ولم يكن باستطاعة "علي" أن يشفى من هذا المرض حتى زيارتي لمدينة تبوك، ولذلك فإنه كثيراً ما كان يشكو من مرضه هذا. وهو يأمل في أن تتاح له الفرصة للذهاب إلى الخارج لمعالجة نفسه فيما لو سمحت له واجباته بمغادرة المنطقة.

ومرض البلهارسيا هذا هو هدية الحجاج المصريين الذين كانوا يفدون لزيارة الأماكن المقدسة في شبه الجزيرة العربية، إلى سكان المناطق التي توجد فيها آبار ماء أو خزانات.

وقد وجد الفاحصون ميكروب البلهارسيا في عدد من خزانات الماء في "مكة" و"المدينة" ولكن، هذه هي المرة الأولى التي أسمع بوجود هذا الميكروب في غير مناطق المدينتين السالفتي الذكر من الحجاز.

وينتمي معظم سكان تبوك إلى قبيلة "الكعابنة"، أي أنهم فخذ من "الحميضات" التي ينتمي إليها "عناد". وكان هو زعيم تلك القبيلة آنذاك. ولما كانت هذه القبيلة تدعى أنها فرع من "قريش"، فمن الممكن أن تكون قد استقرت في الأساس في مدينة تبوك على أثر رحلة النبي في السنة الثالثة للهجرة (٦٢٤ — ٦٢٥م)، أو أنهم ارتحلوا واستقروا هنا بعد الحملة التي جهزها النبي إلى جنوب الشام.

وكما تأكدنا من قبل، فإن هذه الواحات قد شهدت فترات كانت فيها خالية من السكان أو أن عدد سكانها تناقص كثيراً، بينما شهدت في القرون الأخيرة سيطرة "بني عطية" الذين كانوا على خلاف مقيم مع السكان المحليين والمسؤولين الأتراك حول أمور تتعلق بالحجاج وبناء محطة السكة الجديدة.

ويملك شيوخ "بني عطية" قسماً ضئيلاً من الأراضي الزراعية التي تروى من الينابيع المنتشرة ما بين تبوك وسلسلة التلال الممتدة إلى الغرب منها. وقد أنهى احتلال الوهابيين للمنطقة طغيان هذه القبيلة الذي طال أمده. وكان شيخها آنذاك يدعى "حرب بن محمد". وكان هذا الشيخ موجوداً عندما زار "دوغلاس غروثرز" تبوك في سنة ١٩١٠ بعد وصول خط السكة الحديدية إليها بفترة قصيرة جداً.

أما شيخ القبيلة الحالي الذي يلعب دوراً مهماً في السياسة المحلية (مما يعتبر خارجاً عن الأمور التي تهتم بها قبيلته) فهو "ابن حرب" ويدعى "عيد". وكان جد "عيد" هذا ويدعى "محمد" هو شيخ القبيلة عندما زار المنطقة هوبر في سنة ١٨٨٤ على الرغم من أن شقيقه الأكبر "صقر" كان ما يزال على قيد الحياة، وله ابن أكبر يسمى "علي"، أما الابن الأكبر لمحمد فيدعى "غضيّان".

وإنه ليبدو ممكناً وجود جيل آخر بين فترتي حكم كل من محمد وحرب. وربما كان الحاكم في ذلك الوقت ابن غضيان، ويجوز أنه كان علياً. غير أنني لم أجد ما يلقي ضوءاً على الموضوع سوى ما هو معروف عن ذلك الحاكم من أنه كان يدعى حرب بن محمد.

ومن بين أبرز الشخصيات التي قدرّ لي أن أختلط بها كثيراً أثناء مقامي في تبوك ثم رحلتي إلى "مدين"، شخص يدعى "زعل بن مرزوق"، وهو شاب من أصل سوداني، توفي والده في سنة ١٩٥٠ عن عمر ناهز الرابعة بعد المائة، وإن كان "زعل" يقول أن والده ناهز السابعة بعد المائة، قاصداً بذلك السنين الهجرية.

كان "زعل" هذا ووالده قد أمضيا عمرهما في هذه المنطقة وما جاورها ، إذ قدم إليها الوالد أيام كان في العاشرة من عمره. وقد حضر إلى تبوك من "الخرطوم" في سنة ١٨٤٦ برفقة والده إدريس ، وربما كان قدومهما بقصد الحج ، وإن لم يكن زعل واثقاً من ذلك. ومنذ ذلك الحين لم يعودا إلى السودان.

ويبدو أنهما اتُخذا كعبدين عند شيوخ "بني عطية" في ذلك الوقت ، وخاصة والد محمد أو جده.

وعلى مر الأيام استطاعا أن ينالا حريتهما وتمكنا من إيجاد عمل لهما مع الأتراك الذين كانوا حينئذ يحاولون جهدهم التعرف إلى طريق الحجيج وإعادة إصلاح القلعة. ولربما كان ذلك في الوقت الذي زار فيه هوبر المنطقة ، إذ أنه قال في كتاباته أن قلعة تبوك وقلعة الأخضر كانتا محتلتين من قبل "محمد آغا" و"حسن آغا" على التوالي.

وبعد وفاة إدريس ، ترك مرزوق خدمة الأتراك على الأغلب. ولما كان زعل ما يزال صغيراً في ذلك الوقت ، فإنه لا يستطيع أن يتذكر تلك المرحلة كما أنه لا يتذكر فترة الحرب العالمية الأولى ولا الفترة التي تلتها عندما أصبحت المنطقة تحت إدارة الشريف.

هذا وقد بدأت مرحلة جديدة في حياة مرزوق باحتلال الوهابيين للمنطقة ، وهو في الثمانين من عمره آنذاك ، أي أنه ليس كبيراً جداً بحيث يقعده الكبر عن العمل. وكان أهم ما يَشغله أن يعدّ ابنه للحياة التي تنتظره.

كان زعل في الثلاثين من عمره عندما قابلته لأول مرة ، فوجدت أنه على حظ لا بأس به من العمل.. كان ذكياً وطموحاً يستطيع القراءة والكتابة بسهولة. وهكذا سرعان ما أصبح عضواً نافعاً في حاشية الأمير.

ومما لا شك فيه ، أن خالد السديري ومن قبله عبدالله السديري قد عهدا إلى زعل بمهمة مراسل القبائل أو زيارتها كمندوب عنهما. وكنتيجة لعمله هذا ، فإنه لم يكتسب

معرفة عميقة بشؤون القبائل فحسب، بل وبجغرافية المناطق الشمالية في شبه الجزيرة العربية أيضاً. وقد استفدت أنا فائدة جلّى من هذه المعرفة، فقد كان أحسن وأفهم من أي دليل محلي رافقته في هذه المنطقة، علاوة على أنه من المتحمسين للبحث عن النقوش وغيرها من الآثار القديمة. وقد ظل يراسلني حتى بعد أن انتهت مهمتي هناك بسنوات عديدة.، وينقل إلي في رسائله آخر المعلومات عن النقوش والآثار التي يجدها بنفسه.

ولما قررت القيام ببعثة أخرى إلى "مدين" في شتاء سنة ١٩٥٢ – ١٩٥٣، أبرقت إلى خالد السديري طالباً منه السماح لزعل بالانضمام إلي أثناء توجهي إلى "ضُبَه". وهكذا غدا "زعل" دليلي في هذه الرحلة من تبوك حتى "جدة". وكان رفيقي فيلسوفاً وصديقاً بالإضافة إلى أنه دليل ممتاز. ولقد علمت منه أنه تزوج من فتاة من تبوك أنجبت له ولدين كان أكبرهما "سليم" قد دخل مدرسة المدينة. وأعتقد الآن أنه قد أنجب ابنة بالإضافة إلى الولدين.

لقد أقدم الأتراك عند مباشرتهم في بناء محطة السكة الحديدية على إزالة البيوت التي كانت منتشرة في مكان المحطة الحالي وممتدة إلى الشرق من القلعة. وذلك من اجل إنشاء سوقاً منظماً، وتخطيط قرية "الجديدة" على الطراز الحديث بغية توفير المساكن للمواطنين الراغبين في الإقامة بمدينة تبوك. وكذلك أنشأ الأتراك مسجداً مبني من حجرة صلدة مشذبة. أما مدخله فقد وجدته عريضاً ونظيفاً، كما أنه طلق الهواء للغاية. وهنالك لوحة على بوابته الرئيسية نقش عليها باللغة التركية ما يفهم منه أن المسجد قد بني في سنة ١٣٢٥ للهجرة (١٩٠٧ – ١٩٠٨م).

وتحتل محطة السكة الحديدية ذات النظام الرائع مساحة نصف ميل تنتشر فيه بناياتها في خط مستقيم وعلى أرض منبسطة صحراوية. وهي محطة حديثة التصميم أشرف على بنائها المهندس الألماني المعروف "ميسنر باشا" ويبلغ عرض الخط الحديدي حوالي المتر أو أكثر، أما "العوارض" التي تمسك الخط بالأرض فجميعها من الصلب، ولعل ذلك يعود إلى

الرغبة في تفادي سرقات البدو لهذه "العوارض" فيما لو كانت خشبية يمكنهم استعمالها في وقودهم.

ومنذ أن دمر "لورنس" وقواته هذا الخط أثناء الحرب الكونية الأولى، قام الأعراب بانتزاع جميع الخشب الذي استعمل في بنايات محطة السكة الحديدية للاستفادة منه في أغراضهم الخاصة. وقد أعيد إصلاح بعض هذه البنايات في السنوات الأخيرة. هكذا وجدته أثناء زيارتي هذه. لقد أعيد إصلاحه واصبح يستخدم كثكنات لقوات الجيش والبوليس المحلي، الذين بنى المتزوجون منهم أكواخاً لهم ولعائلاتهم قرب المحطة إلى الجهة الشرقية من الخط.

ولقد استُخدمت إحدى البنايات كمركز للاسلكي، وحجرات لسكن بعض الموظفين فيه. أما خزان الماء الذي كان يستخدم (في يوم من الأيام) لتزويد القاطرات بالماء، فقد كان جافاً. إذ أنه لم تعد هناك أية قاطرات تحتاج إلى ماء، ولا إلى أية إصلاحات في الورشة المشيدة في أقصى جنوب المحطة. وبالقرب من هذه الورشة يوجد أبرز ما في المحطة، وهو عبارة عن نفق أرضي، لعله كان يُستخدم فيما مضى كمخزن للذخيرة.وإن كان (زعل) قد أكد لي أنه استخدم في عهد الأتراك كسجن لأخطر أنواع المجرمين والموقوفين بتهمة العمل على عرقلة بناء الخط الحديد. ويعرف البدو النفق باسم "القبو". وكان الشريف حسين يستعمله لسجن الأشخاص الذين لم يكونوا يروقون له.. هناك كانت الأفاعي والعقارب والجرذان التي تسرح في "القبو" تزيد من بشاعة الغرض الذي أنشئ من أجله، ولا سيما إذا علمنا أن المساكين كانوا يلقون فيهم وهم مقيدون بالسلال الحديدية الثقيلة، كإجراء احتياطي لمنع وقوع معجزة تمكنهم من الفرار. وقد وجدت قبو تبوك هذا مهجوراً إلا من الرمال التي احتلته فامتلأ بها.

وفي الطرف الجنوبي لمحطة السكة الحديدية فرع للخط يقود عربات الحجاج إلى "المحجر الصحي". وكان هذا في يوم من الأيام، محاطاً بأسلاك شائكة ومزوداً بالخيام التي كانت

تُضرب في خطوط متوازية، بينها شوارع تقطعها إلى عدة اتجاهات. أما اليوم فقد رأيت المحجر الصحي خالياً إلا من الأسلاك الشائكة ومن بعض سيئي الحظ الذين أوقعهم سوء طالعهم في يد السلطات أثر ارتكابهم جرماً من الجرائم المختلفة المعروفة في المنطقة. وكان من المفروض على هؤلاء أن يمكثوا في هذا السجن الموحش عدداً من الأيام، تقلّ أو تكثر حسب نوع الجرم الذي يرتكبه كل منهم، قبل أن يسمح له بالعودة إلى العالم الذي جيء به منه.

أما المرضى والذين هم في حاجة إلى العناية الطبية، فقد كانوا يحشرون في القلعة الكبيرة الواقعة في الطرف الغربي من المحجر الصحي، تلك القلعة التي يطلقون عليها اسم "مستشفى". وهي تستعمل بالإضافة لذلك كمقر لموظفي الصحة، ولتقديم العلاجات للحجاج إذا ما احتاجوا إليها، وللمعالجة الطبية إذ تعرض أحدهم لمرض من الأمراض.

وقد تحولت هذه القلعة فيما بعد إلى مركز للإدارة المحلية بانتظار انتهاء العمل في دار الحكومة الجديدة. والبناية قديمة الطراز لا تتوفر فيه أسباب الراحة ولكنها تفيّ بالغرض الذي تستخدم من أجله.

وإلى الجنوب الشرقي من المستشفى، وعلى بعد ليس بالكثير عنه، توجد مجموعة صغيرة من الصخور تدعى "الحُدَيبة" و"الجُديبة الصغيرة". وقد استُخدمت هذه الصخور في بناء محطة السكة الحديدية وغيرها من البيوت التي بناها الأتراك في تبوك.

ودلتني النقوش العربية الموجودة على تلك الصخور على أن الحجاج، الذين كانوا يساقون إلى المحجر الصحي، كانوا ينالون إذناً بمغادرة المحجر، وإن كنت لم أجد في تلك النقوش أية قيمة أثرية. ومهما يكن من أمر فإن المرء يستطيع من فوق هذه الصخور أن يحظى بمنظر ممتع للمنطقة المحيطة بها.

وعلى مقربة من المجموعة الكبيرة من تلك الصخور وجدت بئراً أنشأ الأتراك عليها مضخة آلية لنضح الماء، وتوفيره للقوات التركية زمن الحرب الكونية الأولى. تلك القوات التي كانت تتمركز في المرتفعات، القريبة من هذه المنطقة. وقد علمت أن هذه المضخة تستعمل الآن من قبل صديقي "عبدالله" لإرواء حقل قمح قريب.

وعلى مقربة من ذلك الحقل، كان اثنان من حرس الأمير، يبدو أنهما فضّلا هواء الصحراء النقي على الجو الخانق في القرية.. فضربا خيمتهما هناك قرب الماء. كان الرجلان من قبيلة "مرّة" بالربع الخالي، التحقا بخدمة عائلة السديري، ومن ثم تبعا "خالداً": إلى أقصى شمال الجزيرة العربية.

ويبلغ طول مجموعة الصخور الكبيرة التي تعرف باسم "الحديبة" حوالي خمسمائة ياردة، تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وبذا تهيئ للمرء نقطة ممتازة يدرس منها المنطقة الواقعة خارج تبوك والمناطق المجاورة لها.

وإلى اليسار من الواحات يمتد خط متصل من الأراضي الزراعية، كل أرض منها تعتمد على البئر الخاصة الموجودة بها.

أما ضاحية السكن الجديدة التي تعرف باسم "الخالدية" نسبة إلى مؤسسها الأمير الحالي "خالد السديري" فتقع إلى الشمال الغربي، وفي هذه الضاحية تقع منطقة مشجرة أشبه ما تكون بالحديقة. ويقع "بستان حرب" إلى يسارها. ويسيل إلى اليمين واليسار نبع "عين السبعة" والأرض الزراعية المعروفة باسم "أرض عين السبعة".

ويقع "جبل رُحَيْل" خلف هذه الأرض إلى الجهة اليمنى. وبعد هذا الجبل يوجد نبع "عين كُرَيم" ويقربه مركز للبوليس. أما الواحة الكبرى "عين ريّس" فإلى يسار جبل "خَضْمه". وأخيراً نجد إلى الجنوب مجموعة صخور مبعثرة يطلق عليها اسم "جَرثومة".

وتسير سلسلة "جبال الغوانم" الطويلة على امتداد الضفة الشرقية لوادي تبوك، ثم تتصل بجبال "شاروراً" التي تتجه جنوباً. وكنت أستطيع أن أرى من فوق تلك الصخور سلسلة من التلال تقع إلى الجهة الغربية وتمتد حتى تقترب من مدينة تبوك. وبين هذه التلال تقع الطريق الوحيدة التي تستطيع الآليات عبورها إلى "حِصما" في الطريق إلى ممر "خَريطة" ومنها إلى البحر عند "ضُبَه".

وقد أمضيت بعد ظهر يوم كامل في زيارة الينابيع والأراضي الزراعية المحيطة بها. وابتعدت في زيارتي إلى أقصى مدى استطعته حتى بلغت "جرثومة".

ولعل من الإنصاف القول بأن هذه المنطقة قد شهدت أياماً خيراً مما تشهده في الأوقات الراهنة، بالنظر لما يبدو عليها من إمارات الأسى والوحشة. فقد رأيت هناك شجرة نخيل واحدة تبدو عليها الكآبة لقلة الاعتناء، وحقلاً صغيراً مزروعاً بالحبوب يحيط به جدار واطئ. وهو يسقى منبع صغير تنحدر مياهه القليلة من أعالي جبل صغير ثم تسيل عبر قنوات ضيقة تتشعب جنوباً وشمالاً وشرقاً حتى تصل إلى أوطأ أرض زراعية في تلك المنطقة.

وبالقرب من هذه المنطقة وجدت بئراً بها مياه قليلة لا يزيد ارتفاعها عن قامتين. ولعلها تتلقى ماءها من الينابيع السالفة الذكر.

ويروي السكان المحليون نقلاً عن آبائهم، أن هذه المنطقة، وقناة الوادي الواقعة باتجاه الغرب يمين التلال، - وهي منطقة مشهورة بما تنتجه من التين وغير ذلك من الثمار — هي أول بقعة نزلتها قبيلة "الكعابنة" قبل أن يصل المهاجرون إلى تبوك، ويُنشؤوا المدينة ذاتها.

ومن المؤكد أن "جرثومة" لم تتقدم منذ زمن طويل. ولم يكن عدد سكانها عندما زرتها يتجاوز عدد أفراد عائلة واحدة، يعيشون في كوخ صغير يتيم. غير أنهم فخورون باستقلالهم.

أما مالك جرثومة الذي يقوم بيده بما تتطلبه أرضه من أعمال فيدعى "بني أبو طربوش" من قبيلة "بني عطية"، وقد اعتذر عن دعوتنا لتناول القهوة في كوخه لأنه لا قهوة لديه. كما قبل المبلغ البسيط الذي قدمته له، ولكن باباء الرجل الفقير الذي يشعر بأن وراءه أفواه عائلةٍ يجب الاهتمام بأمرها على كل حال.

ولم أسأله – بطبية الحال – أي تفسير عن اسمه الغريب غير المألوف الذي يعني "ولداً صغيراً يرتدي الطربوش". ولا يتعدى ما يملكه هذا الشخص جزءاً من قرية "جرثومة" الأصلية. أما بقية المنطقة فقد رأيتها أرضاً بوراً.

هذا ويتقطّر نبع ثان من قمة صخرية عالية قرب مجموعة من أشجار الأثل، التي تنفذ جذورها إلى باطن الأرض. بجانب هذا النبع وجدت عيناً أخرى، غير أنها كانت جافة تملأ فوهتها الأتربة والحجارة.

وهنالك نبع آخر على بعد بضع مئات من الياردات، لا زالت تتدفق منه المياه، لكنه ليس مستعملاً. ولقد وجدت بين النبعين الأخيرين بقايا بيوت طينية، قيل لي أنها كل ما تبقى من أول قرية بناها "الكعابنة".

وإلى الشرق والجنوب الشرقي من السهل، تقع تلتان صغيرتان تعرفان باسم "طُوَيل التركمان" و"طُوَيل النبي". ومن المعتقد بأن الأخيرة هي المكان الذي خيم فيه النبي أثناء زحفه على تبوك. وقد ساءني أنني لم أستطع أن أجد تفسيراً لاسم التلة الأولى.

ويقع "رُجم شوهَر" بالقرب من المكان الذي وصلنا إليه، على امتداد منطقة التلال. وسأتحدث عن هذا الرجم بتفصيل أكثر فيما يلي.

حين عدنا باتجاه الشمال الغربي، توقفنا عند النبع الأول الذي يدعى "عين كُرَيم"، لفحص مصدره الذي يقع في قمة صخرة يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً. وتنحدر المياه من

أعلى الصخرة عبر قناة منحوتة في الصخور، حتى تصب في حفرة تتجمع فيها المياه على ارتفاع أربع أو خمس قامات. غير أن النبع كان جافاً عندما زرناه.

ورأيت أن المساحة القليلة التي كان يرويها فيما مضى – لكونها عند سفح السكة – لا ينبت فيها أي شيء الآن غير أشجار نخيل هزيلة تذكّر المرء بالأيام الخوالي، أي عندما كانت مياه النبع تتدفق فتبعث الحياة في المنطقة. إن فم الحفرة الآن قد سدته الرمال التي ذرتها الرياح. بينما القناة المؤدية لهذه الحفرة مغطاة بصفائح معدنية، لعلها مسروقة من الخط الحديدي نفسه. ومن المؤكد أن هذه الصفائح قد وضعت في مكانها في السنوات الأخيرة، غير أنها لم تقم بالمهمة التي وضعت من أجلها، لأن الرمال قد سدت منابع الماء، فجفت العين...

وواصلنا المسير في الاتجاه ذاته حتى وصلنا إلى بستان نخيل تدبّ فيه الحياة، ويقع بالقرب من "عين الريس"، وهي الواحة الرئيسية التي تقع في القسم الجنوبي من تبوك. وتنبثق المياه من هذا النبع على علو عشرين قدماً، ثم تنساب في بركة تبلغ مساحتها عشرين قدماً مربعاً، قد سوّرت بجدار يبلغ ارتفاعه ١٢ قدماً، مبني من الحجارة الصلدة.

ومن هذا الجدار تنساب المياه باتجاه شمالي شرقي نحو خزان يقع في طرف بستان يانع من النخيل. وهناك خزان آخر يستقبل الفائض من مياه الخزان الأول وإن كان هذا الخزان الثاني يبدو غير مستعمل في الوقت الحاضر، إذ أنه مغطى بالحشائش والأنقاض.

وخيّل إلي أن تدفق الماء من الخزان الأول قليل، بالنظر لقلة الإصلاحات التي أجريت عليه حيث كانت أقسام من الجدار الذي يحيط به، وأخرى من القناة الموصولة إليه في حالة من الخراب لا توصف. ويرجع هذا الخراب إلى تغيب أصحاب الأرض من "بني عطية" وهي القبيلة البدوية المجاورة.

وتقع دائرة البوليس المسؤولة عن أمن المنطقة في نقطة لا تبعد كثيراً من "عين الريس"، إلى الشمال الشرقي من تبوك. وقد زرنا مركز البوليس لنتبادل الحديث مع الشرطي الذي كان آنئذٍ مكلفاً بالحراسة قبل أن نعود إلى تبوك. ومن خلال حديثنا معه، تبين لنا أن حياة رجل البوليس، في مثل هذه المراكز النائية، قلما يخالطها الفرح أو السعادة. غير أن مضيفي البسيط وصديقي في الوقت ذاته قد ألقى الضوء على المشاكل التي يعانيها أفراد مثل هؤلاء هناك.

وكانت دائرة البوليس، والأكواخ الطينية، والخيام البدوية التي تشكل مساكن الرجال المتزوجين، تحتل القسم الأمامي من بستان نخيل يقع بالقرب من النبع الثاني، ويطلق عليه اسم (عين كرِّيم)، بينما تقع أكبر الواحات وتعرف باسم (الخضمة) على الطرف الآخر.

وبين مركز البوليس ومدينة تبوك تقع واحة ثالثة تحمل اسم (عين كرِّيم) أيضاً، تنبع مياهها من المرتفعات التي تنطلق منها كل من (عين الرحيل) و(عين أبو سبع) التي تروي بستان (حرب). والنبعان الأخيران يقعان قرب منابع المياه خارج مدينة تبوك، في مقابل الضاحية الجديدة للمدينة التي تعرف باسم (الخالدية). ويملك الأمير خالد السديري قسماً منها، ورثه فيما يبدو عن (عيد) شيخ قبيلة بني عطية المذكورة.

وقد أتيحت لي الفرصة أكثر من مرة لزيارة الأدغال الصغيرة الواقعة في ضواحي المدينة برفقة مضيفي (علي ثروة)، فلاحظت أن الفرق الوحيد بين هذه المنطقة والمناطق المجاورة يعود إلى قربها من مقر القيادة، حيث يتاح لها رعاية أكثر من قبل السلطات المسؤولة.

وبما لا شك فيه أن هذه المناطق المجاورة لمدينة تبوك يمكن أن تنقلب إلى مناطق خصبة ثرية بما تجود به من محصولات لو أن الحكومة أولتها قليلاً من الاهتمام، بحيث تسترد سابق مجدها أيام النبطيين قبل ألفي سنة.

ومن المؤكد أن المنطقة الخصبة يمكن أن تمتد، حتى تصل إلى منطقة (رجم شوهار) الذي زرته في آخر يوم من أيام مقامي في تبوك، قبل أن استأنف رحلتي باتجاه الشمال.

يقع هذا الرجم على بعد اثني عشر ميلاً إلى الجنوب الشرقي من تبوك. ولكي يصل إليه المرء، عليه أن يجتاز منطقة وعرة حتى يصل إلى نقطة قريبة من جرثومة، حيث يقطع القناة التابعة لشعب (العجاجات) الذي يقع في طرف المنطقة التي تكثر فيها التلال الواقعة إلى الغرب.

وقد رأيت في هذه النقطة إشارات واضحة كانت تدل على ثراء المنطقة وخصبها في الأيام السابقات. لقد رأيت حقولاً مهملة منذ زمن قديم. وما زالت هذه الحقول تروى من الينابيع الموجودة في المنطقة ومن مياه السيول التي تنحدر إلى السهول من أعالي المرتفعات المشرفة عليها من الجهة اليمنى. وكنت أرى هنا وهناك عدداً من أشجار النخيل ما زال باسقاً يؤتي أُكله، الأمر الذي يدل على أن الماء ليس بعيداً عن هذه الأشجار، وليس على عمق كبير من سطح الأرض. غير أنني وجماعتي لم نجد أثراً للقوم الذين كانوا يفلحون هذه المنطقة.

وظللنا عاجزين عن أن نجد مثل هذا الأثر حتى وصلنا إلى (رجم شوهار)، وهناك وجدنا، على أقل تقدير، قبور الناس الذين كانوا يقطنون هذه الربوع. وجدناها قد ظلت صامدة على مر الأيام، رغم جميع الفيضانات التي تعرضت لها المنطقة.. تلك الفيضانات التي كانت على ما يبدو، المصدر الرئيسي الذي يعتمد عليه أولئك الناس في حياتهم هناك.

أما المناطق الواطئة التي تقع بين الصخور، وهي المناطق التي بُنيت فيها القبور سالفة الذكر، فقد شاهدنا فيها من الإمارات ما يستدل منه على وجود حضارات قديمة فيها. ولعل هذه الإمارات قد اندثرت على مر الزمن فبقيت القبور شاهدة على سابق وجود أناس في هذه المنطقة، التي خلت الآن من كل أثر للحياة.

ولما زرت هذه المنطقة، وجدت الكثير من البنايات الصغيرة التي لا تعدو كونها أضرحة مبنية من الحجارة. فذكرتني هذه الأضرحة – إلى حد كبير – بالأضرحة السبئية التي كنت قد شاهدتها في (الرواقا) و(المهياش) قرب الحدود اليمانية.

وكانت خرائب البناية الأولى التي فحصتها عبارة عن بناء مساحته ٧,٥ قدماً مربعاً، وارتفاعه ستة أقدام. وكان لها سقف جيد الصنع وإن كان متهدماً في بعض أجزائه. وكانت هذه البناية مقسومة إلى نصفين، يشكل كل قسم منهما غرفة خاصة، ويظهر جلياً أن كل غرفة قد صممت لتضم جدثين ربما كانا لرجل وزوجته.

ولقد وجدت قسماً من جدران البناية الجنوبية مهدماً. ولا شك في أن هذا الهدم قد تم على أيدي اللصوص الذين كانوا على ما يبدو مشغولين بالبحث عن الكنوز. وتقوم هناك بناية أخرى بذات الحجم والشكل، لكنها مهدمة أيضاً باستثناء جزء من جدرانها في أحد الزوايا. وكانت هناك بناية أخرى تبلغ مساحتها تسعة أقدام مربعة، وارتفاعها ستة أقدام، ولكنها كانت على سعتها منقسمة أيضاً إلى قسمين فقط.

وعلى الرغم من أن هذه البناية واقعة في أعلى المرتفع وأنها كانت مقسومة بدورها إلى قسمين أيضاً، فقد استعمل كل نصف منهما كمدفن يبلغ عرضه ٢,٥ قدماً، وطوله يبلغ حوالي ١٠ أقدام وارتفاعه ٤ أقدام. وكان من الظاهر أن هذين البنائين قد فتحا من الناحية الغربي ويجوز أنهما استعملا في المدة الأخيرة، كنقطتين للمراقبة. ويمكن القول بان عدد الأضرحة في تلك المنطقة يتراوح بين عشرة واثني عشر ضريحاً.

وقد وجدت في الطرف الشرقي كثيراً من البنايات الأصغر حجماً. ومن بين هذه البنايات، بيت تبلغ مساحته ٧ أقدام ونصف، أما ارتفاعه فيبلغ ثمانية أقدام. ووجدت أن جدارين من جدرانه الأربعة كانا قائمين، بينما كان الجداران الباقيان قد تهدما فكشفا عن قبرين يبلغ عرض الواحد منهما ٢.٥ قدماً وطوله ٦ أقدام.

وكانت هنالك بناية أخرى تبلغ مساحتها ١٠×٧.٥ قدماً، أما ارتفاعها فلا يزيد على ٨ أقدام. هي مقسومة إلى نصفين عن طريق جدار يفصلها من الوسط. وثمة بناية أخرى مقسمة إلى ثلاثة أقسام يفصل بين كل قسم منها جدار طويل. أما الحجم الخارجي لهذه البناية فيبلغ ١٢.٥ قدماً طولاً و٦ أقدام عرضاً و٦ أقدام ارتفاعاً.

وقد لاحظت أن جميع هذه البنايات كانت مبنية بامتداد شرقي إلى غربي، وإن لم يكن هناك ما يثبت أن هنالك تصميماً فيما يتعلق ببناء هذه الأضرحة في الوضع السالف الذكر. ويغلب على الظن أن بناءها قد جاء مصادفة أملتها الظروف وطبيعة أرض المنطقة التي كان الناس يعيشون فيها.

وهناك بناية أخرى غير طبيعية الشكل تبيَّن لي أنها تضم جدثاً واحداً. ويبلغ طولها ١٠ أقدام وعرضها ٥ أقدام، أما ارتفاعها فلا ينقص عن ثمانية، وكان القسم الشرقي منها متهدماً. وثمة بناية أخرى تمتد من الجنوبي الغربي إلى الشمال الشرقي تبلغ مساحتها ٧.٥ قدماً، وجدتها مقسمة إلى قسمين كانا في حالة يرثى لها.

وكان آخر بناية قمت بفحصها فحصاً دقيقاً تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وتتألف من حجرة واحدة تبلغ مساحتها ١٠×٥ أقدام، أما ارتفاعها فيبلغ ٧ أقدام.

والغريب حقاً أني لم أجد في كل أنحاء هذه المنطقة أي شيء من الآثار القديمة. حتى أنني لم أعثر في تلك الأضرحة على أية عظام أو جماجم أو نقوش حتى ولا أي أثر يمكن أن يدلني على القوم الذين أُودعوا في هذه الأضرحة!

وكان شارلز هوبر قد زار المنطقة قبل سنة واحدة من مولدي، ولم يجد غير كسر من عظام ملقاة بين آثار عديدة للضباع. وقد عزا هوبر ضياع الأجداث التي بنيت هذه الأضرحة من أجلها إلى تلك الضباع. غير أن ذلك يجب أن يكون قد تم منذ زمن بعيد جداً.

ومن المؤكد أن عزوه القبور إلى زمن النبطيين صحيح مائة بالمائة، أي أنها ترجع إلى ألفي سنة أو إلى الوقت الذي أصبح فيه تاريخ مدينة تبوك معروفاً.

هذا وقد قام خالد السديري ببعض الجهود لإعادة إصلاح الآثار القديمة في المنطقة وترميم ما يمكن منها، ولكن ذلك لم يكن كافياً على كل حال. ولعل تعيينه مؤخراً في منصب وزير الزراعة في حكومة المملكة العربية السعودية، يؤدي إلى العناية، أكثر فأكثر، بالمنطقة التي ظل يحكمها منذ مدة طويلة.

# رَوافا والحرة

■ تعرف المنطقة الواقعة ما بين وادي تبوك في الغرب، وتمتد حتى "العقبة" و"الرم"، باسم الـ "حِصما". وهي منطقة شاسعة تمتلئ بالصخور والبقاع الرملية، وتفصل الجبال الغرانيتية في (مدين) بالشمال، عن الجبال البركانية السوداء في صحراء (حرات الرها) و(حرات العويرض) التي تمتد بين طرفها الجنوبي وبين مشارف (العلا).

وتدعى المنطقة الشرقية من هذه الطريق، حيث تمتد نحو داخل أراضي تبوك الرملية (اللحًا)، وهي تشمل الشريط الرفيع من الأراضي الصخرية. وتشكل منطقة (رجم شوهار) و(جرثومة) وتبوك مع منطقة ينابيعها جزءاً من المنطقة، التي سيرد ذكر القسم الشمالي منها في حينه.

كان هدفي في الوقت الحاضر أن استكشف القسم الجنوبي من (الحصما) على طول امتداد المنطقة الصخرية، بما في ذلك منطقة (روافا) ذاتها، على اعتبار أن هذه المنطقة هي آخر نقطة أود الوصول إليها. ويمكنني القول أنه من بين جميع الذين سبقوني إلى زيارة المنطقة كان (لويس موسيل) هو الوحيد الذي زارها، حيث اكتشف المعبد النبطي – الروماني ونقوشه الشهيرة. وكان "دوتي" قد سمع بهذا المعبد أثناء تتبعه الطويل لسير الحجاج عبر وادي تبوك، كما أن "بورتون" وصل إلى بعد عشرة أو خمسة عشر ميلاً عنه،

عندما وصل إلى ممر "خريطة، وأراه أفراد قبيلة "بني عطية" قطعاً من الحجارة المنقوشة التي كانوا قد جمعوها ليجعلوا منها إشارات تدل على الطرق التي يجب أن تتبعها الجمال. لكنه لم يستطيع أن يزور المنطقة التي قيل أن هذه الحجارة وجدت فيها بسبب تعصب الأعراب ورفضهم السماح لأي غريب أن يدخل مناطقهم.

والجدير بالذكر أن "دوتي" و"بورتون" كانا في اتجاهين متعاكسين من صحراء "الحصما" في وقت واحد من سنة ٨٧٧، دون أن يدرك أي منهما أنه على بعد قليل من الآخر.

هذا وقد جمع هوبر كمية من النقوش من المنطقة المتاخمة لمدينة تبوك قبل شهر واحد من مصرعه على يد مرافقه العربي، لكنه لسن الحظ كان قادراً على إيداع جميع تسجيلاته في (جدة)، وذلك قبل أن يبدأ رحلته الأخيرة ليزور الجزء الشهير من تيماء.

وبعد ربع قرن من تاريخ هذه الرحلة، قام جاسن سافيغناك بتوسيع المنطقة التي زارها هوبر. وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه غروثرز يبحث عن الإبل، وكان فيه موسيل يتابع استكشافاته. وإنه لمن المدهش حقاً أن أحداً من هؤلاء لم يكن يعلم بوجود الآخر في المنطقة سنة ١٩١٠، رغم أن كلاً منهم قد استخدم السكة الحديدية.

ومن بين جميع المستكشفين الذين زاروا شمالي شبه الجزيرة العربية، كان موسيل هو الوحيد الذي استطاع أن يقوم باستكشاف القسم الجنوبي من الحصما ولكنه قابل سوء الطالع وهو مشرف على نهاية رحلته. فقد كان ضيفاً في أحد المضارب العربية، عندما وجد نفسه عرضة لهجوم من أفراد قبيلة (بني عطية).

ولقد لعبت نساء هذه القبيلة الدور الرئيسي في مهاجمته شخصياً والاستيلاء على الأشياء القليلة التي يحملها معه، وإبادة السجلات التي كان يدوّنها.

وأكثر الأمور مشقة على نفس المستكشف في شبه الجزيرة العربية هو أن يفقد ما سجله أثناء تجواله الشاق في مجاهل البلاد. ولما كانت لي خبرة في شؤون الاستكشاف في

شبه الجزيرة، فقد كنت أبلغ مرافقي، بأنه لو حدث لي اي حادث سوء، فإنهم أحرار في التصرف بالمال الذي أحمله. أما الكتب والأوراق التي معي، فلعلها تدر عليهم أضعاف أضعاف ما يؤملون، لو أنهم أوصلوها إلى أقرب قنصلية بريطانية، أو إلى أية مؤسسة بريطانية في البلاد.

ولعلي كنت أبالغ في تقدير قيمة ما كنت أسجله، ولكن إذا ما قدّر للمرء أن يموت، فإنه يرضيه أن يتأكد أن نتيجة أعماله والمشاق التي تعرض لها قد وصلت إلى الجهة التي يمكن أن تستفيد منها.

وفي السادس عشر من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٥١، وهو اليوم الذي تلا وصولي إلى تبوك، قمت بأول توغل في المنطقة الجنوبية من الحصما. وقد دخلنا من النقطة التي يوجد فيها مركز بوليس (عين كريم) إلى وادي (الخور) أو (خور الريس). ومن أعلى هذا الوادي عبرنا إلى السهل الواسع المعروف باسم (البقار) والوادي المعروف بالاسم ذاته. ذلك الوادي الذي يجمع مختلف مجاري المياه القريبة. وهي ستة تنبع من (شعيبات) في المنطقة، ثم يحمل مياهها إلى وادي تبوك.

وبعد أن سرنا بمحاذاة ضفة ذلك الوادي اليمنى، وصلنا إلى قلعة صغيرة تدعى (قصير تمرا). وكان هوبر قد زار هذه القلعة من قبل. وكذلك فعل كل من جاسن وسافيغناك. ولما كان هؤلاء قد زاروا القلعة فقد اكتفيت أنا بنسخ النقوش الثمودية التي كانت على جانب صخرة طويلة فوق المدخل الشرقي، على ارتفاع ثلاثة أقدام عن سطح الأرض.

ويسجل هذا النقش اسمي شخصين، ربما كانا هما اللذين بنيا هذه القلعة. وتبلغ مساحة القلعة ١٥ قدماً مربعاً. وهي مقسمة بشكل غير منتظم إلى اثني عشر قسماً، تفصل

بينها جدران من الحجارة غير المشذبة. مع أنها قد بنيت دون (مؤونة)، فقد ظلت قائمة إلى الوقت الذي زرت المنطقة فيه.

ويبلغ سمك الجدران في هذه القلعة ٢.٥ قدماً. وتدعم السقف أعمدة وضعت في منتصف البناء. وقد نحتت من حجارة تبلغ استدارتها ٢.٥ قداً.

وأمام هذه البناية، توجد مساحة من الأرض مسطحة يبلغ طولها حوالي ٢٠٠ ياردة، أما عرضها فلا يزيد على عشرين ياردة، وفيها رقعة من الأرض على شكل زاوية حادة محاطة بسور من الصخور.

وفي المنحدرات المجاورة لهذا الموقع، وجدت كثيراً من الدوائر الصخرية، ربما تم وضعها بهذا الشكل لتدل على وجود مضارب للبدو في تلك المنطقة.

ومما لا شك فيه أن (قصير تمرا) كان يستخدم في الأيام الخوالي مركزاً للمراقبة في الخط الدفاعي الذي كان معداً لحماية مدينة تبوك. وقد وجدت أن النقوش الأساسية لا تزال في موضعها. ومن هذه النقوش يمكن أن يستدل على تاريخ بناء "قصير تمرا". ذلك التاريخ الذي يرجع إلى ما قبل ألفي سنة على أقل تقدير.

ويبدو أن هذا "القصير" قد بني للإشراف على مجموعة "الشعيبات" التي تجتمع عند الناحية الغربية بوادي "بقار" الواسع. أما هذه الشعيبات فهي من اليسار إلى اليمين: شعب "سلتيّه" وشعب "عيرين" و"حدارة" و"تميّم" و"القناة". ويحد الطرف الأقصى من وادي "بقّار" سلسلة هضاب "خُلَيْل". وتحت هذه الهضاب يوجد وادي يحمل الاسم ذاته، وهو أحد روافد وادي البقار الذي يقع إلى أسفل.

وهكذا فإن قصير (تمرا) يشرف على مركز استراتيجي مهم وإن كانت حامية الموقع لم تكن في يوم من الأيام كبيرة العدد.

ومن هذه النقطة توجهنا صوب الجنوب الشرقي حتى وادي (سلتيه) ومنه إلى تلة (أم جعايب) التي تواجه هضبة (عيرين). وقد تسلقنا هذه الهضبة دونما صعوبة.. وما أن انتهينا من ذلك حتى وصلنا إلى سفح هضبة أعلى يمتد من تحتها طريق للجمال يأتي من جرثومة والهضاب الواطئة في الشرق.

ولم نجد في هذه المنطقة أية نقوش، كما أننا لم نجد في المنطقة المجاورة أية مناظر تستحق النظر، فقد كانت سلسلة جبال عيرين تمتد أمامنا، وأمامها في الطرف الثاني كانت سلتية. وقد لاحظت أن هذه القناة شهدت فيضاناً في المدة الأخيرة.

ولاحظت كذلك أن المنطقة شهدت غزوتين من غزوات الجراد. وقد وقعت هاتان الغزوتان في الفترة الواقعة ما بين الفيضان الأول والفيضان الثاني.

ولما عدنا إلى السيارة لتناول طعام الغداء قررت أن أتوجه نحو وادي سلتيه بعد أن نمر بمنطقة عيرين، ومنها إلى الصخرة المعروفة في تلك المنطقة والمعروفة باسم (مقيل عيرين).

وفي هذه النقطة والمكان الذي تقع فيه الصخور المرتفعة، وجدنا عدداً من النقوش الثمودية والنبطية. وكذلك عثرنا على عدد من النقوش في مبنى (أبو زيد) المجاور لمنطقة الصخور. ويعرف هذا الموقع أيضاً باسم (مبنى البيت). ويبلغ طول هذه المنطقة حوالي ميل، أما عرضها فحوالي النصف ميل. وهنا وصلنا إلى الطرف الشرقي من هضاب عيرين التي يفصلها من الوسط شعبٌ يحمل الاسم ذاته يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الغربي.

وإلى الجنوب من الموقع الذي كنا فيه على بعد قليل تقع المنطقة البركانية. وقد واصلنا الصعود بمحاذاة قناة سلتية، مارين عبر أرض صخرية حتى وصلنا إلى طريق تدعى (مقيل أبو زيد) وتقع تحت هضبة (الحرة الكبيرة).

ويحيط هذا الطريق سلسلة من الصخور كانت قد تساقطت من المرتفعات المجاورة التي تعرف باسم (شُريف المضرا) بينا كان فوقنا مرتفعات (الحرة) التي تعرف باسم (عَطَنا) و(دَابشيا).

هذا، وقد وصلنا إلى نقطة مرتبطة بخرافة يتناقلها القوم هناك، لها علاقة بأسطورة هجرة (بني هلال) من موطنهم الأصلي في جنوب شبه الجزيرة العربية إلى تونس ومراكش. أما متى تمت هذه الهجرة فنحن لا نعلم. والنقوش الثمودية التي خلفوها وراءهم لا تلقي أي ضوء على أعمال هذه القبيلة.

وتدلنا الأسماء المنقوشة التي رأيناها على أن جموع قبيلة بني هلال قد وصلت إلى هذه النقطة ظهراً، فضربت خيامها لتقضي الليل في موقع يعرف باسم (مبنى البيت)، وهو موقف مررنا به أثناء عودتنا إلى تبوك على الطريق ذاتها التي سلكناها في الصباح.

وأمضينا اليوم التالي في بعثة استكشافية في المنطقة ذاتها، وذلك لدراسة وادي (خُليل). فبعد أن مررنا بمركز البوليس، وأشجار النخيل في منطقة (الريس) توقفنا عند منطقة صخرية تدعى (قَضما ريس) لإجراء مسح عام للمنطقة والمناطق المجاورة التي تقع إلى الجنوب من تبوك. ومن هذه النقطة توجهنا إلى قناة (الخور) ومنها إلى قناة (معايسي) في الطرف الأقصى من وادي (البقار) الذي عبرناه إلى النقطة التي يلتقي فيها هذا الوادي بشعب (الحدارة).

وقد وجدنا في طريقنا عدداً من الصخور المنتشرة، عليها عدد من النقوش والصور لمختلف أنواع الحيوانات. وعندما دخلنا إلى وادي خليل وصلنا إلى منطقة لا يمكن للسيارة أن تمر فيها. حيث كانت بأسرها مغطاة بالمياه وتنتشر فيه الصخور التي تجعل تشغيل السيارة فيها مستحيلاً.

وقد قررت أن ، أواصل السير سيراً على الأقدام حتى نصل إلى النقطة التي تصب فيها الجداول الموجودة في تلك المنطقة من الوادي الواسع. ويعرف أحد هذه الجداول باسم (وادي قانا). وعلى بعد من هذا الوادي يقع مرتفع يحمل الاسم ذاته. وقد سبقت الإشارة عليه باعتباره أول مكان استقرت فيه قبيلة (الكعابنة). ولم أزر هذا المكان بالنظر لأن كلاً من (جوسيل) و(جاسن) و(سافيغناك) قد زاره من قبل ووصفوه خير وصف ، كما أن الأخيرين نسخا جميع النقوش الموجودة فيه. وبدلاً من ذلك توجهت إلى قناة (طبق) التي تمتد من الشمال إلى الغرب نحو (الحرة) ومن ثم ترتفع باتجاه (وطر).

ويمتاز مدخل هذه القناة الذي يفضي إلى وادي خليل بسلسلة من الصخور العالية ، وقد وجدت بينها بعض النقوش الثمودية.

ويقع وادي (قانا) في المنطقة البركانية ، ويمتد من الجهة الجنوبية الشرقية حتى يدخل في وادي خليل ، ومن ثم يصعد في مرتفع قريب. أما وادي خليل ذاته فيمضي عبر مضيق ضيق يمتد من الهضاب البركانية باتجاه الغرب. وينضم إلى هذا الوادي شعب (ناتاشا) الذي يسير بمحاذاة وادي خليل حتى يتصل به قرب النقطة التي تركنا فيها السيارة.

أما مجموعة الشعاب الأخرى. فتمضي باتجاه شمالي شرقي ، حتى تنضم إلى وادي "البقار" ، قبل أن ينطلق هذا الوادي من التلال إلى منطقة وادي تبوك ، حيث يبدأ في صب مياهه عندما تحدث الفيضانات في المنطقة الواقعة بالقرب من سكة الحديد ، ثم تنساب منها إلى الأرض السبخة التي كنت مزمعاً زيارتها عندما يحين وقتها.

وفي الوقت ذاته ، كنت أعتزم القيام برحلات استكشافية أجرأ في المنطقة الجنوبية الغربية حتى أقصى منطقة (الحصما) ، وذلك بعد أن أمضيت الأيام الأولى من زيارتي هذه في جولات حول منطقة تبوك. وكذلك فقد كنت أزمع زيارة معبد (روافا) ولكن كان عليّ

قبل أن أتوجه إلى تلك المناطق أن أهيئ الترتيبات الضرورية. كان علي أن أعد الترتيبات اللازمة لتأمين الفريق من الرجال الذين رافقوني حتى تلك اللحظة.

وقد بدا "علي ثروة" عظيم المنفعة بالنسبة إليّ عندما زودني بأدلاء جدد ومرافقين، بينما لم يستقل محمد العريفي وزملاؤه. وكان أحدهم قد بقي في تيماء مع الميكانيكي لإصلاح سيارة اللاندروفر.. لم يستقل هؤلاء من عملهم لأنهم غير راغبين في مرافقتي، بل لأنهم تركوا العمل لأسباب تمكنتُ من اكتشافها فيما بعد. فقد كانوا في غاية الشوق إلى الرجوع لعائلاتهم في المدينة. وكان قرارهم هذا قد سهّل الأمر عليّ، إذ كنت راغباً في التخلص منهم.

كان معنا من المؤن الشيء الكثير فقد عملت على ضمان توفير مؤونة كثيرة تكفي طوال عدة أشهر. وكان ذلك استناداً إلى تقديرات محمد العريفي نفسه، قبل أن نتحرك من المدينة المنورة. وقد تم الاتفاق على أن يرأس مرافقيّ الجدد شخص يدعى "زعل مرزوق" خلال ما تبقى من رحلتي في شبه الجزيرة العربية. تركت إليه أمر توظيف العدد اللازم من الرجال من بين أتباع الأمير. وكذلك كان الحال بالنسبة للأدلاء.

وكان من المقرر أن يغادر العريفي ورجاله مدينة تبوك خلال غيبتنا في "روافا" للقيام ببعض الاستكشافات. لكن، لما كان هؤلاء في حاجة إلى المؤن، فقد أبلغت زعل بان يتشاور مع العريفي بصدد احتياجاته من ذلك، على أن يبقي لنا حصتنا من المؤن.

وهنا بدأت المهزلة..

بدأنا رحلتنا الاستكشافية في العشرين من شهر ديسمبر (كانون الأول) وحين قررنا مغادرة تبوك إلى (روافا) في التاسع عشر من شهر يناير (كانون الثاني) كنا قد أمضينا شهراً كاملاً بالضبط. وكنا خلال هذا الشهر وأثناء زيارتنا لكل من خيبر وتيماء وتبوك ضيوفاً

على الأمراء المحليين بحكم التقاليد المرعية في البادية. ولذا فقد كنا في غير حاجة إلى استهلاك الكثير من المؤن.

ويمكنني القول – على وجه التقدير – بأننا عشنا ثمانية عشر يوماً على حساب مضيفينا. وكنت أقدر بأننا سنصل إلى (جدة) خلال ما يقارب الشهر الواحد. وفي هذه الأثناء سنحل كذلك ضيوفاً على الأمراء في مختلف المناطق التي سنمر بها في طريقنا. و كنت أعرف أن المواد الغذائية التي خصصناها لمدة أربعة أشهر أكثر بكثير مما أظننا سنحتاج. ولذا فقد أبلغت زعل بأن يزود العريفي ورجاله بسخاء وبكميات وافرة من المؤن تكفيهم خلال بضعة الأيام التي سيقطعون خلالها الطريق إلى (المدينة). غير أن زعل جاءني مساء اليوم ذاته لينقل إلي الأخبار فيقول: (أنه لم يبق شيء من المواد الغذائية).

وهكذا وجدت أننا خلال شهر واحد، أو نصف شهر في الواقع، قد استهلكنا المواد الغذائية التي قدرنا أنها ستكفينا طيلة أربعة أشهر!!

وقد علمت أن العريفي وعصابته قد باعوا كل مخزوننا من المؤمن في أسواق خيبر وتيماء وتبوك. أما ما تبقى من هذه المخزونات فقد تسلمها زعل. وكان من حسن حظنا، أن وجدنا بقية من المؤن لنتزود بها أثناء رحلتنا إلى (روافا).

ولكنني عندما قابلت آخر رفاق السوء هؤلاء وجدت نفسي أقرر ضرورة إبلاغ "علي ثروة" بالوضع... لكنني وجدت أن الأمر لم يدهشه كثيراً! وقد تلقى "علي" هذا برقية من خالد السديري الذي كان آنذاك مع شقيقه عبدالعزيز في وادي شرحان عند الحدود الشمالية. وكان الأمير يخبر علياً في برقيته أن يزوّدني بكل ما أحتاج إليه من مخازن الحكومة.

ونهضت مبكراً في صباح اليوم التاسع عشر. وأيقظت مرافقيّ وأعددت كل شيء للبدء في الرحلة. ولم أغادر غرفتي حتى كان كل شيء على غاية ما يرام.

وكنت أعتزم أن أقوم بزيارة وداع لقوم لم أكن أحتمل أن أراهم مرة ثانية. وقد قمت بهذه الزيارة وقدمت الهدايا من أكياس النقود حسب العادة، في الوقت الذي كان يجري فيه تحميل سيارة اللوري بمتاعنا.

وما أن عدت من زيارتي حتى فقدت كل أثر للسيارة، بينما كان مرافقيّ يجلسون براحة تامة حول موقد النار يحتسون القهوة. ولم يهتم أحد منهم لاحتجاجي على فقدان السيارة، كان الأمر لا يعنيهم بحال من الأحوال.. وكان ليّ الكثير من المشاكل التي يتحتم عليّ أن أهتم بها، فتركت مرافقيّ وهم يتبادلون الهمسات المريبة التي لا أراني في حاجة إلى القول أنها لم تكن ودية أبداً، وسرت عبر شوارع القرية باحثاً عن "السيد" والسيارة، فلمحتها تعبر الشارع الرئيسي!

وسرعان ما وصلت متجراً رأيت السيارة واقفة أمامه. ودخلت ذلك المتجر فوجدت "السيد" يساوم صاحبه على دفع مبلغ على الحساب من ثمن البضائع التي ادعى أنه اشتراها من العصابة. وقد أبلغت صاحب المتجر بأنه يستطيع أن يعتبر كل شيء اشتراه من محتويات مخازني هدية شخصية له. إلا أن السائق الذي شعر بالخجل، كان عليه أن يأتي معي إلى بيت الضيافة. وهناك لم اضيع أي لحظة من الوقت فأمرت مرافقيّ بالصعود إلى السيارة.

وفي الوقت ذاته قمت بمسح أخير للمنطقة، ابتداء من (المصلى) أو (مصلّى عيد). وكذلك كي أصحّح المعلومات التي كنت قد حصلت عليها من فوق سطح بيت الضيافة، ذلك السطح الذي كانت تتكدس فوقه الأشياء المعدنية فتجعل من انعسير عليّ أن أحقق الاتجاهات بالضبط، بالنظر لعدم تمكن البوصلة من العمل بدقة. وكنت مهتماً بصورة خاصة في تعيين موقع جبل "دِبّاغ" الذي يرتفع فوق "تهامة" وراء ممر "خُريطة". وقد استطعت أن أحدد موقعه فعلاً، فكان في المنطقة الجنوبية والجنوبية الغربية.

وبدأنا الرحلة بمرافقة زعل واثنين من رجال البوليس المحليين بزيهما الرسمي. وكان أحد هذين الرجلين على قدر من المعرفة بالمنطقة، يؤهله ليكون دليلاً لا بأس به. وبدأنا السير باتجاه جنوبي غربي، فعبرنا بساتين النخيل في تبوك، ثم السهل العظيم، حيث قطعنا شعب "معانيسي" ووادي "بقار" لكي نصل إلى طرف التلال القريبة من صخور "مُعيْقله".

ومن هذه النقطة بدأنا نصعد باتجاه المنحدر الشرقي عابرين مجرى ماء ضحل، يصل إلى قمة أول الصخور. ومن هناك سرنا في طريق وادي "غُويْل" العريض، وهو استمرار لوادي "عويند" بعد أن يخرج من منطقة التلال حيث يجري مع رافده الذي يعرف باسم شعب الـ"فُها".

وعلى الرغم من أن طريقنا قد اعترضته ستة مجاري مياه، إلا أن السير لم يكن صعباً حتى اجتزنا قناة "غويل" حيث وصلنا إلى أول ممر "فها" الذي يبلغ طوله حوالي نصف ميل، ولا يزيد عرضه على مائتي ياردة تنتشر فيهما النباتات والحشائش البرية.

وعندما وصلنا إلى "غويل" كنا قد ابتعدنا عن تبوك حوالي اثني عشر ميلاً دون أن نتعرض لأي حادث. غير أننا بعد مسيرة تسعة أميال أخرى وصلنا إلى الممر، حيث غرزت عجلات السيارة في الرمال. وقد خطر ببالي أن "السيد" الذي حرمته من الثروة التي كان يتوقعها، قد قاد السيارة متعمداً إلى هذه المنطقة، وهو يعرف أن الرمال فيها لا تساعد على السير فوقها، فآثر أن يتوقف على بعد قليل من تبوك. غير أن فحص المنطقة أوصلني إلى نتيجة جعلتني أقتنع بأن المكان مناسب للتوقف بعض الوقت.

تركت مرافقيّ وهم يحاولون إخراج السيارة من الرمال، وتوجهت مع الدليل لتسلق أعلى قمة في سلسلة جبال "فها" التي كانت إلى يسارنا، وذلك لإجراء مسح عام للمنطقة. والحق أن الصعود إلى القمة كان من الأمور الشاقة، خاصة وأن القمة ترتفع ألف قدم عن

الأرض الصخرية. غير أن القمة مكّنتني من إلقاء نظرة عامة على جميع المنطقة المحيطة بنا. وكان منظرها رائعاً بالفعل، وإن كنا لم نستطع أن نلمح بساتين النخيل في تبوك.

كانت ثمة ست قمم من سلسلة جبال "عدّات" تبرز عند الأفق وتمتد من الشمال إلى الشمال الشرقي. وعلى بعد باتجاه الشمال الغربي ترتفع سلسلة تلال "أبو البريد" و"شقيق" و"فرعون" وهي مجموعة من التلال الصغيرة، إلا أنها طويلة في امتدادها تحاذي الطريق بين تبوك و"ضبه" مارة عبر "وادي مدْين".

وفي الوقت الذي تسير فيه معظم الطرق الرئيسية مع خطة السكة الحديدية باتجاه الشمال حتى تبتعد عن الخط بالقرب من خرائب "القُريّة" حيث تتجه من هناك إلى الطرف الشمالي من سلسلة جبال "مدين" على طول امتداد وادي "الأبيض"، فإن بعض السائقين يفضلون الطرق الفرعية. وهذه تأتي من أول ممر "فها"، ثم تنحرف قليلاً إلى ما تحت الممر، حيث وجدنا طريقاً إلى "روافا" و"خريطة" ومنها وصلنا إلى وادي العظيم الذي يعرف باسم "نقع بني مر". ومن هناك تمتد الطريق شمالاً إلى حيث تتصل بغيرها من الطرق في وادي "الأبيض".

كان الآن يتسنى لنا أن نرى قسماً كبيراً من تلك المنطقة، كما أنه بإمكاننا أن نقوم بما فيه الكفاية من الدراسات التي نجم عنها الكثير من الأعمال المثمرة ووجدنا العديد من النقوش. وتمتد متاهات "الحرة" إلى الجنوب من النقطة التي كنا فيها، بينما تقع بعض مرتفعاتها البركانية في الجنوب الشرقي. أما هذه المرتفعات فهي "وَطر" و"ثوف" و"نويفان" وعدد من القمم الأخرى.

وكان دوتي قد تجول في متاهات الحرة، كما أن "موسيل" قد اجتاز المنطقة من وسطها. أما أنا فلم أتمكن من الوصول إلى أبعد من مشارفها، وإن كنت قد درت حول

المنطقة بأسرها، ماراً بكل طرف من أطرافها وزائراً نقاطها العديدة التي لم يسبق لأحد ممن تقدموني إلى المنطقة أن شاهدها.

وأمضيت أنا و"زعل" ساعة ممتعة جداً، ونحن نجلس على القمة نحتسي الشاي وندخن، وذلك قبل أن نعود إلى حيث تركنا رفاقنا لنجد أنهم ما زالوا مشغولين بالسيارة. وكانت الأرض الرملية مغطاة بالنباتات البرية مثل "الغضى" و"الرمث" بينما أخذت أزاهير الربيع الصغيرة تتفتح بعد أن انسابت فوق المنطقة مياه الأمطار الأخيرة. وقد وجدت هناك أنواعاً من الحشائش الصالحة للأكل والتي يعرفها من يجوبون طرق الصحراء.

هذا وقد مضت ساعة تقريباً قبل أن تصبح السيارة مستعدة للمسير عبر الممر. ولم يمض طويل وقت بعد ذلك حتى دخلنا طرف السهل المنبسط الواقع وراءه. وهناك توقفت السيارة من جديد، فقد طرأ خلل ميكانيكي في محركها. وفي هذه المرة كنت مقتنعاً بأن "السيد" يتعمد إيقاف السيارة على أمل إرغامنا العودة إلى "تبوك"، لكنني لم أكن أنوي مثل هذه العودة بحال من الأحوال رغم تأصل فكرة لديّ تقول بأننا قد نتعرض لمشاكل أكثر من السابق كلما ابتعدنا عن المدينة.

وقد أبلغت مرافقيّ بأنني على استعداد لقضاء الليلة حيث توقفت بنا السيارة، وبيّنت لهم أن على أحدهم أن يعود إلى تبوك سيراً على الأقدام لإحضار "ميكانيكي" يُصلح السيارة. ثم أضفت إلى ذلك (وأنا أتعمد الكذب) أنني لاحظت وجود مضارب عرب على مقربة من المكان الذي نحن فيه. أضفت، أننا لو استطعنا الوصول إلى تلك المضارب قبل حلول الظلام لأمكننا أن نرسل شخصاً على بعير إلى تبوك، وبوسعه إحضار ما نحتاج إليه من مساعدة من هناك.

وقد أوضحت لهم الأمر قائلاً: إذا لم نستطع أن نصل إلى تلك المضارب بالسيارة، فإن من المنطقي أن لا تتمكن السيارة من الوصول إلى تبوك. وفي تلك الحال يكون عليهم

القيام بالاستعدادات اللازمة لتحضير طعام العشاء. وفي الوقت ذاته قمت بجولة في المنطقة القريبة متظاهراً بالبحث عن النقوش، كما كنت التقط بعض الصور بفتور، كي أجعل رفاقي يؤمنون بأنني لست في عجلة من أمري.

وأخيراً تحققت المعجزة وأُصلح العطب في السيارة بقدرة قادر. ومن ثم استأنفنا سيرنا مصعّدين في الوادي. وقد قطعنا مسافة عشرين ميلاً دون توقف حتى وصلنا إلى مساقط المياه. كان الوقت آنذاك قبيل غروب الشمس، فأمرت بضرب خيامنا قرب مرتفعات "الرضا"، حيث وجدت عندها عدداً كبيراً من النقوش. كما أن قمة من هذه المرتفعات أتاحت لي فرصة التمتع بمنظر المنطقة وما جاورها. وكان السماء توحي بأننا سنتمتع بيوم جميل في الغد.

ومهما يكن من أمر، فقد كنا تحولنا عن الطريق الفرعية على بعد قليل إلى القرب من ممر "فُها" لنعبر أرضاً رملية واسعة. وكانت هذه مغطاة بنباتات الصحراء التي نمت نتيجة لسقوط أمطار الخريف (الوسم). وتحفُّ بهذه الطرق من الجانبين صخور متكسرة تدعى "الزُّور"، وتشكل هذه الطريق قسماً من مجرى وادي "فُها" الذي يمر عبر وادي "الغويّل"، ومن ثم يبتعد عن طريقنا حتى يصل إلى الأرض السبخة الواقعة خلف السكة الحديدية، في نقطة تقع بالقرب من محطة "حَزم".

ويتصل هذا الوادي في أحد طرفيه بوادي عُوينِد الذي سبق ذكره، كما يتصل عند جانبه الآخر بشعب "السقّاء" الذي يفصل المرتفعات العالية التي تحمل الاسم ذاته عن سلسلة "فها" من الناحية الجنوبية. وكانت مرتفعات ا"الزُّور" التي واجهتنا ترتفع ارتفاعاً بسيطاً وتتسع في النقطة الواقعة بين "جِداوّية" و "برقا عيد" وتقع هذه المرتفعات الأولى إلى يمننا والثانية إلى يسارنا)، حتى تنقلب إلى مراعٍ خصبة تمتد مسافة بعيدة إلى الغرب حتى مشارف أراضي "خريطة".

وتشكل سلسلة جبال "الرضا" خطاً فاصلاً بين هذا السهل العظيم ونهايته الواسعة حيث تكثر المراعي التي تعرف باسم "الزاوية". وتقع هذه بين السهل والمنطقة البركانية، ومن هناك تمتد حتى مشارف المنطقة المجاورة لأراضي ممر "خُريطة".

ولم نجد أية صعوبة في اختيار مكان مريح نقضي فيه تلك الليلة، وكان بين مجموعة من الأدغال النابتة في مجرى جاف ينحدر من المرتفعات وتكسو قاعه الرمال، ويدعى "شعب أم سوْرة". ومرة ثانية سررت إذ وجدت نقوشاً بين الصخور المبعثرة هنا وهناك حول النقطة التي ضربنا خيامنا فيها: ولقد أبصرت علامة غريبة على الأرض لم أستطع تبيان أهميتها. فمن قاعدة غير مألوفة يبلغ طولها ٢٤ قدماً كانت تمتد ثلاثة خطوط من كل جانب من جوانب القاعدة وثلاثة أخرى من وسطها بشكل دائري، ثم تتصل بدائرة أخرى مشكلة بذلك رقم (٨). ويبلغ طول الخطوط من القاعدة إلى الدائرة ٣٥ قدماً. وقد يكون الرقم (٨) يدل على معنى غامض. ولربما أنه محاولة بدوية لرسم خريطة لتحديد معالم المنطقة أمامنا!

ومن الغريب أن أحداً من المرافقين لم يعرب عن دهشته لعدم مرورنا بالمضارب التي زعمت أنني رأيتها على مقربة من مكاننا حين توقفت السيارة عند قمة "فها"! وبعد أن تناولنا عشاءً دسماً (لأننا كنا قد أحضرنا لحوماً معنا)، لاحظت أن "السيد" السيئ الحظ كان غير سعيد، للفشل الذي مُني به، لكنه ما أن انضم إلينا عند تناول طعام العشاء، حتى تخلى عن امتعاضه.

ولما علم السائق أن الأمر قد قضي ولم يعد بإمكانه الرجوع، وبعد أن تأكد لديه أن زملاءه المتآمرين لن يذكروا حقه إذا غاب، رأيته يحوِّل غضبه، الذي كان يحاول أن يصبه عليّ، إلى زملائه. ولم أتقاعس طبعاً عن انتهاز الفرصة في الإعراب عن وجهة نظري في الخيانة التي وقعت رغم الثقة المطلقة التي وضعها فيهم أمير "المدينة". وفي الوقت ذاته أنذرت مرافقيّ بأنني لن ألتمس لأي منهم العذر فيما لو تكرر الحادث خلال ما تبقى من

الرحلة. وحتى تنتهي الرحلة فقد عينت زعل مسؤولاً عن مراقبة المخزونات التي تسلمناها في تبوك والتحقق من أن المؤن ستصرف وفق حاجة البعثة.

وقد قلت، أن الذي يقوم بمساعدتي بإخلاص، سينال المكافأة التي استحقها والتي سأوزعها على من يستحقونها فقط. وأدرك السيد، بصورة خاصة، أنه يستطيع بعد كل ما جرى أن ينقذ شيئاً من آماله السابقة. وهكذا أخذ يتخلص شيئاً فشيئاً من القصة القديمة، واصبح خلال الأيام القليلة التي تلت وهمّه الأول أن يحاول استعادة ثقتي به لآخذ عنه فكرة طيبة.

ومن الطبيعي أنه ألقى اللوم كله على محمد العريفي وابن عمه "إبراهيم" وعلى "عبدالله" الذي تخلّف في تيماء بحجة البقاء مع الميكانيكي لإصلاح السيارة، مع أنه في الواقع قد تخلف هناك ليتسلم المبالغ التي لم تسدد بعد من أثمان البضائع المباعة. وقد اعترف السيد متطوعاً باشتراكه في المؤامرة، وقال أنه لولا اشتراكه فيها لما كان من الممكن أن يكتب لها النجاح. وعلمت مما قاله أن العصابة قد باعت في خيبرة وتيماء وتبوك خمسة أكياس من الأرز بسعر ١٤٠ ريالاً لكل كيس، وكيساً من الدقيق بسعر ١٠٠ ريال، وتنكة سعتها أربعة غالونات السمن، وحقيبة ممتلئة بالسكر لقاء ريال. كما باع أفراد هذه العصابة (١٥٠) علبة من المربى والفواكه المحفوظة، وعدداً غير معروف من غالونات البنزين والنفط.

وقال لي السيد كذلك أن بيع النفط لم ينجح، فقد وجد أفراد العصابة أن سعره في تبوك لم يكن مشجعاً. وذلك بالنظر لوجود كميات مجانية منه توزعها الحكومة على الأهالي، ولهذا قرر السارقون الإبقاء على ما كان معنا من نفط ليبيعوه في "العلا" بأسعار أكثر مناسبة. فإذا لم يتيسر لهم ذلك باعوه في تيماء حين عودتنا إليها. وقد قررت أن مجموع ما باعوه لا يزيد على ٢٠٠ أو ٣٠٠ ريال، فأبرقت بهذه التفاصيل إلى "عبدالله الدميري" الذي لم يدْعه ما قام به اتباعه بالمقدار الذي قدّرت أنه سيفعل. كان ذلك واضحاً أنه عمل

طبيعي عند هؤلاء الناس اللذين يعيشون في أوضاع ماثلة لأوضاعهم، وأن كل إنسان يعرف ذلك عنهم.

كنا في موقعنا الجديد على ذات الارتفاع تقريباً لقمة جبل "ألفُها" أي حوالي أربعة آلاف قدم عن سطح البحر. أما قمة جبل "الرضا" التي زرتها في صباح اليوم التالي فقد كانت تعلو ٣٠٠ قدم عن المكان الذي ضربنا فيه الخيام. وقد أتيحت لي الفرصة أن ألقي نظرة على المنطقة الرائعة التي تحيط بذلك الجبل. ومن هناك تمكنت أن أرى لأول مرة المجموعة الكاملة لجبال "تهامة" ابتداء من مرتفعات "شر" بالقرب من "ضُبة"، وإلى الجنوب الغربي حتى "لوز"، وغيره من المرتفعات الهائلة القريبة من المدنية ذاتها، والتي تمتد باتجاه الشمال الغربي.

وكان أكثر الجبال لفتاً للنظر بين هذه المجموعة هو جبل "بياغ" الذي كنت قد رأيته من تبوك، وجبل "حرب" الذي يقف كالحارس على طرفي وادي "السدر" الواسع، ويمتد حتى ممر "خريطة" وتظهر فيه طريق للسيارات تتراوح جودتها بين الحسن والقبيح، وتنحدر حتى البحر.

ها نحن قد وصلنا إلى طريق تبوك – خريطة، غير أن هذا الطريق بالذات لم يكن مطروقاً من قِبل الآليات ذات العجلات. وهكذا وجدنا فراغاً يقدَّر بمسافة ميل واحد يمتد في خط مستقيم ويربط ما بين تبوك والساحل.

ومن شأن هذا الطريق أن يقصِّر المسافة الطويلة التي قطعناها عبر "ضُبة" بمعدل الثلثين. وكان الخبراء الأمريكيون التابعون للنقطة الرابعة وغيرها من المؤسسات، قد زاروا الممر من طرفيه بتشجيع من "خالد السديري". وذلك في محاولة معالجة مشكلة "الفراغ". وهو أمر بسيط نسبياً، إلا أن التقارير التي رفعوها تجمدت في ملفات وزارة المالية، وذلك من أجل المحافظة على الأموال ولئلا تُنفق على الأمور غير الضرورية!!

هذا ويقع الممر على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً إلى الجنوب والجنوب الشرقي من المكان الذي كنا فيه، ويمتد على طول قاعدة وادي "حفرة الزاوية" التي تنتشر فيه بعض الفوّهات والصخور البركانية. ويمكن القول بأن بئر "البترا" هو أبرز الآبار التي تبعد عن "الحرة" وأكثرها أهمية. ويمتاز بأنه ينبع من بين صخرتين صغيرتين تدعيان "الرخامتين"، أما صخور الـ "مُكيمان" فتقع في الأسفل على شكل أنقاض خربة. وهي تشكل مجموعة كبيرة من الحجارة المتراكمة. وقد عرفت هذه الحجارة والصخور في الأيام الحالية بالسرقات التي كانت تتعرض لها القبائل، وبأعمال قطاع الطرق الذين يكمنون فيها للقوافل المارة من تبوك إلى البحر، فيتخذون منها ومن الكهوف المنتشرة بينها مخابئ لهم بانتظار مرور القوافل للانقضاض عليها.

كانت هنالك مجموعات أخرى من الحجارة والصخور ذات أشكال غريبة تنتشر في تلك المنطقة وعلى بعد منها. فقررت أن أزور بعض هذه المجموعات بحثاً عن النقوش في طريق عودتنا.

ومن الصدف أن ممر (الفُها) الذي كان ما يزال بادياً للعين وراءنا، كان في الأزمنة القديمة مسرحاً لمعركة وقعت بين قبيلة "بني عطية" التي تقطن المنطقة في الوقت الحاضر، وبين قبيلة أخرى وفدت من الشمال تدعى "شرارات". وقد أوضح لي زعل الأمر ثم أشار إلى القبور التي دفن فيها قتلى المعركة، فوجدت بينها ضريحاً كبيراً أخبرني زعل أنه لجمل مشهور كان يمتطيه أحد أبناء القبيلة وقتل أثناء المعركة!

أن ممر خرطية الواقع أمامنا الآن متصلٌ بمنطقة الحرة الأساسية عن طريق لسان رفيع طويل يدعى "القارّة" بينما تمتد إلى يساره سلسلة من الصخور الغرانيتية الصلدة. تقطعها في أكثر من ناحية ممرات ضيقة تصلح لمرور قوافل الجمال وتؤدي إلى أسفل سهل "تهامة" ووديانها.

وقد حضر "موسيل" إلى المنطقة عن طريق أحد هذه الممرات الضيقة، المعروف باسم "سِلك"، ويقع (في الغالب) إلى الغرب من "الرضا" بين سلسلتي مرتفعات تعرفان باسم "الشِقري" و"الشَطي". وكان "بورتون" قد قدم إلى المنطقة من البحر ليصل إلى ممر خرطية، لكنه عجز عن التوغل إلى داخل منطقة بني عطية. ومن سوء الحظ أن من سبقني إلى هذه المنطقة من الأمريكيين، قد التزموا الصمت حيال ما حققوه من استكشافات في هذه الناحية!

ولم نكد نتقدم أكثر من ميلين، حتى توقفت السيارة، وكان توقفها هذه المرة حقيقياً، إذ غرزت عجلاتها في الرمال العميقة المتراكمة على المنحدرات في أعلى خرائب "الزاوية". وقد قمت أثناء ذلك بالتجوال في السهل القريب الغني بالمراعي والذي يعرف باسم "عرفَج" بينما انهمك مرافقي في انتزاع السيارة من بين الرمال.

وبعد أربعين دقيقة من العمل المتواصل، أمكننا أن نستأنف مسيرنا لنقطع مسافة لا بأس بها باتجاه مرتفعات "مكيمان". وشاهدت إلى جوار هذه المرتفعات أعداداً كبيرة من الصخور المختلفة الأحجام وِفق ما استطاعت الرياح أن تحسره عن سطح كل منها من الرمال.

وبعد أن سرنا حوالي عشرة أميال وصلنا إلى أرض صخرية منخفضة تشكّل جزءاً من قاعدة "مكيمان" وتتجه شرقاً لتشرف على وادي "الأبْيَضات" ووادي "رَتَمه". والواديان يخرجان من الحرة ثم يتجهان إلى الشمال الغربي مع الطريق إلى "الشقري" حيث تصب جميع مجاري المياه في المنطقة. وتلتقي قناتاهما بالقرب من المرتفعات الصخرية التي تعرف باسم "عاصية" حيث ينضم إليهما عدد آخر من المسايل النابعة من المنطقة البركانية، حاملة مياه أكثر من ستة جداول صغيرة تنبع من منطقة "روافا" والمنحدرات الشرقية القريبة من سلسلة جبال "ديثان الخور" و"العلاليق" و"الرِويان".

وبعد أن قطعنا مجرى رتمه ابتدأنا بالتحول نحو الشرق عن طريق خُريطة تاركين الممر وإن كنا لم نبتعد عنه كثيراً.

ووصلنا إلى أرض لم يسبق أن مرت فوقها عجلات سيارة. وبعد أن قطعنا مسافةً صوب أعالي مجرى رتمه، وفي النقطة التي تأتي فيها القناة من الحرة، أشار إلي زعل ليريني بئر "خمبارا". وهو بئر له شهرته في المنطقة، حيث تروي الأساطير انه شهد كارثة مرعبة، بلغني خبرها أثناء زيارتي الثانية لهذه المنطقة بعد سنتين.

لقد ذكروا لي، أن مياه هذه البئر قد نضبت لسبب من الأسباب. وقد تطوع أحد أفراد قبيلة بني عطية بالنزول إلى أسفل البئر ليكتشف السبب، ولكنه لم يعد مطلقاً. وعلى الأثر تداعى أفراد القبيلة إلى مكان البئر لدراسة الأمر الذي غدا سبباً في كارثتين اثنتين، أولاهما فقدان الماء والثانية فقدان الرجل. ولما سمع شقيقه بما حدث أتى مسرعاً ونزل إلى البئر لينقذ أخاه، ولكنه هو الآخر لم يعد مطلقاً.

وقد أصر والد الشابين على النزول إلى البئر ليرى بنفسه مصير ولديه، غير أن شيوخ القبيلة تمكنوا من ثنيه عما اعتزم بعد صعوبة فائقة. وكان هؤلاء الشيوخ قد اقتنعوا بأن الشابين قد غرقا وأن نضوب ماء البئر وفقدان الشابين يعود إلى أسباب خارقة للطبيعة يصعب التحقق منها.

وحين أُبلغ الأمر على الفور إلى خالد السديري، زار الأمير مكان الحادث وأمر بأن تسد البئر بالتراب والحجارة على أن لا يعاد فتحها أبداً.،

وهكذا ظل اللغز دون حل. أما التفسير الوحيد الذي يبدو منطقياً فهو أنه: بالنظر لوجود البئر في المنطقة البركانية فإنه من المحتمل أن يكون أحد هذه البراكين قد تحرك فتسبب في نضوب البئر، وفي الوقت ذاته ملأ البئر بنوع من الغاز الخانق السام. وأنه لمن

سوء الحظ فعلاً أن لا تتاح الفرصة لإجراء بحث علمي في الموضوع، أما بسبب الخوف أو بفعل فقدان الاهتمام بالأمر، لمعرفة أسرار الكارثة.

هذا وما أن استأنفنا سيرنا شرقاً عبر أحد المراعي الخصبة في وادٍ واسع يقع بين الحرة التي كانت على بعد ميل واحد إلى يسارنا، وبين لسان صخري على بعد ميل أيضاً إلى يميننا، حتى فوجئنا بالسيارة "تسعل" ثم تتوقف عن الحركة نهائياً من جديد. إلا أننا سرعان ما تمكنّا من إصلاح العطب. وتابعنا السير إلى الأمام باتجاه منطقة "الروافا" الرائعة. وقد وجدنا صخرتين كبيرتين لونهما أسود وأحمر، تلمعان تحت أشعة الشمس، وتواجه الواحدة منهما الأخرى على بعد حوالي مائة ياردة. ومن هذه الفسحة يمر مجرى قناة "ديثان" لينضم إلى "الأبيض" الذي سبق ذكره.

وكما اكتشفت مؤخراً، فإن هذه القنا هي إحدى روافد "الروافا"، بل لا شك أنها أهم تلك الروافد. وتحف بها صخور تمتاز بألوان صخور "البتراء" وإن كانت هذه الصخور تبدو وكأنها جافة الحوافي لنضوب الماء من القناة في الوقت الحاضر. ولعل جفاف القناة في الأزمنة السابقة هو السبب الذي حدا بالنبطيين إلى عدم ممارسة فنونهم الرائعة على هذه الصخور الجميلة.

إن مجرى "ضيبقات الفهْدية" لا يزيد على بضع مئات من الياردات طولاً، ومنه عبرنا إلى وادٍ واسع خصب يدعى شعب "ديثان" يتصل بين سلسلة من الصخور المتعددة الألوان.

ومرة ثالثة توقفت السيارة نتيجة لانغراز عجلاتها في الرمال العميقة! وفي غمرة من حنقي على هذه المصاعب، قمت برفقة زعل بالمشي في الوادي. وكان الأمر الذي زاد حنقي أن زعل أخذ يبدو كأن الأمر اختلط عليه بالنسبة لتحديد الموقع الذي نقصده، وهو المعبد.

لهذا سرنا مدة ساعة ونصف الساعة قطعنا خلالها ثلاثة أميال لا أكثر. وكان السير شاقاً عسيراً فوق رمال كثيفة تنتشر فيها أدغال صغيرة شائكة يستغلها القاطنون في صنع "المكانس" كما شاهدت ذلك في "بترا".

وأخيراً لحقت بنا السيارة.. وهنا اتجهنا يميناً عبر سلسلة من الصخور. وسرعان ما وجدنا أنفسنا في واد يحاذي الطريق، يدعى شعب "هواتف" ومن هنا أخذنا نصعد في الوادي حتى أعترف زعل بأنه فقد آثار الطريق التي يعرف أنها تقود إلى المعبد. وحينئذ عدنا أدراجنا لنهبط الوادي. ولم يمض طويل وقت حتى لمحنا البناء الذي تحملنا كل هذه المشاق من أجل أن نراه!

كان هذا البناء ممتداً أمام صخرة كبيرة صفراء اللون قاعدتها حمراء.

وهنا كنا قد وصلنا إلى روافا، فبقي أمامنا رحلة غامضة لا ندري ماذا ستعرض له فيها.

كان من الواضح أن سيارتنا ستمرّ الآن على طريق سيئ. وكان الشيء الوحيد الذي أسفت له هو اضطراري للتضحية ببطارية جهاز الراديو الذي أملكه كي تتمكن السيارة من الوصول إلى وجهتنا. وذلك بعد أن بذل السيد جهوداً يائسة وهو يحاول أن يحمل السيارة على التحرك من مكانها. وكان هذا السيد، والحق يقال، قد تخلى عن محاولاته الرامية إلى حملي على العودة إلى تبوك.. وذلك منذ أن بدأنا السير عبر "ضُيقات الفهدية".

وعندما وصلنا إلى تلك النقطة، كنا قد قطعنا مسافة ثمانية وثلاثين ميلاً عن آخر معسكر ضربناه عند سلسلة جبال "الرضا". وكان علينا حتى نصل إلى المعبد أن نسير على الأقدام، أو نستقل السيارة، مسافة لا تقل عن ستة أو سبعة أميال، على الرغم من أن المسافة الحقيقية إليه لا يمكن أن تزيد على أربعة أميال. وهكذا فإن المسافة من تبوك إلى روافا حسب الطريق التي اتبعناها كانت حوالي ٨٣ ميلاً.

ووصلنا في ساعة متأخرة من بعد الظهر، لم يكن لديّ من الوقت ما يسمح بأكثر من إجراء تفتيش عاجل عن النقوش بين الخرائب قبل أن نستقر في معسكرنا لنتدارس مختلف المشاكل التي تواجهنا. وكان زعل ورفيقاه يعملون بصورة مقبولة. والحق أنهم كانوا مفيدين لي كأدلاء، ولو أنهم أدنى من المستوى الذي تتطلبه بعثة استكشافية كهذه، وفي منطقة كالتي وصلنا إليها. تلك المنطقة التي تشكل انتقالاً من المنطقة البركانية في الجنوب (حرات الرها) إلى منطقة (حِصما) إلى الشمال.

لكن المشكلة حلت نفسها بوصول عدد من رعاة المنطقة جذبهم إلينا منظرنا ونحن نصل إلى المعبد، ورائحة طعام العشاء الذي كان على وشك النضج. وسرعان ما انتهزت الفرصة وعينت أحدهم، (يدعى "سعيد بن سلامة") من قبيلة بني عطية) في خدمتي. وكانت مضارب قبيلته في المنطقة المجاورة لنا.

وقد تبين لي أن معرفته بالمنطقة، من غرب الحرة حتى المكان الذي وصلنا إليه، مرضية بما فيه الكفاية. أما معرفته بمنطقة "تهامة" فكانت تافهة للغاية. وقد أوضح هو ذلك بقوله: إن تلك المنطقة "ليست تابعة لبني عطية"، ولهذا فلم يكن مهتماً به. بيد أنني كنت كثير الاهتمام بالمنطقة التي يتقاسمها أفراد كل من قبيلتي "بيلي" (بالي)و"الحويطات". كذلك كان سعيد هذا قليل الخبرة بقمم جبال الحرة البعيدة. وقد ذكر لي وجود ظباء أفريقية في وادي "الأبيض" لكنه فشل في اصطياد أي منها. وكان ذلك قبل سنتين (١٩٤٩). ولعل هذه هي آخر مرة رأيت فيها هذه الحيوانات في شبه الجزيرة العربية.

كان الأمر الثاني الذي يشغل بالي، هو إبلاغ السلطات في تبوك بمكان وجودنا، وقد تمكن سعيد من إحضار أحد أفراد قبيلته في مساء اليوم التالي وأقنعه أن يمضي برسالة كتبتها إلى "علي ثروة"، وطلبت إليه في تلك الرسالة أن يبعث بسيارة أخرى وبطارية للسيارة التي معنا. ولما كنت أقدر انه سيمضي بعض الوقت قبل أن نتمكن من الحصول على مساعدة أخرى. فقد قررت أن نعسكر حيث نحن طوال فترة مكوثنا في المنطقة.

ومن ثم عملنا على حماية خيامنا من تقلبات الطقس. الذي كان هاهنا أبرد بكثير منه في تبوك.. وكانت درجة الحرارة تتدنى في صبيحة بعض الأيام إلى مادون درجة الصفر. وقد بلغت درجة الحرارة في أول ليلة قضيناها في روافا ٢٥,٥ درجة فهرنهايت. وفي الصباح وجدنا أن مياهنا التي كنا نحتفظ بها في القرب والصفائح قد تجمدت، بينما كانت الأرض مغطاة بطبقة سميكة من الصقيع. وقد ظل هذا الصقيع حتى أشرقت الشمس فذاب.

هذا وقد حدث الشيء ذاته في الليلة الثانية، وبعد أن مرت بضع ليال يمكن اعتبارها أدفء من الليلتين سالفتي الذكر (كانت خلالها درجة الحرارة لا تزيد على درجة أو اثنتين فوق الصفر) سجل الترمومتر درجة ٢٥ فهرنهايت في آخر ليلة قضيناها في روافا. وكان ذلك في الخامس والعشرين من يناير (كانون الثاني).

ويقع المعبد على بعد بضع مئات من الياردات عن ينبوع صغير يسمى "ميشاش" ويخرج من كهف صغير معلق بين مجموعة من الصخور تمتد بمحاذاة الضفة اليمنى لسلسلة مرتفعات وادي "هواتف" الذي ينحدر إلى أسفل حيث يعرف باسم "الخور" عند التقائه مع وادي "ديثان" بعد أن يخرج الأخير من مجرى الضيقات ليتصل بمجموعة مجاري "الأبيض".

وتبرز الصخور التي ينبع من بينها الينبوع الصغير (ميشاش) قليلاً إلى الأمام حيث تبقى مغارة الينبوع بكاملها بعيدة عن أشعة الشمس إلا في فترة قصيرة حوالي منتصف فصل الصيف. وفي تلك الفترة تجف المياه التي تلفظها أرض الكهف الرملية. ويقال بأن النبع يوفر الماء لطالبيه طيلة الفترات الأخرى من السنة بشكل مستمر.،

وقد وجدت أكثر من دليل على عظَم قيمة تلك المياه لأصحاب قطعان الماشية من الأعراب. ولكن هؤلاء ويا للأسف، ما كان يهمهم في شيء أن يتركوا المكان نظيفاً. ولهذا وجدت المغارة قذرة، تغطي أرضها أكوام من مختلف أنواع القاذورات. أما حوض الماء بالذات فكان نظيفاً، ومياهه عذبة صالحة للشرب.

ووجدت على ظهر إحدى الصخور الكبيرة العالية قرب قمة المجموعة الصخرية سطراً طويلاً من النقوش الثمودية. وقد نجحت في نسخ هذه النقوش مستعيناً بمنظاري المقرب، وذلك لأن الصعود إلى حيث كانت تلك النقوش بدا من الأمور المستحيلة. وقد لاحظت أن منابع الماء تغطيها طبقة رقيقة من الجليد في الأوقات التي تتدنى فيها درجة الحرارة إلى حد التجمد.

ومن الطبيعي أن البدو يعرفون مصادر أخرى للمياه في أقاصي الحرة، (مثل بئر الخمبارا)، غير أن هذا الـ(الميشاش) كان أيسر مورد للأعراب الذين يفدون إلى المنطقة للنزهة أو طلباً للصيد. وجميع هؤلاء من الأشراف المتقدمين في السن، الذي يعيشون في خيام ينصبونها طوال مكوثهم خارج مدينة تبوك أيام استجمامهم.

ويبدو أن بعض هؤلاء القوم كانوا معجبين جداً بهذا الموقع الجميل، لدرجة أنهم أرادوا أن يقيموا لهم أثراً تذكارياً دائماً يكون شاهداً على زيارتهم. واختاروا نُصُبهم على شكل بناء. والعجيب أن اسم هذا البناء والبناء ذاته ظلا قائمين بالرغم من مرور العصور. ولعل ذلك يعد إلى مصادفة حسنة تنبئ عنها النقوش القليلة التي وجدها المنقّبون بين الخرائب. وهي نقوش يونانية ونبطية.

أما أن البناء كان معبداً فما في ذلك أدنى شك. ويشهد بذلك أحد النقوش اليونانية القصيرة التي ذكرت أن البناء يعود إلى hieron touto في أرض Robathai. ويمكن اعتبار كلمة "روافا" تحريفاً صحيحاً لهذا الاسم. هذا وتعادل الـ b- – اليونانية ٧ حرف (والواو في العربية)، في حين أن مقابل حرفي – F – و – th – اللذين كانا موضع نقاش من قبل الثقات يجب أن يكونا خاضعين للحقيقة البسيطة التي تجعل اسمي يُلفظ "ثيلبي" وذلك من قبل عدد قد يقل أو يكثر بين أصدقائي في شبه الجزيرة العربية.

أما الخراب الذي لحق بالبناء، فمن المرجح أن يكون قد حدث من جراء هزة أرضية لا يذكرها السكان المحليون. ومعظم أقسام البناء لا زالت في حالة لا بأس بها. ويبقى تاريخ إنشاء هذا البناء. وهو ما يحدده، على وجه التقرير، أحد النقوش الجميلة التي تم الحصول عليها منه. وهو خليط من اليونانية والنبطية. ولا يزال يشكل جزءاً من واجهة المعبد.

وقد اكتشفه "لويس موسيل" في سنة ٩١٠. والحق أنني لم أجد صعوبة كبيرة في العثور على هذا النقش حين نظرت إلى خرائب المعبد. وحينئذ كان من الطبيعي أن أنسخه بكثير من الدقة، ثم أقوم بالتقاط عدد من الصور له. وذلك بالنظر لأن النسخة التي استنسخها "موسيل" قد فُقدت نتيجة للمعاملة السيئة التي لقيها الرجل من أفراد قبيلة بني عطية كما سبق أن ذكرنا.

ويذكر هذا النقش اسمي "ماركوس أوريليوس أنطونيوس" و"لوشيوس فيروس" على اعتبار أنهما الشخصان اللذان بني المعبد على شرفهما.

والجدير بالذكر أن الأسبق قد خلف (أنطونيوس بيوس) على عرش الإمبراطورية الرومانية سنة ١٦١ب.م. بينما اشتراك الثاني في شرف اللقب مع (أغسطس) و(برنسيس) في السنة ذاتها.

وقد توفي (لوشيوس فيروس) بعد ثماني سنوات وهو في طريقه إلى روما أثناء قيامه بجولة في بلاد الدانوب، بعد أن أنهى مهمته كقائد في سوريا سنة ١٦٢ب.م. وكانت المهمة المعهودة إليه في ذلك الوقت هي مقاومة غزو الفرثيين الذين تدفقوا على البلاد في ذلك الحين. وقد أكسبه الفوز الذي أحرزته الكتائب الرومانية، لقب (باثيوكوس ماكسيموس). وهذا ما يجعلني أذهب إلى القول بأنه من الضروري أن يكون في هذا الوقت قد نال اعتباره الرفيع في نظر أهل هذه المنطقة من الشرق الأوسط.

في تلك الأثناء، كانت بلاد النبطيين قد ظلت خاضعة للإمبراطورية الرومانية منذ أكثر من خمسين سنة، ويبدو أن رعايا الإمبراطور قد احتفلوا بالنصر الذي أحرزته فيالق الرومان على الفرثيين. وقد كان هذا النصر من الأهمية بالنسبة للشعب في سوريا بالقدر الذي هو مهمّ بالنسبة لحكام الرومان. ولذا عمد السكان المحليون إلى إنشاء هذا المعبد رمزاً لولائهم للإمبراطورية. وتم ذلك في سنة ١٦٥ ب.م.

وقد وجدت في المعبد نقشاً يونانياً (سبق أن أشرت إليه) كما وجدت نقشاً ثالثاً بالنبطية، لكن هذا كان أقل إيضاحاً من سابقيه. أما النقش الرابع فقد ذكر اسم (كلوديوس موديستوس) الذي تعرف عليه "م. هنري سيريغ" الأستاذ في المعهد الفرنسي في بيروت، فقال أنه القائد الروماني الذي حكم شبه الجزيرة العربية من قيادته في (بوسترا) أو بصرى بجبل الدروز. وان هذا النقش باليونانية. ومما لا شك فيه أنه كان من الممكن اكتشاف عدد كبير من النقوش بين خرائب المعبد، غير أنه لما لم يكن لدينا الوقت الكافي أو العمال الضروريين لمثل هذه الحال، فقد اكتفينا برفع بعض الحجارة الثقيلة التي كانت تغطي المعبد.

والمعبد عبارة عن بناء مربع يبلغ طول ضلعه ٣٠ قدماً. وقد وجدت أن جداره الغربي مدعم بخمس عشرة قطعة من الحجارة متراكمة بعضها فوق بعض دون أن تلتصق بأية "مؤونة" أو إسمنت". وكان الحائط الشمالي مدعماً بشكل مماثل للحائط الغربي. أما جدران المعبد الأخرى فقد رأيتها في حالة من الخراب لا توصف. هذا، إذا استثنينا بعض الحجارة التي ما وزالت قائمة هنا وهناك. وقد لاحظت أن معظم حجارة المعبد قد نقلها البدو حيث استعملوها في إقامة شواهد لقبورهم في الجبانة المجاورة.

وعلى بعد قليل إلى الجهة الشمالية، وجدت أساساً لبناء أصغر، أقدّر أنه أحدث عهداً من المعبد. ويجوز أن يكون قد بني من مواد أخذت من المعبد ذاته. وكانت هذه الأساسات ظاهرة للعيان، غير أنه لم يكن هناك أي أثر للجدران وكأنما لم يكن لذلك

البناء أي جدران أبداً. وقد خطر ببالي بادئ الأمر أنه ربما كانت هذه الدائرة من الحجارة والتي تبلغ مساحتها ١٥×١٢ قدماً، خزاناً لحفظ مياه السيل. وخاصة أنني وجدتها مليئة بالرمال والتراب.

ويظهر أن جميع الحجارة التي استعملت في بناء المعبد والبناء الآخر قد اقتطعت من الصخور الواقعة خلف الكهف الذي ينبع منه "ميشاش".

وهنا وهناك في وادي "هواتف" إمارات تدل على وجود مزروعات في مساحات لا بأس بها، أغلبها من القمح والشعير. وقد نبتت هذه المزروعات بفضل السيول التي حدثت في الخريف الماضي على أثر تساقط الأمطار في تلك المنطقة.

هذا والمعبد يمتد من الشرق إلى الغرب، وله مدخل واحد يقع في الجهة الجنوبية الشرقية على زاوية مقدارها ١٠٤ درجات. أما سمك الجدران التي ما زالت قائمة فقد كان ٧٨ سنتيمترا. وتشير جميع الدلائل المتوفرة إلى أن الخراب الذي لحق به كان من جراء هزة أرضية، مع أنه من الممكن أن يتم ذلك نتيجة فيضان غير طبيعي يغمر المنطقة بأسرها. حيث أن المعبد قائم في طرف الوادي.

وفي الزاوية الشمالية الغربية من المعبد توجد غرفة بناها صاحبها كيفما اتفق، تبلغ مساحتها ١٤ × ١٢،٥ قدماً. وكل ما تبقى منها الآن لا يعدو جزءاً من الجدار الشمالي ما زال قائماً، ومثله من الجدار الغربي الملاصق له. أما بقية الجدران فهي في حالة خراب. ومن المؤكد أن أرض الغرفة، ترتفع عن سطح الأرض التي بني عليها المعبد بمعدل أربعة أقدام. ولقد خطر في بالي أن يكون هذا البناء قد استخدم كمقبرة في العصور المتأخرة، وذلك بدليل وجود الحجارة الكبيرة التي تسد المنافذ. ولعل هذه الحجارة قد وضعت لحماية الجثث من نهش الضباع أو نبش لصوص المقابر.

ويبلغ طول القسم القائم من الجدار الشمالي ١٢,٥ قدماً، يمتد بعدها الجدار خمسة أقدام أخرى هي الجزء الأخير منه. وهو في حالة خراب تام وفي الجهة المقابلة للجدار الأيمن خراب يشمل ما طوله عشرة أقدام. ويمتد هذا القسم الخرب من النقطة التي يتصل فيها هذا الجدار مع الجدار الغربي. ويعد هذا الجزء كان الجدار مهدماً بشكل لا يمكّن المرء أن يستبين معالمه. أما مدخل المعبد فقد وجدته مدعماً من نواحيه الشرقية والشمالية والغربية بثلاثة أو أربعة أعمدة حجرية ضخمة، منحوتة نحتاً ممتازاً.

ويبدو أن الزاوية الجنوبية الغربية كانت لغرفة على ذات المستوى الأرضي للغرفة الأخرى في الزاوية الشمالية الغربية، وإن كانت الأدلة على وجود مثل هذه الغرفة ليست متوفرة، ما عدا أساساتها.

ولم استطع أن ألحظ أية دلائل تشير إلى وجود سقفي الغرفتين. لكنه يبدو أن "عابد قيصر" الداخل إلى المعبد من البوابة الشرقية كان يجد نفسه في ساحة مكشوفة تقع أمام تماثيل الآلهة، وتحتل النصف الغربي من المعبد. ولا بد أنها كانت مقسمة إلى قسمين بينهما ممر ضيق. وكل منهما مخصص لواحد من الإمبراطورين.

أما طول الجدار الغربي الذي كان ما يزال قائماً فيبلغ ٣٨٢ سنتيمترا. وهو مقام على بلاط طبيعي من الصخر. ومن هذا البلاط أيضاً أنشئ المران، ويضع ممرات أخرى في الناحية الشمالية من البناء. هذا ولعل المحور (الشرقي – الغربي) للبناية أطول من مثيله (الشمالي – الجنوبي) ببضعة أقدام مكوّناً بذلك شبه مستطيل أكثر منه مربعاً تاماً. ولم أر أي أثر يدل على وجود أعمدة مستديرة بين الخرائب.

أما البناء الثاني الذي ورد ذكره من قبل، فيقع على بعد خمسين ياردة إلى الجهة الشمالية الشرقية من المعبد، وقد صمم على غرار المعبد إلى حد كبير. وأما منزل باني المعبد فقد سقط سقفه وغطته الرمال.

وتنتشر فوق السلسلة الصخرية القائمة على الضفة اليمنى لوادي "هواتف" طبقة رقيقة من "اللافا"، هي التي جعلت الناس يطلقون عليها اسم "سد الروافا". والواقع أنها أتاحت لي الفرصة لألقي نظرة ممتعة على المنطقة المحيطة بها عندما تسلقت قمتها بعد يوم أو اثنين من وصولنا إلى تلك المنطقة. وقد وجدت أن قمتها مكللة بخرائب ربما ترجع إلى القرون الوسطى أو لعلها قلعة عربية بنيت في الأزمنة الحديثة.

والقلعة مبنية من حجارة اللافا المتوفرة عند القمة دون تشذيبها. ومن القمة بدا لي المعبد تحت سطح السلسلة مع ميل قليل إلى الجهة الجنوبية الشرقية، بينا ظهر "الميشاش" إلى يمينه قليلاً. ومن هنا أيضاً ألقينا نظرة شاملة علي وادي "هواتف".

وقد مررنا ونحن نتسلق القمة بمجموعة من الصخور الوردية اللون لم أر أجمل منها من قبل، تعرف باسم "خرينات". وتقع على الغالب إلى الشرق من الطرف الأقصى لسلسلة من القمم والمرتفعات البركانية، يمر من بينها سيل الماء الذي يأتي من بعيد مفتشاً عن طريقه عبر الأخاديد التي تشكل رأس وادي "داما". وهو ينفذ إلى البحر من نقطة تبعد قليلاً إلى جهة الجنوب عن وادي ضبه.

كانت صخور الخرينات محاطة من جميع نواحيها بعدد كبير من أحجار اللافا التي تمتد يميناً حتى أسفل الجزء الأبعد من وادي هواتف حيث تتصل بجبل "لاوي" الكبير. وهو جبل صخوره من اللافا، يقوم عند قاعدة جبال "أبو عتبه، والعليلاق، والعشارية وأبو طفيف". وتجري من بين كل جبلين من هذه الجبال قناة تتصل بقناة "خور" التي هي امتداد لوادي هواتف.

ويدخل إلى هذا الوادي عدة شعاب صغيرة، بعد النقطة التي يصبح فيها معروفاً باسم وادي الخور.

تمتد سلسلة مرتفعات "سلوع" إلى أقصى الجنوب من المرتفعات التي تمتد حتى تتصل بجبال مدين. ويقع مضيق "الضييقات الفهدية" في الجهة الشمالية الغربية من المكان الذي كنا فيه. ولم يكن هذا المضيق بعيداً عنا، بل كنا نستطيع أن نرى من خلفه القمم العالية لجبال "حرب، ودباغ وشر" الممتدة من اليمين إلى اليسار بانتظام.

أما قناة "ديثان" التي مررنا بها أول ما وصلنا إلى المنطقة ثم تركناها وراءنا، والتي كانت تقع الآن تحتنا في أقصى طرف مرتفعات سد روافا، قد أخذت تدعى الـ "حُنو"، وراحت تجري بين جبلي "أم عُوال" وقَبَل".

وفي اليوم التالي – وكان الثالث والعشرين من شهر يناير (كانون الثاني) – قررت أن أشاهد المنطقة من قمة جبل "لاوي": وسرعان ما استحضرت الحمير من مضارب قبيلة "سعيد". وركبت مع سعيد وزعل ورجل من بني عطية يدعى (عودة). وقد هبطنا إلى قاع وادي هواتف، حيث سرنا حوالي نصف ساعة وصلنا بعدها إلى صخرة بارزة يطلق عليها اسم "هُضيبة البيضاء". وقد شاهدت بالقرب من هذه الصخرة قبوراً ودلائل على أن المنطقة كانت معمورة في يوم من الأيام.

وفي منتصف قناة هناك وجدت دائرة مسورة بالحجارة، تبلغ مساحتها ٢٥ ياردة مربعة، لعلها كانت أساساً لخزان ماء.

وقد أزعجني أن أحداً من مرافقي لم يكن بوسعه إلقاء ضوء، ولو بسيط، على سبب وجود هذه الدائرة. ومهما يكن من أمر، فإنها لم تكن لتدل على أي نوع من أنواع الأعمال المعروفة عن البدو في الوقت الحاضر. وعلى هذا، فلابد أنها من أعمال بني هلال. مع أنه يجوز أن تكون إشارة إلى احتلال النبطيين للمنطقة.

وقد أمضينا نصف ساعة أخرى قبل أن نصل إلى حضيض جبل "لاوي" ويمكن القول بأننا كنا في ذلك الوقت على بعد أربعة أميال من مخيمنا، ذلك لأن حميرنا لم تكن من

حمير السباق، كما أنها بدت مستعدة للذهاب بنا إلى أية نقطة نعينها ما عدا الموقع الذي نقصد إليه. وقد لاحظت عند الحضيض أن الصخور ذات لون أبيض مائل إلى الرمادي.

والحق أننا لم نجد في تسلقها صعوبة تذكر رغم وعورتها في بعض المناطق. وانقضت أربعون دقيقة قبل أن أصل إلى نقطة قريبة من القمة أقدرّ أنها على ارتفاع يتراوح بين ٧٠٠ – ٨٠٠ قدم عن قاع الوادي. وعند هذه النقطة كان لابد لنا من أن نترجل لنستلق ما تبقى من الطريق. وبالفعل تركنا الحمير هناك، بعد أن اطمأننا أنها لن تذهب إلى الوادي.

ووصلنا.. فرأيت القمة بأسرها، والصخور التي تنحدر منها إلى مسافة مائتي قدم، من صخور "اللافا". ولم أجد صعوبة في التفرج على المنطقة المجاورة رغم وجود ضباب كثيف كان يخيم فوق الأراضي الواطئة من "تهامة" وكانت هذه المناظر تمتد من قمم "ريدان" الواقعة خلف وادي "داما" باتجاه الجنوب" حتى قمة جبل "شواتي" في الشمال الغربي.

ولم استطع أن أرى البحر من فوق تلك القمة غير أن السهل الساحلي الذي كان يقع خلف الجبال ظهر واضحاً تماماً.. كان معبد "روافا" يقع في الجهة الشمالية الشرقية من مكاننا على القمة، وعلى بعد يتراوح بين أربعة وخمسة أميال، بينما كانت مرتفعات "خرينات" تقع إلى الشرق. وتحت هذه المرتفعات كان ممر "حَجَلة".

وكنت أرى مضيق "ضييقة" في الجهة الشمالية الغربية بينما كان الممر (حجلة) يقع في الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية عند أول وادي "سليسيل". وكانت صخور هذا الوادي تبدو تحتنا في منحدره العميق. والأعراب يشعرون بشيء من الخوف وهم يقودون قطعان الإبل إلى المراعي القريبة من هذه المنطقة، وذلك لصعوبة الوصول إليها. وكذلك تجدهم يشعرون بالرهبة ذاتها عندما يهبطون بقطعانهم إلى تهامة أيام فصل الشتاء. ومع هذا فقد وجدتهم يزعمون أن تسلق هذا الجبل ليس أمراً عسراً. والبدو يطلقون على الطريق التي يصعدون

منها إلى قمة الجبل اسم "طلعة طيب الاسم"، وهو اسم يطلقه الأعراب (من باب النقيض) على الأماكن التي يكونون غير راضين عنها.

وتمتد قبالة جبل "لاوي" إلى الجنوب والجنوب الغربي، صخرة غير مستوية الأطراف تبدو عن بعد كأنها كتل من الصخور مكومة بعضها فوق بعض. وتعرف هذه الصخرة باسم "وُهيثا" . ويقع بئر لاوي الذي يبعد مسافة ثلاثة أيام، في السهل الذي يربط بين وهيثا وجبل لاوي.

ويشكل جبل لاوي هذا شبه قوس يميل رأسه قليلاً إلى الجنوب الشرقي، بينما يميل رأسه الثاني باتجاه المكان الذي كنا فيه. وأخيراً فقد كانت هنالك سلسلة جبلية أخرى أراها جدير بالتنويه، خصوصاً وأنني قد زرتها بعد عامين من هذه الرحلة، إلا وهي سلسلة جبال "شويوين" التي يمتد طرفاها الكبيران بمحاذاة الضفة اليمنى لوادي "سدر".

وبعد أن نزلنا من القمة، امتطينا حميرنا وتوجهنا إلى صخرة رملية عظيمة عن طريق مسيل الماء الذي يعرف بقناة "أم علاليق"، حيث وجدنا عدداً وفيراً من النقوش الثمودية. كما وجدنا مجموعة أخرى من هذه النقوش عند الصخرة المعروفة باسم "أم القويرف". وهي أيضاً تقع في مجرى القناة.

وهنا كنت قد اكتفيت بما قمت به من عمل خلال ذلك اليوم، ومن ثم توجهنا إلى معسكرنا منهوكي القوى من جراء المشاق التي تعرضنا لها على ظهور الحمير وهي تسير بمشقة فوق الصخور. ولقد شعرت بأنني أشعر براحة أكثر لو مشيت على قدميّ، غير أن حذائي الرديء الذي اشتريته من تبوك، كان قد سلخ قدمي بشكل فظيع. ولذلك رأيت من الأفضل أن أتقبل خدمات الحمار بامتنان.

كانت السحب الكثيفة التي تلبدت في السماء أثناء ساعات الصباح الباكر وبعد ليلة ليلاء هبت فيها رياح قوية، قد تبددت بعد شروق الشمس، فتمتعنا بشمس مشرقة رافقتها

نسمات باردة كلها انتعاش. وقد استمر الطقس على هذه الحال طوال النهار فظللنا خارج المخيم. ثم قاسينا ليلة لعينة أخرى هبت فيها رياح باردة وتدنت خلالها درجة الحرارة إلى الصفر، أو فوق ذلك بقليل، وبانقضاء تلك الليلة، انتهت إقامتنا في وادي "روافا".

إذ ذاك وصلت إلى معسكرنا سيارة لوري من طراز "شيفروليه" (علمت فيما بعد أنها قادمة من تبوك) ومعها قطع الغيار اللازمة للسيارة الأولى. وكان على ظهرها عدد من رجال الأمير جاؤوا لمساعدتنا على الخروج من أي مأزق قد نتعرض له. وحين ضمنت كل هذا، قمت بزيارة نهائية لنقطة في وادي ديثان بينما تركت بقية مرافقي يعالجون السيارة المعطوبة لعلهم يصلحونها. وقيل لي أن هذه النقطة من وادي "ديثان" تزخر بالخرائب التي تحوي الكثير من النقوش المهمة، فاصطحبت كلاً من زعل وسعيد وعودة وتوجهنا إليها.

وبعد مسير عشر دقائق وصلنا إلى مجموعة من الصخور تدعى "حدبية المبرأة"، تقع في الطرف الجنوبي من السهل الذي كنا قد عبرناه أول ما دخلنا وادي هواتف. وعندما انتحينا إلى اليمين، بعد أن قطعنا ذلك المنبسط من الأرض، وصلنا إلى شعب "حنو" فشعب "مشيش"، وهما رافدان يستقيان ماءهما من مرتفعات "أم بطمة" ويجريان حتى يصلا إلى سفح الجبال البركانية المعروفة باسم "أم القرون".

وقد وجدنا في المجريين إذ ينحدران بقايا ضيعة مهجورة، ربما كانت قرية عربية يعود تاريخها إلى القرون الوسطى، أو لعلها خطاً دفاعياً بُني فوق صخرة مسطحة من حجارة وضعت بعضها فوق بعض دون "مؤونة". ولذا فإن الزمن والطقس قد فعلا فعلهما في تدميرها، حتى أننا لم نجد من تلك الخربة غير جدار لا يزيد ارتفاعه على ثلاثة أقدام، يبدو أن الزمن قد رحمه فسمح له بالبقاء.

كانت بعض البنايات في تلك القرية مستديرة الأرضية. ويبدو أن أصحابها بنوها على تلك الصورة، وجعلوها متراصة قريبة من بعضها علّها تشكل سوراً يمنع الأعداء من اقتحام القرية أو منطقة روافا.

ومن هذه النقطة أخذنا نتسلق أقل القمتين ارتفاعاً كي نلقي نظرة على المنطقة وجوارها. وقد أشار أدلائي إلى سلسلة من الصخور غريبة الشكل تسمى "العمدان" ولما لم نكن قد رأينا هذه الصخور من قبل، لم أهتم بها كثيراً إذ أنني قلت محدثاً نفسي، أنني سأزر المنطقة بعد سنتين ولابد أن أضرب خيامي عند أقدام هذه الصخور وبالقرب من القرية النبطية المجهولة.

كانت قمة جبل الخرينات تقع إلى الجنوب من المكان الذي نقف فيه الآن، بينما يقوم جبل دباغ إلى الغرب، بين جبلي حرب إلى اليمين وذرى سلسلة "شر" إلى اليسار. أما في الجهة الشرقية، فقد كنا نرى قمة جبل "هويدي".

وفي حضيض هذا الجبل توجد آبار ماء وأشجار نخيل تحمل الاسم ذاته. وكذلك كان أخدود وادي "تضمار" يجري من أمامنا باتجاه اليسار إلى اليمين حتى يصبح القناة الرئيسية لوادي "داما". أما بقية المناظر المحيطة بناء فقد كانت ذات المناظر التي سبق أن رأيناها من نقاط أخرى. ولذلك قررت الإسراع بالعودة إلى المخيم على أمل أن أمضي بعد الظهر في إتمام نسخ النقوش التي وجدناها عند المعبد، والاستعداد للرحيل في صبيحة اليوم التالي.

كانت الحادثة الوحيدة التي وقعت بعد ظهر ذلك اليوم، هي وصول أسراب من الجراد قادمة من تهامة. ولن تلبث هذه الجيوش الجرارة أن حطّت فوق المراعي الخصبة الموجودة في المنطقة.

ولقد سبق أن أشرت إلى أن منطقة الصخور الوردية في الخرينات والتي رأيتها في مستهل زيارتي لمنطقة روافا، منطقة جديرة بالاستكشاف، وفيها أمل كبير بوجود كثير من

المنقوشات التي قد تروي لنا شيئاً عن زوارها السابقين من النبطيين، والثموديين. لذلك قمت ظهر اليوم الذي وصلنا فيه بزيارة أقرب تلك الصخور على جانبي وادي هواتف. وهو واد يقع رأسه إلى الشرق من مجموعة الصخور الكبيرة المعروفة بـ "أم عوَل" المشرفة على الخرينات.

كانت إحدى تلك الصخور الوردية تدعى "بخترية" وتقع على الضفة الشمالية للوادي. وهي عبارة عن تلة ضخمة من الصخور الوردية اللون تحيط بها طبقة سميكة من الصخور البيضاء. ومن تلك الصخور تمتعنا بمنظر المنطقة وشاهدنا جبلي وطر وشيبان الواقعين في المنطقة البركانية إلى الشرق.

أما النقطة الثانية التي زرتها فكانت تضم صخرة معزولة بين حقول المزروعات الموجودة في الوادي. وتدعى "درّة الهاتف". ولقد وجدت هناك بعض المنقوشات، غير أنها كانت مشوهة إلى حد كبير. كما وجدت بعض الآبار المهجورة – أبيار هاتف – على بعد حوالي ثلاثمائة ياردة من درة الهاتف. وبين الصخرتين سالفتي الذكر وجدت ما يمكن أن يكون أساساً لبناء من الحجارة غير المشذبة، وإن كان من الجائز أنه بقايا خزان ماء طمرته الرمال والحجارة.

وعلى مقربة من ذلك المكان تقع الأرض المرتفعة التي تؤدي إلى صخور هواتف، وهي معلقة في أعلى الجبل بشكل يسمح أن تكون قد استعملت كملجأ يقي شدة الهاجرة من قبل أجيال من الثموديين وغيرهم من الرعاة الذين وفدوا بعدهم إلى المنطقة.

وقد زرت منطقة خرينات ذاتها في صبيحة اليوم التالي، حيث قمت بالتجول في ممراتها الضيقة التي تصفر فيها الرياح، وذات الجدران الناعمة المتعددة الألوان. وأنني لأذكر كيف تناولت طعام الغداء هناك في ظل صخرة هائلة على شكل مخروط أحمر وردي، تشرف على مرتفع يتصل بقمة إحدى الصخور الأخرى. وقد مررنا في أحد

المواضع تحت قوس طبيعي من الصخور الوردية. وكنا نجد بين الفينة والفينة الكثير من المناظر التي تستحق الإعجاب والتأمل بجمال الطبيعة.

غير أن هذه الصخور الجميلة كانت خالية من أية نقوش، الأمر الذي أثار حفيظتي إلى حد ما، فهي لم تحدثني بشيء عن الأجيال التي عاصرتها قبل أن أزورها أنا. وكنا قد مشينا الآن مسافة أربعة أميال أو أكثر لنشاهد هذه الصخور، ولم يبق هناك ما يستحق أن يرى. ولذلك عدت أدراجي من الطريق التي قدمت منها لأصل إلى المخيم قبيل غياب الشمس.

وأشرق صباح اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير (كانون الثاني)، فكان أشد برودة من أي يوم آخر أثناء رحلتنا بطولها، حيث تدنت درجة الحرارة إلى ٢٠،٥ درجة فهرنهايت. وفي تمام الساعة السابعة والنصف، كنا جميعاً على أهبة الاستعداد لنستأنف تجوالنا، ومع ذلك فقد أخرنا المسير حتى بلغت الساعة التاسعة والنصف. وفي الوقت ذاته حشدت جميع عمالي، وكان عددهم يقارب الاثني عشر، لرفع الأحجار الكبيرة الأربع التي عثرنا عليها بين خرائب المعبد وعليها بعض النقوش. وذلك من أجل صيانتها من عوادي الزمن ومن أن تصاب بالمزيد من الدمار. ومن ثم تحركنا باتجاه وادي "هواتف"

والجدير بالذكر أن سيارتينا كانتا أول آليات تصل إلى روافا، غير أن المزيد من الآليات، ما لبث أن تبعتنا فيما بعد، مستدلة على الطرق بآثار العجلات التي تخلفت. وقد تلقيت رسالة من زعل بعد سنة من الرحلة يبلغني فيها أن تاجراً من "القطيف" يدعى "خالد الفرج" له اهتمام بالآثار قد زار المنطقة (روافا).

وحين زرت المعبد مرة ثانية بعد سنة، وجدت أن النقوش الأربعة ما زالت قائمة في المكان الذي وضعناها فيه، أما النقوش النبطية فكانت قد اختفت. كما وجدت أحد النقوش اليونانية المهمة قد أصيب بعطب شديد من جراء محاولة تجزئته كي يصبح قابلاً

للحمل. ومع ذلك فقد كانت محتويات النقش ما زالت مقروءة. وعن طريق هذه النقوش تمكنت ومن معرفة الأسطورة المسجلة على ذلك الأثر. وكذلك اكتشفت أن نقش "غلاديوس موديستوس" قد اختفى أيضاً!!

ومما لا شك فيه أن خالد الفرج هذا هو المسؤول عن اختفاء الآثار التي تعبت أنا في اكتشافها، ولكنه وقد توفي في السنة التالية ليعد هناك ثمة من نلقي المسؤولية على كاهله.

أما مجموعة الآثار التي جمعها خالد الفرج، وكان قد أتيح لي فرصة رؤيتها عن طريق بعض خبراء شركة الأرامكو الأمريكيين من أصدقاء خالد، فأعتقد بأن الحكومة الأمريكية لن تتعب نفسها بالتفكير في شرائها لإضافتها إلى متحف "جدة" وكذلك أعتقد بأن السلطات السعودية في يومنا هذا لن تجد في هذه الآثار ما يغري بشرائها من ورثة خالد.

هذا وقد واصلنا سيرنا نحو وادي هواتف منحدرين في طريق رملية بلّلتها مياه الأمطار وغطتها الحشائش. وكنا نهبط الطريق على مهل حتى وصلنا إلى الطرف الداخلي لمضيق "الفهدية"، حيث تمهلنا قليلاً لأجمع النقوش الثمودية القليلة المتناثرة بين صخور الموقع. وقد قمت بالتقاط بعض الصور أيضاً. إن الطريق حتى هذه النقطة قد استغرقت خمساً وأربعين دقيقة، مع أن بعدها لا يزيد عن عشرة أميال من روافا، حسب الطرق الجديدة التي أتبعناها. وقد اكتشفت أن المسافة بين تبوك وروافا تبلغ أربعة وتسعين ميلاً أو أقل منذ ذلك بقليل.

كانت أسراب الجراد ما زالت تظهر في المنطقة بأعداد كبيرة، فأتيحت الفرصة لدليلي "عودة" كي يجمع كمية كبيرة من الجراد كان ينظمها في سلك يريد أن يحتفظ به للمستقبل.

بعد ذلك توجهنا من طرف المضيق الأبعد، إلى جهة الشمال الغربي فوق طريق سهلية مغطاة بالحشائش والأدغال الصغيرة. أما السهل الذي كنا نخترقه فيدعى "فهم". وبعد أن قطعنا مسافة نصف ساعة في سير مريح (ولعلنا قطعنا خلاله مسافة سبعة أميال)

توقفنا لنتناول طعام الغداء ثم نجمع بعض النقوش من بين الصخور المتناثرة التي تدعى (الهبيرات). ومن هذه النقطة مضينا في اتجاه شمالي غربي، نحو جبل "قويني"، وهو في منتصف طريق "الزاوية"، التي وصلنا إليها بعد مسيرة ساعة كاملة (ربما قطعنا فيها ١٥ ميلا). هُناك وجدنا كمية كبيرة من النقوش عند القمة بين مختلف الصخور المتناثرة بجوار الجبل.

كانت الشمس تكاد تغرب عندما استأنفنا سيرنا في الاتجاه ذاته نحو صخور "عاصية" التي تبعد مسافة أربعة أميال في أسفل قناة وادي الأبيضات. وقد عبرنا هذا الوادي دون أية صعوبة، ثم توقفنا للاستراحة عند خليج بالقرب من سفح الجبل ذي الصخور الحمراء التي دفعت عنا شر الرياح القارسة. وكانت تهب آنذاك من جهة البحر.

وقد اشتركت في نصب خيمتي.. وأمضيت تلك الليلة في راحة لا بأس بها بعد أن تناولت عشاء دسماً. وكان الصحب الذي انضموا إلينا في روافا لم ينسوا أن يحضروا معهم عدداً من الخراف من تبوك.

والجدير بالذكر أن العرب يرسلون قطعانهم إلى وديان تهامة خلال الشتاء، وذلك لتجنيبها البرد القارس الذي يجتاح منطقة الحصمة العالية، مع أن الترمومتر لم يسجل في تلك المنطقة برداً خارقاً للطبيعة. فقد بلغ الحد الأدنى لدرجة الحرارة في تلك الليلة (٣٦ درجة فهرنهايت).

هذا وقد أمضيت صبيحة اليوم التالي في التفتيش بين الصخور الناعمة التي يبلغ طولها ١٠٠ قدم، والصخور المسطحة الموجودة في المنطقة، عساي أجد شيئاً من النقوش أو غيرها من آثار ثمود. والمعروف أن منطقة الزاوية مليئة بالصخور المختلفة الأحجام. وقد اكتشفت أن عدداً قليلاً من هذه الصخور لا تحوي نقوشاً أو صورا، بينما تبين لي أن

مجموعة عاصية هي أفضل الصخور. ولعلها كانت آثار مركز للحضارة القديمة. وقد ظلت محتفظة بأهميتها حتى يومنا هذا.

ومما لا شك فيه أن الكهوف والمغاور العديدة الموجودة في هذه الصخور الهائلة، كانت قد استخدمت من قبل بني عطية، كحظائر يودعون فيها قطعانهم ومخابئ تمويناتهم مثل القمح، الدقيق، التمر والأرز والمواد البسيطة التي يحتاجها الرعاة في تجارتهم كالسمن، والملابس.

وتملك هذه المخازن عائلات أو مجموعة من الناس يتفقون فيما بينهم، وبموجب هذا الاتفاق يحق لكل فرد مشترك في الملكية، أن يأخذ ما يحتاج إليه من محتويات المخازن. ولا يُطلب إلى مثل هذا الرجل أي إجراء رسمي سوى أن يترك إشارة تدل على أنه زار المخزن. ومن أجل ذلك كان مثل هذا الرجل يعمد إلى نقش اسمه على الصخر. وكان المسؤولون عن هذه المخازن يجتمعون في فترات دورية على شكل مجلس قبلي يحضره أصحاب التواقيع (النقوش) المسجلة على الصخرة، وذلك من أجل عدها ولكي يدفع كل واحد منهم ما يستحق عليه من مبالغ.

ويقال، وأعتقد بأن هذا صحيح، بأنه لم يحدث أن حاول أحدهم غش جماعته، وإن كان مجال شرورهم يبدو واسعاً في المنطقة. وهكذا فإن ثقتهم الواحد بالآخر تثبت القول السائر "إن هناك شرفاً بين اللصوص".

ويمكن القول بأن أسوء الجرائم التي يرتكبونها ضد بعضهم البعض هي جريمة تخريب بساتين النخيل وغيره من الأشجار الكثيرة في المنطقة. فهم يعمدون إلى قص أغصانها لإطعام قطعانهم التي يجمعونها بالقرب من الأشجار. وكثيراً ما كنت أرى فتاة صغيرة تتسلق شجرة عالية تعمل في أغصانها يد التقطيع والكسر، دون أن يكون في رأسها فكرة عما تفعل غير حاجتها الآنية لإطعام حيواناتها.

ولربما يأتي يوم يتعلمون فيه أن القيام بالتقليم الحذر في أوقات تقليم الأشجار، من شأنه أن يوفر لهم كمية من علف الماشية يعادل ما يقطعونه بشكل اعتباطي، ودون أن يدمروا مصدر هذا العلف بما يقومون به من أعمال فظيعة.

هذا ومازالت عمليات صنع الفحم وجمع الحطب للوقود أكثر قساوة وشراً من العمليات الأولى. ويمكن اعتبار هذه جرماً أفظع. وإن كان لا يوجد في منطقة الزاوية عدد مغر بذلك من الأشجار التي يمكن أن توفر لهم حاجتهم من الفحم والوقود. وكثيراً ما شاهدت أشجاراً سوداء محترقة من جراء تحضير الفحم بغية بيعه في أسواق المدن والبلدان المختلفة.

وقد وجدنا في أحد الكهوف الكبيرة في صخرة عاصية منصة دائرية من "الجص" يبلغ قطرها ١٢ قدماً وتحتل معظم أرض الكهف: أما عمق هذه الدائرة الغائص تحت الأرض يبلغ أربعة أقدام عند الطرف الخارجي. ويقل هذا العمق عند الطرف الداخلي بمعدل ثمانية عشر إنشاً. وان يبدو أن الدائرة أنشئت منذ قديم الزمان. وقد أكد لي أدلائي بأنها لا يمكن أن تكون قد أنشئت لأي قصد حديث، وإن كانوا في حيرة من الأمر بصد ذلك. وهم لا يعرفون لماذا أنشئت في الأزمنة القديمة.

ومن الممكن أن تكون لهذه الدائرة أهمية خاصة عند الثموديين الذين لا يزال واضعو الدراسات العلمية حول نقوشهم في حيرة من أمرهم، وما زالوا يتناقضون فيما بينهم حول طبيعة حياة أولئك القوم. فالنقوش الثمودية تطالعنا في المنطقة الواقعة على طول امتداد الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية من جوار مدينة بتراء حتى اليمن. ولكن هذه المنطقة تشمل مساحة أوسع بكثير من تلك التي ان يقطنها الثموديون كما هو مذكور في كتب الأدب العربي!

وهكذا فإن خلاصة الأمر يمكن أن تكون على النحو التالي: أن النقوش واللغة الثمودية رغم اختلاف اللهجات المحلية، كانتا منتشرتين بشكل واسع بين القبائل العربية القاطنة في المنطقة خلال فترة "بداوة العرب" ثم أثناء فترة الاستقرار في القرى.

إذاً، من هم مؤلفو الثلاثة عشر ألفاً أو الأربعة عشر ألفاً من النقوش الثمودية التي باتت الآن معروفة لنا، بالإضافة إلى الألفي نقش التي وجدت في شمال شبه الجزيرة العربية، والتي اكتشفها "بيير فان دن براندان"؟ لقد نشر المنقب مؤلّفه، حول النقوش الثمودية فكان أول دراسة جامعة للموضوع.

يقول بعضهم: إن تلك النقوش تعود إلى أصحاب القوافل التي كانت تعبر الصحراء، حاملة التجارة عبر الطرق الصحراوية. ومن الغريب أن يكون بعض هذه النقوش من صنع أصحاب القوافل أنفسهم. وأغرب من ذلك، أن حقيقة وجود أعداد كبيرة من هذه النقوش في قمم الجبال العالية، حيث يصعب على أصحاب القوافل الوصول إليها، يجعل من الممكن القول بأن الرعاة، هم الذين نقلوا هذه النقوش من أمكنتها الأساسية إلى أماكن أخرى مختلفة في الصحراء.

ومن المحتمل كذلك أن يكون هؤلاء قد جمعوا هذه الحجارة التي تحمل النقوش لتحصين أماكن إقامتهم ضد الغارات التي كانوا يتعرضون لها بين الفينة والفينة. ومثل هؤلاء الرعاة، لابد وأن يكونوا من البدو من قبائل الصحراء والقرى التابعة لهم.

ويبدو أنه من الصعب التهرب من الخلاصة التي تدل على أن كلاً من أصحاب القوافل والرعاة قد لعبوا دوراً في نشر الثقافة الثمودية. وفي رأيي الذي كونته بعد دراسة معقولة للموضع، أن أصحاب هذه النقوش هم بدو الصحراء الرحل والمقيمون. وأن هؤلاء قد زودوا أصحاب القوافل بهذه النقوش على مر الأيام حتى السنوات الأخيرة. وقد كان أفراد الطبقة المثقفة يرمون النقوش على فترات متقطعة في الطريق الصحراوية التي تمر

بها القوافل. وكان هؤلاء يقطنون في مراكز الحضارة والحكم، وقد استفادوا من هذه النقوش.

ومهما كان أمر هذه النقوش، فإن منطقة "الحصمة" بأسرها عبارة عن مكتبة ومتحف للصور يعرف فيهما أدب العرب الأقدمين وفنهم. وهي غنية بالآثار إذا ما قورنت بمنطقة تيماء وما جوارها. وكذلك بالنسبة للمراكز الوسطى في الجنوب مثل "القَهرة" و"قارة". وقد درست طبيعة الأرض من قمة جبل "عاصيه" بينما كانت الرياح الباردة تلسع وجوهنا كالسوط. ومن القمة استطعت أن أرى أن وادي هواتف ليس رافداً من روافد "الأبيضات" ولكنه يشكل رأس وادي "سُليسِل" الممتد إلى اليمين. أما نقطة اتصال "ديثان" و"رويّان" بوادي الأبيضات فكانت تقع على بعد ميل واحد في الجهة الجنوبية الغربية. بينما كان وادي "الشِقري" الذي تمر فيه مجموعة القنوات سالف الذكر يقع في الجهة الشمالية الغربية. أما الصخور الغريبة الشكل والمحاذية لطريق "السد" فكانت تقع في الجهة الشمالية الغربية من النقطة التي كنا فيها.

وواصلنا سيرنا باتجاه هذه الصخور. وبعد أن سرنا في تلك المنطقة ما يزيد عن ميل، وصلنا إلى ثلاثة صخور كبيرة تقع على طرف بركة واسعة مليئة بالماء تعرف باسم "العُوَيسية". وتنساب المياه إلى هذه البركة من مكان أمام السد. هنا كان مجرى وادي الأبيضات قد تحول إلى الجهة الشمالية من الطريق التي كنا نتبعها ماراً بطريق يؤدي إلى "الشقري".

وقد مررنا بأسراب عديدة من الجراد كانت غارزة في الأرض حول سهول "الروثا". وكانت هذه الأسراب تغطي ارض السهلية التي نسير فوقها حتى أن عجلات سيارتينا قتلت منها الألوف. أما الأسراب التي كانت تستطيع الطيران والفرار، فقد جعلت ترتطم بزجاج نوافذ السيارتين ومقدمتيهما.

ويبدو أن برودة الليلة السابقة قد جمدت الجراد الغارز في مكانه، إذ كان الوقت ظهراً عندما مررنا بتلك الأسراب.

ومررنا من عند طرف "أخَيرم" الذي كانت إلى يميننا، فوصلنا إلى أرض طينية كبيرة في وسطها صخرة منعزلة تعرف باسم "المقلويّة"، أما المياه المتجمعة في تلك الأرض فتجري مباشرة نحو السد.

وبعد أن سرنا مسافة عشرة أميال بعيداً عن "عاصيه" وصلنا إلى أقصى شمال "أخيرم"، حيث توقفنا بضع دقائق بغية إلقاء نظرة على صخور منطقة السد، التي أصبحت قبالتنا مباشرة الآن، قبل أن تتحول إلى اتجاه شرقي على طول امتداد صخور "الشّعْرا" حتى تصل إلى سلسلة الصخور الكبيرة المعروفة باسم "بايْر". وتحتل هذه منطقة واسعة ويمتد في وسطها سهل رملي يسيح فيه عدد من الينابيع الصغيرة (ميشاش)، وتشكل مياهها حفراً مليئة بالمياه القذرة. ويبلغ ارتفاع هذه السلسلة من الصخور حوالي مائتي قدم، ولها منزلقات ناعمة وعدد من الرؤوس. أما منظرها فهو على العموم مقبض للنفس.

وكان موسيل قد زار المنطقة بحثاً عن النقوش، ولكنه لم يوفق في العثور على شيء، وإن كان من المحتمل أن يكون قد فتش المنطقة تفتيشاً غير دقيق يتناسب مع طاقته على تحمل مشاق الوصول إليها.

أما أنا فقد وجدت الكثير من النقوش هناك، وكانت هذه النقوش تبدو أقدم من تلك التي وجدناها في عاصية مثلاً.

ومن سوء الحظ أن يكون الكثير من نقوش هذه المنطقة قد محي بفعل العوامل الجوية. ويستطيع المرء أن يقدّر كونها ترجع إلى فترة تاريخية أقدم من سابقتها، من اللون الباهت الذي وجدت فيه. ومهما يكن من أمر، فإن أقدم النقوش الثمودية يجب أن لا يزيد عمره

على ألفي سنة، ومع ذلك فإن بعض هذه النقوش بدا وكأنه حديث تماماً، الأمر الذي يثير الاستغراب.

وإنه لمن سوء الحظ أن لا تعطينا قمة "باير" المنظر الذي كنت أتوقع الحصول عليه بعد تسلق قمة على ارتفاعها. إذ أنه على الرغم من شروق الشمس فقد كان الضباب الكثيف يلف المنطقة بغلالة سميكة، كما كانت هنالك ريح باردة قوية. ولقد شعرت أنا وعودة بكثير من الارتياح ونحن ننزل من تلك القمة لنعود إلى رفاقنا.. حيث جلسنا نصطلي معهم حول النار. ثم تناولنا الغداء قبل أن نستأنف سيرنا.

ومن ثم درنا حول الفجوة الواقعة بين "برقاعيد" إلى اليسار، وسلسلة مرتفعات "عقير" التي تمتد حتى أقصى الطرف الشمالي من برقاعيد. وتقطع المسافة إلى هناك بأقل من عشر دقائق بالسيارة. وبعد ذلك مباشرة أصيبت السيارتان وغرزت عجلاتهما في الرمال الكثيفة، وكان يغطيها ضباب كثيف ولقد توقفنا لحظات قليلة لنجمع بعض النقوش من عند صخرة من صخور العقير، ثم سرنا على الأقدام مسافة اثني عشر ميلاً قبل أن تلحق بنا السيارتان. بيد أن أحدهما سرعان ما غرزت عجلاتها في الرمال من جديد فتوقفنا مرة ثانية.

كان معسكرنا في "رضا" على بعد بضعة أميال عن المنطقة التي كنا عندها مع ميلٍ إلى الجهة الجنوبية الشرقية. وكانت سلسلة مرتفعات رضا ومرتفعات "دافِن" من النجود القليلة الارتفاع ومحاطة بمساحة شاسعة من الأراضي الرملية التي تصلح أن تكون مراعياً جيدة. واستأنفنا المسير، فوصلنا إلى ممر الزور ثم سرنا حوالي اثني عشر ميلاً حتى وصلنا إلى نهاية مضيق فها.

وبدلاً من أن أسير الآن في طريق تبوك كما كان مرافقي يأملون، انعطفت يميناً عبر أعالي وادي "غالَيْل". ويمكن القول أن طريقنا ظلت محاذية لسفح جبال فُها حتى وصلنا إلى

منطقة وعرة جداً مليئة بالصخور والحفر وقطع الحجارة. وكان لابد من سلوك هذا الطريق لكي نصل إلى قناة وادي "عويند" الذي لم نستطع بلوغها إلا بعد غروب الشمس..

سرعان ما توقفنا لنضرب الخيام بالقرب من دغل كبير فوقه صخرة هائلة تدعى "خاقوق"، ويقربها صخرة بركانية تعرف باسم "مُواعز"، وحولها عدد آخر من الصخور البركانية. وقدرت أننا لا بد قد انحدرنا ألف قدم من قمة المرتفعات حتى وصلنا إلى الرضا. غير أن نسيم المساء الرقيق قد عوضنا عما كنا نلاقيه من برد قارس ونحن في المرتفعات. وكان السماء صافية الأديم ما عدا غيمة واحدة تحلق فوق الوادي.

وفي هذه الأثناء وصلت السيارة الثانية، وكانت قد تخلفت إثر خلل ألم بمحركها، وهكذا اجتمع شملنا كما نبغي. وكان في تلك السيارة كل من "زعل" ورجلي البوليس "عطا الله" و"عبدالله بن قعم"، والسيد الذي لا يمكنني أن أنساه أبداً. هؤلاء هم كل الذي استبقيتهم معي. أما رجال بني عطية فقد سمحت لهم بالعودة بعد أن أجزلت لهم العطاء نتيجة إخلاصهم في عملهم أثناء مرافقتهم لي، كما وعدتهم بالمزيد من الخير فور عودتنا إلى تبوك.

إن عودتنا المتأخرة إلى هذا المكان، والعشاء غير المتقن الذي قدم لنا على عجل، قد جعلانا نشعر بالنعاس، فسرعان ما نمنا جميعاً. ولم أستيقظ إلا بعد أن أشرقت الشمس وراحت تجاهد بحزم لطرد الضباب الذي يخيم على المنطقة. ولو لم يكن وقت الصلاة قد حان لما أيقظوني، ولما شعرت بحاجتي إلى قدح من الشاي. ولكن.. إنها السابعة صباحاً.

كانت نظرات الامتعاض البادية على وجوه مرافقي، الذين كانوا يؤملون أن يقضوا الليلة بين أحضان زوجاتهم، حافزاً لي على إلقاء محاضرة عليهم في ضرورة الجد في العمل والفضيلة. وهكذا استطعت أن أحتفظ برفقتهم.

أما السبب الذي كنت من أجله تواقاً لزيارة وادي العويند، فهو أن مرافقي أنفسهم تحدثوا عنه بكثير من الحماسة بينما كنا بعيدين عنه. وقالوا أنه غني بالخرائب المهمة التي تنتشر فيه وفي الوادي المجاور له في منطقة يطلقون عليها اسم "بيبان". وقد قالوا أيضاً، أن الخرائب هناك تشبه الأضرحة النبطية إلى حد كبير.

على ذلك الأساس قررت أن أزور هذه البيبان. فأبلغت المرافقين أنه كلما أسرعوا في إيصالي إليها، كان ذلك أفضل لهم، إذ أنه يقصّر مدة غيابهم عن بيوتهم ويقرب عودتهم إلى تبوك.

وبعد أن ألقيت نظرة على الطريق، وجدت أن الصخور المنتشرة فيها ستجعل انطلاق السيارتين أمراً شاقاً، لكنني صممت على ذلك. ولم نكد نتابع نشاطنا مدة نصف ساعة حتى تبين لي أن إحراز أي تقدم إلى الأمام من الأمور المستحيلة، إن لم يكن من الأمور الخطرة. ولذا فقد استدرنا لنعبر سهلاً جانبياً خرجنا منه إلى بقعة تنتشر فيها صخور مستديرة رائعة تدعى "حَدق الذئب".

وهنا كانت تعتمل الرغبة في أعماقي لتسلق إحدى هذه الصخور ورؤية ما وراءها من أشياء غريبة جذابة. ولما كنا قد تركنا حوائجنا في المخيم الذي قضينا فيه الليل بحراسة عطاالله فق أمرت "السيد" أن يعود بالسيارة إلى هناك بانتظار عودتنا.

وهكذا اصطحبت زعل وعبدالله وبدأنا نتسلق الصخور، رامين إلى الوصول إلى وادي عويند الأعلى من حيث نعود أدراجنا بعد أن نلقي نظرة على الخرائب.

وكنت قد أعطيت تعليماتي إلى السائق، بأن ينتظرنا ساعة قبل أن يتوجه إلى المخيم، فقد خشيت أن لا نتمكن من الصعود إلى قمة الصخور. وعندها يكون لزاماً علينا أن نعود. ولما كان زعل غير معتاد على تسلق مثل هذه الصخور القاسية، فقط طلبت إليه أن يعود إلى السيارة كي يتوجه بها إلى المعسكر على أن نلتقي هناك في وقت لاحق من النهار.

وأخيراً وصلنا إلى قمة الصخور..

ولكن، بعد أن بذلنا مجهودات شاقة استغرقت أكثر من ساعة، على الرغم من أن ارتفاع القمة لا يزيد على ٤٠٠ قدم عن سطح الأرض. وعندما بلغنا القمة وجدت أننا في اتجاه جوبي غربي من فُها أو سلسلة جبال "أم جَلاد".

ومن هناك هبطنا إلى قاع وادٍ ثم صعدنا منحدر وادٍ آخر (تلاهما رافد من روافد وادي عويند التي كان يقع إلى يسارنا) حتى وصلنا إلى مرتفع صخري وعر، قادنا إلى سفح منحدر يبلغ عمقه حوالي ٥٠٠ قدم. وكانت تتراكم في أسفل هذا الوادي رمال كثيفة، لا تكاد تتحمل أي ضغط من أية مادة صلبة. وبعد مجهود شاق تمكنا من تسلق قمة ذلك المرتفع، وهناك توقفنا لفترة من الزمن ريثما نتمكن من مسح المنطقة. كان صخور (الخاقوق) التي تشرف على معسكرنا تقع في الجهة الشمالية الشرقية. أما القسم الجنوبي من سلسلة مرتفعات فُها فهو يقوم في الجهة الشمالية الغربية على وجه التقريب. ويبقى وادي عويند، وكان يمتد إلى يسارنا مع ميل إلى الجنوب في أقصاه حتى يدخل في سهل واسع تبيَّنته في الجهة الجنوبية من النقطة التي نقف فيها.

وعند زاوية انحناء الوادي، على الضفة اليمنى منه، تقع التلة الكبيرة التي تعرف باسم (حمراء شواربي)، وفي اسفل هذه التلة على الضفة اليسرى من الوادي توجد قطعة من الأرض المرتفعة تسمى "خَشم عسّاف".

في هذه النقطة بالذات قام أفراد قبيلة بني عطية بمهاجمة قافلة للوهابيين كانت محملة بالمؤن المرسلة من "وجْه" إلى تبوك. وكان ذلك في أوائل عهد احتلال آل سعود للمنطقة. وكان ناصر بن عساف يرافق تلك القافلة الكبيرة، وهو من سكان "رس" الوقعة في قصيم، وكان من المقرر أن يخلف هذا أول حاكم وهابي في تلك المنطقة واسمه "محمد بن شهيل".

لقد قتل ناصر في المعركة، وحينئذ ما كان من عصابات بني عطية إلا أن أعملت يد السلب النهب في حمولة القافلة. غير أن التاريخ لا يحدثنا عن الحملة التي هرعت إلى المنطقة لمواجهة تحدي القبيلة لسلطة ابن سعود!!

وقد وقعت هذه الحادثة في سنة ١٩٣٠. وبعد سنتين من هذا التاريخ وأثناء عودتي من رحلة إلى الربع الخالي وجدت محمد بن شهيل قد عين حاكماً لمنطقة "تُرَبة" في أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية. وكان هذه الحادثة في العام ذاته الذي وقعت فيه ثورة (دويش) (١٩٢٩ - ١٩٣٠).تلك الثورة التي كانت موجهة ضد ابن سعود في شرقي شبه الجزيرة العربية والتي قتل أثناءها (عبدالعزيز بن مساعدة) حاكم حايل عبدالعزيز ابن فيصل الدويش في أم رضمة) على الحدود العراقية.

كان علي أن أخلع نعلي لأتسلق المرتفع الرملي الكبير. وقد فعلت، ثم توجهت وأنا حافي القدمين، إلى المنحدر الرملي لأتفحص مدى احتماله للثقل، وهو ذلك المنحدر الذي يفضي إلى الأرض الفسيحة المتاخمة لوادي عويند. وقد استغرقت المسافة حتى الضفة الغربية للوادي حوالي نصف ساعة، مررنا أثناءها بتلّتين لم نستطع أن نعرف لهما اسماً وإن كان عبدالله قد أبلغني أنهما تدعيان البيبان!

وعندما بحثت حولهما لم أجد شيئاً يمكن أن يحقق الآمال الواسعة التي كنت أعلقها على هاتين التلتين، تلك الآمال التي ضغطت على دماغي نتيجة الاسم الغامض الذي كان له في نفسي أثر السحر.. لقد وجدت أنهما ليستا غير تلتين عاديتين جداً، وفي وسطهما ممر ضيق للجمال، شقه أصحاب القوافل من أجل أن يكفوا أنفسهم مؤونة الدوران حول الوادي.

هنا بدا لي أن عبدالله قد أصبح قليل الخبرة، ولعله كان في حيرة من أمره فلم يستطع أن يحدد مكان بئر عويند. وعلى هذا الأساس رأيت أن أفضل شيء نفعله هو أن نتبع

طريق الوادي إلى أسفل، إذا ما أردنا أن نصل إلى المخيم في ضوء النهار. وكان الوقت آنذاك ظهراً.

وهكذا بدأنا نشق طريق العودة، غير أننا لم نمض غير بضع خطوات حتى برز لنا بعد منحنى الوادي شيء غير عادي أثار انتباهنا جميعاً.

كان لدي متسع من الوقت، لذا قررت أن أرضي فضولي، فلم نستأنف سيرنا مع انحدار الوادي قبل مضي ساعتين. ولشد ما كان استغراب عبدالله الذي حدثني عن خرائب "عويند" عندما وجدنا أنفسنا في وسطها فجأة.

كانت هذه الخرائب لقرية أثرية كبيرة، وكانت حجارتها المتساقطة تحمل أعداداً كبيرة من النقوش الثمودية. ولم أجد على وجه هذه الخرائب غير بقايا قليلة من النقوش المكسورة التي لا يمكن أن تقص علينا تاريخ هذه البقعة الأثرية.

وكان لدي انطباع بأن النصوص الثمودية المبعثرة على الحجارة هنا وهناك قد تكون سُجلت قبل ألفي سنة على حجارة نقلت من خرائب مدينة أثرية أخرى أقدم من هذه عمراً. ولما لم يكن هنالك من يستطيع أن يحل لنا المشكلة وينير لنا الطريق غير أحد علماء الآثار، فقد أقنعت نفسي بالاكتفاء بنسخ تلك النقوش.

وكان العطش قد بلغ برفيقي (عبدالله) شرّ درجة، فجاءني مستأذناً بالبحث عن ماء. وكنت ظامئاً . فسمحت له بأن يقوم بجولة عله يجد البئر، وقد وجده على بعد ميل من هذه الخرائب.

كنت قد أنهيت من عملي تقريبا، عندما عاد عبدالله، فجلسنا نتناول غداءنا البسيط الذي كان عبارة عن البسكويت والتمر. وكنت أحمل في "الترموس" كمية من الشاي بدون سكر. لكن عبدالله رفض دعوتي له ليشاطرني هذا الشاي قائلاً أنه وجد البئر فأطفأ غلته. وقد شربت القليل من الشاي جاهداً إبقاء شيء منه للطريق الطويل التي تنتظرنا.

وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر تحركنا منحدرين مع الوادي من جديد. وبعد مسيرة ربع ساعة تركنا ذلك المجرى لنحاذي في سيرنا مرتفعات صخرية تقع إلى الناحية اليسرى من الأراضي الرملية. وهناك وجدنا الجمال قد شقت لها طريقاً تتجنب بفضلها السير في الرمال الكثيفة المتراكمة حول منحنى آخر لذلك الوادي.

وقادتنا الطريق إلى نقطة أخرى من مجرى الوادي تقع مقابل مرتفعات (شواريي) حيث وجدنا ضريحاً مبنياً من الصخور، يبدو أنه أثري، وإن كان من الممكن أن يكون قبر (ناصر بن عساف) نفسه.

وتابعنا سيرنا إلى الأمام حتى توقفنا قبيل الساعة الرابعة لنؤدي صلاة العصر في نقطة توقّعنا أن نجد السيارة بانتظارنا فيها. لكننا لم نجد لها أي أثر أو صوت، فمضينا قدماً ونحن نأمل أن تأتي السيارة لتنقذنا من الكارثة التي كنا سنتعرض لها. وفي الوقت ذاته اعترف لي عبدالله بأنه وجد بئر (عويند) جافاً، وأنه تبعاً لذلك لم يشرب أي شيء منذ أن غادرنا مخيمنا في الصباح.

كان كل ما تبقى معي من الشاي لا يزيد على نصف قدح، فقدمته إليه وأنا على ثقة من أن السيارة ستصل لإنقاذنا مهما كان الوقت. وقد أصر عبدالله علي أن أشرب كل ما تبقى من الشاي، فشكرته على ذلك ثم استطعت إقناعه بصعوبة أن يحتسي حصته بعد أن هددته بسكب تلك الحصة على الرمال. ولم أكن خلال جميع تجاربي في شبه الجزيرة العربية قد قابلت ولاء يؤثر في النفس وتضحية بالروح مثل هذه التي أبداها عبدالله.. لقد كان يموت عطشاً، ولكنه لم يعترف بالهزيمة، ولم يحاول أن يطمع!؟

ومررنا قبيل غروب الشمس بإشارة منصوبة، لعلها لإرشاد الرعاة إلى الطريق. عقب تلك الإشارة مرورنا بكومتين صغيرتين من الحجارة تشيران إلى أن بعض البدو المجهولي الهوية قد قتلا هناك. وعلى ضوء النهار المحتضر، استطعنا أن نرى آثار عجلات السيارة

وهي عائدة فتبعنا هذه الآثار حتى أرخى الليل سدوله فأصبح من الصعب علينا أن نسترشد بتلك الآثار. ومن الممكن أن يكون مخيمنا غير بعيد عن هذه المنطقة، إلا أننا كنا نتوقع أن نفقد أثره في الظلام.

وبالإضافة إلى ذلك، فإننا لم نر أي أثر نهتدي بواسطته إلى المخيم.. لم نر ناراً مثلاً. ولذلك قررنا أن نتوقف حيث نحن، دون أن يكون معنا عشاء أو ماء.

وعمدنا إلى الحيلة فأشعلنا ناراً لعلها تهدي جماعتنا إلى مكاننا أو تبعث الدفء في أصولنا على الأقل، في تلك الليلة القارصة بالبرودة، ولم نستطع أن نرى آثار عجلات السيارة إلا بعد أن أشرقت الشمس، حيث رأينا السيارة متجهة نحونا من نفس الطريق التي سلكناها ليلة البارحة. وقد اتضح لي أن جماعتي أمضوا الليل في "حدق الذئب" رغم أنني أبلغتهم بأنني لن أرجع من تلك الطريق بل من طريق وادي عويند!!

وكذلك فإنهم لم يحاولوا الاهتداء إلى آثارنا، وإن كان عطا الله قد أمضى الليل يبحث – هو وبعض البدو على ظهور العبران – عن آثارنا في الوادي. وكان من حسن الحظ أنهم وجدوها. وإنه لمن حسن حظنا بالفعل أن تكون الخاتمة على هذا النحو. ولم يسعني أنا وعبدالله إلا أن نحمد الله على كل حال، وإن كان شعورنا الداخلي يختلف تماماً.

كان أول ما فعله عبدالله الآن هو أن ملأ معدته بالماء، بينما انتظرت أنا قدحاً من الشاي لم أكن في الحقيقة أشعر بجوع أو عطش!.. كنت أستهلك الكثير من الطباع في فترات صحوي، الأمر الذي لم يكن يحبه عبدالله.

وسرعان ما نسينا مصاعبنا، لكننا لم نتحرك من مكاننا للعودة إلى المخيم حتى الساعة العاشرة. وقد وصلنا إلى النقطة التي تعطلت فيها سيارتنا الثانية، وكانت تلك النقطة تقع ما بين (برقا سُميَحان) و(برقا ديماج). وبعد ذلك بقليل توقفنا عند صخور (معيقلة) لكي أنسخ بعض النقوش الهزيلة التي بدت بعد قشطها وكأنها جديدة تماماً.

وكـان عـبارة عـن صـورة لفرسـان وجمـال. وبعـد حوالـي نصـف سـاعة وصـلت إلى بيـت الضـيافة في تبوك حيث قدمت نقوشي إلى (علي ثروة) عندما التقيت به حول عشاء فاخر، أعده مضيفنا للترحيب بنا.

أمـا مـا تـبقى مـن ذلك المساء فقد أمضيته في قراءة مجموعة كبيرة من الرسائل كانت قد وصـلت أثناء رحلتي، وكانت هذه المجموعة أول رسائل تصلني منذ أن غادرت المدينة قبل أربعين يوماً.

# "شرورا" والـ"قريَة"

أمضيت الفترة الواقعة ما بين عودتنا من بعثة (الروافا) في الثامن والعشرين من شهر يناير (كانون الثاني) والأول من (شباط) فبراير، وهو اليوم الذي غادرنا فيه تبوك نهائياً لنقوم بالمرحلة الثانية من جولتنا: أمضيت هذه الفترة في نشاطات شملت منطقة الواحات وخارجها، وهي المنطقة التي سبق ذكرها في الفصول السابقة.

وقد كرست يومنا الأخير في تبوك لزيارة المكان المعروف باسم (رجم شوهار). وعدنا من هناك في الوقت المناسب لنتناول غداء أخيراً في بيت الضيافة بمعية علي ثروة، الذي سأظل أذكر مساعداته وكرم وفادته بكثير من التقدير.

كان الوقت بعد الظهر عندما غادرنا تبوك متبعين طريق السيارات المعتاد إلى الغرب من السكة الحديدية، على أمل أن نقضي الليلة في سفح جبل "شرورا" القائم إلى الشمال من تبوك. وبعد مسيرة حوالي أربعة أميال عبرنا مجرى وادي "النّصَيْفه"، لننفذ منه فندخل سهل "المحتطب" الفسيح بعد بضعة أميال أخرى.

ويبلغ عرض هذا السهل عدة أميال، وتحصره سلسلتان من المرتفعات من جانبي خط السكة الحديدية. وكانت مياه السيول الناجمة عن ارتفاع منسوب قنوات "معايسي"

و"غويّل" و"بقّار" وهي جميعها روافد لوادي عويند تصل إلى هذا السهل فتمحو آثار الطريق في كثير من المواضع، فتترك السيارات وحظها لتقفز فوق الحفر التي ما زالت قائمة رغم مضي خمس وثلاثين سنة على استعمال الطريق.

وبعد نصف ساعة من مغادرتنا تبوك وصلنا إلى محطة سكة حديد المحتطب وهي بناية من طابق واحد، مؤلفة من أربع غرف، مشيدة بحجارة مشذبة.

وتقوم حول البناية بضع أكواخ على شكل دائرة، غير أن هذه الأكواخ في حالة يرثى لها. ولم أجد بئراً في هذا المكان، غير أن البناية هنا كانت تزود بالمياه بواسطة السكة الحديدية من تبوك. وذلك لتأمين احتياجات الموظفين والقاطرات عندما كان خط السكة الحديدية ما يزال عاملاً.

وتحتل "المملحة" التي تقع خلف خط السكة الحديدية، القسم الواطئ من السهل الفسيح، وقد شاهدت هناك إمارات تدل على قيام البدو بأعمال استخراج الملح كما رأيت كميات من الملح المستخرج. وكان لونه بنياً تدل هيئته على أنه من نوع رديئ. ومن تلك النقطة كنا نلمح محطة سكة حديد تبوك وأشجار النخيل المحيطة بها، وربما كان هذه على بعد اثني عشر ميلاً أو أكثر. بينما كانت تلة النبي (منبر الرسول) في الجهة الشمالية الشرقية. وكان طريقنا ما تزال تمتد في اتجاه شمالي وشمالي غربي مع امتداد الجهة الغربية لخط السكة الحديدية. قد ظلت هكذا حتى المحطة التالية، وهي محطة "حزم".

وقبيل أن نصل إلى هذه المحطة عبرنا القناة الضحلة لوادي "ضم" وهي المسيل الرئيسي الذي يزود "الحصمة" الوسطى بالماء. و الحصمة واد يقال أن له أكثر من تسعة وتسعين رافداً.

وتمر هذه الروافد من تحت الخط الحديدي عبر خط طويل من العبارات حتى تصل إلى سهل يتحول بفعلها إلى أرض سبخة، ويمتد حتى طرف تلال شرورا والسلسلة الطويلة من

مرتفعات "عجات". وتتجمع عند طرفي شرورا وعجات حوالي اثني عشر رافداً ومن هذه النقطة بدأت تلة النبي تميل صوب الشرق، وكنا ما نزال نسير في اتجاه شمالي لنجد طريقاً صالحاً عبر أراضي شرورا المرتفعة

ومحطة سكة حزم أشبه ما تكون بمحطة المحتطب. وعند هذه المحطة يقطع طريق السيارات خط السكة الحديدية، ثم تعود لتتبع الخط من ناحيته الأخرى فتمر عبر سهل منبسط، شاهدنا فوق رماله آثار أقدام قوافل الجمال التي كانت تنقل الحجيج منذ القدم. ويبلغ عرض هذا السهل حوالي نصف ميل، ولذلك فإنه يتسع لمرور مئات الجمال في وقت واحد.

هنا يستطيع المرء أن يكوّن لنفسه فكرة أو صورة عن طريق الحجاج القديم. الحجاج الذين كانوا يفدون إلى مكة كالجيوش الجرارة عبر هذه الطريق، قاطعين آلاف الكيلومترات التي تفصل بين دمشق ومكة المكرمة.

غير أن فكري لم يكن قادراً على استيعاب أكثر من حقيقة واحدة من مئات الحقائق التي تتساوق عبر التاريخ مصورة الحجاج وهم يتدفقون كالسيل العارم في الطريق المؤدي إلى المكان الذي يعبدون فيه الإله الحق ويزورون نبيه الكريم. تلك الحقيقة هي أن العرب كانوا يحترمون الحجاج فلا يعتدون عليهم احتراماً للقصد الذي قطعوا من أجله آلاف الكيلومترات، ألا وهو عبادة الحي القيوم. كانوا يفتحون أمامهم الأبواب ويرشدونهم إلى أفضل الطرق للوصول إلى الكعبة الشريفة.

وإذ أخذنا ننحرف تدريجياً عن طريق الحجيج، وصلنا بعد حوالي خمس عشرة دقيقة، إلى الطرف العلوي لبناء طيني كبير. وكان هذا البناء غريب الشكل يدعى "قَعْل حردا"، ويقع في خليج وسع عند سفح "عجّات" تاركاً ممراً يوصل إلى داخل سلسلة جبال

شرورا. وعند بلوغنا هذه النقطة كنا قد قطعنا مسافة خمسة وعشرين ميلاً منذ أن غادرنا تبوك.

من هنا تحولنا إلى اتجاه جنوبي غربي، ويممنا صوب "تلة النبي" متتبعين في صعودنا القناة الضحلة لشعب "حراد". وغابت الشمس، فتوقفنا لنؤدي الصلاة. ومن ثم واصلنا السير في الظلام الذي أخذ يتكاثف، متجهين نحو هدف بدا أنه يتباعد عنا كلما اقتربنا منه. وأخيراً، وجدنا أنفسنا نتخبط في الظلام، كما أدركنا أننا نسير في طريق تنتشر فيها الصخور وتعيق الوصول إلى الجبل المقدس.

وفي الساعة السابعة والنصف قررنا أن نضرب خيامنا في أرض مرتفعة نوعاً ما، تشرف على سهلٍ يمتد تحت سفح التلة. وفي هذه البقعة أمضينا أتعس ليلة، ليلة لم نشعل فيها ناراً، ولم يكن معنا أثناءها شاي، ولا تناولنا عشاء.

والأسوأ من ذلك كله أنه لم يكن معنا دليل. وقد عمدت إلى غليوني أنفث دخانه باستمرار، بينما أنا استمع إلى جهاز الراديو، الذي كان ينقل إلي أنباء العالم الكبير. كان هذا بعيداً جداً عنا في تلك اللحظة، ونحن نجلس في بقعة من المؤكد أنها لم تر إنساناً "متحضراً" من قبل. هذا، إذا استثنينا بعض المغامرين الأمريكيين.

ويجوز أن يكون هؤلاء قد زاروا المكان قبل وصولي إليه وربما بعدي بقليل، إذ أن التقرير الذي رفعوه حول احتمال وجود البترول بالقرب من تلة النبي قد دفع بعدد من الخبراء للاجتماع حول صخور التلة لدراسة المسألة. غير أن نتيجة هذه الدراسة لم تعرف حتى الآن. لقد أبقوها سراً!

هذا وقد أوجدت مشكلة فقدان الدليل شبحاً قاتماً راح يحوم فوق مخيمنا بإلحاح. وزاد الأمر تعقيداً أن الرجل الذي جاء معنا على أنه دليل، لم يكن غير رجل بوليس يريد مطية تنقله إلى "ذات الحج". وهي محطة الحدود على خط السكة الحديدية.

صحيح أنه كان يعرف الطريق، ولكنني كنت أريد شخصاً ملماً بطبيعة المنطقة فأين هو؟ كلما كنت أستطيع عمله في هذه اللحظة، هو أن أبعد الموضوع عن مخليتي. وهكذا فعلت. وقد أمضينا فترة ساعتين قبل أن نصل إلى موقع المخيم في حردا، رغم أن المسافة بين النقطتين لم تكن تزيد على اثني عشر ميلاً. وقد قطعنا المسافة ذاتها في ساعة واحدة من الزمن أثناء عودتنا في صبيحة اليوم التالي.

واستيقظت في الصباح، لأجد كل شيء معداً للانطلاق فوراً، بعيداً بعيداً عن هذه البقعة غير المضيافة.. لم نحتس الشاي.. ولم نتناول طعام إفطار.. وكان كل من في البعثة يعاني الأمرين.. كان الجميع في حالة يرثى لها ما عداي. فقد كنت آخذ الأمور على أيسر وجوهها، وبكل بساطة، مستعيناً على ذلك بدخان غليوني الذي استبدلته بشاي الصباح.

وفي الساعة الثامنة صباحاً، ودون أن أقول كلمة لأحد بدأت أنحدر إلى السهل الذي يقع تحتنا على مسافة مائة قدم، ثم عدت وتسلقت المرتفع بجهد وبطء نظراً لوجود الكثير من أنقاض الصخور المتساقطة من قمة ذلك المرتفع. وقد لاحظت أن الهدف الذي كنا نراه من تبوك، ليس إلا جبلاً منيعاً، أمضيت ساعة كاملة حتى رقيت جناحه الشمالي الغربي الذي يقع تحت القمة بمائتي قدم.

وهنا قررت أن الصخرة فوقي لابد وأنها تخبئ لي مفاجأة غير سارة فيما لو حاولت تسلقها بمفردي. فقد كانت مستعصية إلى درجة يمكن القول معها بأن أحد محترفي تسلق الجبال لن يقدم على تسلقها إلا إذا قصد المخاطرة قصداً، ولربما كان بوسعي أن أجد طريقاً حولها لو لم يكن وقتي محدوداً.

وسرعان ما توصلت إلى نتيجة تقول بأن النبي الكريم لا يمكن أن يكون قد ألقى خطابه المشهور من فوق تلك التلة! وبينما أنا جالس هناك أقلب الرأي، رأيت طائرة تُحلّق فوق.. وكانت تختفي وراء السحاب وهي تتجه إلى الشمال الغربي نحو دمشق.

ورأيت على بعد مني سلسلة جبال "الطُبيق" التي تشكل الحدود الفاصلة بين السعودية والأردن. وكانت هذه الجبال ظاهرة رغم أن مرتفعات شرورا تعترض البصر إليها. أما جبل "عجات" فقد كان غير واضح من مكاني رغم أنني كنت أرى نقطة اتصاله بجبلي "الدقداش" و"الثيا" من المكان الذي ضربنا فيه خيامنا.

وفي الوقت ذاته رأيت السيارة قد وجدت طريقاً لها حول الصخرة فسلكته حتى وصلت إلى سفح تلة النبي. ومن ثم انحدرت إلى نقطة أقل ارتفاعاً من أجل إلقاء نظرة على الصخرة التي ترتفع ٦٠٠٠ قدم منتصبة في الجهة الجنوبية الغربية من الجبل.

وبعد ذلك عدت إلى حيث كانت السيارة. ولما وصلت إلى هناك وجدت القوم قد تشاوروا فيما بينهم أثناء غيابي، وقرروا أن ينعشوا أنفسهم بشيء من الشاي، بعد أن تأكدوا من أن في السيارة كمية كافية من الوقود. وقد قام "عبدالله بن قعم" بإحضار الماء، ومن ثم أشعلوا النار وأعدوا الشاي، لكنني رفضت الكأس التي قدموها إلي. وكانت الساعة تقارب الواحدة بعد الظهر عندما بدأنا المسير عائدين عن طريق أكثر سهولة من تلك التي كادت تضللنا أثناء الظلام.

ولما وصلنا إلى رأس سهل "حردا" توقفنا عند البناء الطيني فترة واصلنا بعدها السير لنصل إلى محطة سكة حديد "بئر ابن هرماس". وقد قطعنا هذه المسافة في أقل من نصف ساعة: ربما بثمان دقائق. وكان البعد من سطح التلة إلى المحطة حوالي عشرين ميلاً. وهنا وجدنا حفيرة ممتلئة بالماء على عمق ست قامات. كان هذا البئر مشيداً من الحجار بشكل جيد، ويبلغ قطر فوهته عشرة أقدام. وقد أقام مهندسو السكة الحديدية على هذا البئر مضخة هوائية، كانت معطلة منذ فترة لا يتذكرها أحد في المنطقة.

وكانت في المحطة حامية صغيرة مؤلفة من ثلاثة جنود، سرني أن أُنزل دليلي الفاشل عندهم ليتولى الوصول بنفسه إلى محطة "ذات الحج". والحق، أني لم أشكره ولم آسف على رحيله.

ويمتد خط السكة الحديدية من هنا باتجاه الجنوب الشرقي والشمال الغربي، والاتجاه الأخير هو الذي يؤدي إلى "ذات الحج".

لم نستطع من تلك النقطة أن نرى بساتين النخيل المحيطة بالمحطة، وإن كنا قد شاهدنا الطريق الملتفة حولها وبضوح تام. وبين هذه المحطة و"المدوّرة" الواقعة داخل الأراضي الأردنية، تقع الحدود بين المملكتين.

إن الخط الحديدي بين "المدّورة" و"معان" قد انتزع أثناء الحرب الكونية الثانية، من أجل إعادة تمديده بين معان والعقبة. وقد نجم عن ذلك الانتزاع الخلل الكبير الوحيد في الخط الحديدي بأسره، ذلك الشريان الذي يربط بين "المدينة "و"معان" و"دمشق". وإنه لفخر يستحقه صاحبه، وفضل عظيم نحن مدينون به إلى "ميستر باشا" وزملائه الذين أنشأوا هذا الخط فظل صامداً رغم عوادي الزمن، والإهمال الطويل الأمد، وعدم الاستعمال الذي امتد حوالي أربعين سنة، وإن كان في بعض أجزائه قد تعرض إلى جهل بني الإنسان فانتزعت قضبانه.

والجدير بالذكر أن الأمير علي أكبر أبناء الملك حسين قد سيَّر في سنة ١٩٢٤ عدداً من القطارات من "المدينة" إلى "عمَّان" على هذا الخط الحديدي دون أن يجد أية صعوبة في ذلك. وذلك للاحتفال بمناسبة زيارة والده إلى عاصمة "شرق الأردن". وقد مرت القطارات رغم ما كان يفترض أن يكون قد حلَّ بالخط من خراب على يدي "لورنس" ونسف عصاباته للقضبان خلال الحرب الكونية الأولى. لقد كان الخط كأحسن ما تكون الخطوط الحديدية التي تنشأ في أراض غير مضيافة لأمثاله.

ولربما عادت القطارات تدرج فوق هذا الخط في يوم من الأيام إذا شاءت الحكومة السعودية أن تنفق أموالها على مشاريع أكثر فائدة من تلك التي تحاول صرف أموالها عليها الآن! لكن...

ولقد سمعنا بأنباء إصلاح الخط الحديدي منذ ثلاثين سنة، غير أننا كنا على ما يبدو نتفاءل كثيراً طوال هذه السنوات الثلاثين.

كنت الآن مهتماً بالمناظر الواقعة إلى الغرب بالقرب من خرائب "القريَّة" أكثر من أي شيء آخر. وقد قيل لي أن الموقع لم يزره أوروبي واحد من قبل. وكان "دوتي" و"بورتون" و"موسيل" و"غروثرز" قد سمعوا "بالقريَّة" وتمنى كل منهم لو يزورها، غير أن أحداً منهم لم يتمكن من تحقيق أمله. أما أنا فقد استطعت أن أصل إلى تلك المنطقة في المساء.. لذا أكون أول من كشف القناع عن غوامض قرية نبطية أثرية.

ولم أدرِ إلا بعد ثلاث سنوات أن غيري قد سبقني إلى المنطقة، وذلك عندما أخبرني صديقي "جورج رينتز" من موظفي (الأرامكو) أن "برنارد مورتيز" ، وهو مستكشف ألماني معروف، قد زار المكان في سنة ١٩٠٦.

وقد نشر "مورتيز" هذا نتفاً من المعلومات عن جولاته في شبه الجزيرة العربية في كتيّب طبعته له إحدى دور النشر في "هانوفر" عام ١٩٢٣، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في سبقه إياي لزيارة المكان. والعجيب أنني لم أستطع العثور على أية تفاصيل عن زيارته هذه، مع أن المجلة التي كانت تنشرها كانت تصدر في بيروت سنة ١٩٠٦ أو في العام الذي تلاه.

والآن أخذت الطريق في صعود رفيق بعد أن غادرنا المحطة متجهين غرباً مارين بمجموعات من الصخور المنتشرة هنا وهناك على امتداد الطريق. وبعد مسيرة بضعة أميال بين هذه الصخور التي تدعى المجموعة الواقعة على يسار الطريق منها "عُظْمات البير"،

والمجموعة الواقعة على الجهة المقابلة "عُظام التعوس" – وصلنا إلى أحد المرتفعات. وكان اسما هاتين المجموعتين من الصخور قد أوحيا إلي بشكل هيكل عظمي منظره يقبض النفس.

أما المرتفع الذي وصلنا إليه الآن فكان أعلى من مجموعتي الصخور السابقتين، ويدعى "عظيمة المساعيد". وقد حجب عنا هذا المرتفع رؤية الوادي الذي كان يمتد من تحتنا، والذي كان "القريَّة" تقع فيه. غير أننا كنا نستطيع أن نرى سلسلة الهضاب الواقعة خلفه.

كان خرائب وعرائش "سرابة الحج". وأعلى تلال "الشعثة" تشكِّل المكان التقريبي لموقع محطة "ذات الحج" التي لاحت صوب الشمال الغربي، على بعد اثني عشر ميلاً أو أكثر. وكانت الفجوات ما بين التلال والمرتفعات مليئة بالرمال التي تشكل في بعض النقاط كثباناً رملية قليلة الارتفاع.

وقد وجدت قليلاً من النقوش عند صخور "عُظمة التعوس" .. وبعدها أسرعنا باجتياز هضاب "المساعيد" عن طريق واطئ تميزه صخور تشبه الأعمدة وتدعى "عُميدات الخريم". ومن تلك النقطة ألقينا نظرة إلى أسفل حيث يمتد سهل الوادي الفسيح الذي يعرف باسم "غويِّل الصل" غير أننا لم نعد نرى شيئاً من "القريَّة". وكان السهل الذي اجتزناه على طول الضفة اليسرى لشعب غويِّل مليئاً بالمواقع التي توجد فيها الرمال الكثيفة الناعمة، والحجارة وأكوام الرمال وبعض الصخور.

وتقطع الطريق الرئيسة التي تربط ما بين تبوك والمدينة عبر "حزْم" هذا السهل عند ممر يقع بين مرتفعات "عمارة العجوز" و"الذيابيَّة"، وهي نجود تبعد عنا مسافة معتدلة إلى جهة اليمين.

وما أن عبرنا تلك النجود حتى وقعنا على أول إشارة تدل على الحضارة القديمة، وهي عبارة عن حقول رصّت فيها الصخور على شكل صفوف شبه منظمة وبينها آثار بيوت خربة. وانقضت عشر دقائق، ثم باشرنا في نصب خيامنا على مقربة من الزاوية الشمالية الغربية للمدينة الأثرية ذاتها.

كنت أعتزم البقاء في هذا المكان طوال المدة اللازمة لإتمام استكشاف منطقة القرّية" وجوارها. غير أن أكثر ما كان يشغل اهتمامي، هو إعادة تنظيم أمر المرافقين. ولشدّ ما أسفت لأن زعل لم يكن قادراً على مرافقتي. كما أن علي ثروة قد أعاد تعيين كل من: عطاالله، وعبدالله بن قعم، والرجلين الآخرين اللذين رافقاني في بعثة الروافا، وهما محمد دُخيّل، وحامد بن وايل. وقد عيَّن الآخيرين كحرس لي.

وعلى الرغم من المصاعب التي تعرضنا لها حتى الآن، فإنني لم أستأ كثيراً لهذه الترتيبات، على أمل أن يكون هؤلاء المرافقون – وقد عرفوا الطريق التي أتبعها في عملي – أدركوا ضرورة قيامهم بمجهود أكبر يساعدني على تحقيق مهمتي. غير أنهم أثبتوا، حتى خلال اليومين الأولين من وجودهم معي، أنهم لا يعتزمون القيام بأي مجهود! لهذا قررت التخلص منهم.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، جلست معهم حول موقد النار وأبلغتهم أنني أضع السيارة تحت تصرفهم لتنقلهم إلى "تبوك"، مع رسالة إلى علي ثروة، أشرح له فيها الأسباب التي صرفتهم من أجلها. حقاً كان مهمة إيجاد الأدلاء واحدة من المشاكل المزمنة التي صادفتها في جولاتي الكثيرة.

والحق، أن إيجاد الأدلاء أمر من اختصاص السلطات، حتى تكون هي المسؤول عنهم. وللمسؤولين في هذه السلطات يد مطلقة في اختيار من يشاؤون للقيام بهذه المهمة.

غير أنه بالنظر للفوائد التي قد يجنيها هؤلاء المرافقون من خدمتي، جعل أولئك المسؤولون يعيّنون أقاربهم وأصدقاءهم لذلك العمل.

وقد أوضحتُ لهم المرة تلو المرة، أن كل ما أطلبه منهم هو أن يزوّدوني بأدلاء محترفين على معرفة كافية بالمنطقة. كما صارحتهم أيضاً بأنني على استعداد للتغاضي عن جميع النقائص الأخرى، كالنقص في كميات الغذاء التي يزودونني بها.. وما أشبه ذلك. . إذا قدّروا حقيقة أني لن أستطيع القيام بعملي على الوجه المرضي دون دليل كفؤ. وعلى هذه الصورة فقط أتمكن من تجنُّب الهفوات التي لابد أن نتعرض لها، نتيجة قلة معلومات الأقارب والأنصار بالمنطقة! ولكن المشكلة ذاتها كانت تبرز في كل مرة. لقد ظلوا لا يفهمون لماذا أريد شخصاً يعرف أكثر من هدايتي على الطريق !!

وفي هذه الحادثة، أستطيع أن أقول: أن عطا الله وعصابته كانوا مسرورين بمغادرتي مثل سروري برؤية آخر رجل منم يختفي عن ناظري، وإن كنت غير متأكد من أنه اختفى بالفعل. وقد تمكنت من التنفس براحة، بعد ساعة أو حوالي الساعة، عندما رأيت السيارة تبتعد بهم نحو تبوك.

كان احتمال وجود القهوة والأغذية معي في المخيم، قد جذب الراعيين الوحيدين في المنطقة، فعينتهما كدليلين لي خلال الفترة التي سأمضيها في "القريّة". والطريف أن كل واحد منهما كان يدعي "سلمان" وكذلك فإن كليهما كان من قبيلة بني عطية ومن فخذ "رُبيْلات". وقد أقمت أحدهما لحراسة المخيم ريثما تعود السيارة مع المرافقين الجدد، وتركته هناك، بينما توجهت مع الأخر لتفقد المناطق المحيطة بالصخور العالية التي تشرف على الخرائب.

وقد مرت طائرة فوقنا ونحن ماضيان في طريقنا فقدرت أننا كنا نسير في الطريق الصحيحة التي تربط بين "جدة" و"دمشق".

كانت القلعة المشادة على التل المعروف باسم "تل القرية" مدهشة فعلاً، فهي تبلغ حوالي ألف ياردة طولاً وثلاثمائة ياردة عرضاً، ويشرف طرفها الشرقي على المدينة. وهو عبارة عن صخور صلدة يبلغ ارتفاعها حوالي ٤٠٠ قدم. وكذلك كان طرفا هذه القلعة الشمالي والجنوبي، مؤلفين من صخور مماثلة يتراوح ارتفاعها بين ٢٠٠ — ٤٠٠ قدم، وتمتد إلى ما يقرب من ٦٠٠ ياردة. وفي هذه النقطة، وجدت أن الصخور قد انشقت فملأت ما بينها الرمال والحجارة، في حين ظل الجزء الغربي المواجه للسهل منيعاً كجدار صامد.

كانت الأماكن التي تشققت فيها الصخور تكوّن مسارب وفجوات يمكن القول بأن الصعود فيها إلى القمة رغم وعورتها، يكاد يكون سهلاً بالنسبة للمشاة والدواب على حد سواء. إلا أنها لم تكن صالحة أبداً لأي نوع من أنواع الآليات التي تتحرك على عجلات. وقد تدارست أنا و"سلمان" رقم (١) أمر الصعود إلى القمة عبر الجهة الشمالية، حيث نصعد إلى أعلى بقعة فيها، وهي برج للمراقبة تبلغ مساحته ٢٥ قدماً مربعاً.

وإلى جانب هذا البناء الذي يشبه القلعة، (أو ما تبقى منه في بعض الحالات) لم أستطع أن أجد أي أثر يدل على وجود إنشاءات من أي نوع كان وخصوصاً في الرقعة الواقعة ما بين الجدارين والصخور التي تنحدر من عندهما على شكل قسمين متساويين. وحتى لو كانت هناك أية إنشاءات، فإنها ستكون قد اندثرت بفعل الأمطار التي هطلت عبر السنين، بل القرون، ثم انحدرت من أعالي الصخور فجرفتها السيول معها. هذا، مع أنني لم أجد أي أثر لحجارة متساقطة عند سفح الصخور، الأمر الذي يؤكد أنه لم تكن هناك أية بنايات أخرى غير هذه القلعة.

وفي الوقت ذاته فإن المنطقة لا زالت مليئة بالآثار التي تشير بأنها كانت مأهولة بالسكان. وقد وجدت هذه الآثار في شقوق الأرض وبين الصخور. ولعل المكان قد

استعمل كملجأ من قبل أهالي "القريّة" عندما كان يلم بهم خطر. وهنالك في الأمر رأي آخر، إذ أنه :

ألا يجوز أن هذه القلعة كانت مخصصة للقيام باحتفالات لها علاقة ببعض الطقوس الدينية؟

ليس هنالك من يستطيع تقرير الصحيح إلا أحد علماء الآثار بعد أن يحضر إلى هذا المكان لإجراء البحوث اللازمة.

وفي كلتا الحالتين، فإن من المحتمل أن يكون الناس الذي سكنوا هذه المنطقة قد أقاموا في خيام أو في العراء أثناء المدة التي مكثوها هنا حاملين معهم ما يحتاجون إليه من مواد غذائية وماء في جرار وقدور، تلك الجرار والقدور التي كنت أستطيع أن أرى آثارها في كل مكان أتوجه إليه. وخاصة في المنطقة الشرقية التي لا يمكن تفسير وجود الحطام فيها، إلا بأن هذه الجرار والقدور قد ألقيت من علٍ بعد انتهاء الغرض الذي أُحضرت من أجله.

وقد وجدت في أكثر من مكان واحد، العديد من النقوش. وكان أكثر هذه النقوش ثمودية يوحي بعضها بأنه ذو أهمية أثرية، والثمودية منها بصورة خاصة، وبعضها بالغة من جراء إغراقه في القدم. وأخيراً وجدت بالقرب من الطرف الشرقي للوجه الشمالي للصخور، مغارتين ترتفعان ارتفاعاً طفيفاً فوق سطح الأرض. وقد قمت بفحص هاتين المغارتين فحصاً شاملاً بعد ظهر أحد الأيام.

كانت أسوار القلعة صلصالية ترتفع حوالي مائة قدم عن قاعدتها، ثم تغدو حجراً رملياً خشناً بنيّ اللون. أما منظر المغارتين من المكان الذي أقمنا فيه مخيمنا فيوحي — لأول وهلة —، بأن النبطيين كانوا يحاولون جعل هذه الصخور مكاناً صالحاً يسجّون فيه موتاهم. غير أن أحد النقوش التي وجدتها بالقرب من المغارتين أوضح لنا أن وجودهما هناك كان نتيجة عامل النحت الطبيعي في الصخور.. إذ أنه بالنظر لشدة ملاسة القاعدة التي ترتفع

فوقها التلة، تلك الملاسة الاصطناعية التي يعتقد بأن للإنسان نصيباً فيها، فقد اختيرت المنطقة لتكون مقبرة عامة للقاطنين.

كان مدخل المغارة الأولى وأسمّها "الناووس الأول" مسدوداً بقطع كبيرة من الصخور بينها شيء من "المؤونة". أما مدخل الناووس الثاني فيبدو أن الباحثين عن الكنوز قد فتحوه، عنوة، فتساقطت قطع من الحجارة المتكسرة إلى داخله كما تساقط بعضها الآخر خارجه عند قاعدة الجدار.

والناووس الواحد عبارة عن غرفة يبلغ عرضها عند المدخل ١٥ قدماً ثم تضيق في الداخل إلى عشرة أقدام. أما طولها فيبلغ ٥٠ قدماً ابتداء من المدخل. ويبلغ ارتفاع سقفها ١٥ قدماً. وقد لاحظت أن الجدار الداخلي قد نُقر في موضعين، ولست أدري السبب في ذلك. وقد حيّرني أنه لم يكن في المنطقة أي اثر لأية قبور أخرى كعادة النبطيين في أن يقيموا أضرحة موتاهم قرب الصخور.

والجدير بالذكر أن الناووس بأسره من قاعدته حتى سقفه قد تم نحته، (سواء أكان ذلك طبيعياً أم اصطناعياً) داخل الصخرة. وان جدرانه، مزركشة بنقوش تدل على قرون حيوانات مختلفة أو أمشاط. أما أرضه فهي زاخرة بعظام أشخاص وجمال، الأمر الذي يوحي بأن الضباع قد جلبت هذه العظام إلى المكان من قبور مجاورة.

كان الناووس الثاني أعلى من سابقه قليلاً، وهو مثله منحوت في الصخر بكامله باستثناء قدمين عند مدخله نحتا من الطبقة الترابية، الأمر الذي يشير بوضوح إلى أن النحت كان من صنع بني الإنسان. ولم يكن مدخل هذا الناووس مسدوداً (كسابقه) بالصخور المبنية، بل بطبقة من الحجارة والشظايا والأتربة التي تكدست فوق بعضها فشكلت شبه جدار سميك. ويجوز أن يكون سارقو القبور هم الذين دفعوا بهذه الأنقاض إلى الخارج.

والناووس مؤلف من قسمين: الأول، وفيه غرفة خارجية عرضها ١٥ قدماً وطولها ٢٥، أما ارتفاعها فحوالي ١٢ قدماً. والثاني، وفيه غرفة داخلية ضيقة لا يزيد ارتفاعها على ثلاثة أقدام. وتمتد من فتحة في الجدار الخلفي مسافة تقدّر بحوالي ثمانين قدماً حتى تصل إلى الصخور الصلدة.

ومرة ثانية لم أستطع أن أجد أثراً لأية قبور من أي نوع كان. بالرغم من أن البقعة كانت تزخر بالهياكل العظمية البشرية، وعظام الجمال، كما هو الحال في الكهف الأول. وقد حملت من هذا المكان جمجمة بشرية كاملة، هي الآن في متحف جدة.

وقررت أن مضي يومي الثاني في فحص شامل لأوجه النشاط الزراعي في المنطقة. غير أنني قمت بتمضية النهار في القلعة لإجراء مسح عام لجدران المدينة. وما أن جلست في المخيم، بعد غياب الشمس وحلول الظلام، إلى جانب دليليّ "السليمانين"، حتى كدّر صفو سكون الليل عندنا صوت سيارات تقترب. وسرعان ما اتضح لنا أن "عطا الله" وجماعته قد عادوا من "تبوك".. ومعهم "زعل" الذي رحبت بمقدمه كثيراً. وان يحمل معه رسالة من "علي ثروة" يقترح فيها أن اقبل توظيف الجميع، وإن كان قد ترك لي الخيار في إرجاعهم إذا ما رغبت عن توظيفهم.

وعقدنا شبه مجلس حرب تدارسنا فيه الموضوع. ونتيجة لهذه الدراسة، قرر المجلس تعيين زعل، وابن دُخيّل وبقاءهما للقيام بشؤون الطبخ وما إلى ذلك، على أن يعود الباقون في سيارة الأمير التي حضرت برفقة سياراتنا.

وقد وضعت شرطاً واحداً ينص على أن يتوجه زعل في صبيحة اليوم التالي إلى "ذات الحج"، ليختار بنفسه من هناك دليلاً كفؤاً لمرافقتنا في الرحلة القادمة.

كان هذا الشرط ضرورياً، لأن "السلمانين" لم يكونا راغبين في ترك المنطقة. ثم لأنهما اعترفا لي بصراحة أنهما يجهلان كل شيء خارج هذه المنطقة الضيقة الحدود. وفي الحقيقة

أنهمـا لم يكونـا كـثيري المعـلومات، حـتى بالنسـبة لمنطقـتهما الضـيقة، وإن كانـا أمينين ساذجين، تلذ للمرء رفقتهما.

وفي صبيحة اليوم التـالي – حسبما تم الاتفاق – عليه بقي "ابن دُخيّل" و"السيد" في المخيّم إلى جانب سيارتنا، بينما توجه "زعل" وبقية الرجال، بما فيهم "السلمانان" في سيارة إلى تبوك. وقد رافقتهم حتى النقطة التي كنت أزمع القيام فيها ببعض الأبحاث عن أوجة النشاط الزراعي والحضاري في هذه المنطقة. وكان السهل الفسيح قد ضاق هاهنا نتيجة لانعطاف الهضاب العالية إلى داخل السهل من ناحيتين.

هذا هو السبب الذي جعل الأقدمين يختارون تلك النقطة بالذات ليبنوا فيها سدّاً طويلاً يحتجز مياه السيول، حيث يستعملونها لري محاصيلهم فيما بعد. وكان لهذا السد طابع مميز وإن كان شكل بنائه فظاً للغاية، فهو من الحجارة غير المستوية وقطع الصخور غير المشذبة، إلا أنه كفؤ للقيام بالمهمة التي أنشئ من أجلها.

هنا بدأت مسيري من عند الهضاب الواطئة الممتدة من الطرف الغربي للسد حيث تقوم صخرة كبيرة كعلامة تشير إلى الطريق الذي يجب أن يُتبع. وظللت أسير حتى وصلت إلى لطرف الأبعد، في الجهة الجنوبية الشرقية. وقد رأيت فجوة في امتداد هذه الهضاب عند منتصفها، وأنا أعتقد بشكل جازم أن هذه الفجوة قد حدثت بفعل الفيضانات التي وقعت مؤخراً، مع أن هنالك آثاراً يمكن أن تدل الناظر إليها على أن سبب الفجوة يعود إلى أن المياه الفائضة عن استيعاب الخزان، كانت تتسرب إلى ذلك المكان فأحدثت الفجوة مع مرور الأيام.

وترتفع قمة الخزان مائة قدم عن سطح قاعدته. أما جداره الصخري فيمتد مسافة ١٣٣ ياردة. وهنا يبدأ السد الحقيقي.وهو عبارة عن ملء فجوة واسعة من الصخور والتراب.. لم أستطع أن أجد فيه أثراً لأي نوع من أنواع البناء. وقد تتبعت امتداد الفجوة

مسافة ٣٨٣ ياردة، حتى وصلت إلى فتحة الفجوة التي يبلغ طولها ٨٧ قدماً. وهناك وجدت شجرة طلح يتيمة متوسطة الحجم، ترتفع فوق الفتحة مباشرة.

يمتد السد من عند الطرف الأقصى لفتحته الخارجية حتى طرف الضفة اليمنى مسافة ٥١٨ ياردة. وهو يتميز هنا ببناء مستطيل عالٍ مشيد من حجارة كبيرة غير مشذبة، يبلغ طول الحجر الواحد منها ٢٩ قدماً وعرضه ١٢,٥ قدماً.أما الغرض الذي أنشئ هذا البناء من أجله فمن الصعب على المرء أن يخمنه.

وتحت هذا البناء كان السد يواصل امتداده، ويغدو جداره مكوناً من حجارة كبيرة متلاصقة. ويبلغ امتداد السد من تلك النقطة ٢٣٦ ياردة، ثم ينتهي بشبه برج مربع حسن البناء تبلغ مساحة قاعدته ١٥ قدماً مربعاً وارتفاعه عشرة أقدام. وقد اندثر جداران من البناء المربع وصمد الآخران. وهكذا فإن طول السد في مجموعة يبلغ ١٢٥٧ ياردة، منها ٨٨٨ ياردة هي طول القسم الذي يمر فعلاً بالسهل السابق الذكر. ومن هنا كنت أستطيع أن أرى دعائم تسند جدار السد الذي يمتد جوياً.

هذا وتمتد من سفح تلة القلعة على مقربة من الناووسين اللذين سبق الحديث عنهما، مجاري مياه قليلة العرض طولها ٥٠٠ ياردة. وهي تتجه صوب الشمال الشرقي، ثم تنعطف إلى اليمين نحو أجمة من شجر الطرفاء (عَبَل)، عند مجرى شعب القريّة، القريب من الأسوار الشمالية للمدينة. ويلتقي هذا المجرى عند منحناه بمجرى آخر يخرج من سفح قلعة صخرية على بعد ٤٠٠ ياردة من الناووسين.

ويبدو أن هذين المجريين قد صُمما كي تسيل فيهما المياه التي تنزلق عن الصخور فيجمعانها في قناة صغيرة تؤدي إلى قاع الشعب. ويبدو أن أجمة الطرفاء هي كل ما تبقى قائماً من حديقة غناء كانت ملحقة بعدد من البنايات تقع على الضفة اليمنى للقناة.

ويمكن القول بأن هذه المنطقة كانت تضم قصر حاكم المنطقة ، أما احتمال أنها كانت تضم أروقة ومباني لمعبد قديم فلم يكن احتمالاً قوياً. ولذلك رجحت الاحتمال الأول وأشرت إلى البنايات الموجودة هنا على خريطتي بأنها معابد "إلهة الماء المحلية".

ومن حسن الحظ أن مراجع النقوش السبئية التي تشير إلى "منزهات" أو – آلهة الماء – كانت ذات أهمية كبيرة في الحياة الاقتصادية في تاريخ شبهُ الجزيرة العربية خلال فترة ما قبل الإسلام – تبدو وكأنها تبرر هذه التسمية.

ولا يعني هذا أن الأمر صحيح والحكم قاطع. كلا ، إن الحقيقة الكامنة تحت الخرائب هناك لا زالت مجهولة ، ولن يعرفها العلم ، إلا بعد إجراء تنقيبات كثيرة على يد خبير مختص يدرس الموضوع قبل المباشرة بالعمل.

لم أجد في هذه المنطقة أي شيء مثير ، غير بعض القطع من الفخار والزجاج ، (وهذه الأخيرة غير مألوفة مطلقاً في خرائب منطقة القريّة). كما وجدت بعض الأدوات العادية التي لا فائدة منها. ولا يكاد ما تبقى من المعبد يعطي المرء فكرة عنه ، ولولا أساسه لما استطاع المرء أن يكوّن فكرة تقريبية عن مساحته.

وقد قمت بما وسعني من تدقيق فوجدت أن الجدار الشرقي لذلك المعبد يمتد باتجاه يجري من الشمال إلى الجنوب ، ويبلغ طوله حوالي ٨٥ قدماً. بينما يقترب طول الجدار الشمالي من ٧٠ قدماً. وضمن هذا المستطيل وجدت زاويتيه الشمالية الشرقية والشمالية الغربية تحتويان على غرفتين كبيرتين تبلغ مساحتهما ٢٧ × ٤٠ قدماً. أما القسم الداخلي منه ، وهو إلى اليسار على شكل غرفة أكبر فيبدو أنه كان ساحة المعبد.

وتضم بقية المكان أربع غرف صغيرة ، (ولعلها أربع ممرات لا حجرات) طول الواحدة منها ، من الشرق إلى الغرب ٤٠ خطوة ، أما عرضها فيتراوح بين ٩ و ٧ أقدام.

وقد قدّرت سُمك جدران المعبد بـ ٢,٥ قدماً، معظمها من الحجارة غير المشذبة، رغم أن بعض أجزاء هذه الجدران كان مشيداً من حجارة رائعة التشذيب.

ويبقى البناء المجاور.. كان مؤلفاً من غرفة واحدة مساحتها ٣٠ × ٢٥ قدماً، يمتد جدارها الشمالي بموازاة الجدار الجنوبي للبناء الرئيسي ويبلغ طوله ٣٠ قدماً.وكان هنالك بناء آخر مؤلف من غرفتين على موازاة القسم الشمالي من المعبد.

ويفصل هذا البناء عن المعبد ممر عرضه سبعة أقدام. أما مساحة الغرفتين فكانت ٥٠ × ١٨ قدماً مربعاً للأولى و ٥٠ × ٣٨ قدماً مربعاً للثانية.

ويمكن القول بأن بناية من البنايات الأخرى التي تُذكر في منطقة الخرائب في القرّية، تقع خارج السور الدائري عند زاويته الجنوبية الشرقية، وفي طرف المدينة من جهة السدّ حيث توجد قناة "رَف". وقد أطلقتُ على هذا المكان اسم "القصر"، رغم أنه أقرب إلى أن يكون مقرّ دائرة الريّ المسؤولة عن الإشراف على تنظيم تصريف المياه.

ولقد وجدت في المنطقة المجاورة "للقصر"، في نقطة بين السور والوادي، مجموعة من الخرائب المبعثرة ربما كانت بيوت موظفي القناة. أما القصر هذا فقد كان البناء الوحيد بين مجموعة بيوت "القرية" الذي ظل قائماً، مع خرابه، رغم عوادي الزمن. وكانت أقسام كثيرة من جدرانه ما تزال بحالة سليمة، خاصة ذلك القسم الذي شيد من حجارة مصقولة، وهو عشرة "مداميك" يبلغ ارتفاعها ١٥ قدماً.

وقد ذكرني هذا القسم من البناء، مع عدد من الأقسام الأخرى، بالمعبد الذي رأيته في "روافا". ولابد أن البناءين يرجعان إلى تاريخ واحد.

ويقوم القصر على هضبة طبيعية في الغالبة، (وعلى الأقل قسم منها)، يتراوح ارتفاعها بين ١٥ و٢٠ قدماً خارج موقع المدينة. ويمتد جداره الغربي بموازاة سور المدينة لا يفصله عنه إلا ممر صغير. ويبدأ هذا الجدار على بعد ثمانين ياردة إلى الشمال من زاوية

المدينة الجنوبية الشرقية، حيث يمتد شمالاً مسافة تعادل ٢٧ ياردة. والياردات العشر الأولى تابعة، كما يبدو، إلى شرفة متصلة بالبناء الرئيسي الذي يبلغ طول واجهته المقابلة للمدينة ٢٧ ياردة.

أما عرض البناء من الغرب إلى الشرق فيبلغ حوالي ١٧ ياردة. ويتألف داخله على الأغلب من غرفتين رئيسيتين، وغرفتين أخريين اصغر حجماً يفصلهما ممر يقود إلى الداخل عبر بوابة في الجدار الغربي.

وأحسن أقسام السور حالة هو الجزء الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية، حيث بقيت حجارته على حالها. وهذه النقطة هي أعلى نقطة في خرائب البناء، ومنها يمتد السور الجنوبي مسافة ٢٢٠ ياردة باتجاه الزاوية الجنوبية الغربية. وتلوح البوابة الرئيسة قرب تلك الزاوية مدعمة بجدارين ليسا على علو كبير (بين ٨ — ١٠ ياردات). ويقع طرفا هذين الجدارين في الخارج قرب بناء صغير الحجم لعله كان يستخدم مقراً للحرس.

أما القسم الآخر من الجدار الذي يميل قليلاً إلى الشرق، فيبلغ طوله حوالي ٢٤٠ ياردة بعيداً عن الزاوية الجنوبية الشرقية. وهو ينقطع عند فجوة يعتقد بأنها كانت بوابة تسهل مرور القادمين من الشمال والشرق. وهناك خط مستقيم يربط ما بين البوابتين يشكل قاعدة لشبه منحرف كان يضم أكثر بقاع المدينة احتشاداً بالسكان. أما اليوم فإن هذا الخط مهدّم تراه في حالة يرثى لها من الفوضى.

وكان مخيمنا خارج خرائب المدينة عند زاويتها الشمالية الغربية على الضفة اليمنى لشعب القريّة. ولعل هذه الخرائب ستصبح في يوم من الأيام موضع اهتمام علماء الآثار فيدرسونها ويقومون بإجراء الحفريات فيها.

وعند ذلك فقط يمكننا أن نلم بمعرفة شيء حاسم عن الناس الذين قطنوا هذه الخرائب أيام مجد الحضارة النبطية. ولعلهم، كما يبدو، قد سكنوها قبل هذا العهد.

هـذا ويختلف ارتفـاع "القريّة" عـن مستوى تبوك من نقطة إلى أخرى، وربما كان يزيد على ارتفاع تبوك بحوالي مائتي قدم.

كـانت السـحب الكثيفة قـد غـلّفت السـماء ليـلة وصـولنا إلى "القـرية" غـير أن هـذه السحب انقشعت خلال السـاعات الأولى من صبيحة اليوم التالي. لكن بعضها عاد في اليوم الـذي تـلاه فتسـاقطت بضـع قطـران من المطر. أما الطقس فكان لا بأس به، إذ كانت درجة الحرارة الدنيا أثناء الليل ٥٢ درجة فهرنهايت.،

ولـم تكـن الليـلة الثالـثة الـتي أمضيناها في القـرية سـارة كالليليتين السابقتين. لقد هبت فيهـا ريـاح قارصـة الـبرودة، بدأت منذ ظهر ذلك اليوم واستمرت طوال الليل. وقد هطلت الأمطـار بغزارة عند منتصف الليل، الأمر الذي دفع بمرافقي إلى التماس ملجأ لـهم من هذا "الـدوش" الـبارد في الناووسـين، حيث بقيا برفقة الجماجم والـهياكل العظمية ومختلف أنواع العظام. ولكنهم خرجوا بعد تلك السهرة الممتعة، وثيابهم جافة.

وقـد رأيـت إلى شمـالـنـا سـحباً كثيفة داكـنة تـنذر بهبوب عـاصـفة هوجـاء، كما تدنت درجـة الحرارة حتى بلغت ٤٠ درجة فهرنهايت. ومع ذلك فقد أشرق فجر ذلك اليوم دافئاً. أمـا ليـلة اليوم السادس من فبراير (شباط) فقد شهدت انخفاضاً جديداً في درجة الحرارة، إذ بلغت ٣٦ درجة فهرنهايت.

ومـرة أخـرى كـان نهـار اليوم الذي تلا تلك الليلة جميلاً، وإن كانت ترافقه نسمات بـاردة تلسـع الوجـوه. وكـان مـن الواضـح أن هذه هي بوادر اقتراب الشتاء بشكل تدريجي، مع العلم بأننا سرعان ما سنصبح في شتاء حقيقي عندما نصل إلى صحراء "الحسـمة".

هذا وكانت ندرة وجود البدو في هذه المناطق تهدد بخلق مشاكل خطيرة تعترض إعادة تشـكيل الجماعـة الـتي سترافقني في رحلتي القادمة. تلك الرحلة التي ما كنت لأقوم بها إن لم أحصـل عـلى أدلاء أكفـاء. وكـان مـا يهمـني الآن أن أحـافظ عـلى من تـبقى معي مـن

الرجال، حتى عودة الجماعة التي توجهت إلى "ذات الحد" للبحث عن الأدلاء، وإحضار دليل واحد على الأقل.

وقد عادت الجماعة دون أن تحضر معها أحداً غير الضابط المسؤول في مركز شرطة "ذات الحج" الواقع على الحدود، ويدعى "ابن مزيد". وكان هدفه الوحيد من الحضور، التوسط لدي كي أقبل إعادة توظيف "عطاالله" وزملائه!

وقد أخبرته بكل رقة تتناسب مع رتبته، بوصفه مسؤولاً عن مركز شرطة مهم، وإن كان مغموراً في أقاصي شبه الجزيرة العربية، إنني لا أستطيع قبول رجائه. وذلك نتيجة لتجاربي السابقة مع هذه الزمرة.

ثم أضفت إلى ذلك قائلاً إنه كان لطيفاً جداً حين كلف نفسه مشقة الحضور بنفسه لمساعدتي على تحقيق مغامرتي وإن أقل ما أرجوه منه هو أن يجد لي الدليل الذي أنا بحاجة إليه، قبل أن أخاطر بترك "القريّة" ولو أمضيت في متاهات المنطقة بقية حياتي إذا لزم الأمر.

وأخيراً، وبعد مضي وقت طويل بعد ظهر ذلك اليوم، غادرنا مزيد برفقة عطاالله وعصابته للبحث عن الدليل الذي أريده في مضارب البدو المجاورة. وأنني لشاكر له تجشمه المشاق في سبيل مساعدتي، إذ أنه عاد في ساعة متأخرة من الليل، ومعه رجلان من قبيلة بني عطية جاء ليخلفا "السلمانين" اللذين دفعت لهما أجرهما، ثم غادرانا وهما في غاية السرور، لأنهما قد تخلصا من رفقتي والعمل معي.

وقد أثبت خلفاهما "سليمان" و"حويمل" أنهما أكثر كفاءة من سلفيهما، ضمن حدود منطقتهما على الأقل.

وقد شرفني "ابن مزيد" ببقائه ليلتين في المخيم، غادرنا بعدهما ومعه عطاالله وجماعته، ولم أرهم بعد ذلك أبداً.

وهكذا أعدت تنظيم جماعتي التي تألفت من زعل و"ابن دخيل" والشر الذي لابد منه "السيد"، والدليلين الجديدين. وقد تنفست الصعداء إذ تأكدت أنني قد تخلصت نهائياً من رفقة عطاالله وجماعته، تلك الرفقة كانت تبعث في نفسي قلقاً شديداً لا يجعلني أطمئن إلى أي واحد منهم على الإطلاق.

وقمت برفقة الدليلين الجديدين بزيارة تلة القلعة مرة ثانية، لأتأكد من أسماء المواقع التي أعطاها لي السلمانان. وقد حدث ما توقعته، إذ أنني أجريت بعض التصحيف في تلك الأسماء. وهو أمر مألوف عند المستكشفين في شبه الجزيرة العربية، وإن كان يثير القلق فعلاً. وأكثر ما كان التصويب في أسماء قمم الجبال والقنوات وبعض الوديان.

وقد أخبرني دليلاي عن وجود خرائب في مرتفعات تدعى "أم رقبة"، ومكان آخر لا يبعد عنها كثيراً. وعلى هذا الأساس خصصت قسماً من اليوم التالي، وهو آخر يوم لنا في "القرية"، للقيام بزيارة تلك الأماكن بعد أن قطعنا وادي "مُسْويغ"، وهو واد رملي فسيح، ومررونا على طول امتداد هضاب "أم رقبة"، دون أن نشاهد شيئاً ذا أهمية تذكر، صعدنا بمحاذاة مجرى "خريف الظُبا" حيث وجدنا في واديه الواسع كثيراً من الشارات الحجرية والقنوات الصخرية والجدران الخربة. وربما كانت هذه هي الخرائب التي أشار إليها الدليلان.

وعلى بعد بعضة أميال من هذه الخرائب، وصلنا إلى خرائب مدينة كبيرة تقع فوق هضبة تعرف باسم هضبة "خريف الظبا". وقد تسلقنا الجدار الشمالي الغربي حتى قمته، وهناك لاحت لنا مرتفعات أم رقبة في الجهة الجنوبية الشرقية بينما المحنا مرتفعات شرورا في الجهة الشرقية تماماً. وكان خط امتداد هذه الخرائب – بعد أن يسير مسافة مائة ياردة باتجاه الشرق – ينعطف حوالي مائة ياردة أخرى باتجاه الشمال الشرقي. وعند ذلك الانحناء كانت الخرائب متراكمة فوق بعضها في حالة مزرية من الفوضى وكأنها ليست أكثر من رجوم متراكمة بعضها فوق بعض، بحيث لا يستطيع المرء أن يقدر أنها آثار عمران

وبنايات. وكنت أجد هنا وهناك قطعاً من الحجارة المصقولة، بعض الأواني القديمة وقطع الفخار العادية وزلف البحر.

والقسم الشمالي لهذه الخرائب، تفصله قناة ماء قديمة شكلها أقرب إلى الخليج. وهناك ما يشير إلى وجود سد خرب. وقد وجدنا مجموعة أخرى من الخرائب فوق هضبة مماثلة للأولى، إلا أن محورها يتجه من الغرب إلى الشمال.

ولم يكن يبدو عليها أنها تستحق الزيارة، ومع ذلك فقد بعثت "حويمل" ليرى ما هناك، ولما عاد أخبرني أنه لم يجد شيئاً يستحق الذكر غير بعض الهياكل العظيمة، وجدها بين الصخور. ومن الغريب أن هذه القرية كانت تقوم على أرض مفتلحة ملاصقة للوادي، ويبدو من مظهرها أنها كانت تفتلح من قبل العبيد لحساب أسيادهم من النبطيين.

هذا وقد عدنا متبعين طريقاً أكثر استقامة من تلك التي سلكناها في مجيئنا، وذلك عبر قناة "خريف الظبا" – أو لعل الاسم "حارف الظبا" – مارين بحزام عريض من الكثبان السافية الرمال.

وخرجنا من هناك إلى وادي "مسويغ" وأراضيه الزراعية، التي ترويها قناة ماء خاصة كانت عامرة في سالف الأيام. وان من السهل أن نتتبع مجرى هذه القناة حتى منبعها، خصوصاً وأنني أعرف أن الأعراب في الأزمنة الحديثة يتتبعون مجرى القنوات حتى منابعها الأساسية. ومن هناك يستقون الماء إذا وجدوه. ولكنهم قليلاً ما يفعلون.

ولا حاجة إلى التأكيد على أنه بقيل من الجهد، وبعض الاعتمادات المالية، يمكن للسلطات أن تعيد لهذه المنطقة خصبها وثراءها السابقين عن طريق حفر الآبار. وحينئذ يستفيد سكان هذه المناطق التي يعيشون في حالة مزرية جداً، خاصة بعد أن منعوا من تقاضي الجعالة من الحجاج أو من غيرهم من المارة.

وقد أخبرني دليلاي، أن ثمة خرائبَ مماثلة لهذه توجد في مكان يدعى "أم العويضر"، فتوجهنا إلى هناك في اليوم التالي، وهو السابع من شهر فبراير (شباط). وهو اليوم الذي غادرنا فيه "القرية" إلى الأبد. وقد انحرفنا تجاه الشمال الغربي ومررنا من أقصى ذراع هدب "عِمارة العجوز"، ثم سلكنا الطريق الرملية الواقعة بين "مسويغ" ووادي "القريّة" حتى وصلنا إلى الطريق الوعرة "للقرية" عند التقائها بمجرى شعب "حارف الظبا"، لنصل من هناك إلى سلسلة من الصخور منبثقة من هضاب "عمارة العجوز".

ولما كانت الطريق صعبة جداً، فقد أمضينا عشر دقائق من العذاب حتى قطعنا رافد شعب "طَف" لنهبط إلى طريق السيارات الرئيسية التي تجري على امتداد الضفة الجنوبية لشعب "غال". وحينئذ كان علينا أن نتجه أكثر وأكثر إلى الشمال الغربي على طول امتداد قناة ما لبثنا أن قطعناها بعد بضعة أميال حتى سرنا في حاشية "الذيابية" ومن هناك اتجهنا إلى الشمال. وسرعان ما وصلنا إلى وادٍ فسيح يدعى وادي "زيتا".

وقد اتصلت في هذه النقطة طريق السيارات القادمة من "ذات الحج" بالطريق الذي كنا نسير عليها، بموازاة الضفة اليمنى للوادي. غير أننا لم نلبث أن أُجبرنا على التوقف عندما غرزت عجلات سياراتنا في وسط الدلتا. وكانت هذه مليئة بإمارات تدل على أن المنطقة قد شهدت حضارة قديمة راقية، حيث امتدت فيها القنوات التي أراها الآن في حالة تامة من الخراب. وتقع هذه القنوات على الضفة الشمالية لسلسلة صخور "أم العويضر".

ووجدنا مقابل السلسلة الصخرية القصوى، عدداً من الصخور العالية تتوجها خرائب كثيرة تشبه تلك التي رأيناها في "خريف الظبا". وقد اخترت كبرى هذه الصخور لأجري عليها فحصاً شاملاً فتوفر لدي ما يلي:

كان ارتفاع هذه الصخرة مائة قدم، أما طولا فيبلغ خمسمائة ياردة تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. وأن عرضها يتجاوز ٢٥٠ ياردة بقليل.

أما التلة الصخرية الثانية فكانت تمتد إلى الشرق حوالي ٦٠٠ ياردة. وكان هنالك صخرة ثالثة طولها ٥٠٠ ياردة تمتد باتجاه جنوبي غربي، ورابعة طولها خمسمائة ياردة أيضاً وتمتد باتجاه الغرب.

والجدير بالذكر أن هذه التلات الأربع تشكل وحدة قائمة بذاتها كان يقطنها عدد من الفئات المختلفة من قبيلة واحدة أفرادها كلهم من الزراع.

وقد وجدت هناك قناة تدعى قناة "أم العويضر" تجري باتجاه وادي "زيتا" على امتداد ضفته الجنوبية، بينما يمتد شعب "السعايدي" على الضفة الشمالية. وفي هذه النقطة بالذات وجدت أن وادي "زيتا" قد أُقفل عند طرفه الأسفل بتلة رملية تدعى" الزلاقة". وكانت هنالك تلة أخرى تدعى مُنْدَفنة"، وكلتاهما تتربعان على دلتا ذلك الوادي الذي كان قسم كبير من أرضه مجرد أرض سبخة.

وقد شاهدت المزيد من الخرائب عند قمة السلسلة الجنوبية للهضاب. ويمكن القول بأن خلقاً كثيراً كانوا يقطنون هذه الديار في قديم الزمان، وأنه لمن سوء الحظ أن أجد الخرائب عند هذه الهضاب غير واضحة المعالم، فلا أستطيع أن أقع على شيء ذي قيمة أثرية بينها. ولعلها كانت مخابئ تقي العبيد والخدام الذين كانوا يعملون من أجل توفير المؤن والطعام لأسيادهم. وكذلك لم أجد أية إشارة تدل على نشوء حضارة قديمة بين تلك الخرائب التي يبدو أن حجارتها تساقطت بفعل الأقفار، وليس بفعل أية ظاهرة من الظواهر الطبيعية.

وكان من الواضح أنه ليس من فائدة في تفحص المجموعة الصغيرة الأخرى من الخرائب الموجودة على الهضاب الباقية، ولذلك فقد يممنا صوب الجنوب حتى عدنا إلى طريق السيارات في أقل من عشر دقائق، بعد أن مررنا بهضبة واطئة تفصل قناة "أم العويضر" عن وادي "زيتا". وهناك رأينا بقايا سد اثري. وواصلنا السير مصعدين في

الوادي، فلاحظنا أنه أخذ يتحول إلى وادٍ رملي وإن كانت تكثر فيه الحجارة كلما تقدمنا إلى الأمام.

وبعد خمسة أميال من التصعيد لاحظت أن الوادي أخذ يضيق حتى أصبح يشبه ممراً يتراوح عرضه بين ٢٠٠ — ١,٠٠٠ ياردة، يميز الحد الفاصل بين أراضي "لخ" الواطئة، بين نجود "الحصمة". وكان إلى يميننا طريق رملي يتصل بمرتفعات "عويضر" ويشكل امتداداً لها، بينا كانت "السليمية" القليلة الارتفاع وذات الصخور الحادة تقع إلى يسارنا. وبعد أن مررنا بهذه النقطة غرزت سيارتنا في الرمال.

وإذ تركت مرافقي يحاولون رفع السيارة، تابعت سيري مشياً على الأقدام لأحدد للسائق معالم الطريق التي يجب أن يتبعها متى استأنفنا نشاطنا من جديد. وقد تخلصت السيارة من سجنها الرملي فلحقت بي أخيراً ولكنني آنئذ اكتشفت أن بوصلتيّ قد اختفت، فعدت أدراجي محاولاً العثور عليها عبثاً، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وأخيراً تركنا منطقة "لِح" إلى أراضي الحصمة.

# هضبة الحِصمة

إذا استثنينا مجموعة بنايات معبد "الروافا" التي يجب أن تنسب إلى منطقة "حرة الرحا" لأنها تقع عند حدودها الشمالية. أمكننا القول بأن منطقة "الحصمة" الخالية تماماً من أي نوع من البنايات. ومن المحتمل أن تكون هذه المنطقة لم يعمرها الإنسان أبداً. فهي تبدو وكأنها المكان الذي يفضله الأعراب الذين يجوبون في المنطقة حيث يجدون هناك مرعى خصباً طوال فصول ثلاثة من السنة. أما في فصل الشتاء فإن رياح المنطقة الباردة الشديدة تضطر كلاً من الناس والحيوانات أن يلجأوا إلى حيث يكون الطقس دافئاً، أي في المناطق الواطئة إلى الشرق والغرب حيث يقع واديا تبوك و"تهامة". هذا ويبلغ ارتفاع منطقة "الحصمة" حوالي ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، كما يبلغ ارتفاع أعلى قمة فيها ٥٠٠٠ قدم أو أكثر.

كنا الآن ما نزال في الوادي المعروف باسم وادي "زيتا" ولكن ضمن منطقة التلال. بعد بضعة أميال من السير، وجدنا أنفسنا أمام مرتفعات عالية وتلال يتلوى بينها الوادي منحدراً من الجهة الغربية. وهنا استدرنا إلى اليمين بعيداً عن الوادي، ومن ثم اتجهنا نحو الجنوب حيث دخلنا في أرض مرتفعة تكسوها الرمال الكثيفة. وتمر الطريق من بين صخور

مدببة، وجدنا بينها سيارة نقل نصف مدفونة. وقد عرفنا فيما بعد أن ركابها قد تخلوا عنها قبل أربعين يوماً.

وغني عن القول أن سيارتنا قد غرزت في الرمال أيضاً، وإن لم تطل بها الضيافة أكثر من نصف ساعة لم أضيعها عبثاً، حيث توجهت إلى أعلى المرتفعات لأقوم بمسح عام للمنطقة التي أمامنا. وقد وجدت أن الطريق الوعر لا يمتد أكثر من ميل واحد إلى الأمام، ولكن عبر كثبان الرمال المعروفة باسم "خرم نميري". ومع قصر هذه المسافة فإنها كانت كأسوأ ما يمكن لسائقٍ إن يصادف في حياته.،

وقد رأيت من على القمة أن هنالك طريقاً واضحة سهلة تمتد باتجاه الجنوب الشرقي فوق أرض منبسطة عند سفح مرتفعات "السُدير". وكانت هنالك هضاب أخرى كثيرة على يمين الطريق، عرفنا منها المرتفعات التالية:

"قلْب" و"قَطرية" و"نميري" و"الزور". وكلها على جنب الطريق. أما فوق الطريق فتنتصب سلسلة جبال "حوسال" العالية. وقد أرغمنا وقوع تلك الجبال في هذا المكان، على تحويل طريقنا إلى الجنب الغربي عند طرف جبل "سُدَيْر".

وبعد مسيرة ربع ساعة وصلنا إلى تلة منفردة تدعى تلة "الضب" وهناك توقفنا فترة تناولنا خلالها الشاي. ثم تسلقت التلة برفقة حويمل، لأجد بين الصخور المتناثرة في المنطقة بعض النقوش الثمودية والصور الرائعة. فقمت بنسخها وتصويرها.، وعند سفح التلة وجدنا أثراً لا يمكن أن يخطئه الإنسان. كان لسور قديم ودوائر من الحجارة، ولعلها استعملت لتثبيت حواشي خيام نصبها أصحابها في هذا المكان.

أما الطريق الرئيسية للسيارات في تلك المنطقة، ، فلا تعدو كونها طريق قوافل الجمال. وهي طريق شُقّت قبل اختراع الآليات، حين كان الوادي الذي يحيط بتلك التلة المنفردة يوفر مرعى خصباً للجمال إذا ما توقفت القافلة في هذه النقطة للراحة.

ولقد كانت تلة الضب مهمة جداً بالنسبة لأغراضي الجغرافية، فطوال الطريق من تيماء حتى هذه النقطة لم يكن لدي شيء أستطيع أن أقيس به المسافات، وذلك بالنظر لأن عدّاد السيارة كان معطلاً. وهذا ما دفعني إلى أن أحتفظ بسجل وافٍ أدوّن فيه كل دقيقة نتوقف فيها عن السير وكل دقيقة نسير فيها. ومع ذلك فإن المرء لا يستطيع إلا أن يقدر المسافة بشكل غير دقيق، خصوصاً وأنه ما من سيارة تستطيع أن تحافظ على معدل سرعة منتظم في منطقة تختلف فيها طبيعة الأرض بين لحظة وأخرى. وأنا اعترف بأن تقديري للمسافات يجب أن يخضع لفحص دقيق، ولم أكن راضياً عنه أبداً، ولكنه في الواقع خير ما يمكن أن يقوم به إنسان في مثل هذه الظروف والملابسات.

وبوصولنا إلى تلة "الضب" تغير الوضع، فقد تعمدت العودة إليها بعد سنتين من تجوالي الطويل، وكنت الآن اصطحب معي سيارتي اللاندروفر بعد أن تم إصلاحها وتزويدها بعداد جيد. وكان رفيقي في هذه الرحلة صديق يدعى ر.ج. بوغو، يملك جهازاً لقياس الارتفاعات في مختلف النقاط.

ومن هذه النقطة كنت أرى قمة شرورا وإحدى قمم جبال "عجات" بالقرب من بعضهما في الجهة الشرقية، ولكنني لم أكن قادراً على رؤية "القرية" ولا تلال "مقاتي الخَدَر" التي تطلّ على قناة "طَرَف". وكذلك الحال بالنسبة لقمة "غوينم" خلف تبوك. وقد أفدت من زيارتي الثانية لهذه المنطقة في تصحيح الأخطاء التي ارتكبتها أثناء زيارتي الأولى لها.

ومن تلة "الضب" قدنا السيارة مسافة عشرة أميال فوق أرض رملية واسعة محصورة بين سلسلتي هضاب واطئة، ثم صعدنا مرتفعاً لم يلبث أن انحدر باتجاه وادي "زيتا" حتى وصل إلى مسقط مياه مشترك بينه وبين قناة وادي "سَحاب" أحد روافد وادي "الأبْيَض". ويمر وادي الأبيض بـ "مدين" ثم يجتازها لينفذ إلى البحر في نقطة تقع إلى الشمال من "خُرَيبه".

ولم نصادف ما يستحق التسجيل خلال سفرتنا حتى هذه النقطة باستثناء أشياء ثانوية لم نأبه لها ، ومضينا في طريقنا فوق الرمال الناعمة لذلك الوادي. والحق أننا استمتعنا ونحن في الطريق بلمحات من جبال "مدين" وخاصة قمة "لوز" التي كانت تقع إلى الغرب من "هضب البير" أو "قرة الحمراء" حيث نصبنا خيامنا لنقضي الليلة هناك. وقد قطعنا المسافة بين تلة "الضب" وهذه النقطة في سبع وستين دقيقة مع أنها تزيد على خمسة عشرة ميلاً.

كان معسكرنا على ارتفاع يبلغ ٣.٩٠٠ قدم. وكان تمتد أمامه أرض سبخة يبلغ طولها ٥٠٠ ياردة ، أما عرضها فيبلغ نصف عرض الوادي. وقد وضعت فراشي عند سفح صخرة مرتفعة يفصلها عن بقية رفاقي ستار من نبات "الرَتم" الذي يستعمل في صنع المكانس.

ولاحظت عند غروب الشمس أن الرمال التي ذرته الرياح في الوادي قد أصبحت ذات منظر رائع. كما أدهشني عند شروق الشمس أن لمحت لهذه الرمال والصخور المحيطة بها منظراً جميلاً امتزج فيه اللون الوردي برفيقه الأبيض.

وكان الهواء في ساعات الصباح الباكر يحمل معه رائحة الشتاء والمطر ، أما درجة الحرارة الدنيا فقد بلغت ٣٥ درجة فهرنهايت. وقد وجدنا على بعد عشر ياردات من المكان الذي كنت أنام فيه آثاراً حديثة لضبع يبدو أنه ودَّ زيارتنا فاقترب من مرقدنا كثيراً ، ولكنه آثر السلامة فتخلى عن محاولة افتراس العنزة الوحيدة التي نملكها. وكانت مقيّدة بالقرب من مرقد بقية المرافقين. هذا وكنا قد احترسنا على العنزة الأخرى التي كانت معنا وذلك بان خبأناها من الضباع في معدنا أثناء العشاء.

وينحدر وادي "سحاب" من جهته العليا ، حتى يصل إلى أرض رملية واسعة يتراوح عرضها بين ١٠٠٠ و١٥٠٠ ياردة. وهي محصورة بين سلسلتين من الصخور الكبيرة التي

يزداد ارتفاعها تدريجياً من ٣٠٠ قدم في جهة مساقط المياه، إلى ألف قدم بالقرب من مراحنا في الليل.

وخلف هذه النقطة مباشرة ينعطف الوادي إلى الشمال مغيراً مجراه الأساسي الذي كان إلى الجنوب في السابق. وذلك بعد أن يقطعه مجريان للمياه ينبعان من مرتفعات "أُنَيْش" العالية، (ولعل اسمها هو "انتش" وتقع في الجهة الشمالية)، ومرتفعات "أم طليحة" الواقعة في الجهة الجنوبية الشرقية. وهنا ينخفض الوادي مائة قدم. وبعد مسافة خمسة أميال ينقلب إلى منطقة تكثر فيها الصخور الغرانيتية التي يبلغ ارتفاعها ٥٠ قدماً وتدعى "المفرَق". ومن هنا ينطلق الطريق العام للمسافرين المتوجهين إلى "مدين" وإلى نقطتي الحدود المعروفتين باسمي "عَلَقان" و"أبو الخَنشان".

وأخيراً وصلنا إلى الحدود الغربية لصحراء "الحصمة". ولقد أمضيت فترة لا بأس بها من صباح اليوم التالي برفقة دليليّ للبحث عن مكان مرتفع نستطيع أن نلقي منه نظرة شاملة على "الأرض الموعودة". وبعد محاولات فاشلة قررت بأن المرتفعات التي تحيط بمضرب خيامنا من جانبيه، غير قابلة للتسلق. ولاحظت أن دليليّ قد أصيبا بفزع قاتل حين رأوني أدور حول قاعدة هذه المرتفعات بحثاً عن مكان يمكنني منه أن أصعد إلى القمة.

وأنني لا أستطيع القول بأن أي متسلق جبال محترف قد لا يتمكن من ممارسة حذقه في تسلق هذه المرتفعات. ولكنني لست متسلقاً محترفاً. لذلك فقد ظننت أنه سيكون باستطاعتي أن ادَّعي بأنني تسلقت قمم مرتفعات في شبه الجزيرة العربية أكثر من أي إنسان حي على وجه الأرض (أو وجه إنسان ميت)..

والحقيقة أن شبه الجزيرة العربية هي من البلدان اللطيفة في العالم، وأن جبالها ليست من الصعوبة بما يجعل تسلقها أمراً مستحيلا. غير أنه من المؤكد أن هنالك الكثير من المصاعب التي تصادف أولئك الذين يبحثون عنها.

واخترنا المرتفع المعروف باسم "أم طليحة". وبعد مجهود شاق اقتربنا من القمة، حيث وصلنا إلى نقطة ترتفع ٥٠٠ قدم عن مخيمنا. وهنا تراءت لي عظمة "مدين" الأثرية أمام عيني. وقدّرت أننا ما نزال على بعد ٢٠٠ قدم من قمتي "هضب البير" و"قرة الحمرا".

كان مرتفع أم طليحة يحتل مساحة من الأرض تتراوح بين ميلين وثلاثة أميال مربعة. وكان ثمة مسيل يدعى مسيل "العَقْلة" يفصلنا عن الصخور الغرانيتية التي ترتفع رأسياً باتجاه سلسلة جبال مدين. وقد شاهدنا قمم تلك الجبال تمتد شاهقة أمامنا إلى علو يقارب ٧,٠٠٠ قدم. وان جبل "لوز" ومجموعة المرتفعات التي تقع في أقصى الشمال، وإلى جنوبها يشمخ جبل "المقلع" الهرمي الشكل، كذلك كانت مرتفعات "شَلالاً" تمتد من المرتفعات العالية المعروفة باسم "زُهد" حتى إلى ما قبل البحر بقليل. وإلى الجنوب الشرقي تقع الأرض الواسعة المعروفة باسم "البُطينة" لتفصل صخور "حصمة" عن طريق مدين.

كان لزاماً علينا إذا أحببنا الوصول إلى ممر "بُطينة" أن نهبط حتى مستوى صخرة "المفرق" ثم نصعد قليلاً حتى وادي "عَقله" حيث يقودنا أحد الروافد (شعب الغينيات) إلى جبل عال يعرف باسم "طور الجوّاف". وقد فعلنا كل ذلك، ووجدنا هناك عدداً كبيراً من النقوش. وفي هذه النقطة ضربنا خيامنا في طريق عودتنا بعد ثلاثة أيام بعد أن عينت دليلاً جديداً يدعى "عودة بن سعيد". وكان من فخذ "الخمَسات" التابع لقبيلة بني عطية في موقع "أبو مخروق". وقد زرت مضارب القبيلة هنالك علني أستطيع استبدال كل من "سليمان بن محمد" و"حويمل" وكان هذان من فخذ "الربيلات".

وفي الصباح قمت مع عودة بجولة في منطقة التلال، كما هبطتُ إلى منطقة صخور "فرع الأسمر" كي ألقي نظرة على صخرة هائلة كانت قد استرعت انتباهي عن بعد، على اعتبار أنها أفضل مكان نستطيع أن نشاهد منه المنطقة. وقد تبيّنا أن هذه الصخرة غير سهلة الارتقاء، خاصة وأن حواشيه ملساء، وارتفاعها ٨٠٠ قدم. أما طولها فيبلغ ٥٠٠ ياردة.

وهي تتربع فوق القمم العالية التي يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ٥٤٠٠ قدم، وربما أقل من ذلك بقليل.

وقد مررنا بآثار حديثة لضباع كثيرة حين بدأنا تحميل خيامنا في الصباح. كما شاهدنا في أحد الوديان بعد العصر آثار أقدام ضبعين أكبر سناً من تلك التي رأينا آثارها في الصباح. ولم نعدم آثاراً حديثة لأقدام ريم انطبعت في الأرض الرملية التي تطل عليها قمة جبل "أم طليحة". ولقد مررنا في عودتنا إلى المخيم بأحد جنبي شعب "أشهب"، حيث شاهدنا خرائب كبيرة كانت قد تساقطت خلال الأيام القليلة الماضية نتيجة لهطول الأمطار. وقد رأيت أن نصف البناء الرئيسي قد سقط، تاركاً المجال لرؤية صخرة تطل من ورائه. وكنت قدرت أنني قطعت مع "عودة" مسافة ثلاثة أميال حتى وصلنا إلى "فرع الأسمر" أما طريق العودة فكان أطول قليلاً، وذلك لأننا عدنا عن طريق الوادي.

وفي الوقت ذاته اتبعنا في طريق الذهاب خطاً مباشراً إلى وادي "نقعة بني مر". وذلك عبر ممر "بطينه" الذي اجتزناه ثم تابعنا مسيرنا نحو الجنوب الشرقي.

وبعد مسافة تتراوح بين ميلين أو ثلاثة أميال من جبل "طُور الجوّاف"، وصلنا إلى قمة الممر (حوالي ٤.١٠٠ قدم فوق سطح البحر). وتشكل هذه النقطة حداً فاصلاً بين مجريين للمياه.

الأول يتجه شمالاً حتى يتصل بقناة وادي الأبيض على بعد قليل من صخرة المفرق.

والثاني — وهو أكبرهما يتجه صوب الجنوب، جامعاً معه عدداً كبيراً من المسايل الصغيرة أثناء الطريق.

ويمكن القول أن هذا المجرى يشكل أعالي وادي "ضَمّ" الذي قطعناه بالقرب من محطة سكة حديد "حزم" قبل أن يتجه إلى الشرق، فيُعرف في المناطق المجاورة باسم صخرة هائلة مشهورة تدعى "أم سَرْهِج".

وهناك وجدنا باقي حجارة أثرية لسدّ قديم عند سفح الصخرة، وبئراً ما زالت عامرة بالماء. أما مسقط المياه إلى تلك البئر فيندفع من شق في جبل "عُيينات" حيث كنا نستطيع أن نرى أساس بناء صخري ما زال قائماً. وقد لاحت لنا أمامه مباشرة بقايا بناء حجري كبير تتجمع بينها المياه في فصول المطر. ووجدت أن قسماً من الصخرة القريبة من بقايا البناء قد سُوي سطحه بحيث أصبح صالحاً لنقش بعض الرسوم، رأيت صفاً منها يمثل مجموعة رؤوس لرجل خيالي.

ولما كانت الصور غريبة مختلفة الأحجام، فقد قدّرت أنها ربما تكون تصاوير أحد آلهة الثموديين. غير أن النقوش القليلة التي وجدناها في المنطق المجاورة لم تكن إلا تواقيع الأشخاص الذين زاروا المنطقة أو مروا بها.

وهكذا، لم أستطع أن أجد شيئاً يلقي ضوءاً على هوية صاحب تلك الصور، فظللت بانتظار أحد الخبراء ليكشف لنا عن أهميتها. وقد لاحظت أن جميع الصور قد نقشتها يد شخص واحد، ومن غير المعقول أن تكون كلها قد نقشت لمجرد قتل الوقت.

وعندما آويت إلى فراشي بعد أن جن الليل انهمكت في قراءة ما تلقيته من صحف قبل أن نغادر تبوك. وانتصف الليل. وهممتُ بإلقاء عدد من جريدة "التايمس" لأنام، وإذا بأزيز طائرة تمر من فوقنا.

وكان البريد الذي تلقيته في تبوك هو أول بريد أتلقاه منذ أن غادرت "المدينة"، وكنت قد وضعت لنفسي قاعدة لا أحيد عنها وهي قراءة جريدة واحدة كل ليلة، وذلك حتى أوفر لنفسي الرفاهية الوحيدة التي يمكن أن أجدها أثناء تجوالي.

واستيقظتُ في الصباح لأجد "دُمَّلاً" كبيراً في فخذي اليمنى أخذ ألمه يزداد أثناء النهار. وكان كل ما استطعت أن أعمله، هو أن أطوف حول صخور "أبو مخروق" وأنا أعرج وربما لم أقطع أكثر من نصف ميل في تجوالي الكسيح، حيث قصرت مهمتي على نسخ النقوش

المهمة، وكان معظمها من النقوش النبطية. وبعد أن فرغت من ذلك عدت لاضطجع في فراشي، ثم تناولت قرصين من الأسبرين لأخفف الألم.

وقد أمضيت طوال فترة بعد ظهر ذلك اليوم في كسل تام، وعكفت خلال تلك الفترة على تدخين غليوني عدة مرات كما حاولت فك معاني الكلمات المتقاطعة المنشورة في الجرائد. وكان أشد ما يؤلمني هو أني لم أكن قادراً على القيام بالمزيد من العمل خلال فترة بعد الظهر.

وغابت الشمس.. وبدت السماء ملبدة بالغيوم، ولم تلبث أن تساقطت بضع قطرات من المطر كإنذار يسبق العاصفة القادمة التي كانت قد ألمت بالفعل بمرتفع "شعاتي" وغيره من الجبال في المنطقة. وهناك كان المطر يتساقط بغزارة، ويتخلله الرعد والبرق على فترات متقطعة. وكانت السحب كلما اقترب بزوغ الفجر، تزداد اقتراباً من فوق مخيمنا. وما أن انتصف النهار حتى بدأت الأمطار تتساقط بغزارة، وفي موسيقى صاخبة من قصف عواصف رعدية شديدة. وإذ نظرت حولي رأيت أن كل العالم الذي أراه يرتجف من الزوبعة.

وقد استمرت إحدى الزخات الغزيرة طوال عشرين دقيقة مظلمة، وبعده بانت بعض الرقع الزرقاء من السماء فوق بقية المنطقة.

ومن الطبيعي أنه لا يمكن القيام بأي عمل جدي في مثل هذه الحالة، ولذلك قد قررت أن نبقى تلك الليلة حيث نحن، على أمل أن يتحسن الطقس في الصباح. ولما كان وادي "نقعة بني مر" من العوامل المهمة في اقتصاديات منطقة "الحصمة" فإنه غدا من الضروري أن أهتم به، خصوصاً وأنني لم أكن آمل أن أراه مرة ثانية. ولكنني عدت لزيارته بعد سنتين مع صديقي "بوغو".

كان القسم الواطئ من الوادي يرتفع ٣,٥٠٠ قدم عن سطح البحر، وبذا نكون قد هبطنا ٤٠٠ قدم من مخيمنا في "قارّة الحمرا". أما الرافد الرئيسي الذي يزود هذا الوادي بالماء فهو وادي "ريط" ويقع أوله في الجهة الغربية على بعد كبير، حيث توجد مساقط مياه ترسل قسماً من مياهها إلى وادي الأبيض.

وينضم إلى هذا الوادي أثناء جريانه العديدُ من الروافد، وحين يقترب من وادي "نقعة بني مر" يتشر في دلتا واسعة. وثمة أخرى يشكلها وادي "بلاس"، وهو وادٍ تنبع مياهه من تلة عالية تحمل الاسم ذاته وتقع في الجهة الجنوبية الغربية. وهناك منحدر شديد يبدأ من الأرض المرتفعة في الجهة الشرقية من وادي "شعب خاوي" الذي ينبع من مساقط المياه الموجودة هناك على علو ٤٠٠ قدم عن سطح البحر.

وقد قمت بزيارة هذه المنطقة مع "بوغو" حيث وجدت صخرة مزدانة برسوم مذهلة على بدائيتها تمثل ست عشرة نعامة في صف واحد. وتبعد هذه النقطة مسافة لا تزيد على ثمانية أميال عن الطرف الشرقي للوادي، وتسيح فيها المياه الناجمة عن الفيضانات حيث تنساب هذه المياه بين قطعتي أرض مرتفعتين تدعى الأولى "قور البيضا" والثانية "قور الحمرا".

أما مجرى الماء الذي يتجمع من المرتفعات الخلفية فيشق طريقه إلى وادي "ضم" كما يجد طريقه إلى سهل "حرده" في وادي تبوك.

وكما سبق أن ذكرت فإن ممر "بطينه" ينحرف شرقاً لينضم إلى وادي "ضم" على بعد ميل أو ميلين من الطرف الشمالي لوادي "نقعة بن مره" الذي يتلقى المدد من عيون الصخور ومياه المرافعات. وأهم هذه المرتفعات هي "شَقيق" و"شُقيق"، وهما من المرتفعات العالية حتى ليبدوان وكأنهما يصافحان السماء.

وثمة مرتفع آخر يدعى "مقلع" قمت بزيارته بحثاً عن النقوش. غير أنني لم أجد هناك شيئاً. بل وجدت العديد من النقوش في أماكن أخرى في المناطق المجاورة، وخاصة عند صخرة صغيرة معزولة تبعد مسافة لا تزيد على ألف ياردة عن المكان الذي كنت فيه.

وقد وجهت اهتمامي إلى هذا المكان في صبيحة اليوم الذي شفيت فيه من "الدُمَّل". وكان الوادي يكتنفه ضباب كثيف غير أن الشمس عملت على تبديده تدريجياً. وهكذا أصبحت السماء خالية من أي أثر للسحب مع أن الهواء ظل قارس البرد وكأن الثلوج تكاد تتساقط. هذا مع أن درجة الحرارة الدنيا في الليلة الماضية لم تنخفض عن ٤١ درجة فهرنهايت.

ولم تكن هناك رياح أول الأمر، غير أنها ما لبث أن أخذت تهب خلال النهار. وكان هبوبها قاسياً يبعث في النفس القشعريرة من البرد، مما يجعلني ارتعش حتى أصابعي غدت لا تكاد تقوى على الإمساك بالقلم، أثناء زيارتي الثانية إلى الصخرة لأكمل نسخ النقوش. وقد لاحظت أن جهات الصخرة الأربع مليئة بالنقوش الثمودية، إلا أن بعض هذه النقوش كان بالسبئية والنبطية مع عدد كبير من النقوش العربية.

ويبدو أن وادي "نقع بني مرة" هذا، كان مشهوراً كمنتجع معروف منذ عصور قديمة. ولعله كان محطة للحجاج الذاهبين إلى "مكة". فلا ريب في أن النقوش العربية من صنع الحجاج الذين مرّوا من هذه الناحية إلى الوادي المماثل الذي يدعى، "النعمي" ويميز مركز هذا الوادي الواقع إلى الجنوب، تلة سوداء تعدت "الغراب" تمتد حتى ممر "خُرَيطة" الواقع إلى جنوبها.

كان سطح أرض الوادي رخواً من أثر الأمطار التي هطلت خلال الأيام الأخيرة. فمرت سيارتنا فوق هذه الطريق بحذر حتى "مِقليع". ومن هنا أتيحت لنا فرصة طيبة لمشاهدة المناظر الممتعة في المنطقة المجاورة، رغم أننا لم نستطع أن نتسلق قمة "مِقليع"

لصعوبة الوصول إليها. فقد كانت تلك القمة شاهقة فوقنا، ولكنه لا سبيل إلى الصعود إليها إلا عن طريق صخرة ملساء ربما كان ارتفاعها مائة قدم.

هنا وقد وجدنا عند صخرة قريبة من "المقليع" عدداً كبيراً من النقوش. والصخرة هذه أصغر من الأولى، كما أنها منحرفة عن صخور "قور الحمراء".

ومن ثم عدنا إلى مخيمنا مارين بالوادي عن طريق الآبار التي وجدناها مترعة بالمياه في ذلك الحين. وقد زرت المنطقة بعد سنتين من هذه الجولة برفقة "بوغو" فوجدت هذه الآبار جافة وخربة، من جراء حدوث سيول شديدة دمرتها. وكانت إلى جانب الآبار بقايا كوخ حقير، لعله كان يستخدم لإيواء حراس الآبار المكلفين برد الأعداء عنها.

وقد عكفنا على حزم متاعنا ووضعه في السيارة حين عدنا إلى المخيم، ومن ثم تحركنا بحذر شديد عبر الوادي متجهين نحو الشمال، ومتنقلين من صخرة إلى أخرى بحثاً عن المزيد من النقوش. والحق أننا وجدنا العشرات منها ونحن في طريقنا إلى الصخور الواطئة التي تدعى "الشُقَيق"، وهي تبعد حوالي خمسة أميال إلى يمين صخور "أبو مخروق"، حيث قررنا أن ننصب خيامنا لتمضية تلك الليلة.

وكنا نجد هنا وهناك بركاً ضحلة من الماء عند سفوح الصخور المختلفة، كما لاحظنا أن الجراد ما يزال يحتل المنطقة بكاملها. وليس من الضروري أن نذكر هنا بقية رحلتنا (وهي تتعلق بعودتنا عن طريق وادي "مغار" و"أبو البيبان") فقد سبق أن تحدثت عن هذين الموقعين بما فيه الكفاية. غير أنني لابد أن أشير إلى أننا وصلنا صخور "المفرق" يوم الاثنين في الثاني عشر من فبراير (شباط)، وكان من المقرر أن نمضي من هناك إلى وادي الأبيض.

وبعد مسيرة خمسة أميال من صخرة المفرق لاحظت أن السهل بدأ يميل باتجاه غربي مع ميل إلى الجنوب، حتى سفح سلسلة جبال "لوز". وقد بدت بعض قمم هذه السلسلة للعيان وإن كانت الذرى الرئيسية قد ظلت مختفية عن أعيننا بالنظر لوجود جبل عال كان

يحجبه. وفي هذه النقطة كان بئر "عَقلا" منحرفاً عن طريقنا قليلاً إلى الغرب. أما على الجهة الشرقية من الطريق فقد وجدت تلالاً تدعى "رُمَيمِنه".

وعندما وصلنا إلى قاعدة الجبل، لاحظت أن الوادي قد انقلب مليئاً بنباتات الرَتم والأدغال الصغيرة وغير ذلك من النباتات البرية.

وبعد حوالي ثلاثة أميال من انحناءة الوادي وجدت شعباً هناك يدعى "الحزّين" ويقع على الضفة اليسرى من الوادي. أما على الضفة اليمنى، فقد كان ثمة شعب آخر يدعى "عُميّد". وقد قيل لي أن هذين الشعبين هما الطريق العادي للجمال التي تحمل أحمالاً خفيفة، وتؤدي إلى ممر وعر بين الجبال يؤدي بدوره إلى وادي "أفَل" في الطرف الأقصى من الطريق.

وكانت هنالك طريق أخرى تمر من مبتدى شعب "سيِّق" ثم تسير فوق الكتف الأيمن لجبل لوز عند مرتفع "الحجيّة".

وهنا يبدأ وادي الأبيض بالابتعاد عن الجبل صوب الجنوب الشرقي ثم باتجاه الجنوب، وذلك عندما وصلنا إلى مساقط المياه النابعة من صخور "المُحرّق" السوداء.

وبدأنا الآن نسير في طريق وعرة جداً تتعرج في أسفل منحدرات جبل "اِمِقليع" حتى خرجنا إلى أرض فسيحة قادتنا صعُداً إلى رأس وادي الأبيض الواقع بين جبل "المحرق" الذي كان إلى يميننا وجبل "قَحبَونه" إلى يسارنا. وفي هذه النقطة توقفنا لأداء صلاة العصر وتناول المرطبات.

وكانت هذه النقطة على بعد عشرين ميلاً من صخرة المفرق"، وعلى ارتفاع ٥,٢٦٠ قدماً فوق سطح البحر حسب قراءة جهاز القياس الذي كان يحمله بوغو في الرحلة الثانية.

ومن هنا أخذ وادي الأبيض يتجه شمالاً ثم إلى الشمال الغربي، بينما كانت أمامنا وباتجاه الجنوب الشرقي المنحدرات التي تعرف باسم "علو حيفا" والتي تصب مسايلها في

قناة وادي "حيفا". ولم يكن هنالك أي شيء مهم في هذه المنطقة باستثناء بعض الصخور المتفرقة التي ربما كانت قبوراً لبعض الحجاج.

وبعد أن استأنفنا السير إثر استراحة دامت ساعة كاملة، وصلنا بعد أكثر من ميل إلى شجرة تسترعي الانتباه. ومن غير المألوف في هذه المناطق أن تطلق على الأشجار أسماء معينة، أما هذه فقد كان اسمها "مَطعمة".

ويبدو أن هذه هي كل ما تبقى من مجموعة أكبر من الأشجار، ربما كانت ذات أهمية دينية أو قبلية، بدليل قطع القماش الكثيفة التي كانت تزدان بها أغصانها المجردة من الورق.

وقد أوحت لنا هذه الشجرة وما تزدان به من أقمشة مختلفة، بأن هذا المراح كان يعتبر بمثابة مرحلة محدّدة في طريق الحجاج المسافرين عن طريق وادي "بني مر". وقد سبق أن ذكرت احتمال كونه طريق الحجاج إلى "مكة".

ومهما يكن من أمر، فإن دليلي "مقبل" لم يكن يعرف أي شيء عن الموضوع، وإن كان قد أطلق على الشجرة اسم "البُطمة". والبُطم نوع من الشجر مألوف في الشمال إلى جوار "بترا"، وقد ورد ذكره في التوراة. غير أنني لم أستطع أن أتبين كنه هذه الشجرة حتى بعد فحص الأوراق الملقاة على الأرض. ولهذه الشجرة ثلاثة فروع تبدو عليها الشيخوخة والهرم، وتمتد أغصانها بعيداً، كما يبلغ ارتفاعها حوالي عشرين قدما".

وكان علينا أن نترك قضية شجرة البطم دون حل، حيث بدأنا بنزول منحدرات "حيفا" إلى فراغ ضيق يقع بين سلسلتي جبال "جَهْر" "وأُغَيْبِر". وهناك مررنا برجل وحيد يمتطي بعيراً ويتجه إلى حيث مساقط المياه التي اجتزناها منذ قليل.

والحق أنني استغربت إذ تبين لي أن القناة التي عبرناها عند مساقط مياه وادي الأبيض قد قطعتها المرتفعات الواقعة إلى الجنوب الغربي فحوّلتها إلى وادي "أفَل" مارة من جبلي مقليع و"شلالا"!

وتابعنا سيرنا باتجاه الجنوب الشرقي عبر الطريق الممتدة بين جبال (جهر) و(أغيثر) لنصل إلى راس وادي "الريْط"، حيث ضربنا خيامنا لنقضي الليلة هناك.

كنا الآن قد انحدرنا حوالي ألف قدم عن مكان مساقط المياه. إلا أنه على الرغم من أن السماء كانت صافية الأديم، فقد مضى يومنا ذاك والرؤية فيه غير واضحة تماماً، بسبب الضباب الكثيف الذي انتشر في الصباح. وقد قطعنا خلال ذلك اليوم مسافة لا تزيد على ثلاثين ميلا، غير أنه كان يوماً حافلاً بالأعمال.

ومن سوء الحظ أننا لم نقابل أحداً من البدو، فظللنا لا نملك لحماً نعدّه للعشاء باستثناء طير صغير اصطاده دليلي الثاني "مسفر".

وقد أقحم رجل من عطية نفسه علينا فانضم هو زوجته وشقيقه الصغير إلى جماعتي بينما كنا في "النُخَيلة"، وكان هؤلاء قد أتوا مشياً على الأقدام من "رَم" في الأردن. وقد وضعوا أمتعتهم القليلة خلف دغل قريب من المكان الذي اخترته لقضاء الليلة. واقترحت أن بعث بالطير الصغير إلى المرأة لتأكله غير أن زوجها عارض في ذلك، فكان أن أكلت المسكينة ما تبقى بعدنا من طعام! وقد علمت أن هؤلاء الجماعة كانوا في طريق عودتهم إلى "نقع بني مر" بعد أن قاموا بزيارة بعض أقاربهم في "رَم".

كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في تلك الليلة ٣٤ درجة فهرنهايت. وقد تساقط الندى بغزارة، ولأول مرة منذ بضعة أسابيع - وإن كان الصباح قد أشرق عن سماء صافية لا ريح فيها.

وكان طريقنا الآن يمتد باتجاه الجنوب الشرقي إلى أسفل وادي (الريط). ولم نتعرض لما من شأنه أن يلفت الانتباه، اللهم إلا بعد الروافد التي كنا نعبرها من هنا أو هناك. وكانت سيارتنا تدرج فوق الأرض كستها النباتات المختلفة مثل (الشيخ) و(الرَتم) و(البُعيثران)، وللأخير رائحة زكية منعشة. وقد اصطاد (مِسفر) أثناء الطريق عدداً من الطيور، كان من سوء حظي أنني لم أشاهدها إلا بعد أن طبخت وأعدت للغداء.

وكنا قد قطعنا مسافة خمسة عشر ميلاً من معسكرنا ونحن نهبط في وادي (الريط) ( ٢٣ ميلاً من مساقط مياه الأبيض – جيفا) عندما بدأنا نرى بعض الإشارات المألوفة في أراضي (نقع بني مر).

وفي هذه النقطة كان نجد "بالاس" الصغير يلوح إلى الجهة الجنوبية الشرقية، بينما تظهر الصخرة الكبيرة التي تشكل "مقليع" في الجهة الجنوبية مع ميل أكثر إلى الشرق. أما القمم الشاهقة لجبال "مَنْوة" و"يَزار" و"وُعَير"، فكانت تقوم على يميننا مشكلة قوساً يمتد من الجنوب تقريباً حتى الغرب. هذا بينما ظهر إلى يسارنا جبل "غُشَيْرمي" الواقع خلف مرتفعات "الحوضش"، ومشكلاً الخط الفاصل بين القنوات التي تصب في وادي "ريط" وبين تلك التي تصب في وادي "غشيرمي" الذي هو بدوره أحد فروع وادي "الضم".

وكانت طريقنا مع ارتفاع قناة وادي "ريط" المؤدية إلى ممر "الضيقات" بين سلسلتي جبال "جهر" و"أُغيثير" تتجه نوعاً ما نحو الشمال الغربي. بخلاف تلال "المُحرّق" التي تطل على مساقط مياه الأبيض وتتجه نحو الشمال الغربي مباشرة. وكان ارتفاعنا في هذه النقطة ٣,٤٠٠ قدم فوق سطح البحر.

وهنا أخذ الوادي – ريط – ينبسط في أرض واسعة (دلا) وهو يقترب من نقطة اتصاله بدلتا أخرى مماثلة لوادي (بلاس)، حيث أصبح يتلقى مياه عدة وديان أخرى كانت تتدفق من الجهتين.

ولاحظت أن دليلي (مقبل) يبدو غير واثق من نفسه مع أنه ظل حتى هذه النقطة دليلاً ممتازاً للغاية.. وكان تخبطه الآن لا يهمني كثيراً، فأنا أعرف هذه المنطقة من قبل.

وبعد مسيرة حوالي أربعة أميال وصلنا إلى نقطة اتصال فعلية مع وادي بالاس تكاد تكون منتصف الطريق بين مخيمنا في أبو مخروق وبين سهل فسيح أعرفه هنا. وقد رأيت أن ما تغير خلال السنتين اللتين غبتهما عن المنطقة كان قليلاً. ولاحظت أن آبار المنطقة مخربة، فكانت لزاماً علينا أن نرسل من يحضر لنا الماء من مكان قرب (المقليع).

كنت أنا وزعل كل ما تبقى من جماعتنا مع (السيد) وسيارته الجبارة. غير أن غزوتنا الحالية لمنطقة (الحصمة) كانت على مستوى أكثر أهمية من سابقاتها، من الضروري أن تتم بمرافقة ما لا يقل عن خمس سيارات. وفي هذه الأثناء جاءني الفرج حين وصلتني سيارة اللاندروفر بعد أن تم إصلاحها تماماً من العطب الذي ألم بها في تيماء. كان في عروقها دماء جديدة.. واستبد بها الحماس فقطعت مسافة ١،٧٠٠ ميل من جدة حتى المنطقة التي وصلت إليها. وقد رافقتها سيارة جيب كانت تقل بوغو. وبالإضافة إلى السيارتين، أحضر بوغو معه سيارتين قويتين من طراز دودج تابعتين للنقطة الرابعة ومزودتين برافعتين تساعدننا في الأغلب على أية صعوبات قد تعترضنا في الطريق. كما اصطحب بوغو ستة من رجال الحرس زودته بهم وزارة المالية السعودية. وكان لهؤلاء الحرس سيارتهم الخاصة بهم.

وسرنا حتى ابتعدنا عن صخرة المفرق مسافة خمسين ميلاً. وهناك دلّنا جهاز القياس الذي يملكه بوغو على أنا أصبحنا على ارتفاع ٣،٢٨٠ قدماً عن سطح البحر. إنني لأرى من الواجب الإقرار بفضل صخور المنطقة هذه. فقد ساعدتنا تلك الصخور في اتقاء ريح شمالية شرقية كانت في منتهى البرودة.

هذا وقد عاد زعل الآن، وكنت أرسلته ليستأجر لنا دليلاً جديداً، عاد ولم يكن معه الدليل فحسب بل خروف سمين صنع لنا منه عشاءً فخماً. وكان الدليل من فخذ (خَمْشات) من قبيلة بني عطية، اسمه (مطير بن مسعود بن خضر بن نجم). وقد صرح لنا بأنه ملم بالمنطقة التي كنا نريد استكشافها، غير أن قصة هؤلاء الأدلاء يجب أن تترك لمناسبة أخرى، فقد حان الوقت للعودة إلى صخرة المفرق وسنة ١٩٥١..

# وادي مدْيَن

تعتبر صخرة (المفرق) التي غادرناها في الثاني عشر من شهر فبراير (شباط) سنة ١٩٥١ – منحدرين نحو وادي (الأبيض) – أبرز موقع طوبروغرافي وجيولوجي في هذه المنطقة. ومن على هذه الصخرة تنكشف المنطقة بكاملها: والصخور الغرانيتية وأحدث الصخور النوبية.

والصخرة، من الناحية الجغرافية، نقطة التقاء مجريين للماء، هما المجريان الرئيسيان اللذان يمتدان إلى الغرب من (حِصمة) وإلى الشرق من مِدْين) على التوالي. ويصب الأول في وادي (سحاب) ويقع رأسه على بعد عشرة أميال على طول الطريق التي قدمنا منها. ويصب الثاني في وادي (الأبيض) الذي تقوم مساقط مياهه على بعد حوالي عشرين ميلاً إلى الجنوب دون مرتفعات سلسلة جبال مدْين.

وتصب مياه السيول التي تنحدر من الجبال المجاورة مثل: (حَسَب) و(جَحَشة) القائمين على الضفة الشمالية. و(هضَب البير) و(نخَيلة) (وأم هاشم) على الضفة الجنوبية، في نقطة الالتقاء.

أما المسيلة الصغيرة التي تمتد من المنحنى الغربي للمجرى الرئيسي للوادي لتلتقي مع الواديين الشهيرين: (رِيتا) و(قَحازه). وهما يأتيان من الشرق والشمال على التوالي، ثم يصبان في منطقة شبيهة بمنطقة الحِصمة من حيث طبيعتها، ويشكّلان — في الواقع — امتداداً لها نحو الحدود الأردنية.

وعلى بعد حوالي ثلاثة أميال إلى أسفل مجرى وادي زِيتا وأبيض — على بعد عشرة أميال من المفرق — تبتعد طريق السيارات عن أرض الوادي لتمر برافد قصير، ولكنه عريض، يدعى شعب (الضّالّ). وهو ينحدر من بين جبل (جَحَشه) والمرتفعات الواطئة التي تُعرف باسم القريّة (وربما القُريع) على الضفة الشمالية من وادي الأبيض.

وإلى أسفل هذه النقطة — على بعد قليل — توجد القلعة المشهورة ذات الصخور الحمراء والسوداء، المعروفة باسم (كاشو) معلنةً بدء طريق، قيل لي أنها غير صالحة للسير، وللآليات خاصة. وذلك بالنظر لطبيعة الأرض الصخرية وصعوبة اجتياز المجرى من هناك إلى النقطة التي يجعل فيها الوادي آخر منعطفاته الكبيرة إلى الجنوب، حيث يعود الطريق لتلتقي به مرة أخرى.

وفي الوقت ذاته فقد تباحثنا حول الطريق الصعب عبر شعب (ضالّ) بالتفصيل، تلك الطريق التي تمر من بين جبال (جحشه) و(الرس) إلى شعب (المعْطية) حتى تصل إلى مبتداه على بعد أربعة أو خمسة أميال من النقطة التي تركنا فيها وادي الأبيض.

هذا وقد توقفنا لنتدارس موقعنا ونحن في النقطة التي تنحدر فيها الأرض الواسعة لوادي (الصُرَيْم). وتتميز هذه البقعة بعدد من النتوءات لعلها قبور أو تحصينات للدفاع عن هذا الممر. وقد لاحظت عند فم شعب (ضالّ) وجود بعض البقايا لبنايات خشنة المظهر، يمكن أن تكون بقايا سدّ منهارٍ أو آثار بيوت بدائية للسكن.

وكان هنالك شيء ما في المنطقة جعلني أمعن التفكير. فاسم القريّة ذاته يوحي للمرء بأن هذا الاسم قد أطلق بشكل تقليدي للتعريف على مكان خرب. والأمر الذي يؤكد هذا الاعتقاد، وجود بعض الخرائب وإن كانت ليست بذات أهمية كبيرة. غير أن التقارب والتشابه في اسم (الرسّ) لا يبدو أنه جاء مصادفة. فقبيلة (نوح) وأهل (ارس) و(ثمود) و(عاد) و(فرعون) وأخوة (لوط) وأهل (الأيكة) وقبيلة (تبّع): جميع هؤلاء عارضوا دعوة النبي. ومرة أخرى فإن قبيلة (نوح) و(عاد) و(فرعون) ذي الأوتاد أنكروا الرسل الذين جاؤوهم من قبل. ولم يستطع أحد - حسبما أعلم - التعرف على (الرسّ) و(الأيكة). (وهي تترجم عادة "الخشب") وإن كان يبدو على وجه العموم أنهما يجب أن تكونا في المناطق المجاورة (لمدَين).

ولعله يبدو من التسرع القول بأنني قد وصلت إلى خرائب الأولى، ولكنني لم أعرف مكاناً آخر يدعى (الرس) في شبه الجزيرة العربية غير هذا الموقع، ومكان آخر في (قصيم). والثاني مكان يُشك في أن الله قد أشار إليه في الآيات السالفة. وكما سنرى فيما بعد، فإن اسم (أيكة) موجود في مكان آخر. وهو وادٍ يتفرع من وادي (أفل) الذي ينبع من جبل (لوز) الكبير.

هذا ولا توجد أية أدلة قاطعة تؤيد الاعتقاد بأن النقاط العديدة المنتشرة على طول الوادي المؤدي إلى المراكز الأساسية في أقصى الجنوب، كانت مأهولة من قبل أهل مدين الأقدمين، (أو الذين خلفوهم، بما في ذلك النبطيين).

ولعله من سوء الحظ أن تحوُّل طريق السيارات عن مجرى الوادي قد منعني من زيارة المنطقة التي ما زالت مأهولة بالبدو حتى يومنا هذا، وهم من البدو المعروفين باسم (وَلي صمويل). وقد قيل أن (رس) تقع على مرتفع يطل على الضفة اليمنى لوادي الأبيض من نقطة يلتقي فيها هذا الوادي برافد ينحدر من الجهة الشمالية الغربية يدعى شعب (وسيطه)، ومن الممكن أن هذا الموقع كان مزاراً يؤمه الناس قبل الإسلام.

وأشار موسيل إلى هذا المكان على خريطته، غير أنه لم يزره. وأكاد أجزم بأن هذا المكان لم يزره أوروبي من قبل.

كنا نستطيع من مكاننا في راس وادي (صُرَيم) أن نرى سلسلة الجبال العالية المحاذية للضفة اليمنى من الوادي. غير أن (عوده) لم يستطع أن يتعرف على أسماء قممها. وهكذا ظلت هذه الأسماء مجهولة لدي حتى عثرت على دليل آخر. وعندها أرضيت حب الاستطلاع في نفسي وعرفت أن الجبل الكبير الواقع في الطرف الجنوبي لتلك السلسلة يدعى "شَعّال"، كما عرفت قمتي (الشمِّيل) اللتين تقعان إلى الشمال منه قليلاً. وهنالك رأيت قمتين أخرتين تدعيان (القصيْر) وتقعان بين القمتين السابقتين وبين الجبل الكبير المعروف باسم (الشُريف) الذي يقع في أقصى الشمال. وبعد الفراغ الناشئ عن وادي (شرَف) تعود سلسلة الجبال إلى الامتداد حيث تبرز سلسلة جبال (حميِّر) القليلة الارتفاع، وهذه هي التي كانت تحجب المخناءة وادي الأبيض الذي يحمل في تلك المنطقة اسم (أفل).

وينحدر وادي (صريم) من أعلاه حتى نقطة اندماجه بالوادي الأخير حوالي ١.٣٠٠ قدم. وذلك خلال مسافة اثني عشر ميلاً.

كان مخيمنا على ارتفاع ٢٦٠٠ قدم فوق سطح البحر. وقد لاحظت على بعد ميل أو ميلين إلى أسفل ونحن ننحدر فوق طريق رملية مغطاة بنبات (الرَتم) ونبات (المكانس) مخيماً صغيراً للرعاة إلى يميننا. وهنا أوقفنا السيارات وأرسلت زعل وعوده يبحثان لنا عن دليل. وقد عادا صفر الأيدي. ثم توقفنا بعد بضعة أميال أخرى لنفحص مخيماً يقع تحت الضفة اليسرى لوادي (رُقَط) مقابل مرتفعات (الغرب) على الضفة المقابلة. وهنا كنا أكثر نجاحاً، إذ بينما كنا بانتظار عودة زعل، جاءنا صبي صغير من المخيم ليتحدث إلينا، وأخبرنا بأسماء بعض المعالم التي كنا نراها من مكاننا ذاك. وكان دليلنا الجديد يدعى "زيد" وهو من فخذ (النشارة) التابع لقبيلة بني عطية. وقد أخبرني بأن لفظ (معزة) — goat —

totem – الذي كثيراً ما استعمله (ريتشاد بورتون) و(موسيل) في معرض إشارتهما إلى (بني عطية) قد أصبح الآن عديم الاستعمال بالمرة، وإن كان معروفاً على أنه لفظ يشمل القبيلة بأسرها.

وتحت هذه النقطة مباشرة، وعلى بعد ستة أميال عن الرس، وجدنا قناة مسيل (شَمرخ) تنحدر من الكتف الشمالي لجبل (لوز) لتدخل (صريم)، بينما تتصل سلسلة جبال (شمرخ) بجبال (رقط) فتأخذ منها الامتداد على طول الضفة الشمالية.

ويعد ذلك مباشرة يتسع الوادي في دلتا عريضة بين عدد من التلال الواطئة. وهنا ضربنا خيامنا بين عدد من أشجار (الأكاسيا) مبعثرة هنا وهنا. ولا تبعد هذه النقطة كثيراً عن مخيم صغير للرعاة من قبيلة (عمران) التي تزعم أنها قبيلة مستقلة وإن كانت في الواقع فرعاً من بني عطية. وقد زارنا عدد من رجال هذه القبيلة ليتذوقوا طعام العشاء الذي أعددناه ثم عادوا في الصباح ليتناولوا معنا القهوة وطعام الإفطار قبل أن نستأنف المسير. وأفراد هذه القبيلة لا يعلمون إلا القليل عن أصلهم، وإن كان اسم القبيلة يذكّر المرء بـ (آل عمران) وهي العشيرة التي انحدرت من آدم ونوح وإبراهيم.

ويبدو أن هذه القبيلة ليست من الأشراف مثل قبيلتي (حطيمة) و(شرارات) التي تقطن في شمال – غرب شبه الجزيرة العربية، وإن كان ممكناً أنها ذات تاريخ قديم مثل (بني عُقبة) التي تقطن (مَقْنه).

ولم نكد نستريح في معسكرنا قليلاً حتى بدأت عاصف عاتية تزأر فوق المرتفعات المطلة علينا. وما أن غابت الشمس، حتى كانت المنطقة بأسرها في جلباب من السحب تعرضنا لوابلها بعد بضع ساعات. ولكن السماء عادت صافية بعيد منتصف الليل. وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في تلك الليلة ٤١ درجة فهرنهايت.

هذا ولم نستأنف مسيرنا قبل منتصف يوم الثالث عشر من شهر فبراير (شباط)، ذلك لأن مرافقيَّ كانوا سعداء جداً بضيوفهم من قبيلة (عمران)، وركاب سيارتي نقل كانوا في طريقهم من تبوك إلى (ضُبة). وكان هؤلاء هم الذين نقلوا إلينا آخر الأنباء عن عروس الحدود الشمالية، ومنهم علمت أن (خالد السديري) قد عاد إلى تبوك بعيد مغادرتنا لها.

ومن الطبيعي أنني لم أضيع هذه الوقفة الطويلة، إذ قمت بالتفرج على المنطقة من فوق صخرة رائعة يبلغ ارتفاعها ١٠٠ قدم. وكان ذلك الصباح رائعاً ترافقه نسمات باردة تهب من الجهة الشمالية. وكانت القمة الرئيسية لجبل (لوز) تغطي جزءاً منها السحب وتقع إلى الجنوب الشرقي من المراح الذي كنا فيه، بينما كان منعطف وادي الأبيض على بعد ميل واحد إلى الشمال – ويُعتقد أن طول هذا الوادي من مساقط مياهه حتى هذه النقطة يقارب الخمسين ميلاً. وكانت قمة (الرس) واضحة للعيان بالقرب من راس وادي (صريَمْ) مع مَيل قليل نحو الجنوب الشرقي، بينما ينحدر وادي (الشرق) العميق بشكل مستقيم إلى دون مرتفعات (الشُريف) المقابلة. وكانت هذه هي إحدى الطرق القديمة التي كان يتبعها الحجاج القادمون من مصر على ظهور الجمال، بعد أن يقطعوا صحراء سيناء إلى (العقبة) ومن ثم يحاذون الساحل حتى يتحولوا إلى الداخل في هذه النقطة. ثم يتبعون وادي (أفل) في الخواره إلى الشاطئ قرب (عينونه) وكان ممر (حجيّه) الذي تدور من عنده قوافل الجمال نحو الجهة الشمالية من (لوز) لتنحدر من هناك إلى وادي (أفل)، كان هذا الممر يقع إلى الجنوب منا. وبالقرب منه تحت تلة أخرى تدعى (القصير) يوجد نبع ماء تستقي منه القوافل. ويتلقى الوادي الذي يمر بين تلك السلسلتين من الجبال العالية مياه كبيرة من الروافد التي ترد إليه من جانبي الجبال طوال مسافة امتداده من مصب وادي "صُريم" حتى خرائب مدين.

وهذه هي الروافد التي تأتي من "لوز" و"مقعة" الخ.. على الضفة الشمالية وتسير من الشمال إلى الجنوب:

"سُبيَت" و"شَمْرَخ" و"خُبيط" و"حُجيَه" و"مَلاحَه" و"العَين" و"عَلجان" و"أم مطر" و"مُوَث".

أما الروافد الأخرى على الضفة المقابلة فهي:

"جرْف" و"هاوي" و"عريجي" و"أعقَر" و"تُقَيْب" و"نتاش" و"مرفد" و"لَبُونه" و"نصب الشّعرا" و"وقَلْخه" و"عَجُوجه" و"رَغَامه".

ويتراوح عرض القسم العلوي من الوادي بين ٥٠٠ — ١٥٠٠ ياردة. ومن هناك شاهدنا مناظر خلابة للجبال الشاهقة، بما فيها قمة جبل لوز التي بدت وكأنها قطعة من الثلج. وقد أكد لي الدليل بأن القمة مكسوة بالثلوج، فإذا صح ذلك تكون هذه هي أول مرة أرى فيها الثلوج في المملكة السعودية، رغم أنني سمعت أكثر من مرة تقارير عن تساقط الثلوج في جبال "أبها" وغيرها من الأماكن بما فيها الصحراء شمالي حايل.

وفي القلعة يضيق الوادي بحيث لا يتجاوز عرضه ٢٠٠ ياردة. أما ضفتاه فرمليتان، رمالهما كثيفة ناعمة.

وهنا أمرت بالتوقف لتناول المرطبات، ودراسة التطورات الجديدة. وان الوقت بعد الظهر والطقس دافئاً والشمس مشرقة. وقد تعرضنا لهجوم عنيف من الذباب أثناء توقفنا، وكانت الطرق تبدو حجارتها جافة.

وأخبرني "زيد" بأن الأمطار لم تهطل، ولم تشهد المنطقة أية سيول خلال السنوات الأربع الأخيرة. ولم نجد أي أثر للنقوش طوال طريقنا ونحن ننحدر مع الوادي، حتى ولا نقوشاً عربية مثل تلك التي ينقشها الحجاج.

ومما لا شك فيه أن ذلك يعود إلى طبيعة الصخور التي هي في الغالب من الغرانيت والفلسبار الوردي. أما وقد غادرنا منطقة الصخور الصلدة والمنطقة ذات الحمم البركانية

القديمة، فقد لاحظت أن الوادي قد اتسع إلى عرض يزيد على ميل واحد، وظل يمر بين صخور واطئة ترتفع في بعض الأماكن إلى ٤٠٠ قدم أو ما يقرب من ذلك.

وتتألف هذه الصخور من صخور غرانيتية مختلطة بالبازلت من جميع الأحجام والأشكال، وبعضها يطل على المنحدرات فوق القناة. وكان سطح الأرض ناعماً مصلباً. وكانت ضفتا "أفل" تتناقصان ارتفاعاً كلما انحدرنا باتجاه القناة.

وبعد أن دخلنا في شعب "مطر" تحولت ضفتا الوادي إلى شيء أكثر بقليل من مجرد صخور صماء يتراوح ارتفاعها بين عشرة إلى عشرين قدماً، وخلفها منخفضات متداخلة في الناحيتين.

هذا وقد اقتربنا من سلسلة صخرية متقاطعة تبدو وكأنما هي تمتد باستمرار تجاه ما يشبه الدلتا العريضة، وتشقها قناة إلى قسمين ضيقين بين مرتفعين من الأرض يلفتان الأنظار ويعرفان باسم "شَقْدُوين" وهما يدعيان كذلك باسم "رغامه".

ومما لا شك فيه أن نعومة الصخرة القريبة من مجرى الماء عائدة إلى الفيضانات. أما المنطقة بأسرها فتبدوا أنها من المراعي الخصبة. وإن كانت حالة المراعي فيها تعتمد على هطول الأمطار الموسمية. ويبلغ معدل اتساع الممر الضيق ٢٠٠ ياردة، أما طوله فيقل عن الميل، بينما يتسع الوادي ذاته من جانبيه إلى ٥٠٠ أو ٦٠٠ ياردة. أما قسما الأرض العاليان فيترفعان حوالي ٧٠٠ قدم أو أكثر فوق نهاية الممر الغربية، تلك النهاية التي ترتكز على قاعدة صخرية يبلغ ارتفاعها ٢٠٠ قدم.

وفي هذه النقطة بلغت المسافة التي سرناها من مخيمنا اثنين وثلاثين ميلاً. أما مجموع طول وادي الأبيض – أفل فيبلغ اثنين وثمانين ميلاً حتى النقطة التي وصلنا إليها.

ويستمر الوادي بعض الشيء في قناة مستقيمة نسبياً. ولكنه بُعيد أن يمر ببقايا العاصمة المدينية يبدأ في الاتساع في دلتا واسعة جداً حتى يصل إلى البحر، فيقطع بذلك ٣٠ ميلاً بعيداً عن الممر، ويصير مجموع طوله ١١٢ ميلاً.

وكنت أستطيع أن أرى جبل "سيناء" بوضوح تام من نقطة تقع عند قاعدة الأرض العالية الجنوبية، كما كنت أشاهد سلسلة الجبال المحاذية لخليج العقبة، الواقع في أقصى طرف هذه الجبال.

ويقع الخط الطويل من هضاب "تيران" على طول امتداد الجانب البعيد من الوادي الذي يؤدي إلى أسفل حيث البحر وميناء "مقنه". وإلا أن كل ما كنا قادرين على رؤيته من أهدافنا الأولية، كان قليلاً من أشجار النخيل في أقصى الطرف الأيمن لواحة "بدْعة"، تطلّ بخجل حول نقطة فيها هضاب واطئة تحمي ما تبقى من عاصمة أهل "مدين".

وكانت أشجار النخيل لا تكاد تبعد عنا أكثر من ميلين. وسرعان ما وصلنا إلى الزاوية لنجد أنفسنا وسط بستان صغير يبلغ طوله حوالي ميل، ومعدل عرضه ١٥٠ ياردة، تزدحم فيه الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل والخشب.

كان أحد هذه الأكواخ هو دار الحكومة، وتشغلها قيادة لقوة صغيرة من البوليس برئاسة أحد الضباط الصغار. وفي مقابل دار الحكومة هذه يقع المسجد، وهو دون سقف أو جدران، عبارة عن مستطيل حدّدت معالمه بواسطة صفوف من الحجارة. ولم يكن هنالك أحد في المكان.

وكانت ريح رقيقة تداعب قمم أشجار النخيل، فتتمايل هذه بتعب وكأنما هي أرواح أناس ذهبوا ولم يعودوا.

ولواحة "بدعة" شهرة ضعيفة كمنتجع للصحة، بالنظر لوجود مرض الملاريا فيها. ويساعد على نشر هذا الداء هناك آبار ضحلة عديدة، يبلغ عمق الواحد منها ثلاث أو أربع قامات، وتتلقى مياهها من الوادي.

وكان "موسيل" قد وجد في سنة ١٩١٠ نبعاً يجري على سطح الأرض، ولربما كان هذا النبع ما زال في مكانه، تجري فيه المياه في مواسم المطر الجيد.

أما البدو أصحاب أشجار النخيل فيئمّون المكان فقط لجني المحصول، وهم لا يعتنون حتى بمجرد تحسين تربة الأرض. فهذا الشيء متروك للطبيعة، الأمر الذي ينجم عنه أن الأشجار تعطي نتائج غير مرضية.

وكان هذا وكأنه ملجأ أيتام مهجور. ولكن المشكلة الأولية التي كانت تواجهنا، هي أنه لم يكن معنا أحد يستطيع أن يقودنا إلى كهوف "جيثرو" (مغاير شعب) حيث كنت أعتزم قضاء بضعة أيام للقيام بفحص شامل للمنطقة بأسرها، تلك المنطقة التي زارها من قبل كل من "بورتون" و"موسيل" ووصفاها بالتفصيل التام.

والغريب أن جميع مرافقيّ، قد مروا بواحة "بدعة" أثناء مرورهم بين تبوك و"ضُبه" غير أن أحداً منهم لم يكلف نفسه بزيارة مكان نشاط "جيثرو" الذي ورد ذكره في القرآن. هذا إذا تركنا جانباً الأمكنة التقليدية المتعلقة بالنبي موسى.

لهذا كان عليّ أن أتولى مسؤولية قيادة الجماعة، معتمداً على ذاكرتي كما تشير الخريطة التي رسمها موسيل. ولكننا بعد دقائق من مسيرنا وجدنا أنفسنا في وسط خرائب ومعابد بادرنا إلى ضرب خيامنا في تلك المنطقة قبالة نُصُب ضريح ذي حجم لا بأس به، ولكنه كان في حالة خراب تام، ووجهه قد اختفى كلياً. وكان كل ماتبقى لا يعدو اثني عشر فُرجة في الجدار الخلفي، بمواجهة المدخل، وثلاثة مماثلة في الجدار الأيمن عند المدخل.

ويبدو أن هذا الضريح يخص عائلة على شيء من الجاه، مع أننا لم نجد أي اثر يمكننا معه أن يستدل على باني هذا الضريح أو على أصحابه.

وقد أطلقت على هذا المكان اصطلاحاً هو (المجموعة أ) ومن ثم انطلقت لألقي نظرات سريعة على بقية المجموعات من الأضرحة الواقعة عند الطرف الأقصى للمرتفع ذاته، الذي يعرف عند العرب باسم (مصلى شعيب). وكنت أود أن أشاهد هذه الأضرحة قبل حلول الظلام.

ومن الطبيعي أن جميع هذه الأضرحة كانت نبطية. وعلى هذا فهي قد تأسست بعد ما لا يقل عن ٢٥٠٠ سنة من زمن (جيثرو). غير أنه من المذهل حقاً أن القرآن لم يذكر أي شيء عن العهد النبطي، بينما هو يذكر تقاليد عصور أقدم من العصر النبطي بكثير، لم يستطع أحد من علماء الآثار حتى الآن أن يجد دليلاً واحداً على وجودها.

وقد أطلق موسيل على خرائب المدينة الواقعة على الضفة اليمنى لوادي (أفل) اسم (حوّارة). ولكنه يبدو أن السكان المحليين قد نسوا هذا الاسم.

وقد ذهبت كل محاولاتي واستفساراتي من بدو (المساعيد) الذين هم أصحاب النخيل والوادي بأسره سدى، وفشلت في إيجاد ضوء يمكن أن يؤكد تسمية موسيل، وهو (رقبة المَليحة). وهو اسم يبدو أنه أكثر ملائمة لسلسلة من الهضاب في الوادي يدعى (مليحة) ويميز المنطقة على مسافة أميال من حولها.

أما الأضرحة فتعرف باسم (مغاير شُعيب)، وأما كلمة (حوّارة) التي تعني كذلك (طباشير)، فقد استعملها (موسيل) على أنها تعني (أبيض)، وهي صفة لا تنطبق إلا قليلاً على الخرائب السوداء الموجودة في المنطقة.

وكلمة (حوراء) مثلها مثل كلمة (حورية) تطلق على حوريات الجنة نسبة إلى عيونهن السوداء.

وفي جميع الاحتمالات يمكننا القول بأن الروعة الحقيقية للكلمة هي في التضاد بين اللونين الأسود والأبيض.

ومن الغريب حقاً أن الاسم ذاته قد استعمله على ما أعتقد كل من (بورتون) و(موسيل)، إذ أطلقاه على الخرائب التي تقع قليلاً إلى الداخل قرب ميناء (أم لج) على شاطئ البحر الأحمر، بين (الوجه) و(ينبع)، وتعرف عند الجغرافيين القدماء باسم (القرية البيضاء).

ومرة أخرى نجد أن هذا الاسم قد اختفى هنا من ذاكرة المعاصرين. وكذلك فإننا نرى مرة أخرى أن الخرائب في هذه المنطقة، على الشكل الذي رأيناه عليه، سوداء حجارتها في الواقع من (البازلت)، وليس في المكان بيوت بيضاء غير تلك الموجودة في القرية الحديثة نسبياً، والواقعة على الشاطئ. وربما بنوها كذلك لكي تظهر للمسافرين بالمراكب الذين يمرون بمراكبهم على مسافة ترى من هذه البيوت.

وتقع الواحة الصغيرة المعروفة باسم (المليحة) والموجودة في الوادي ذاته وتحت موقع الخرائب مباشرة – على بعد حوالي ألف ياردة من مخيمنا بالقرب من (المجموعة P) عند (المغاير). ويجري من جوارها جدول قصير ينبع من صخور (المصلى)، ويمر بين الخرائب إلى القناة المؤدية إلى الواحة حيث توجد هناك عدة آبار يبلغ ارتفاع الماء فيها ثلاث قامات ونصف القامة. وماؤها حلو جداً حتى أن السكان المحليين يقارنونه بماء النيل.

وهنا، نجد أن اسم النبع يعني (البئر المليح) وذلك على سبيل المجاز

ولا تتجاوز مساحة الواحة كلها ٥٠٠ × ٢٥٠ ياردة. وأشجارها جميعاً من النخيل بينها عدد من الفسائل. ومما لا شك فيه أن الصورة التي التقطها (موسيل) على أنها للواحة، هي بالواقع لمنطقة (البرج) التي لا تبعد كثيراً عن الواحة. أما وصفه للجدول

والخزان والنبع فلا يمكن اعتباره منطبقاً على (المليحة) التي تعتمد دائماً، ومن غير شك، على الآبار لري أشجار النخيل فيها.

أما خزان (البرج) فهو من أحسن أمثلة الفن التركي في بناء خزانات المياه وتبلغ مساحته ٣٠ × ٢٠ ياردة، وهو مشيد من حجارة مصقولة وبشكل ممتاز. وفي زاويتين من زواياه سبع درجات تهبط بالمرء إلى القاع، وفي الزاويتين الأخريتين نجد درجاً مزدوجاً.

ويعرف هذا الخزان باسم (الفسقية) أو (النبع).

وقد وجد (موسيل) ماءً جارياً في تلك المنطقة مع أنه لم تكن هناك أية علامة تشير إلى وجود الماء في الوقت الذي زرتها فيه.

وبالقرب من هذا الخزان تقوم صخرة (البرج)، وبالقرب من طرفها العلوي وقبل قمتها بقليل، وجدت بئراً عمقها خمس عشرة قامة، قد بنيت بعناية ليست زائدة. ولها قوس يقسّم قسمها العلوي إلى نصفين. أما بقايا الجدران القائمة هناك فمن المحتمل أن تكون لبناء يضم البئر ومنشآتها كلها.

ولقد كان من الصعب معرفة تفاصيل هذا البناء الذي كان جداره الشمالي يبلغ ٣٨ قدماً طولاً بينما يبلغ الجدار الغربي، وكذلك الجدار الشرقي ٢٢ قدماً لكل منهما. وهما يمتدان نحو طرف التلة ذاتها.

ووجدت خارج البناء مباشر حفرة عميقة، من المحتمل أن تكون قد استخدمت لتجميع الماء. ويربط - هذه الحفرة ببئر الماء- شق منحوت يبلغ طوله ثلاثة أقدام يمتد مع امتداد الحائط الغربي.

وقد أخبرني الشيخ (محسن) من قبيلة (المساعيد)، وكان قد انضم إلي وأنا أفحص المنطقة، بأن البئر لم تعرف أبداً على أنها احتوت ماءً منذ القدم وأنها تبعاً لذلك تدعى (بئر سعيدني).

وربما كان ذلك يعني عكس (سيّدنا) إذ أن البناء، كما تأكد لنا، كان لأحد الأولياء أو مكاناً مقدساً، ولعله كان بناء تركياً يرجع تاريخه إلى الأيام التي كان فيها الحجاج المصريون يأتون إلى مكة من العقبة عن هذه الطريق. حيث كانوا يضربون خيامهم بالقرب من الماء قبل أن يواصلوا سيرهم إلى المحطة التالية وهي (عينونة) أو (الخُرَيْبَه).

ولم يكن من الصعب على منظمي الحج أن يجعلوا الحجاج يعتقدون بأن هذا البئر المديني، هو البئر الذي دحرج موسى عن بابه الحجر ليخرج الماء لغنمات بنت (جيثرو) — شعيب - . وعلى هذا الأساس فإنه يمكن القول أن البناء قد أقيم تكريماً لموسى.

هذا وقد كانت المضارب المحيطة بالمكان مليئة بآثار الحجاج الذين يمرون من هذه المنطقة، كقطع القدور وغير ذلك من الأشياء المعروفة ذات الطابع العام مثل عقود الفيروز والخرز. وقد وجدنا منها عدداً كبيراً. ويحتمل أن تكون قد صنعت في ألمانيا أو في برمغهام.

وقد أخبرني (زيد) صدفة عن مجرى ماء (شعب حجيه) على أنه يؤدي من (أفل) إلى جبل لوز. وقال أنه رأى فيه عدداً من الحجارة الزرقاء اللامعة التي قد تكون كذلك من الأحجار الكريمة (فيروز كما كان يسميها). وإن كان وصفه لهذه الحجارة يوحي بأنها من الزفير.

ومن سوء الحظ أننا كنا قد ابتعدنا كثيراً عن المنطقة، فلم يعد بوسعي القيام بأية تحقيقات، ولم أستطع أثناء رحلتي الثانية أن أجد أي شخص يعلم شيئاً عن الموقع أو عما يحتويه من أحجار كريمة.

لم يقم (بورتون) بفحص منطقة جبل لوز أو غيرها من سلسلة جبال مدين. وليس من المستغرب أن تحتوي على معادن من مختلف الأنواع ! وقد بدت لنا صخرة "المقلع" الهرمية الشكل سهلة التسلق، أما الصخور الغرانيتية لجبل لوز فقد كانت تحتاج إلى وقت ومجهود أكثر مما في طاقتي. وحسبما أعرف فإن قمة هذا الجبل لم يتسلقها إنسان من قبل.

والمسافة بين بئر (موسى) ومركز البوليس الحديث في (بدعة) تستغرق عشرين دقيقة مشياً على الأقدام دون استعجال، وهي مسافة تقرب من الميل في طريق تمتد تحت مرتفعات (دَرَك) العالية. وتغطي قمم هذه المرتفعات ومنحدراتها خرائب بنايات قديمة شيدت كيفما اتفق، لا شك في أنها كانت تشكل موقعاً نبطياً ربما عاد تاريخه إلى ما قبل مجيء النبطيين.

ويعتقد بعض المؤرخين أن سكان هذه الخرائب قد عاشوا بكل تأكيد في موقعيْ (رقبة المليحة) و(ملقطه).

وعلى امتداد سفح هذه المرتفعات أقيم حائط كانت بعض أجزائه قد اندثرت أما الغرض من إنشائه هناك فلابد أن يكون وقاية من انهيار الحجارة والتراب من منحدرات المرتفعات.

والواقع أنني تأكدت أثناء زيارتي الثانية للمنطقة من ذلك عندما جادت السماء بالمطر لعدة ساعات، ثم حاولت تسلق التلة، فكانت جميع محاولاتي ترتد بالفشل، لأن طبيعة أرضها تساعد على الانزلاق. فهي من الصخور الجيرية الناعمة.

وبالقرب من طرف الطريق عند الواحات وجدت مقبرة لافتة للأنظار. وربما كانت تضم أجداث المتوفين من الحجاج. وكان ثمة بلاطة تحمل نقشاً بدوياً كبيراً. أما النصب الأخرى في هذه المقبرة لم تكن تحمل أية إشارة أو اسم.

هذا وكان خط القبور الطويل يمتد قليلاً إلى جهة الشمال الشرقي جهة الشمال الغربي، إذ أن من تقاليد المسلمين أن يدفنوا موتاهم ورؤوسهم نحو الغرب ووجوههم نحو القبلة في مكة.

وفي هذه الأثناء كان أفراد الحامية من رجال البوليس قد عادوا إلى مقرهم، فدعيت بمناسبة زيارتي لمنطقة البرج لتناول الشاي والقهوة مع قائد الحامية الذي يدعى (سعد بن إبراهيم)، وهو من أهالي (الحريق) بمنطقة (الطُويق) جنوبي الرياض.

وتقوم نقطة البوليس في هذا المكان بشكل خاص، لمنع تسلل الحجاج من الأردن وفلسطين إلى مكة عبر هذا الطريق دون دفع الضرائب الحكومية. ولكي يتمكن القائد من القيام بهذه المهمة وضعت السلطات تحت إمرته خمسة من رجال الهجّانة يقضون معظم أوقاتهم في التجول على ظهور الجمال بحثاً عن المخالفين.

وكان الشيخ (محسن) قد دعانا لزيارة خيمته التي تبعد قليلاً في أسفل وادي أفل، ولكنه بات من الضروري عليّ أن أتجاهل هذه الدعوة لأنني دعوت (سعداً) ورجاله لتناول طعام العشاء معنا.

وليس صحيحاً القول بأن هؤلاء الرجال يقومون بواجباتهم بحماس في الدفاع عن حدود المملكة السعودية. فكثيراً ما كانوا يمضون فترة طويلة دون أن يتسلموا رواتبهم النقدية، وإن كانوا يتسلمون مؤنهم – على فترات – من (مقنة) أو (خُريبة). ولما كان هؤلاء الأفراد منقطعين في هذه البقعة فقد عقدوا قرانهم على نساء من قبيلة المساعيد القريبة منهم.

والجدير بالذكر أن مساهمة هؤلاء الجنود في تزويدي بالمعلومات عن المنطقة لم تكن ذات بال، على الرغم من أن (سعداً) كان يحفظ جميع قصص (موسى) و(جيثرو) أو (شعيب). وقد تطوع بأن حكى لي بعض المعلومات التي لابد أن يكون استقاها من رجال أكبر منه سناً. ولست معتاداً على مرافقة مثل هؤلاء الرجال المسنين.

لقد قال لي أن أرض (مدين) قد شهدت قيام وسقوط خمس أسر حاكمة بدأت بأسرة (جيثرو) من (بني أبجد) التي تزوجت إحدى بناتها من النبي موسى. أما الأسرة

الثانية التي حكمت المنطقة فكان قبيلة (هوَازْ) التي أفسحت المجال من بعدها إلى قبيلة (حطي)، وهي القبيلة التي تبعتها في الحكم أفخاذ من (كَلَمُنْ) و(سعفص) و(قَرَشت). وهذه تجعل مجموع الأسر الحاكمة ستاً بدلاً من خمس. ولعله كان يريد أن يضيف إليها (ثخَذْ) و(ضظغْ) ليكمل الكلمات الثماني التقليدية التي تضم أحرف الهجاء، ويجري بموجبها حساب (الجُمّل) من عشرة إلى ألف. ويبدو أنه لم يكن مطلعاً على هذه الملابسات.

هذا وقد نسيت بهذه المناسبة أن أذكر قلعة (البرج) التي بناها الأتراك للإشراف على الآبار خدمةً للحجاج. فهي تقع على أرض مرتفعة قليلاً على بعد حوالي عشرين ياردة عن الآبار.

ويبلغ طول هذه القلعة من الشمال إلى الجنوب ١٨ ياردة، ومن الشرق إلى الغرب ١٥ ياردة. وجميع جدرانها تتفق واتجاهات البوصلة، كما أنها في وقتنا الراهن تعاني حالة يرثى لها من الانهيار، رغم أن بُناتها قد أجادوا حين جعلوها من حجارة صغيرة مصقولة مدعمة بالمؤونة. فالجداران الشرقي والشمالي قد تهدما كليا، وليس بالإمكان رؤية أكثر من أساسيهما تحت أكوام الأنقاض التي غطتهما. أما الجدار الغربي فلا يزال قائماً في ارتفاع (المدماك) العاشر. ويرتفع في بعض النقاط إلى الثالث عشر حيث يمتد مسافة قصيرة بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية. وهناك يتصل بالجدار الجنوبي الذي يرتفع إلى (المدماك) الثالث عشر، أي ما يقارب تسعة أقدام. أما مدخل القاعة القريبة من هذه الزاوية للجدار الجنوبي فقد تداعت، باستثناء الواجهة الداخلية التي تبتعد عن الواجهة الخارجية ثلاثة ياردات هي سُمك الجدار.

كانت نيران مخيمنا وأنواره تلفت انتباه الضيوف.. فجعلوا يفدون إليه من المراعي المجاورة. وقليلاً ما تناولنا وجبات الأكل دون أن نقدم القِرى، أو احتسينا القهوة وحدنا. وعن طريق هؤلاء الضيوف استطعت أن أعين دليلاً جديداً عوضاً عن (زيد). وكان اسمه (عيد بن محسين) من قبيلة (المساعيد). وهو الذي ذكر لي اسماً جديداً لخرائب (حورا).

وكان ذلك الاسم (ملقى)، وقد أفهمني أنه يعني المكان الذي يستطيع المرء أن يجد فيه شيئاً أو يلقى خيراً، مثل قطع النقود، وشُقف الزجاج، أو رُضف الخزف.

ولم يكن هذا الاسم، بالاسم اللائق ليطلق على القسم الرئيسي من هذه الخرائب الموجودة على الضفة اليمنى، إذ أنه كانت هنالك مجموعة أخرى كبيرة من الخرائب في جزيرة بوسط الوادي، وهذه هي بكل تأكيد التي يعرفها البدو باسم (مَلقى) كما يلفظون.

والخرائب الأخيرة، زاهرة بالفعل بقطع الخزف من مختلف الألوان وغير ذلك من الأشياء التي يرجح أنها نبطية، وإن كان من الممكن إرجاعها إلى العصور الوسطى.

ومن المستحسن وصف هذه الخرائب قبل التحدث عن المدينة الرئيسية.

تقع "الجزيرة" على بعد يقل عن ميل من بساتين النخيل في "المليحة". وترتفع أرضها عشرة أقدام عن أرض الوادي. وهي هنا مغطاة بأدغال كثيفة من (الحِش) والطرفاء. وربما كانت المساحة المزروعة بالنخيل أكبر من هذه في الأزمنة الغابرة.

ويحيط بالمنطقة المعمورة جدار طيني متساقط، مع بقايا دهليز عند الزاوية الجنوبية الغربية، وخزان ماء صغير قربها — ولكن خارجها - . ويستعمل الخزان الآن كحقل لزراعة المزروعات البدوية البسيطة مثل الشعير والقمح. الذي ينمو في الموقع الذي كان قاع الخزان فيما مضى.

وفي الزاوية الشمالية الغربية يقوم جدار آخر يمتد إلى الجهة الشمالية مسافة مائة ياردة — أو ما يقارب ذلك — لينضم إلى حائط معترض طوله مائة ياردة، ويمتد إلى الجهتين: الشمالية الشرقية، والجنوبية الغربية. وربما الجدار عبارة عن قناة أقاموها لتحمي الجزيرة من طغيان مياه السيول.

ويمكن القول، استناداً إلى قطع الخزف التي عثر عليها هناك، أن هذه الجزيرة كانت مأهولة بكاملها. وأن قاطنيها كانوا ذوي مستوى اجتماعي مقبول. كانوا يفضلون العيش خارج المدينة الرئيسية.

ويمتد أثر الجدار الطيني إلى أسفل الضفة اليمنى للوادي مسافة ١٢٠٠ ياردة مع ميل قليل إلى الجهة الشرقية ثم الجنوب. وهو ينقسم إلى أقسام ثلاثة متساوية تقريباً لوجود مجريين قصيرين للماء ينبعان من الأراضي العليا في مرتفعات "مصلى".

وثمة قناة مماثلة ثالثة تمر من القسم الأوسط، لتملأ خزاناً يقع في داخل زاوية "L" التي تتشكل من إلتقاء الطرفين، بعد أن يمتد أحدهما على طول الوادي الرئيسي باتجاه الغرب حتى يصل إلى التلة.

أما (الموقع) في هذا التل فيمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. وهو بناء مربع يقرب طول الواحد من جوانبه سبعين قدماً. والجوانب مبنية من الحجارة غير المشذبة، وبينها مؤونة من الطين والكلس. ولا يزال قسم منها قائماً.

ولا يمكن الجزم بعمق هذا الخزان، إذ أنه داخله ممتلئ بالأنقاض والأتربة، فلابد أن يكون قد مضى عليه وقت طويل منذ أن استخدم — لآخر مرة — للغرض الذي أنشئ من أجله.

وقد شيد هذا الخزان على بعد اثني عشر ياردة داخل الزاوية. وعلى بعد ٢٠٠٠ ياردة من انحناء هذه الزاوية إلى الجنوب الغربي، يقع بناء طويل على شكل سد بمحاذاة قناة "المصلى" ثم يمتد منها إلى المجموعة (أ) التي تضم الأضرحة، فإلى مخيمنا. ويجوز أنه كان يمتد بمحاذاة الضفة اليمنى لأحد الفروع التي ينقسم إليها الوادي عندما يصل إلى الخرائب. ويحتل الخزان (الذي أتصوره) ما مساحته مائة ياردة طولاً وأربعين ياردة عرضاً. وتنحصر

هذه المساحة بين الفرعين وربما انتشرت لتشملهما معاً. أقول هذا مع أنه ليس هنالك في الوقت الحاضر أي دليل على سابق وجود مثل هذا السد.

وفي هذه الحالة يكون البناء قد أنشأ من أجل تحويل مياه الفنوات إلى الخزان. ومن جهة أخرى فإن أساس هذا البناء الذي ما يزال قائماً يوحي بأنه كان هنالك حديقة أو بستان نخيل ترويه مياه القناتين إذ تناسب هذه المياه نحو الخزان.

وتبتدأ القناة التي تفصل الأقسام الوسطى والجنوبية من المدينة من المنطقة الرئيسية للأضرحة أي عند الطرف الآخر من مخيمنا باتجاه المصلى. وبين هذه المنطقة وجدران منطقة الخرائب، يوجد عدد من التلال المختلفة الارتفاع والأحجام التي يحتمل أنها آثار بيوت قديمة كانت مشيدة من أحجار جيرية جصيّة. وتبدو قاعدة إحداها وكأنهما أنشئت مربعة لتكون إشارة للأساس.

أما القسم الشمالي من موقع الخرائب، فيبدو أنه كان قرية فقيرة سكنها العمال والبناؤون الذين شيدوا ذلك البناء. ويمتد القسم الجنوبي موازياً لواحة "مليحة" في قاع الوادي. ولهذا القسم منظر مميز يجعلني أرجح أنه كان حيّ الأرستقراطية وأبناء الطبقة الحاكمة. أما القسم الأوسط الواقع على مقربة من الخزان، من المحتمل أنه كان المركز التجاري ومكان السوق.

وقد سُوِّر القسمان الأوسط والجنوبي بسور لا يزال يلفهما جميعاً. اللهمّ إلاّ من ناحية ضفة الوادي، حيث من المؤكد أن تجرف مياه الفيضانات أي جدار يقام هناك.

ومهما يكن من أمر، فإن هنالك الكثير من بقايا الأسوار على طول امتداد القناة الشمالية حتى النقطة التي تلتقي فيها مع الوادي الرئيسي.

ولا شك أن هذه الزاوية قد دعّمت لمقاومة خطر الفيضانات. إلا أن ذلك لم ينفع، فقد لحقت بها أضرار فادحة من جراء السيول.

ويبدو أن القسم الشمالي لم يكن مسوّراً، مع أنه كان مأهولاً في الأزمنة الأخيرة، إما بالبدو الملاكين الذين يحضرون لجني محصول التمر، أو من قِبل الحجاج.

وتبقى الأرض المنخفضة الواقعة ما بين بقايا المساكن والوادي. وهذه كانت تُستعمل كمقبرة لدفن الموتى.

والجدير بالذكر أنه لم يبق إلا القليل - إذا استثنينا الحجارة المهشمة وأنقاض الأبنية المتخلفة - من المساكن التي يجب أن تكون قد احتلت القسمين الرئيسيين من المدينة. غير أن المرء يستطيع أن يميز نتفاً من أسوار هنا وهناك، وقطعاً من أساسات البيوت والغرف.

وللقسم الجنوبي من المنطقة الوسطى ملامح تشبه القلعة إلى حد ما. ويبدو أن هذا القسم كان أقل احتشاداً بالدور.. ولذلك كان فيه مجال أوسع لإنشاء منازل أكبر.

وإلى خارج الزاوية الشمالية الغربية المنطقة القلعة سالفة الذكر، يجد المرء بناية مستطيلة من ذات الحجم، يجوز أنها كانت قلعة أو معبداً أو قصراً.

وإذا كان لابد أن نحكم بموجب الأنقاض والحجارة المتخلفة على الجانبين فإنه لابد أن يكون هنالك قناة بين القسمين، ولكنها إما ردمت أو انهارت.

أما أفضل سلسلة من الأساسات التي ما زالت قائمة فتقع ضمن الزاوية الشمالية الغربية لمنطقة القلعة، حيث يستطيع المرء أن يشاهد بوضوح الخطوط العريضة لتصميم إحدى الغرف. وتبلغ مساحة هذه الغرفة ثمانية ياردات من الشرق إلى الغرب.

وثمة أقسام صغيرة من الأساسات ما زالت قائمة إلى جانب هذه الغرفة، مثلها في ذلك مثل أساسات غرفة ثالثة أكبر من السابقتين تبلغ مساحتها ٩×٧ ياردات.

والآن.. لعن الله الوقت كيف يسرق نفسه، فبالنظر لقلة الوقت وانعدام الوسائل بين أيدينا غدا ومن المستحيل أن نقوم بأي شيء من أجل إيضاح مشكلة هذه الخرائب، وكان

من الضروري أن ننتظر – وربما إلى وقت طويل جداً – حتى يأتي أحد علماء الآثار ليقوم بفحص المكان فحصاً دقيقاً.

ولست أبالغ إذا قلت: يمكن للمرء أن يقول وهو آمن أنه لم يبق أي شيء مديْني في المنطقة بأسرها. أما الأضرحة التي سآتي على ذكرها باختصار فيما يلي فهي تؤكد أن النبطيين قد سكنوا الوادي لفترة طويلة من الزمن. وأن تاريخ الوادي بعد النبطيين، وأثناء إقامتهم، وتاريخ المدينيين يجب أن ينتظر البحوث العلمية العميقة. ولربما أن القطع الفخارية الموجودة حالياً في متحف جده تساعد في إلقاء شيء من الضوء على هذه المشكلة.

هذا ويؤسفني أنني أخفقت في الحصول على وصف – ولو نسبي – للعينات الفخارية التي أخذتها معي إلى مصر قبل سنوات. وكل ما أعرفه عن هذه العينات أنها إما أن تكون قد سرقت أو ضاعت.

ومن الطبيعي أن تكون الأضرحة النبطية أو كهوف جيثرو (شعيب) – كما يسميها العرب – هي أبرز معالم منطقة "مدين" فهي حقاً لا ندّ لها لا يمكن أن ننكر عظمة آثار "بتراء" و"مداين صالح" غير أن هذه الأضرحة غير ذلك. فبالإضافة إلى عظمتها فإن المرء يجد لها طابعاً مميزاً، هو الصخور التي حفر فيها معظمها. وأحسن ما يمكن أن توصف به قولنا أنها صخور رملية متآكلة تحتوي على مواد جيرية صلدة وثابة اللون. وأنه ليبدو مذهلاً أن هذه الصور رغم تقلب عوامل الجو، كالريح والمطر والشمس عليها آلاف السنين، قد قاومته، وجعلتها عاجزة عن محو فن العمارة النبطي المتعلق بالحياة الأخرى محواً تاماً.

وسأورد قائمة كاملة بجميع الأضرحة التي شاهدتها مع شرح واف لحالتها ومحتوياتها فيما بعد. وسأجعله في ملحق خاص لمصلحة أولئك الذين قد تهمهم مقارنة ملاحظاتي مع تلك التي دونها كل من بورتون وموسيل.

ولست أذيع سراً حين أقول: لقد كنت أحمل معي أثناء هذه الرحلة كتاب موسيل عن هذه الأضرحة. وهو كتاب مصور يضم كثيراً الصور والرسوم "السكتشات" الكلاسيكية، بشكل تصبح معه أية محاولة لإضافة شيء جديد إليه من الأمور التي تعتبر مضيعة للوقت.

كنت أحمل هذا المؤلف النفيس معي.. ورأيت أن أفضل ما أفعله بخصوصه هو أن أسجل ملاحظاتي على هامشه وهوامش صوره وشروحه التي كتبها تحت الصور. وإلى هذه الملاحظات أود أن أود أن أدل أياً من قرائي ممن يساعدهم حسن الحظ في يوم من الأيام يزور هذه الخرائب.

وفي الوقت ذاته، فإنني سأحاول فيما يلي أن ألزم نفسي بتقديم وصف قصير جداً عما رأيته بأم عيني:

لقد كان ثمة ضريح كبير في (المجموعة أ) بالقرب من المخيم الذي نصبناه، وفي الصخرة عدد من الفتحات يمكن أن تكون مخبئاً. وقد سبق أن قلت أن ذلك كله ضروري. أما (المجموعة ب) التي تقع على الناحية الأخرى من مرتفعات "مصلى" — والتي تفصلها عن هذه المرتفعات قناة الشعب الجنوبي — فهي عبارة عن مجموعة من سبعة أضرحة تقع في مختلف جهات تلة صغيرة. وهي ذات ارتفاعات متفاوتة، وواجهاتها الأمامية جميعاً في حالة متفاوتة من الخراب الفظيع. وفي كثير من الحالات رأيت الجدران والسقوف لا تعدو كونها مجموعات من أكوام الأنقاض والأتربة، ولكن الطابع المشترك للجميع هو القبور.

ولم أجد في أية حالة من الحالات أن الأرض قد استخدمت في دفن الموتى. وكان مجموع عدد المدافن (٣٥) يضم الضريح الواحد منها عدداً يتراوح بين ١ إلى ٩.

وتحتل (المجموعة ج) تلة معزولة مماثلة تقع إلى الغرب من (المجموعة ب)، وأضرحتها تواجه الغرب، وهي في حالة أحسن من سابقتها. إذ أن المرء يستطيع أن يميز نتوءات

الزخارف المدرّجة لثلاثة منها على الأقل. كما يستطيع أن يجد أثراً ظاهراً لتاج عمود كورنثي الطراز للرابع، وتاج عمود من طراز نقوش بتراء للخامس. وهنا أيضاً يوجد الكثير من القبور خارج الأرض بالإضافة إلى عدد من النقوش الجنائزية على الحائط.

وعلى كل حال، فإن أحسن الأضرحة كان في (المجوعة د) المنحوتة من صخور جبل "المصلى" عند منتصف الطريق بين سفح هذا الجبل وقمته. وهي منحوتة في صخور أكثر ملاسة. ويوجد في هذه المجموعة ثلاثة أضرحة رأيت أحدها قد فقد واجهته الخارجية. وتبلغ مساحته أحد عشر قدماً مربعٌ؛ وارتفاعه ستة أقدام. وكان في المجموعة خمس فرجات (مدافن) في كل جدار، وعرض إحداها خمسة أقدام. وعمقها في الجدار ستة أقدام. أما ارتفاعها فخمسة أقدام. وكان هنالك واحدة ثانية من هذه المدافن بالحجم السابق تقريباً أما الباقيات فأصغر من ذلك بكثير.

وكان النُصبان الآخران بديعين حقاً، لهما واجهتان أماميتان قد حافظتا على نقوشهما بامتياز. وتعود إلى كل منهما سُدّة يحيط بها جداران من كل ناحية. ويلاصق كل جدار من هذين مقعد حجري طويل. ويلتقي المقعدان عند منتصف الجدار الثالث (أي الخلفي) حيث ينفتح هناك باب الضريح.

وطول الباب ستة أقدام، وعرضه قدمان ونصف القدم.

وباب الضريح الأساسي مزدان بنقوش تتداخل على شكل أقواس تظهر آثارها واضحة وإن كان أساسها على الناصية لا تكاد تبين. أما طول هذه الناصية المزدانة فهو حوالي ثلاثة أقدام. وفوقها تجثم الصخرة العتيدة. وهي من نوع الصخور الرملية، عارية صلدة. ويبلغ ارتفاع هذه الصخرة التي تشكل الجدار في نفس الوقت، نحو أربعة أقدام. وتستقر فوق هذه الصخرة طبقات من الكلس المتحجر على شكل صخور طباشيرية متماسكة.

وهكذا يكون مجموع ارتفاع إفريز النقوش (بالناصية مع الصخور) حوالي أربعة وعشرين قدماً. أما مساحته فستة عشر قدماً مربعة.

وعمق هذا الضريح إلى الداخل ١٥ قدماً، وعرضه ١٢ ، وعلو سقفه عن أرضه ٧ أقدام. وفي جداره الخلفي على علو قدمين عن أرضية يجد المرء منفذاً يرتفع ستة أقدام بينما يبلغ عرضه قدمين اثنين. وهو يقود إلى غرفة صغيرة عرضها ٩ أقدام وعلو سقفها خمسة أقدام ونصف القدم.

وكانت هذه الغرفة فارغة تماماً غير أن أرضية قاع الناووس الرئيسي كانت غاصّة بقبور طول الواحد منها سبعة أقدام وعرضه ٢,٥ قدماً. وهي مصفوفة صفاً على طول الجدار الخلفي. وثمة زوجان من القبور عند المدخل يفصلهما عن بعضهما ممر يؤدي إلى داخل الضريح. وجميع هذه القبور قد نبشها اللصوص في بحثهم عن الكنوز الثمينة.

وقد وجدتُ بعضها مليئاً بالعظام في حين أن البعض الآخر قد نُظف بقصد استعماله للناس أو القطعان، وكان هنالك بعض قطع من الخشب منتشرة هنا وهناك، وربما كانت بقايا توابيت.

وكان الضريح الثاني شبيهاً بالأول في كثير من النواحي. فلهذا الضريح فَسقية داخلية كالأول، غير أنها في منتصف الجدار الأيمن وقبورها مرتبة قبالة الجدار الشمالي. وثمة ممر يفصل خمسة من القبور عن مثيلاتها الأخرى. وهو يفضي إلى الفسقية الداخلية. وهنالك قبران في جهة المدخل الرئيسي وثلاثة أخرى مقابل الحائط الخلفي. وأعتقد بأن هذين الضريحين يمكن اعتبارهما ضريحي الملكين عن جدارة.

وقد تسلقت أنا ودليلي من هنا الصخرة لنقوم بزيارة "دوائر" جيثرو — في قمة سلسلة جبال "المصلى". ومن هناك نزلنا بسهولة وتوجهنا إلى معسكرنا عند الطرف البعيد.

ويقول "موسيل" بأنه اضطر للقيام بدورة طولها كيلومتران حتى يصل إلى هذه المرتفعات من الشمال، غير أن الطريق المباشرة المستقيمة كانت خالية من أية صعوبات!

وهناك صخرة حولها عدد كبير من الدوائر في المكان الذي يُفترض بأن "جيثرو" قد صلى فيه. ولكنه من الصعب القول أيها الأهم. والمعتقد أن بعض المتأخرين قد قام برسم هذه الدوائر عملاً على مساعدة الحجاج حين يريدون زيارة المكان الذي شهد مجادلة "جيثرو" مع أهل مدين.

ومن تلك النقطة تمتعت برؤية منظر كامل لسلسلة جبال "مدين"، وجبل "لوز" وقمم الجبال الأخرى القريبة منه في الجهة الشمالية الشرقية. هذا بالإضافة إلى جبل "المقليع" على بعد بسيط من الجبال السالفة الذكر باتجاه الشمال الشرقي حيث يفصله وادي "نمير" عن سلسلة الهضاب الواطئة التي تعرف باسم "مَرّة". وتمتد هذه من الشرق إلى الجنوب الشرقي، وهناك تنتصب قمتا جبل "حرب" في مواجهة السلسلة الكبيرة لجبال "زُهد" التي تنحدر إلى أسفل حتى نقطة ليست بعيدة عن البحر، وإلى الجهة اليمنى من المكان الذي كنا فيه.

وفي الجهة اليسرى، من الجنوب الغربي حتى الشمال الغربي، تنتصب سلاسل الجبال التي قطعت علينا فرصة التمتع بمنظر الخليج "خليج العقبة".

وكان جبال "تيران" و"نُتيش" و"سلك" و"مرْشه" و"زُريق" مع التلة الشاهقة المعروفة باسم "عبدين"، تحدد معالم الطريق إلى ميناء "مقنة". وكنت أعتزم زيارة هذا الميناء في اليوم التالي.

وكانت النقطة التي أثرت تخيلاتي وملكت علي أفكاري هي جبل "حرب" بقمتيه الغرانيتين الناعمتين. وهذا الجبل منافس عنيد لجبل "حارب" الذي ورد ذكره في "سِفر

الخروج" من التوراة. وهو المرشح الوحيد لهذا الشرف والذي يحق له أن يدعى بأنه أهل لحمل الاسم.

وبالقدر الذي أعرفه يمكنني القول بان وجود هذه التلة في مدين" لم يرد له ذكر من قبل. وذلك فمن الطبيعي أن أكون في شوق لاكتشافها وما حولها. فكان لزاماً علي أن أنتظر مدة سنتين، حتى أُشبع طموحي. وكان ذلك اليوم الحادي والثلاثين من شهر "يناير" كانون الثاني سنة ١٩٥٣. ولما كنت قد قمت بهذه الرحلة وحدي لا يرافقني سوى السائق "حسب الله" فإنني أرى إيراد القصة هنا علّها تكمل الصورة العامة لمدين.

كنا قد وصلنا إلى "بدعة" في الليلة السابقة بعد أن تركنا "بوغو" و"محسين" ليقضيا الليلة عند جبل "مرو" بغية القيام ببعض الأعمال الجيولوجية الملحة في المناطق المجاورة لذلك الجبل. وقررت أن أستفيد من فترة الانتظار هذه بزيارة "حرب" هذا. فتوجهنا بالسيارة على الطريق الرئيسي منحدرين باتجاه البحر، وسرنا مسافة ستة عشر ميلاً حتى وصلنا إلى نقطة وجدنا فيها تلة مرموقة تدعى "نخلة"، تقع في المنطقة الكبريتية شمالاً مع ميل قليل إلى الغرب. أما الذروة الرئيسية لجبل "حرب" فهي ترتفع في الجهة المقابلة، في نقطة ما بين الجهة الشمالية الشرقية والشرق المائل نحو الشمال الشرقي (٥٨ درجة). وهنا أخذنا نسير في خط مستقيم عبر منطقة مستوية إلى حد ما، حسبما تسمح بذلك طبيعتها.

وقد مررنا خلال مسافة ثلاثة أميال بثلاث قنوات لتصريف مياه الفيضانات من وادي "أفل"، وكل قناة منها بعرض مائة ياردة، وكانت الثالثة على ما يبدو قاعاً مهجوراً للنهر ولها حافة عالية على طول ضفتها الشمالية، التي تسلقناها دون صعوبة.

وقد واجهتنا بعد ذلك قناة أخرى أوسع بكثير من القنوات السابقة ولها أيضاً حافة مماثلة على امتداد جهتها الشرقية، التي عبرناها لنصل إلى سهل ينحدر برفق. وبذا تكون قد رأينا جميع أقسام وادي "أفل" بما في ذلك القاعين الراهنين لمجريي مياه الفيضانات

واثنتين من قنوات المنطقة القيمة ترتفعان بعض الشيء عن القاعين. وأصبح مسيرنا الآن سهلاً للغاية، لو أن قليلاً من الرمال ملأت الحفر الموجودة في الطريق.

وبعد ميلين أتينا إلى طريق الجمال التي تقل الحجاج وهي طريق تنحدر من المعسكر عند "البرج" حتى سفح الجبال. ثم تدور حول أقصى نقاط جبل "زُهد" حتى تصل إلى "عينونه". وتحت هذه الطريق، بدأنا بمعارضة طريق السيارات الذي سرنا فيه في الليلة الماضية، عندما حاولنا جهدنا أن نلتزم السير على طريق الحجاج، وإن كنا كثيراً ما نفقد أثر هذه الطريق أثناء الظلام. وخاصة عندما كانت طرق الحجاج تختلط مع مفارق الوادي.

وبعد مسيرة مسافة ميلين وصلنا إلى طرف خلع طبيعي عريض على ضفته اليسرى سلسلة من الصخور يقارب ارتفاعها أربعين قدماً. وهنا لم تستطع سيارة اللاندروفر أن تتقدم ياردة واحدة..

وقد قمت بفحص الوادي وأطراف الجبال مشياً على الأقدام. فعرفت أن أضخم الصخور في ذلك الموقع هي صخور الغرانيت والبازلت. والأخير يتخلل الصخور على شكل طبقات تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي على زاوية مقدارها ثلاثون درجة.

وقد تعقلت فلم أحاول أن أحذو حذو "موسى" في تسلقها، هذا إذا صح أنه قد تسلقها بالفعل ولكنني قمت بتفتيش دقيق في الوادي والصخور الموجودة فيه على أمل أن أجد بعض النقوش. وكان كل ما وجدته لا يعدو بضعة "وصمات" بدوية. غير أن القناة ذاتها والتي يبلغ عرضها مائة ياردة مغطاة بأشجار وأدغال كثيفة من الأكاسيا، والمنحدر السحيق للجبل الذي تبدأ منه القناة، هذان كانا مثيرين حقا. فقد كان ثمة جدار هائل من الصخر يشكل الضفة الشمالية إلى مسافة قصيرة من ابتداء فم الوادي، بينما كانت الهضاب الصخرية إلى أسفل اقل ارتفاعاً. وكانت الصخور الخمسة عشر قدماً الأولى فوق

قاع الوادي حمراء اللون تليه صخور صفراء اللون سمكها عشرة أقدام. وفوق هذه الصخور العليا طبقة كثيفة من الجير. وكانت هذه الصخور تزداد صلابة ويتحول لونها إلى أسود في نواح متفرقة.

واستناداً إلى "حسب الله" فإن اسم "حرب" يشمل الوادي بالدرجة الأولى، بينما يطلق على الجبل ذاته اسم "المنيفة". ولو أن في جبل "رحب" أية أسرار بوده أن يكشفها لعتبتُ عليه كثيراً إذ أنه لم يكشف لي أياً منها.

وليس هنالك غير أمل ضعيف في إمكانية العثور على أية أدلة تثبت زيارة: موسى" والإسرائيليين إلى هذه المنطقة، ولكن أسم المنطقة على الأقل يوحي باحتمال وجود مثل هذه الأدلة. وليس من المعقول أن يكون الإسرائيليون قد تاهوا في صحراء سيناء والصحاري المجاورة مدة أربعين سنة دون أن يكونوا قد شقوا طريقهم إلى وادي "مدين".

وهذا وقد عدنا إلى سيارتنا وتحركت بنا نحو الشمال الغربي مسافة خمسة أميال وصلنا بعدها إلى صخرة هائلة كان تجاوزها من الأمور العسيرة. ومن هناك توجهنا إلى واد عريض ينحدر بين ممرات صخرية، أدت بنا إلى الطريق الرئيسية عند نقطة تبعد مسافة أحد عشر ميلاً عن المخيم.

وقد أمضينا القسم الأكبر من يوم الخامس عشر من شهر فبراير (شباط) في زيارة "مقنه" التي أعدتُ زيارتها في مناسبتين لاحقتين (إبريل – نيسان سنة ١٩٥٢ وفبراير – شباط سنة ١٩٥٣).

الآن نعود إلى قصتنا الأولى، فبعد أن مررنا بتلال (المجموعة ب) من الأضرحة، وعبرنا القناة التي تنبع من مرتفعات "المصلى" إلى خرائب ووادي "أفل" وجدنا أنفسنا في طريق الحمضه"، وهي عبارة عن مرعى عريض وكان ثمة واد تابع للمرعى تنساب مياهه

من أمامنا إلى قناة تقع بين مرتفعات "تيران" على الشمال وبين صخور جبل "نتيش" الواقعة إلى اليمين.

هذا ويواصل الأخير امتداده خلف المجرى الذي حفره تدفق مياه شعبه أمام مرتفعات "الحمرا" التي تماثل مرتفعات "تيران". ويتراوح عرض وادي "الحمضه" بين ١٠٠٠ – ٢٠٠٠ ياردة، ولكنه يضيق حتى ٣٠٠ ياردة عندما يدخل بين سلسلتي جبال، هذه الجبال ذات الصخور الحمراء والسوداء القريبة من قمة جبل "عبدين". وخلف هذه لاحظت أن القناة قد بدأت تتسع حتى تلتقي مع وادي "الخراج" الذي يجري باتجاه الشمال عبر مسرب بين الصخور الجيرية المرتكزة على قاعدة من الصخور الصلدة. وعن طريق هذا الممر تتدفق مياه القنوات الأخرى لتصب في البحر، بعد أن تتجمع ويصبح اسمها وادي "مقنه".

ويوجد في أسفل هذا الوادي – عند ملتقى القنوات ببعضها – حقل فيه أشجار نخيل كثيفة، لا يمكن لأية سيارة أن تمر بينها، مع أن المسافة إلى "مقنة" ذاتها الواقعة على سيف البحر لا تزيد على ميلين اثنين. وكنا الآن قد قطعنا مسافة ثمانية عشر ميلاً من مخيمنا في "بدعة" إلى هذه النقطة. وقد اضطررنا إلى الدوران مسافة أربعة أميال في منطقة وعرة اعترضتنا قبل أن ننتهي إلى وجهتنا.

وإذ سرنا مسافة ميل في وادي "الخراج" استدرنا نحو منطقة الرمال، حيث تسلقنا منحدراً رملياً تكثر فيه الصخور، أدى بنا إلى بساتين للنخيل تبعد حوالي نصف ميل عن القرية ذاتها. وعند رأس المنحدر وقعت عيناي لأول مرة على البحر... كان البحر هادئاً أزرق اللون في خليج العقبة، ومن خلفه تمتد جبال سيناء العظيمة.

وهنا.. أي عند أشجار النخيل، وجدنا جدولاً جارياً يتفرع من نبع "عين الطيور" ويجري نحو الواحة ثم يتدفق باتجاه البحر، ولكنه في الواقع لا يصل إليه.

وعلى شاطئ البحر بالذات يوجد بستانان صغيران لأشجار النخيل يقطن في أحدهما نفر قليل من الناس في أكواخ صغيرة. أما سكان القرية ذاتها فيقطنون في أكواخ مماثلة، ويعملون في جني التمر والرَطب.

وقد رأيت أكبر هذه الأكواخ محاطاً بسياج خشبي لوقايته من الرياح وعرفت فيما بعد أنه دار الحكومة. وفي هذه الدار وجدنا جاويشاً وثمانية جنود "جندرمه" هم الذين يسيطرون على مصير "مقنه". فهم يقاتلون الذباب والبعوض عند الواحات ويقومون بأعمال الدورية على الشاطئ لمنع أعمال التهريب من المنطقة أو إليها.

ولم أجد في هذه القرية متاجر ولا غيرها من المرافق العامة. وتساءلت كيف يتلقى أفراد حامية القرية مؤنهم.. واستفسرت عن ذلك فقيل لي أنها تنقل إليهم عبر البحر بواسطة مراكب صغيرة (قُطيرة) تأتي من "ضبه".

هذا ويعرف عن ميناء القرية أنه يستقبل المراكب التجارية الصغيرة، وهو فيما عدا ذلك لا يصلح لشيء إلا لإبحار المراكب الشراعية (سنبك) إلى البحر الأحمر. ويقع مرسى هذا الميناء بين صخرتين واطئتين تتكسر عليهما بكسل أمواج رقيقة من بحر هادئ. هكذا شاهدنا البحر الأحمر عند زيارتنا له.

والجدير بالذكر أن جميع أشجار النخيل في "مقنه" من ممتلكات أفراد قبيلة "بني عطية". وهم غائبون عن المنطقة. وكان هؤلاء قد اشتروها في يوم من الأيام من مالكيها الأصليين، وهم من فخذ "فوايده" من القبيلة القديمة المعروفة باسم "عقبة"، والتي تعاني الضيق في الوقت الحاضر نتيجة لاستتباب الأمن في شبه الجزيرة العربية في ظل حكم الوهابيين.

وسيف البحر بالذات عبارة عن دائرة متوسطة الاتساع تقع تحت قاعدة من الصخور الغرانيتية، وعلى كل حال، فإن الجهة اليمنى، كانت خالية من الصخور الغرانيتية أو

الجيرية، إذ أن صخور البازلت سائدة هناك، وخاصة عند جبل "نتيش" وغيره من المرتفعات الواقعة خلفه.

وعلى بعد ستة أميال من أشجار نخيل "مقنه" يلتقي وادي "حمضه" بشعب "المُطيرِف" الذي تجمع مياهه من مسايل منحدرات "تيران"، ثم يجري في مرعى واسع يعرف باسم "الحنجور". وعلى بعد ثلاثة أميال أخرى إلى أعلى توجد منطقة صخرية واسعة تمتد مسافة ليست بالقصيرة إلى داخل الوادي من مرتفعات "تيران". ومن جانبي هذا الوادي تمر قنوات يطلق عليها عند تجمعها اسم وادي "أمغار" وهذا يلتقي مع شعب "العجوجا".

وتقع أماكن استسقاء المياه في "ضحل حمضه" عند طرف سهل "الحمضه"، وعلى بعد ثلاثة أميال من الجدول. وهي عبارة عن حفرة كبيرة مفتوحة حفرها البدو في أرض الوادي ولم يبنوا لها جدراناً، بل وضعوا ثلاث حجارات كبيرة في زواياها ليقف عليها الرجال عندما يملأون قِربهم بالماء ليسقوا الماشي. أما عمق هذه الحفرة فيبلغ ست قامات. ولم أجد أي أثر للماء في قعر الحفرة، مع أن الدليل أبلغني عن وجود قنوات في أسفلها، تقود إلى البئر من مختلف الاجاهات في أنفاق تحت الأرض. وقد أكد أن واحداً من هذا الأنفاق يظل مليئاً بالماء باستمرار. ولكن المشكلة كانت في الهبوط إلى القعر للتأكد من هذا الكلام.

وعلى بعد ميل أو ما يقارب الميل تحت هذه النقطة، تقع تلة "طويّل الحمضه"، وهي تلة واطئة ولكنها مثيرة. ومنها ألقيت نظرة أخيرة على المنطقة التي تحيط بنا قبل أن نقطع مسافة الأربعة أميال الأخيرة إلى المخيم. وهناك كانت جبال سيناء تشمخ خلفنا وراء غلالة من الضباب بينما كانت سلسلة جبال "لوز" الطويلة تمتد أمامنا إلى جانب سلسلة جبال "مدين".

وهكذا انتهت زيارتي الأولى إلى "مدين" فإذا ما أشرقت شمس اليوم التالي، فإننا سنكون في طريقنا على شاطئ البحر الأحمر.

# ساحل مدْين

▮ لقد وجدت عندما قررنا استئناف رحلتنا في اليوم السادس عشر من شهر فبراير (شباط) أن هنالك كثيراً من التفاصيل المتعلقة بأقسام مختلفة من المنطقة التي وصفتها في الفصل السابق، يجب أن توضح. وفي الحقيقة فإننا لم نكن متأهبين لمغادرة مخيمنا قبل الظهيرة. وكانت اللياقة تقضي بأن نقوم بزيارة وداع لقائد الحامية ورجاله الذين كانوا زواراً دائمين لخيامنا.

وقد تقدمنا من "بدعة" على امتداد سلسلة جبال "دَرَك" لإلقاء نظرة أخيرة على بئر "موسى". والتقينا في الطريق بالشيخ "محسن" الذي أصر على دعوتنا للغداء في مضاربه. ولكن الوقت كان يقارب الثانية بعد الظهر، ولم أجد بداً من أن أرفض دعوته مرة أخرى. ومع ذلك فقد أرفقت رفضي لهذا الكرم بهدية مناسبة جعلت الشيخ يغادرنا مسروراً.

وبعدئذ واصلنا السير وكلنا أمل في أن نقطع مسافة الخمسين ميلاً التي تفصلنا عن البئر دون مصاعب. غير أن سيارتنا "اللوري" كانت قمينة بأن تصاب بعطب على فترات. وقد تبين لي أن معلومات دليلي الجديد "سعد" عن المسافة التي تفصلنا عن البئر لم تكن صحيحة، وإن كنا قد قطعنا تلك المسافة في ساعتين من السير المتواصل، لكي نصل إلى "خُرَيْبه" عل مسافة خمسة وثلاثين ميلاً.

ولما بلغنا النقطة التي سبق أن وصلتها وتحولت منها لزيارة "حرب"، تابعنا المسير على امتداد الضفة اليمنى لوادي "أفل" مارين فوق بعض التلال القليلة الارتفاع. ولكن هذه سرعان ما أخذت تضيق تدريجياً عند سلسلة من المرتفعات تفصلها عن القناة التي توازيها. وتعرف هذه القناة باسم قناة وادي "قيال" الواقع إلى الجهة اليمنى.

وعلى الرغم من أن هذا الوادي يتلقى جداول الماء التي تنحدر من التلال فإن مياهه تكون ضحلة عندما يصل إلى البحر في نقطة تقع إلى اليمين من مصب وادي "أفل". وبينما ينتشر وادي "أفل" عند نهايته فيتحول إلى دلتا رملية واسعة، مليئة بالأدغال، نرى أن وادي "قيال" يخترق أرضاً مزروعة بالنخيل طولها حوالي الميل الواحد، وفي هذه الأرض عدد بسيط من الأكواخ، يقطنها البدو الذين وفدوا لجني المحاصيل.

وقد دهشت في مناسبة ثانية بينما كنت أمر ببستان النخيل هذا عندما أوقفني أحد الأعراب وطلب مني ماء للشرب. وهو أمر مثير في مثل هذه المنطقة التي يفترض أن تكون مياهها غزيرة. خاصة وأن الرجل كان على مرمى حجر من آبار الواحات.

وطبيعي أنني رفضت إيقاف السيارة لهذا الرجل، ولكنني بعد ذلك تبينت كم كنت مخطئاً. فقد رأيت أشجار نخيل" قيال" تسبح في مياه البحر، وآبارها غير صالحة للشرب. ومن سوء الحظ أنني ابتعدت كثيراً عن مكان الرجل فلم يعد بالمستطاع إصلاح خطأي الذي لا أملك إلا أن أشعر من جرائه بالخجل.

وقد تعرضنا لبعض المشاكل ونحن نعبر الدلتا والتلال الرملية في مواقع من "أفل"، ولكننا وصلنا إلى أوله لنجد بستاناً صغيراً من أشجار النخيل الهزيلة. وكانت المسافة من هذه النقطة، حتى الطرف الأعلى لبساتين النخيل في "قيال" ستة أميال. وثمة مسافة مماثلة تفصل الأخيرة عن النقطة التي تحركنا منها باتجاه "حرب". وهكذا فإن المسافة ما بين "بدعة" والبحر تبلغ حوالي ثمانية وعشرين ميلا.

وما أن استدارت بنا السيارة نحو منحدر بين البحر وجدران منحوتة واسعة ممتدة إلى يسارنا، حتى توقفنا لتناول الشاي وأداء الصلاة. واستفدت من الوقت الذي كنا سنمضيه في التوقف عند هذه النقطة فقمت بمسح المنطقة من فوق صخرة علوها أربعون قدماً. وقد رأيت تلك النقطة سلسلة واحدة تعقب الأخرى من جبال "تهامه". وتنحدر هذه السلاسل باتجاه الساحل بعد أن تبتدئ من أبعد نقطة عند قمم جبل "شر".

وإنه لمن سوء الحظ، أن دليلي "عيد" و"زعل" — وكانا ما يزالان معنا — قد اعترفا بأنهما لا يعرفان شيئاً، مهما قلّ، عن المنطقة الجديدة التي ستصبح مسرحاً لتجوالنا خلال بضعة الأيام القادمة. ولذا فقد طردتهما. وعلى هذا الأساس تركناهم في "خُريبة".

وهنا كان البحر يتمطى برفق عند الشاطئ وكان مليئاً بأسماك "هلامية" من جميع الأحجام. وهي مخلوقات لها أنوف طويلة.

وفي هذه الأثناء كنا قد وصلنا تقريباً إلى الجنوب من "بدعة" فأصبحت مرتفعات "سيناء" واضحة للعيان وكذلك الجزر العديدة خارج خليج "العقبة"، مثل "تيران" و"صنافر" و"أبو شوشع" و"برقن".

وقد سرنا مسافة ثمانية أميال في طريق سهل إلى "خُريسبه"، ولكننا قبل أن نصل إليها، عبرنا قناة وادي "عينونه" بالقرب من اتصالها بالبحر. ويبلغ عرض هذه القناة ميلاً واحداً.

و"خريبة" هذه عبارة عن قرية مؤلفة من أكواخ من سعف النخل منتشرة بين النخيل. وهناك مجموعة صغيرة من البنايات الحديثة نوعاً ما، على طول ساحل مرفأ صغير. أما مركز البوليس فيحتل مرتفعاً رملياً صغيراً يقع بالقرب من أشجار النخيل. وعزمت أن أمضي الليلة في هذا المكان لأفحص خرائبه، غير أن السكان الذين قابلتهم بدوا وكأنهم ليست لديهم أية معرفة بشيء أكثر قدماً من مساكنهم المهلهلة!

وتحدثت إلى أحد العبيد، وكان مظهره يدل على ذكائه، فتطوع بابلاغي بعض المعلومات. وقال لي "أحمد"، وهذا هو اسمه، أن ثمة خرائب قديمة في "عيونه"، وهو مستعد أن يقودنا إلى هذه الأماكن. فقبلت عرضه، وبادرنا بالمسير دون إبطاء، وقبل أن يحاول رجال البوليس اعتراض طريقنا ليفرضوا علينا كرمهم.

وقد سرنا بحذاء الضفة الشمالية من الوادي فوق أرض صخرية، حتى وصلنا إلى بساتين نخيل "عينونة" بعد أقل من عشر دقائق. (وكانت المسافة تتراوح بين ميلين وثلاثة أميال). وقمنا بالحال بنصب خيامنا قرب الواحة.

وإذا ما استثنينا البعوض الذي كان مزعجاً وكثيراً جداً، نكون قد أحسنا صنعاً باللجوء إلى هنا بدلاً من البقاء ضمن منطقة السكن في "خريبة". ويكاد يكون ثابتاً أن هذه الرقعة من الشاطئ كانت مرفأ عينونه في الأزمنة القديمة، وإن كانت ، على حد رأي أحمد – تكاد تكون خالية من الآثار في الوقت الحاضر.

ويبدو أن "عينونه" ذاتها كانت ذات أهمية مرموقة، فهي تقع في مركز استراتيجي يمتد على شكل شريط رفيع من الأرض، يقطعه الوادي عبر مجرى من الصخور الجيرية. ومن هذا المجرى تتفرع جميع الطرق المؤدية إلى السهل والتي تنفذ إلى البحر على حد سواء.

وكما سبق أن ذكرنا، فإن راس وادي "عينونه" يقع باتجاه القسم المقابل للبحر من سلسلة جبال "الروا" في منطقة الحصمة، في حين أن أعاليه تعرف باسم وادي "نتيش" أو وادي "الروا"، وإن كان الوادي الذي يحمل الاسم الأخير منفصل تماماً. إذ أنه يجري باتجاه أفل على طول امتداد القسم الجنوبي من سلسلة جبال "زُهد".

وقد اكتشفت ذلك في سنة ١٩٥٣ عندما عبرت وادي عينونه وقطعت حوالي عشرة أميال فوق المنطقة التي كنا في الوقت الحاضر مخيمين فيها. ومن ثم تبعت وادي الروا (وادي الشواحط) لمسافة قصيرة داخل وادي أفل. أما جدول الماء الجاري الذي يأتي من منطقة

مخيمنا فلا يصل إلى أبعد من الأرض الرملية الشاسعة في الوادي والتي تقع في الجهة المقابلة للبحر من سلسلة المرتفعات.

هذا وقد أمضيت عدة ساعات من صبيحة اليوم التالي في فحص المنطقة المحيطة بنا فحصاً تفصيلياً. فبعد ذلك الشريط دون سلسلة الهضاب الواطئة عند كتف الضفة اليمنى، وجدت خرائب قرية كبيرة. وكانت بعضها خرائب بناية كبيرة ذات طابع فج خشن يبدو منه أنها كانت قلعة صممت بشكل يضمن الإشراف على المدخل المؤدي إلى السهل. أما بقية البنايات فتنتشر في مساحة واسعة. وهي مثل تلك الكبيرة في خشونة المظهر، وإن كانت حجارتها متراكمة فوق بعضها بحيث لا يمكن أن يعرف المرء للقرية شكلاً ولا كيف كانت غرفها مصممة.

ويتراءى لي أن هذه البنايات كانت دوراً للعمال وغيرهم من الخدم، لأن "عينونه"، كما سنرى في حينه، لم تكن مركزاً استراتيجياً مهماً فحسب، بل ومركزاً اقتصادياً مرموقاً أيضاً.

ومن عند هذه الخرائب تسلقنا المرتفع المؤدي إلى المنحدرات الصخرية حتى وصلنا إلى قمة المرتفعات. وهنا كان الحي الراقي في مدينة عينونه عندما كان الأرستقراطيون يعيشون فيها. ويبدو أن هؤلاء كانوا قوماً لا فن لديهم كما تشهد بذلك آثار بناياتهم وربما كان كل همهم أن يؤمنوا سيطرتهم على منطقة كان فيها ذهب يستخرجونه، ومن ثم يعالجونه بالصناعة ليتاجروا به.

وتمتد القرية القديمة من اطرف الغربي للخرائب، مسافة تبلغ خمسمائة ياردة تقريباً على طول قمة الصخور الجيرية باتجاه جنوبي شرقي حتى مشارف الشريط، وتمتد القمة باتجاه الشمال الغربي المسافة ذاتها، غير أن هذه المنطقة كانت خالية من البنايات، وإن كان فيها بعض أكوام من الحجارة يعتقد بأنها كانت مراكز للمراقبة.

أما عرض المدينة فيقارب المائتين وخمسين ياردة. ويبدو أن زاويتها الشمالية الغربية كانت مركزاً لقصر أو قلعة. ويجوز أن هنالك بعض الخرائب الأخرى عند الامتداد الشرقي لسلسلة المرتفعات في أسفل الشريط، ولكنني لم أزرها.

والمواد التي استخدمت في بناء المدينة وقلعتها خليط من جميع الأجناس، بما فيها الغرانيت، والبازلت. وبعض حجارتها بحجم رأس الإنسان. وقد شاهدت بعض الغرف والمنازل واضحة المعالم من حيث أساساتها، غير أن أياً منها لم يكن له أهمية هندسية تستحق الذكر. وحتى قطع الفخار التي وجدتها فيها كانت عادية جداً.

والواقع أنه كان هنالك شيء قليل يمكن معه التمييز بين المدينة العلوية والمدينة السفلى. ومع هذا فقد استفدنا ما يقابل عناءنا، إذ أننا من القمة هناك استطعنا أن نكوّن فكرة لا بأس بها عن المنطقة الواقعة إلى الجهة الشرقية من المرتفعات. وخصوصاً فيما يتعلق بالوادي الذي يجري نحو الشمال الشرقي مسافة خمسمائة ياردة بعيداً عن الشريط، ثم يدور شرقاً حتى يصل إلى نقطة تبعد حوالي ميل واحد عن المكان الذي يختفي فيه عن الأنظار. وإن كانت تبدو بعض منعطفاته على بعد ثلاثة أو أربعة أميال. وفي هذا الوادي مساحات شاسعة من بساتين النخيل الذي تظهر أشجاره في مجموعات وقراطيس تمتد على مرمى البصر.

وهبطنا من دراستنا غير المجدية على القمة، لنتوجه نحو ذلك الوادي عبر الشريط المستصلح من الأرض وعلى امتداد المسيل. وبعد أن مررونا بأشجار النخيل وغيرها من الأشجار المختلفة، شققنا طريقنا إلى طريق أوضح تقوم تحت الطريق التي كنا نسير عليها. وهنا أتينا إلى نقطة فيها بعض الخرائب على ضفتي القناة، بعد أن قطعنا ميلاً تقريبا من المكان الذي تضيق فيه تلك القناة.

وقد أطلق "أحمد" على هذه الخرائب اسم "مغاير الكفار".وهي من الحجارة غير المشذبة، ويشبه أسلوب بنائها تلك التي رأيناها من قبل. وهي تحتل موقعاً على الضفة اليمنى تقدر مساحته بخمسمائة ياردة طولاً ومائة ياردة عرضاً.

وفوق هذا الموقع مباشرة توجد صخور من البازلت تشكل سداً طبيعياً يخترق الوادي، ولا يزيد ارتفاعه عن بضعة أقدام. وفي نهاية تلك الصخور على الضفة اليسرى وجدنا خرائب لبنايات حجرية قديمة.

وأراني أميل إلى القول بأن تلك الصخور السابقة كانت أساس سد بُني هناك غير أن الزمن لم يبق منه شيئاً. فإذا كان ما أراه صائباً فإن هذا السد قد بني لسبب يتصل بعمليات غسل الذهب التي ربما كانت بدورها السبب الرئيسي في إنشاء هذه القرية. ولست أدري إذا كان هذا السد قد وفى بالغرض الذي أنشئ من أجله!.

ومن الغريب أن الصخور الغرانيتية والبازلتية تحتكر المنطقة الواقعة إلى الشرق من منطقة الصخور الجيرية كلها، حتى أن هذه الأخيرة بدورها قائمة على أساسات بازلتية وغرانيتية.

ويبلغ عرض الوادي خمسين ياردة، تحصرها صخور ملساء يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام. وليس هنالك أية بنايات فوق أي من ضفتيه. وهناك منحدرات السلسلة الصخرية التي يبلغ طولها ثلاثمائة ياردة، والتي تبعد قليلاً عن الضفة اليمنى فيها بعض الأبنية الحجرية من ذات الطراز السالف الذكر. والجدير بالذكر أن الأكواخ المصنوعة من سعف النخل والقريبة من الشريط لا تستعمل إلا أيام جني التمر.

وفي طريق عودتنا إلى خريبة عرجنا على مركز البوليس حيث قدمت لنا القهوة والشاي قبل أن نواصل تحركنا لفحص القرية، التي كانت بيوتها تبدو وكأنها مستعمرة مرجانية، إذ تتكوم العشرات منها بالقرب من الشاطئ. وهناك وجدنا السيارة التي مرت

بنا في بدعة قبل أربعة أيام، وكانت هذه السيارة متجهة جنوباً في طريق عودتها إلى تبوك على ظهرها حمولة من النفط المرسل إلى الحكومة.

ولما لم يكن في المكان الكثير مما يشجع على البقاء، فقد تحركنا نحو الشاطئ الرملي حول خليج بديع، كان طرفه الأقصى يدخل في البحر ليشكل شبه جزيرة "شرما". ويستسقي أهل هذا الموقع من الوادي الذي يحمل الاسم ذاته، وهو الوادي الذي وصلنا إليه بعد مسيرة ستة أميال من "خريبة".

كان "موسيل" قد أمضى زمناً طويلاً في شبه الجزيرة المذكورة سنة ١٩١٠. وقد وجد فيها عدداً لا بأس به من الإمارات التي تدل على أنها كانت مسكونة وفيها شيء من الحضارة في الأزمنة القديمة أما الآن فقد وجدتها مهجورة إلا من زراعة بسيطة يقوم بها البدو في مواسم المطر الغزير والفيضانات.

وعلى طول الضفة اليمنى من الدلتا الرملية الواسعة لوادي "شرما" وجدنا نبعاً تذهب مياهه هدراً في الرمال بعد أن يفي بالغرض المطلوب منها ألا وهو تزويد واحة "شرما" التي تبعد نصف ميل عن منبعه، بماء الشرب.

ولم نتحول عن طريقنا لزيارة هذا النبع هذه المرة، غير أنني إبان زيارتي الثانية في شهر إبريل (نيسان) من العام الذي تلا ذلك قمت بزيارته مع عالم الآثار الجيولوجي المصري "مصطفى صادق". وقد تناولنا طعام الغداء عنده ونحن نجلس على بساط أخضر من العشب البديع يمتد منحدراً إلى قاع الوادي بعد أن يمر ببستان لأشجار النخيل هناك، وكان بعض تلك الأشجار مرتفعة جداً.

ويبلغ عرض "دلتا" شرما" الذي عبرناه، والتي تقع على طريق السيارات الرئيسية حوالي ثلاثة أميال. ووراء هذه الدلتا يمتد سهل رملي واسع مرتفع إلى حد ما، تخترقه عدة

قنوات ضم مساحة من الأرض لا تزيد على خمسة أميال. وهذه القنوات هي (مخْبار ورتيّة كُرَيْكَره وروضة العبد)، وهي موجودة بهذا النظام من الشمال إلى اليمين.

وقد دخلنا الدلتا على بعد ميل إلى الجنوب من "روضة العبد" ومن ثم عبرنا وادي "تيريام الكبير. وهو آخر نقطة تصل إلى البحر، من وادي "سَدْر".

ويمر طريق السيارات من أمام بستان كبير للنخيل فيه عدد كبير من الآبار ويمتد ذلك البستان عدة أميال على طول لسان صخري عريض. ومن هناك يشق الوادي طريقه إلى المنطقة الساحلية ثم ينفذ إلى البحر.

وهناك تقوم قرية "السورة" وفيها عدد قليل من أشجار النخيل، ومركز لمراقبة الساحل أقاموه في نقطة اتصال دلتا تريام بقناة وادي "وقدان".

وقد عبرنا الأخير من نقطة تبعد أربعة أميال إلى الجنوب من أشجار نخيل تريام، عند طرف طريق صخرية عريضة، تفصل وادي "سدر" عن وادي "مُزَيهره" وهو الوادي الأخير هو الذي عبرناه لنصل إلى البحر على بعد سبعة أميال إلى الشمال من الميناء المهم المعروف باسم "مُويلِح".

والجدير بالذكر أن بورتون قد نزل في هذا الميناء سنة ١٨٧٧ ليقوم بأولى جولاته الاستكشافية بحثاً عن مناجم الذهب في "مدين".

وبالنظر لخشيتنا من أن تؤخرنا السلطات الحكومية في ميناء "مويلح" حتى يتسع لها الوقت لأن تغمرنا بكرمها، فقد فضلت أن يكون تأخيرنا بين أشجار النخيل القريبة من الواحة. وتقوم في وسط هذه الواحة تلك القلعة الرائعة التي أمر بتشييدها السلطان "سليم خان" أحد خلفاء آل عثمان من أجل حماية الحجاج. وسرعان ما انتشلنا كمية من ماء "المروى"، وهو أحد الآبار الواقعة إلى جانب الطريق هناك، ثم أسرعنا وليس يشغل أفكارنا سوى سرعة الوصول إلى "ضُبه".

وتابعنا السير عن "مويلح" تسعة أميال، ثم مررنا بالتلة التي يطلق عليها اسم "تلة الكبريت" أو "جبل الكبريت". هذا وتقع ضبه ذاتها على الساحل وعلى بعد تسعة عشر ميلاً من هذه التلة. وقبل ميلين من هدفنا مررنا بمصبات "حاشية" و"ذُكحان" الواسعة. وفي المكانين من الإمارات ما يدل على أنهما عامران بالسكان . وهما من الأماكن المفضلة لدى سكان ضبه لقضاء نزهاتهم.

لقد انقضت الآن ثلاثة شهور منذ أن غادرنا "الرياض" من أجل استكشاف مدين، وهاهي مهمتنا على الغالب قد انتهت، غير أنني كنت قلقاً جداً بخصوص المهمات الأخرى التي تنتظر عودتي إلى المدينة. ومهما يكن من أمر، فإنني ولا شك جدير بأن أنال استراحة من العمل، ولو لليلة واحدة، في ضيافة "محمد النفيسي". وهو مواطن من "منفوحة" قرب الرياض، عيَّنوه حاكماً للمنطقة الساحلية هذه وهو يرتبط بالأمير خالد السديري حاكم المناطق الشمالية، التي كانت ضبه ميناءها الرئيسي الفعّال. وهكذا بتنا الليلة هناك.

ولم أجد في ضبه أي شيء يلفت الأنظار، وإن كان المدينة حديثة نسبياً. وتقع ضبه فوق أرض مرتفعة على طول الشاطئ. ولهذه المدينة سوق كبيرة ومركز للبيع يشرف عليه عدد من مختلف موظفي الحكومة والبلدية. وقد أنزلنا الأمير تلك الليلة في بيت قريب من مسكنه الخاص، يطل على الشارع الرئيسي في المدينة. ولهذا كنت أستطيع من نافذتي أن أنظر إلى الشمال نحو الصخور والقمم الغرانيتية الكبيرة في جبل "شر" الذي يشرف على جميع الطرق المحيطة بجبل الكبريت.

وقد أقام لنا الأمير في تلك الليلة حفل استقبال خاص في بيته دعا إليها نفراً من رجالات الحكومة في المنطقة بما فيهم القاضي "عبدالغني مشرف المدني". وهو رجل من سكان المدينة المنورة بالأصل يحب العلم والتعلم، وكان كثير الاهتمام بسماع أخبار تجوالنا في مدين. وقد أمضينا ليلة ممتعة للغاية تحدثنا فيها عن "ضَبه" ونشاطاتها التجارية وآمالها في

تطوير الاقتصاد. وكانت تجارة هذه الموانئ الواقعة على البحر الأحمر، في الأزمنة القديمة، تقتصر على تصدير الأغنام وفحم الخشب إلى السويس، غير أن هذا النشاط قد توقف بأمر الحكومة السعودية التي شجعت استيراد الأغنام من الصومال وغيره، لتأمين احتياجات أسواق جدة ومكة.

ومن هنا تحولت آمال "ضبه" إلى مشروع إنشاء طريق مباشر إلى تبوك عن طريق ممر "خريبه". وذلك بتجنب النفقات الباهظة التي يتقاضاها سائقو سيارات اللوري على حمولة سياراتهم بين المدينتين بسبب الطرق الشاقة الطويلة عبر مدين.

والجدير بالذكر أن معظم التجارة تتألف من البترول والزيوت، وهي تجارة تلعب فيها عائلة إسماعيل بديري من "ينبع" دوراً بارزاً. ويتحتم على جميع السيارات القادمة من الأردن والتي تقل الحجاج، بموجب القوانين الراهنة. أن تتزود بما تحتاج إليه من وقود وزيوت من "معان" إلى المدينة. وعند وصولها إلى الحدود السعودية عند "ذات الحج" يتحتم على أصحابها أن يدفعوا الضرائب للسعودية، عما يحملونه من مخزون البترول والزيت. وأنه ليسر أصحاب السيارات أن يشتروا كل ما يحتاجونه من وقود وزيوت من الأراضي السعودية فيما لو أمكن توفير هذه المواد ضمن مراكز أقل كلفة. غير أن بعد المسافة يجعل أسعار هذه المواد غير محتمل، كما أن التجار السعوديين ممنوعون من القيام بأي نشاط حر يوفر لهم ربحاً معقولاً.

والشيء ذاته يقال على غير هذه المواد من البضائع المختلفة التي يمكن أن توفر بأسعار أرخص بكثير فيما لو استوردت من معان إلى تبوك بدلاً من أن تستورد من "ضبه".

ومع ذلك فإن ثمة ميلاً واحداً من الطريق في ممر خُريطه لو أمكن تعبيده لزاد في رفاهية ضبه. ولكن وكما يعلم الجميع، فإن الأموال القليلة اللازمة لإتمام هذا المشروع تصرف على مشاريع ذات أغراض وهمية.

وقد سرني هاهنا أن أجد السكرتير الرئيسي والمستشار المالي للأمير، شخصاً يدعى "عبدالدايم" كان والده كبير موظفي الدولة في "مويلح" عندما نزل بورتون إلى ذلك الميناء في سنة ١٨٧٧.

وفي صبيحة اليوم التالي قمت بزيارة مجاملة للقاضي ولرؤساء مختلف الدوائر الحكومية، كما قمت بجولة استطلاعية زرت فيها كبار التجار في المدينة ومختلف المخازن والمتاجر في السوق. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر اجتمع رؤساء دوائر الحكومة – بناء على دعوة من الأمير – لمقابلتنا أثناء حفلة العشاء في بيته. وقد جلسنا نرشف فناجين لا آخر لها من القهوة المرة (السادة) وكؤوساً أخرى من الشاي المحلّى وأخذنا نتبادل الأحاديث حول "الوجه" التي كانت في الأزمنة القديمة ميناءً ناشطاً في تصدير الأغنام إلى السويس، بواسطة السنابك المعروفة في البحر الأحمر أو على ظهر البواخر الخديوية الكبيرة. غير أن الأخيرة لم تكن تستطيع الوصول إلى المرفأ فكانت تقف في عرض البحر حيث توسق بحمولتها هناك، وكانت عمليات السوق هذه تكلف الكثير من الأرواح. غير أن كل هذا قد توقف في الوقت الحاضر ليس لأسباب إنسانية، بل من أجل حفظ حاجة البلاد من اللحوم.

وكذلك شمل الحظر نوعاً آخر من البضائع المصدّرة، وهو السمن الذي كانت أسواق مصر تطلبه بكثرة. أما الشيء الوحيد الذي تصدره (الوجه) الآن فهو خشب الفحم، ويشحن على السنابك في أكياس وزن الواحد منها قنطار وثمنه ١٢٥ قرشاً مصرياً، تسليم السويس.

ويقدر العارفون عدد سكان الوجه بألف وخمسمائة شخص يقابلهم ألفان في ضبه والوجه اليوم أقل ثراء ورفاهية مما كانت عليه قبل الحرب عندما كانت ميناء عادياً للفحم الذي تتزود به السفن الخديوية وغيرها من السفن التجارية.

وهنالك عدد كبير من البيوت في المدينة السفلى وآخر قليل في المدينة العليا، يرجع تاريخها إلى فترة الاحتلال المصري لشمالي الحجاز. وهذه على وجه العموم أحسن من البيوت الحديثة. أما القلعة الكبيرة التي تشرف على المدينة السفلى من فوق الصخرة العالية فتبدو رائعة، وإن كنت لم أزرها من الداخل. وقد عرفت أن رجال البوليس المحلي يحتلونها في الوقت الحاضر.

وفي المدينة السفلى توجد السوق الرئيسية وهي سوق رائعة. وكذلك دوائر الجمارك وكل ما يتعلق بشؤون المرفأ من بنايات. وهنالك محكمة أيضاً. وكانت المدينة في الأزمنة الغابرة تعتمد في تأمين حاجتها من المياه على عدد من "الصهاريج" أو البرك الكبيرة التي صممت بحيث تتلقى مياه الأمطار التي تتساقط في المنطقة وتخزنها فيها. أما بعد ذلك فقد جعلت تعتمد على طريقة أكثر نفقة من سابقتها. وتتلخص هذه في الطريقة في إرسال الجمال (وحديثاً السيارات) إلى الآبار التي تبعد ستة أميال في وادي "سبيًل". وتنبع مياه الآبار في هذا الوادي من المرتفعات المجاورة، ثم تتدفق من جوف الأرض نحو الميناء.

وإلى جانب الآبار تقوم القلعة الصليبية المشهورة باسم (قلعة الزريق). وقد زرت هذه القلعة، برفقة الدكتور د. ج هوغارث في شهر يناير (كانون الثاني ) سنة ١٩١٨ حين كنا في طريقنا من جلة إلى العقبة ومنها إلى السويس بعد أن بحثنا في سياسة شبه الجزيرة العربية مع الملك حسين ملك الحجاز آنذاك.

والقسم العلوي من مدينة الوجه مكشوف من جهة الشرق، وليس له اسوار. وفي الوقت الذي تشمخ فيه هذه المدينة (الجديدة) فوق الصخور، نرى أن المدينة السفلى محصورة في نطاقها الضيق بين سفح الصخور وبين الميناء. ويحيط بها من الجهة الشرقية (سور) أقيم لحمايتها من الغزو من قبل البدو، غير أنه قد تلاشى الآن ولم يبق منه إلا مدخل يسمى (باب البحر). وبداخل هذا الباب مكان فسيح لإناخة الإبل التي كانت تفد قوافلها في غابر الأيام. أما هذه المناخات فقد استبدلت اليوم بمواقف للسيارات يرى المرء

فيها بقعاً كبيرة من زيوت المحركات وأكواماً كبيرة من براميل البنزين. وقد نقلت هذه مؤخراً إلى خارج السور كإجراء وقائي ضد احتمال نشوب الحريق.

وعندما وصلنا إلى "الوجه" استمتعت بحمام ساخن وبدلت ثيابي كلها بعد أيام، لا أريد عدّها، ظللت طوالها أرتدي نفس الملابس المتسخة. وقد شعرت بالراحة تماماً. ألا يكفي أنني قد اغتسلت وأصبحت نظيف البدن واللباس! وبالإضافة إلى ذلك قمت بارتداء ثياب مناسبة احتفالاً بهذه المناسبة الاجتماعية البهيجة.

وكنا قد اعتزمنا مواصلة السير في صبيحة اليوم التالي، إلا أنني عندما فحصت صناديقي المقفلة لأخرج منها كمية كافية من النقود أمنحها إلى خدم الأمير إقراراً بما غمرنا به سيدهم من كرم، وجدت أن المفاتيح قد فقدت! وكان التفسير الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه هو أنها قد تكون سقطت مني أثناء قدومنا، وخاصة عندما ثارت الزوبعة في (نبقا).

وعلى هذا الأساس أرسلت زعل والسائق إلى المكان الذي تمت فيه ليبحثا عنها هناك. وكانت المسافة خمسة وأربعين ميلاً ومثلها للعودة.

وقد قمت من جانبي استغلال الوقت الذي اضطررنا لانتظاره فأمضيته في زيارات نافعة. والواقع، أنني لم أكن آسفاً لهذا التأخير الاضطراري فقد كانت يديّ وقلميّ قد امتلأت بالكلمات نتيجة الطرق الوعرة التي قطعناها خلال بضعة الأسابيع الماضية.

وكان لمدينة "الوجه" ميزة تخفف عني الأسى لهذا التأخر، فالمدينة تضم عيادة صغيرة. ومن الطبيعي أنني قمت بزيارة الطبيب المسؤول عن تلك العيادة. فوجدته شاباً من أهل "الوجه" يدعى "محمد قنديل" وكان هذا الشاب قد أمضى سنة هنا بعد أن قضى فترة تدريب في مدرسة التدريب الطبي في مكة. ولم يكن الدكتور محمد مؤهلاً بأي شكل من الأشكال

بمؤهلات الطبيب، إذ أن بطاقته الرسمية كانت تحمل لقب "صيدلي"، ومع ذلك فقد عالج كدماتي بصبر تام. ثم تركته بعد أن ضمّد جراحي بأربطة طبية، ولم أعد..

وقد أقلقني أن تأخرت عودة السيارة، حتى أنني لم أكتم حيرتي بخصوص ما إذا سيكون بوسعنا أن نغادر المكان مع مطلع الفجر. وكنا قد اتفقنا على أن نتناول طعام العشاء مع الأمير في الموعد المقرر وهو الساعة الرابعة بعد الظهر، على أن نتحرك بعد ذلك مباشرة. هذا إذا عادت السيارة قبل ذلك الوقت. ورأيت من الأفضل أن نعدّ كل شيء لوضعه في السيارة على عجل.

وبينما كنت أنزل ثيابي من المكان الذي علقتها فيه وجدت المفاتيح الضائعة في جيب أحد القمصان. وضحكت من فعلتي هذه، ومع ذلك فقد أمضيت يومي بسرور بالغ.

وأستطيع أن أقول أنه لم يُسرّ أحد لهذه المهزلة أكثر من زعل والسيد عندما عادا ووجهاهما مكفهران لينهيا إلي النتائج السلبية التي توصلا إليها في بحثهما.

كان الوقت قد أصبح متأخراً في هذه الأثناء، ولكنني قررت، بعد إذن الأمير، أن نبدأ السير. وهكذا تحرك ركابنا في الساعة الخامسة والنصف من مساء ذلك اليوم. وما أن سرنا مدة خمس دقائق حتى بلغنا أعلى الطريق، بعد أن رفضنا بأدب بالغ دعوة من أفراد مركز البوليس للبقاء عندهم فترة من الوقت نتناول فيها القهوة. وبعد دقيقتين، كنا نسرع منحدرين نحو آخر منعطف في وادي "ملسا" حيث وصلنا إلى دلتا عريضة تعرف باسم "دلتا وادي سُبَيِّل".

وقد قطعنا هذه الدلتا ثم تقدمنا مصعدين نحو أحد المسايل العريضة، فأدى بنا ذلك المسيل إلا طرف بحيرة مياهها مالحة تعرف باسم "الملاحة". وهي تزود الوجه والمناطق المجاورة لها بما تحتاجه من الملح. وعلى شاطئ هذه البحيرة شاهدت أنقاضاً حجرية تدعى "درّة الملاّحة" تعترض الطريق، ومعظمها من الحجارة الجيرية.

أما الطريق الجنوبية الرئيسية فتمضي إلى الأمام في خط مستقيم، يكاد يكون موازياً للشاطئ، ولكننا أتبعنا الطريق الشمالية التي تتجه نحو الجنوب الشرقي، حيث تفضي إلى "أم القرايا"، وهي قرية تحتوي على منجم كبير للذهب، وتبعد مسافة ميلين عن خليج ألوجه.، وكنا قد اعتزمنا قضاء الليلة هناك.

وقد وصلنا "أم القرايا" بينما كانت الشمس على وشك المغيب مرسلة أشعتها الحمراء الباهتة، عبر الوديان الضحلة المعروفة باسم "أم تنضب" و"أم صورة". وتحت هذه الوديان يقع سهل وادي "السرا" الذي تصب فيه عدة قنوات للماء تمتلئ بما يتجمع أثناء مواسم المطر. وكانت هذه القنوات تعترض الطريق بيننا وبين سلسلة جبال "أم هاشم". وقد صعدنا مارين بهذه القنوات إلى أحد روافد وادي "الصورة "فاستغرقنا خمس عشر دقيقة قبل أن نصل إلى أعلى ذلك الرافد. ومن هناك هبطنا إلى وادي "الخور"، ومن ثم ضربنا خيامنا في ضواحي مناجم الذهب في "أم القرايا".

وفي صبيحة اليوم التالي استيقظت مبكراً آملاً أن تتاح لي فرصة القيام بجولة في منطقة الخرائب الواسعة. وكان "ك.س. تويتشل" قد فتش هذه المنطقة بأسرها – دون أن يتوصل إلى نتيجة ما – عندما زارها منذ سنوات. ولذا فقد اكتفيت بان متعت نفسي بمنظر المنطقة واهتممت بجغرافيتها. والحق أن المنظر، كما يرى من القمة، بدا رائعاً للغاية. ويبدو أن المنجم الرئيسي للذهب في غابر الأزمان كان هناك.

هذا وقد أصبحت الآن سلسلة جبال "ليان" في الجهة الشمالية الغربية منا بينما كانت تبدو في الاتجاه المقابل (الجنوب الشرقي) صخور "رغْل" الغرانيتية الكبيرة. و"رغْل" هذه هي مقر شيخ قبيلة "بالي" ويعرف باسم "ابن رفادة" ومن المعروف عن هذا الشيخ أنه لا يشجع التنقيب في الجبال التابعة له.

ومن قمم "رعل" التي ترتفع ثلاثة آلاف قدم يطل المرء على وادي "الحمضه" حيث تقع قرية شيخ قبيلة "بالي" وتعرف باسم "أم الذريبات". وكان الحجاج في الأزمنة القديمة يتوقفون عند هذه القرية ليتزودوا بالماء وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وكان بنو "بالي" يشرفون على مرور الحجيج. وقد ظلوا كذلك في عهد الأتراك زمن الشريف، حيث كان مواسم الحجيج مصدر إثراء لهم. كان الأتراك قد عمدوا إلى نظام "الصرّة" وذلك ليتفادوا طمع بني بالي بالحجاج. و"الصرّة" مبلغ معين من المال يتقاضونه كضريبة مرور، غير أن هذا النظام قد ألغي الآن.

ومن مكاني المرتفع، كنت أستطيع أن أرى قناة "الخور" الواسعة تمتد مسافة خمسة أميال عبر منطقة تكثر فيها التلال ثم تنحدر على طول ثلاثة أميال أخرى إلى نقطة تتصل فيها بأكبر روافد وادي "المياه" الذي يتدفق من المرتفعات العالية التي تعرف باسم "الكُر" و"النابا"، حيث تمتد هذه المرتفعات إلى أقصى الشمال الشرقي ثم لا تلبث أن تنحدر باتجاه البحر.

كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف صباحاً، عندما استأنفنا سيرنا، وسرعان ما وصلنا إلى قناة وادي "المياه". وهناك وجدنا بئراً تعرف باسم بئر "مُريْر" تقع في دغل قريب من مكان يدعى "طَرفا". ويربط هذا الوادي مع وادي ": العرّجا" لسان طويل ومسايل رئيسية تتدفق مياهها إلى البحر جارفة معها كميات من الحجارة الجيرية تشبه التي رأيناها في "درّة الملاحة".

وعندما وصلنا إلى ذلك اللسان العريض من الأرض وجدنا منجماً قديماً آخر من مناجم الذهب، يُعرف باسم "الخور" كما يُطلق عليه في بعض الأحيان اسم "جبل الأبيض". ويبعد هذا المنجم مسافة ستة أميال عن "القرايا"،

وتابعنا مسيرنا إلى قناة وادي "العرجا"، ثم هبطنا إلى نقطة وجدنا فيها الطريق الحديثة التي تربط بين الوجه والعلا. وهناك سرنا في طريق ضيقة أوصلتنا إلى الطريق الحديثة الممتدة بين هضابٍ حجارتها غرانيتية سوداء. وقد تم لنا ذلك عند نقطة تبعد بضع مئات من الياردات عن موقع (درّه). ثم استدرنا لنتبع تلك الطريق على طول امتداد الشاطئ. وفي هذه النقطة كانت المسافة التي تفصلنا عن (الوجه) لا تزيد على خمسين ميلاً (على الطريق).

وابتدأت الطريق الآن تسير بمحاذاة الشاطئ عبر أرض سبخة من جراء المياه الراكدة التي تلفظها مختلف الأودية في تلك المنطقة، مثل (الطويّل) و(الغُلَيفين)، و(والمرّه) وهو امتداد لوادي "عبدالعزيز"، و(الرُمَيحيّات).

وكانت تمتد على طول الشاطئ عند أول وادي المرّه أشجار تُعرف باسم (شُورا)، بخلاف ذلك الحال في القسم الأقصى من "الرميحيات"، حيث وجدنا أنفسنا نمر بأرض تكثر فيها التلال الرملية. وتفضي هذه الطريق إلى الدلتا الفعلية لوادي "حمض" الذي يمتد مسافة بعيدة إلى الغرب حيث يقع المرتفع المعروف باسم "رأس كركمه" وهو مرتفع يتوجه رأس أصفر اللون. ومن هذا اللون اكتسب المرتفع اسمه. و"الكركم" باللغة العربية نبات يعطي لوناً اصفر.

كنت في هذه الأثناء قد أصبحت في نقطة تبعد كثيراً وراء المرتفعات التي زارها موسيل. وقد بدأ العمل يغدو عسيراً بالنظر لأنني لم أحضر معي نسخاً من مؤلفي "ريتشارد بورتون" عن مدين ومياها المعدنية. ومما لا شك فيه أنه قد زار "أم القريا" و"الخور" كما لابد وأن يكون قد زار "مارو" عند رافد وادي "العرجا" الذي يعرف باسم "مِسما" وكنت لا أعرف شيئاً عن هذه المنطقة!

وأسوأ ما في الأمر إنّا قد مررنا، دون أن ننتبه بـ طويّل الكبريت"، وهي إحدى التلال الكبريتية، وتقع على مرمى حجر من وادي طويّل. وكان علينا في ذلك الوقت أن نعبر دلتا "حمضة" فعبرناها دون أن ندرك أنه على بعد ميلين إلى أعلى توجد خرائب معبد "نموذجي" كان بورتون قد زاره ووصفه بإسهاب. (وقد عدت لزيارة هذين المكانين بعد أن راجعت مؤلفي بورتون وأنا في طريق عودتي إلى مكة).

ودلتا حمضة كثيرة القنوات، ويبلغ عرض هذه الدلتا ستة أميال تقريباً، وفيها مواقع يصبح السير عليها صعباً بالنظر لوجود الرمال الناعمة. وفي الدلتا بئر تعرف باسم "بير القرنا" تبعد حوالي نصف ميل عن النقطة التي دخلنا منها. وكانت الطريق بأسرها مغطاة بأدغال من نبات (الطرفا) وغيره من النباتات البرية، بينما كان في أسفل الدلتا سهل واسع تنبت فيه أشجار مختلفة كثيرة.

وتتفرع الطريق الجديدة هاهنا في نهاية هذا السهل إلى فرعين يسيران على التوالي باتجاه جنوبي شرقي مع ميل إلى الجهة الجنوبية وباتجاه الجنوب الشرقي. أما الطريق القديمة فتمتد مسافة خمسة عشر ميلاً بانحدار نحو البحر، ثم تسير على امتداد الشاطئ مسافة ستة أميال قبل أن تنعطف إلى الداخل لتلتقي بالطريق الجديدة. والأخيرة هذه أحسن بكثير من القديمة، ولكنها تصبح صعبة للغاية بعد هطول المطار، وخاصة عندما تطفح الوديان التي تقطعها في عدة نقاط، ويصبح السير فيها أشبه بالمستحيل.

هذا وتلتقي الطريقان في نقطة تقع إلى جوار الضفة اليمنى لقناة مهمة تدعى "مِشاش الكلب" تنبع من فجوة في أعلى المرتفع يطلقون عليها اسم "الروضة". وقد وصلنا إلى هناك.

وكنا عند بلوغنا هذه النقطة قد قطعنا مسافة سبعة وثلاثين ميلاً تقريباً، على الطريق الساحلية، فآثرنا اتباع الطريق المباشرة بعد الآن. ولقد سرنا طوال ساعة ونصف الساعة حتى وصلنا إلى النقطة ذاتها التي ربما كانت تبعد مسافة ثلاثين ميلاً أو أقل من ذلك بقليل.

ويدعوني إلى التقدير حقيقةُ أن جهاز قياس المسافات، وكان متعطلاً، لم يساعدنا بشيء في معرفة المسافة الحقيقية التي قطعناها. ولقد عبرنا أثناء سيرنا عدداً من الوديان منها "سُوَيْلك" و"حيران" وغيرهما، غير أن دليلنا لم يكن متأكداً من أسمائها، ولذا كان لزاماً علي أن أنتظر حتى رحلاتي القادمة لكي أكوّن فكرة أحسن عن طبيعة سهل "تهامة" المعقدة.

ومنذ أن تخطينا "مشاش الكلب" صار بوسعنا أن نلقي نظرات خاطفة على البحر، ولكن في فترات ومراحل متقطعة. لقد كان البحر يبعد عنا مسافة ميلين أو ثلاثة ونحن نعبر "شعب الرافع" الذي يمتد مسافة أربعة أميال، ويشكل رأسه مرسى يصلح للسنابك الصغيرة والسفن الخفيفة الحمولة التي تقلع في البحر الأحمر. ويمتد وادي (شبيرم) حتى ذلك المرسى ليصب فيه.

وبعد ميلين من تلك النقطة وصلنا إلى منطقة صخرية غير عادية، صخورها تشبه الطاولة، تقع إلى جانب الطريق. ويبلغ ارتفاع تلك الصخور حوالي أربعة أقدام، أما كيف تشكلت على هذه الصورة فقد تم ذلك إثر أعمال حديثة قطعت فيها الصخور التي كانت فوقها.

وقد تحسنت الطريق بعد هذه النقطة فراحت سيارتنا تنهب الأرض فوق تربة صلبة ممهدة حتى وصلنا إلى ساحة أشبه ما تكون بموقف للسيارات، كانت عبارة عن لسان طويل من الصخر يدعى (حرة القليب). ويمتد هذا اللسان حتى البحر فوق ارض مرتفعة وجدنا بالقرب منها أفراد البعثة المصرية لمكافحة الجراد. وكان هؤلاء منهمكين في نصب خيامهم هناك.

ويدعى هذا اللسان (روضة الحُليّل) ويتشكل من اتصال مصب وادي (عمْك) ومصب وادي (مرخ). أما الأراضي الصخرية فتقع إلى الغرب من طريق السيارات،

وتشكّل الضفةَ اليمنى من وادي (المزيهرة) الذي دخلنا فيه الآن وبدأنا نصعد باتجاه أقصى نقطة في ضفته القريبة من ساحل البحر. وكانت أشجار الأكاسيا وغيرها من الأشجار النامية في تلك المنطقة من الوادي، مدعاة سرور لأفراد بعثة مكافحة الجراد كل عام ضد هذه الآفة. وهي (الأشجار) أفضل مشهد للربيع شاهدناه أثناء رحلتنا الطويلة.

وتبلغ المسافة من "مشاش الكلب" إلى الضفة اليمنى من الوادي حوالي سبعة عشر ميلاً، في منتصفها بعض التلال الصخرية، أما الطريق الممتدة بمحاذاة الشاطئ، وكانت تغلب فيها المناطق الرملية الناعمة، مما أعاق تقدمنا قليلاً. إذ أرغمتنا هذه الرمال على الانحراف نحو الشاطئ بالقرب من خليج "الدُغم" حيث وجدنا بعض المزارعين وكوخاً أبيض اللون أقامه خفر السواحل على صخرة مرتفعة.

ويمكننا القول بأن الإطار الخارجي لعجلات السيارة ظل إلى مسافة لا باس بها مبتلاً بماء البحر، بينما كانت العجلات الداخلية تسير على الرمال التي يبللها ماء المد. وقد استمر هذا الحال، حتى وصلنا إلى بساتين نخيل الدغم. إلا أننا قبل أن نصل إلى هذه البساتين بعد مسيرة خمسة أميال، واجهنا مرتفعاً كانت فوقه بعض الآثار البدائية، ما يدل على أن البدو يقطنون تلك الناحية.

ومن ثم وصلنا إلى مشارف بساتين النخيل، وهي بساتين شاسعة، يسمونها بساتين "الغبايا". ويُعتقد بأنها كانت موقع المدينة القديمة "لوك كوم": التي كان ميناؤها يقوم في المنطقة المعروفة حالياً باسم "أم لج" على مسافة ثلاثة أميال فقط. وأعتقد أن بورتون هو الذي أطلق الاسم العربي "حورا" على هذه المنطقة، غير أنني، كما هو الحال بالنسبة لخرائب مدين، لم أستطع أن أجد أي دليل على هذا الاسم.

هذا وقد توقفنا قليلاً عند بير "العجيوة" لنستقي الماء بالطريقة ذاتها التي يستقي بها أهالي أم لج. وكانت البئر مبنية بناء جيدا، ولها فتحة تامة الاستدارة تصل المياه العذبة حتى

أعلاها. ويبلغ عمق الماء في البئر ثلاث قامات. ويوجد فوق فتحة البئر بناء من الإسمنت غير مشذب الأطراف.

وبعد أن مررنا بمختلف وحدات سكنٍ تحيط بالواحات، وصلنا أخيراً إلى أم لج حيث أمضيا تلك الليلة في دار الحكومة ضيوفاً على السلطات المسؤولة هناك.

وكان حاكم أم لج شخصاً يدعى "فهد بن عبدالعزيز"، من أهالي قرية "رخومة" في أواسط شبه الجزيرة العربية - مضى عليه وهو في منصبه هذا مدة أربع سنوات. وكنت تعرفت عليه قبل عشرين سنة عندما كان حاكماً لمنطقة "علا". قد أكرم وفادتنا حسب الطريقة المتبعة، إذ دعا جميع الموظفين الذين هم تحت إمرته، كما دعا أعيان المدينة ووجوهها، حتى يتسنى لنا الالتقاء بهم جميعاً أثناء تناول طعام العشاء. وقدم لنا فهد بن عبدالعزيز شقة مريحة - وإن كانت قد بنيت على الطراز القديم - تقع بالقرب من الصخور الواطئة عند البحر، حيث كنا ننام على أصوات هدير الأمواج التي تصطرع تحت شقتنا مباشرة. وقيل بأن المكان قد اكتسب اسمه من هدير الأمواج فاشتق الفعل "لجّ" واللجاج الإتيان بأصوات، ولو أن الكلمة ذاتها - لُجة - تعني الماء العميق.

وبالقرب من شقتنا كانت تقوم بضعة أكواخ صغيرة وعدد من الصخور التي تحطُّ عليها الطيور البحرية. وبين هذه الطيور التي تقارب الألفي زوج عدد كبير من الطيور المهاجرة من مصر و"ضبه". أما عدد سكان المنطقة فلا يزيد على سبعة آلاف نسمة بما في ذلك سكان القرى والواحات والبدو.

وكان قاضي المنطقة فلسطيني الأصل من مدينة نابلس، هاجر أبوه إلى شبه الجزيرة العربية بعيد الحرب العالمية الأولى، وظل مديراً للمدرسة المحلية عدة سنوات. أما مدير المالية فالشخص يدعى "عبدالله الجليداني" من المدينة. وكان لطيفاً جداً لدرجة أنه طاف

معي حول المدينة وزار الميناء. وقد لمستُ المدينة تحسناً طفيفاً بعد أن شقت فيها شوارع جديدة، كما أن الميناء قد طرأ عليه تحسن طفيف وأنشئت فيه عدة بنايات جديدة أيضاً.

وقد أخبرني مدير المالية بأن الطلب على المساكن كثير جداً، حتى أن الواحد من العمال العاديين الذين يعملون في البناء اصبح يتقاضى جنيهاً في اليوم. أما صناعة السفن فقد كانت صناعة اختصت بها المنطقة، ولذا فإن الميناء يبدو دائماً غاصاً بالسنابك. وقد أراني مدير المالية أحد هذه السنابك وهو ما يزال على الشاطئ ولكنه على أتم استعداد للإقلاع في اليم. أما السوق فقد كانت تتمون باحتياجاتها من السويس وجدة، ولذلك فهي غاصة بالبضائع.

هذا ويعتبر فحم الخشب من الصادرات الرئيسية لأسواق السويس، بينما ترسل المحارات والأصداف إلى بور سودان حيث ترسل من هناك إلى إيطاليا على الغالب.

وهناك تحت الوادي وسلسلة الصخور التي تمتد حتى الميناء فتفصل المدينة عن المنطقة الساحلية، يقطن عدد من السكان معظمهم من صيادي الأسماك وهم يعيشون مع عائلاتهم في مجموعة من الأكواخ.

وبالقرب من البحر يقطن عدد من العشائر منها "الصيادلة: - وهي فخذ من قبيلة جهينة — وأم الحوت" وغيرهما. وقد جرى الحديث في يوم من الأيام حول الاستفادة من مخزون "سماد الطيور" في الجزر القريبة من الشاطئ، تلك الجزر التي تعتبر أكبرها جزيرة (حسّاني)، وتبعد مسافة ليست كبيرة عن الشاطئ، ولا يسكنها إلا أسراب كبيرة من الطيور البحرية.

و(أم لج) مثلها مثل (الوجه) فيها عيادة ومحطة للإرسال اللاسلكي، وفيها كذلك حامية من رجال البوليس يقدّر عددهم بثلاثين شرطياً، وحرس خاص للأمير مؤلف من ستة عشر دركياً.

واستأنفنا السير في الصباح الباكر من اليوم التالي. وان أمامنا أن نختار واحدة من طريقين تؤديان إلى (ينبع) يقارب طول كل واحدة منهما التسعين ميلاً، وتسير أولاهما بمحاذاة الشاطئ، بينما تسير الأخرى عبر تلال وأرض وعرة. وقد اخترت الطريق الثانية لاعتقادي بأنها لا بد وأن تكون أكثر إمتاعاً من الأولى، ولكي أتجنّب احتمال كون الأخرى طينية في بعض النقاط نتيجة للأمطار التي هطلت مؤخراً.

ومررنا مسرعين بقرى صيادي الأسماك التي تقع إلى يسارنا، وصلنا إلى مفترق الطريقين بعد مسيرة أقل من ثلاثة أميال عبر دلتا وادي (عُمَير) العريض. وكنا قد مررنا من قبل بأشجار نخيل الدلتا السالف الذكر تاركينها إلى يميننا، بعد أن عبرنا منطقة رمالها ناعمة، قطعنا بعدها مسيل شعب (مُطَّردة) وهو ينحدر عبر شقوق صخرية ضيقة تبعد مسافة خمسة أميال عن (أم لج). وكانت الصخور المحيطة بطريقنا من الجانبين ممتعة فعلاً، ولكنها خيّبت آمالي في إمكانية العثور على نقوش.

وفي الحقيقة أنني لم أجد شيئاً في طول الطرق الممتدة ما بين وادي الأبيض حتى مدْين. وكذلك كان الحال عبر سهل (تهامة). مع أنني كنت آمل أن أجد في هذا الجزء بالذات من شمال شبه الجزيرة العربية نقوشاً ونصوصاً من نوع النقوش السينائية.

ومن حيث أن الطريق الساحلية كانت في جميع الأوقات تلعب دوراً مهماً في تجارة واستراتيجية شبه الجزيرة العربية، فإنه من الصعب تفسير التضاد بين الحجارة الصمّاء في السهل، والصخور الخالية من النقوش في (الحِصمة). ولعل الذين كانوا يسافرون مع قوافل الجمال وجدوا في الصخور الغرانيتية المنتشرة في تلك المنطقة مادة غير صالحة لكتاباتهم. ومن التفسيرات الممكنة، أن المسافرين وجدوا مواد أحدث كتبوا عليها ذكرياتهم، مثل البردي وأوراق الأشجار وهذه ما كانت لتعمّر طويلاً إلى في ظروف استثنائية.

وتبعنا مسيل (مُطّردة) مصعّدين ثلاثة أميال قبل أن نتركها، لنمرّ في أحد روافد (مَنصفة) فنبلغ أعلاه. ومن ثم انحدرنا لنجد ممراً يُعرف باسم طلعة (سُويلم) – نسبة إلى الحاكم الذي أنشأ هذا الممر – وهو حاكم نجدي سابق لمنطقة (أم لج).

وكان هذا الممر هو الصعوبة الوحيدة التي اعترضت سبيلنا طوال الطريق الممتدة حوالي تسعين ميلاً من "أم لج" حتى "ينبع" ومع ذلك فلم تكن عقبة لا يمكن تذليلها. والممر عبارة عن مضيق صخري ضيق يؤدي إلى أرض واسعة تكثر فيها الرمال الناعمة حول صخور صوّانية. وتتفرع الطريق عند هذي الصخور لتؤدي إلى ممر وعر يقع في أعلى شعب "وكلة". وكان "ابن سويلم" قد رصف أرض الممر بالحجارة، غير أن كثيراً منها قد أزيل من مكانه. وكان من جراء ذلك أن امتلأ موضعه بالرمال التي عرقلت سيرنا فترة من الوقت إذ غرزت عجلات السيارة واضطررنا إلى تشغيل أفراد البعثة في رفعها لنواصل السير.

وإذ توجهنا نحو الجنوب الغربي من "وَكلة" دارت بنا الطريق نحو الجنوب الشرقي، فصعدنا باتجاه "واجد" حيث مررنا بأرض فيها رمال عميقة. ولم يكن أمامنا من وسيلة نستطيع أن نتغلب بواسطتها على هذه الرمال غير مقاومتها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. وقد طالت بنا المقاومة، وطال العناء. واستمر ذلك حتى بلغنا "ينبع". وهناك نفضت عن نفسي غبار السفر وعدت إلى جدة.. حيث استقر بي المقام في انتظار رحلت أخرى أكمل بها ما عجزت عن استيفائه في رحلة "طريق مدين" من معلومات.

# شكـر وعرفـان

إنه الثالث من تشرين الثاني سنة ١٩٥٠ والعشرين من شهر ذي الحجة، اليوم الذي عقب عيد ميلاد الملك عبدالعزيز بن سعود السبعيني بالحساب القمري. وكان الملك هذا العام غير ميال إلى معاناة قيظ شهر أيلول في مكة فأناب عنه ولي العهد ليشرف على أمر الحجيج في ذلك العام. وكنت قد مكثت في الرياض منذ عودتي من إنكلترا في نهاية شهر أيار ولم أغادرها سوى أسبوعين قضيتهما في جدة لقضاء مهمة هناك. ولابد للمرء أن يعترف بان حياة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز والروتين المطبق في البلاط السعودي في هذه الفترة لم يكن مثيراً، مع أن العالم كان في وضع متوتر جداً بين الشرق والغرب.

كانت الحرب الكورية في ذروتها... وكان الصينيون قد نجحوا في احتلال التيبت. أما على مقربة من المملكة السعودية فكانت مراجل الشرق الأوسط تغلي وتفور منبئة بالاضطرابات التي ستتلو. كانت فلسطين قد ضاعت بهمة ملوك العرب. وكان جلالته غير مرتاح إلى سياسات المساومة في العراق والأردن. كما كان ينظر إلى الملك فاروق فيراه غير حكيم في إصراره على ضرورة انسحاب القوات البريطانية من منطقة القنال بتلك الشدة. وكان رد الفعل الذي يشعر به صاحب الجلالة تجاه هذه القضايا هو ذلك الشعور الذي يحسّ به إنسان طاعن في السن يرى نفسه عاجزاً عن تحسين أي وضع منها بينا يرى

علامات ذلك العالم المنهك حوله آخذة في الاقتراب من نهايتها. وكان الجو العام لا يبعث على السرور. وبوسعي أن أقول بأنني طفقت اشعر بالملل من الحياة في الرياض على وتيرة واحدة. ولربما بدا ذلك في هذه المناسبة حين سألني جلالته ذات يوم فقال: "ما لك يا قلبي؟ - هل أنت في حاجة إلى المال؟ - إذا كان ذلك فلك ما تشاء.

وأجبته: كلا يا مولاي ليس المال هو ما أبغي، أما إذا سرّك أن تعلم ما بودي القيام به أن تسمح لي بجولة في الربع الخالي لأزور منطقة البريمي وعمان.

وقد أجاب صاحب الجلالة مندهشاً:

- إن لا تستطيع ذلك. إذ سيعتقد البريطانيون أنني أرسلتك لتحرك القبائل المتفرقة في تلك المنطقة كما فعلوا يوم رحلتك إلى حضر موت. هذا الأمر كلا، ولك غيره ما تشاء.

وحينئذ وجدتني أجيبه:

- الأمر لك، ولكنني أرجو أن تسمح لي بأن أجوب المنطقة الشمالية من البلاد فأزور خيبر وتيماء وأرض مدين.

وابتسم صاحب الجلالة قائلاً:

- على التأكيد، ومتى شئت يا قلبي. ابحث الأمر مع يوسف والآخرين ثم أعلمني عن الوقت الذي تبغي أن ترتحل فيه.

وكنت في الواقع مضطراً للإسراع في قضاء بعض المهام التي تتعلق بشريكتي في ذلك الحين. وكانت هذه المهمة تقضي البقاء في جدة طيلة عشرة أيام.

ولم يكن حتى اليوم الثامن عشر من تشرين الثاني، حين باشرت رحلتي صوب مدين. وقد طال الأمر فلم تقع باصرتي على عاصمة الوهابيين بعد ذلك التاريخ حتى الأسبوع الأول من شهر مارس. وقد زودني صاحب الجلالة الملك من كرمه بألف جنيه

تكفي لتغطية نفقات الرحلة، كما تلطف ولي العهد الأمير سعود فأهداني منظاره المكبّرة، عند وداعي له عشية سفري.

عندما ذهبت إلى شبه الجزيرة العربية سنة ١٩١٧، كانت المعلومات المتوفرة للعالم عن الجزء الشمالي من تلك البلاد، لا تكاد تتعدى ميناء العقير على خليج العرب، ومدينتي الرياض والمدينة المنورة، نتيجة لرحلات رواد العصر الفكتوري المشهورين ومن سبقهم في الأجيال الغابرة.

وكانت جميع المعلومات التي توفرت لديهم مسطورة في تلك القصة الشيقة المسماة: "عبر بلاد العرب" التي نشرها الدكتور د. ج. هوجرث سنة ١٩٠٥. وكان الدكتور هوجرث مصيباً كل الإصابة حين أشار إلى المناطق التي تكاد تكون مجهولة في البلاد، إلا ما يُعرف عنها من التجديف والإشاعات. وجميع هذه المناطق تقع إلى الجنوب من الخط المشار إليه آنفاً. وباستثناء أطراف تلك المنطقة المجهولة التي يمكن الوصول إليها من البحر، كانت البقاع الأخرى لا تزال بكراً لم تقع عليها عين إنسان إلا أهلها البائسين. ولهذا كانت هذه المواقع هدفاً ينشده كل رحالةٍ يطمع في كسب قصب السبق في ارتيادها.

ولم تكد تمضي عشرون عاماً، منذ وطأت قدماي أرض شبه جزيرة العرب، حتى غدوت في مركز يسمح لي الادعاء بأنني قد زرتها جميعاً، بل ورسمت عنها خرائط كثيرة، كما وصفتها بكل تفصيل في أربع مجلدات ضخمة.

وفي هذه الأثناء كان الآخرون قد أغراهم الاتجاه ذاته. وكان ر.ي تشيزمان أول أوروبي يزور واحة "جبّرين" على الطرف الشمالي الأقصى من الربع الخالي في سنة ن ١٩٢٣. بينما كان برترام توماس أول من عبر الصحراء الجنوبية سنة ١٩٣١ من الجنوب إلى الشمال. وكان ذلك قبل اجتيازي إياها من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب بعام واحد.

وبالإضافة إلى هؤلاء كان هنالك رجل ألماني يدعى "هانزهلفروس" قد سبقني إلى زيارة "شبْوة"، بينما كان "فان درمولين" و"فون ويسمان" يقومان بأعمال رائعة في محمية عدن. ولا يجوز أن ننسى ما قامت به "فريه ستارك"، و"دورين انغرامز" وزوجها في منطقة حضر موت.

ولربما كان الادعاء بأن اكتشاف المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية قد تم بالطرق القديمة، قبل ظهور السيارات والطائرات التي كشفت عن الغوامض المنفرة فيها، فيه بعض الجاذبية.. أما الآن فكانت جميع المنطقة مألوفة تماماً لدى موظفي شركة أرامكو للبترول، وفرق مكافحة الجراد أيضاً.

وفي شباط ١٩٥٥، وجُهّت إليّ دعوة لقضاء عطلة آخر الأسبوع في قلب الربع الخالي في رفقة بعض أصدقائي من موظفي شركة آرامكو الأمريكية. وكان أبناء هذا الجيل لم يجتازوا الصحراء، كما فعل "ولفرد نيتغورورد" منذ بضع سنوات خلت. ومن المؤسف حقاً أن هذا الرحالة لم يكتب الشيء الكثير عن خبراته وما شهده في هذه الصحاري. ولم يكن وحده مقصراً في ذلك بل يمكن توجيه هذا الانتقاد إلى العديد من المنقبين الأمريكيين الذين أجروا اكتشافات أصيلة في كثير من مناطق شبه الجزيرة العربية، إلا أنهم آثروا الابتعاد عن الأضواء العامة، واعتراف العالم بمساهمتهم الكبيرة نحو المعرفة البشرية. والحق أني كنت ممتناً لهم لأنه تركوا لشيخوختي بعض المناطق التي لم يطرقوها، وخصوصاً في تلك البلاد التي كرستُ معظم حياتي من أجلها.

كل هذا من أجل الجنوب..

ولم أكن بطبيعة الحال قد أهملت الفرص الكثيرة التي عرضت لي خلال ٤٠ عاماً من الاتصال بالصحراء، بل كثيراً ما انتهزتها للارتحال صوب الشمال. حيث كان يسرني غاية السرور أن أقارن خبراتي الشخصية بمثيلاتها، مما وقع لكبار الرحالة السابقين مثل

"تشالرز دوتيه" و"ولفرد" والليدي "آن بلانت" و"شارل هوفر" وريتشارد بورتون" و"كارلو غورماني" وكثير غيرهم.

كنت في الحقيقة قد تجولت في المنطقة الشمالية بنفس الشمول الذي تجولت به في الجنوب. إلا أنه كما كانت منطقة عمان تمثل فجوة كبير في سجل معرفتي الشخصية عن الجنوب، قد كان هنالك مثلها فيما يتعلق بالشمال أيضاً. وباستثناء جولة قصيرة في سنة ١٩٣١، من المدينة إلى "العلا" على طول سكة خط الحديد الحجازي، وبضع زيارات قمت بها إلى مختلف موانئ البحر الأحمر الواقعة إلى الشمال من جدة، فقد كان المنطقة الممتدة ما بين مدين والعقبة وبين سيف البحر وخط بعيد إلى الشرق من سكة حديد الحجاز: كل هذه المنطقة مجهولة لدي تماماً. وهي المنطقة التي سمح لي التجول فيها واكتشافها متعقباً في ذلك آثار دوتيه وبورتون ويوتنغ وهوفر وغوسيل والويس موسيل وغروثرز. هذا إذا شئت ألا أذكر لورنس ورفاقه في الحرب العالمية الأولى، أولئك الذين قاموا بالتنقيب الجغرافي في الفترات الفاصلة ما بين نشاطاتهم التخريبية الكثيرة.

وهكذا تراني أستطيع أن أدعي منصفاً فأزعم أنني قد رأيت من هذه المنطقة أكثر من جميع من سبقوني إليها.

لقد كنت أتمتع بحسنات وسائط النقل الحديثة، بينما كانوا يسافرون على ظهور الجمال، ينتفعون قليلاً بالسكة الحديدية في حال آخر أربعة منهم. وإذا اعتبرنا الرحلة السابقة إلى "العلا" يغدو بوسعي أن أقول: لقد قمت بثلاث رحلات في المنطقة ما بين تشرين الأول ١٩٥٠ ومارس ١٩٥٣. أما المدة التي استغرقتها هذه الرحلات الثلاث فهي قريبة من ستة شهور قضيتها في اكتشاف مضن للسهول والوديان والجبال في أرض أعتق من القدم نفسه، أرض كان عصرها الذهبي يعود في تاريخه إلى أيام إبراهيم وموسى وسليمان. هذا إذا لم نقل أنه يعود إلى أيام منابونيدوس البابلي. وكان هذا الملك قد اتخذ واحة تيماء عاصمة صيفية له. وكذلك إذا لم نشأ أن نعيد التاريخ إلى اللحيانيين والمينيين

وملوك الأنباط الذين حكموا قبائل عاد وثمود على التعاقب، كما سيطروا على الطريق التجارية العظيمة التي كانت تنتقل توابل "العربية السعيد" وعطورها عبر ممراتها، ثم تصب في مراكز الحضارة القديمة.

ولما كان بعض هذه الحملات قد نفذت إلى بعض المناطق المعينة، فقد حاولت أن أقدم صورة مركبة لأرض مدين رسمتها على أساس المعلومات المتوفرة من رحلاتي جميعاً أكثر منها حسب كل رحلة بمردها. وكانت نتائج هذه الرحلات لابد وأن تخرج في كتاب تكون نقطة البداية فيه هي الرياض. وهكذا فعلت.

وقد قمت بهذه الرحلات مع رفاق من البدو كان كل همهم كما يتبدى من سياق القصة، عاملاً ثانوياً. أما في الثلاث رحلات الأخرى فقد كان رفاقي أكثر ذكاء وفطنة. وكان تعاونهم معي في أخذ الصورة العامة عن المنطقة التي زرناها هو ما يجعلني أعترف لهم بكل فضل وامتنان. وأخص منهم ر. ج بوغو من موظفي النقطة الرابعة الأمريكية في جدة، وهو عالم جيولوجي ذو خبرة واسعة وشهرة عريضة. وكان بوغو أمريكياً صلباً ولكن قلبه من أرق القلوب.. كان حسن العشرة ولكنه مشاكساً عنيد أحياناً. وقد تعلمت من هذا الرجل أشياء كثيرة أراني عاجزاً عن إيفائها حقها.

ولربما كان المستر بوغو مديناً لي أيضاً وبشيء لا أظنه قليل الأهمية.. إنه حياته. وكان لذلك قصة في موضع آخر.

أما في الرحلتين الأخيرتين فقد رافقني علماء مصريون لطاف الطباع، كان منهم إبراهيم الكردي الموظف في شركة ماركوني للإشراف على إقامة المحطات اللاسلكية في مكة والمدينة، ومصطفى صادق، وهو جيولوجي ذي خبرة كبيرة بشؤون المناجم ومناطق التعدين في بلاده.

وكان تقرير هذا الرجل بخصوص إمانية العثور على الكبريت وخامات الحديد في مدين، قد مهد أمامنا الطريق للقيام بالرحلة الأخيرة مع بوغو.

إلى هؤلاء الرجال الثلاثة، وإلى جميع حكام الولايات والأقضية التي زرتها في هذه الرحلات، أولئك الرجال الذين كان عطفهم عليّ وتعاونهم معي أعظم من أن أستطيع امتداحه، لهم يعود الفضل الكبير في الكمية الضخمة من المعلومات التي اسردها هنا في هذا الكتاب.

أما الآلام والمشقات التي عانيتها طوال رحلاتي في الصحراء العربية ، فإني أرى ذكرها وافيا. وذلك بغية إطلاع القارئ على الحقيقة، وإن كنت أشعر بأنني قد تقبلتها بصدر رحب وتناسيتها دون حقد. وخصوصاً عندما أنظر إلى ذلك الاعتزاز المشروع الذي أشعر به حينما أتذكر قيامي بهذه المهمات والنتائج القيمة التي نلتها.إنه ليؤسفني أن أكون عاجزاً عن تصميم خريطة وافية وقت صدور هذا المجلد، ولكنني آمل أن تكون الخريطة الأولية التي رسمتها في نهايته ذات فائدة ما لأولئك الرحالة الذين ستظل تجتذبهم الصحراء على مدى العصور. ولن يقع هذا حسبما يرويه قول مأثور عن الرسول إلا : "حينما تغدو الصحراء العربية ارض المروج والأنهار".

والسلام...